

الفقه والحديث

بِقِطْمَةٍ

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

ووزير معارف دولة دمشق سابقاً

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م

يطلب من المكتبة التجارسة الكبرى بأول تشارع مجد علي بمصر
اصاحبت مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها محمد موسى شريف

بسم الله وبه الثقة

دعوت منذ بدأت بالاشتغال في الصحافة العربية سنة ١٣١٥ هـ إلى نبث دفائن المدنية العربية ، وبث خزائن الحضارة الغربية ، وأبرزت هذه الدعوة فيما نشرته في جميع الصحف والمجلات التي أنشأتها وآزرتها في مصر والشام من موضوعات في العلم والاجتماع ، والتاريخ والأدب ، والنقد والتربية . وهأنذا أهدى لقراء العربية نموذجات مما كتبت عسى أن يكون منها لهم في عصر القوميات عبرة وذكرى ، ولبنينهم وبناتهم في تأليف وحدثنا الاجتماعية درس وسلوى . ففاتيح كنوز الأجداد التي انتقلت إلى الذئب بالارث الصحيح لا غنية لهم عن معالجتها بالفتح لاستمالة مافياها والاستظهار بمعنوياتها ثم بمادياتها لأن هذا الحاضر الذي يحاول بعضهم ، الاقتصار عليه هو ريبب ذلك الغابر ووليده ، بل سليله وحفيده وطريده ، والجود على القديم هو العقم بعينه ، وقطع الصلة على مع المدنية الحديثة ، مضررة ومعرفة . ولا خير فيمن جهلت أصوله . ولم يتخلق بأخلاق جيله وقبيله والله الموفق سبحانه

محمد كرد علي

٦١ جادى الاول ١٣٤٣
٢١ كانون الاول ١٩٢٤

دمشق

القديم والحديث (١)

لم يأت على هذه الأمة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، وانهمزم القديم بصعف القائلين به وقوة انصار الحديث . عنينا بذلك أرباب التقليد ممن يرون السعادة في الاكتفاء بما تعلموه من آباءهم ، وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ، ويمدون ما عداها ضرراً يجب البعد عنه ومحاربتة بكل وسيلة ، كما عنينا أرباب التجديد الذين يزعمون أن الاكتفاء بعلوم أهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شأننا .

نشأت للأمة ناشئة بعد ان كثراحتكا كنا بأوربا في أواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور التعقل ، وذلك نكاية بما رأته من دعاة ذاك القديم ، وأكثرتهم مثال الجمود والبلاهة ، ونمذج الفساد وسوء التربية ، فقامت تزهديهم وفيما يدعون اليه ، تحمل عليهم حملاتها ، وتتجاهل عليهم بتمحلاتها ، وكذلك كان شأن انصار القديم مع دعاة الحديث ، يرمونهم بكل كبيرة ، ويسلبونهم كل فضيلة ، ويطعنون بعلومهم إلا قليلا ، ويمدون النافع منها مما لا يضر ولا ينفع

لا خلاف في أن ملكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الاسلامية لضعف حكوماتها ، والعامل الرئيسي في كل البلاد هو السياسة ، اذا ضعفت يتبعها كل شئ ، فجهل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو الذي رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين ، فصار العلم الديني يتعلمه المرء لا لينال السعادتين ، ويكون عضواً مهماً في جسم المدينة الفاضلة ، بل ليخدم به اغراض أمراء السوء ، ويستولي على عقول العامة ، وتقبل يدها ويكرم بالباطل ، وهذا ما حدا حجة الاسلام الغزالي واضرا به في عصره وبعده أن ينحوا على فقهاء السوء إنحاءهم على امراء السوء لأنهم يتعلمون علوم الفقة والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ، ويجعلوا من الدين سلاحاً يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم وأهوائهم . ولقد فضل الغزالي

في الاحياء وتهافت الفلاسفة من يتعلمون الطب على الفقهاء وقال : ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافي الدين يجنى على الدين .

شغلت الأمة زمنناً بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التاتار من العوامل المنهكة لقواها ، ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه ، الى أن جاءت الدولة العثمانية وهي تاتارية لا تقيم للمدنية ورتناً ، ولا تعرف لعلوم العمران لفظاً ولا معنى ، قوتها بجندها ، وعلمها في إرهاب حدها ، وعظمتها ببطشها ، ومجدها باكتساح البلاد ، واخضاع النفوس لسطوتها ، فحاول محمد الفاتح أحد ملوكها أن يجعل من القسطنطينية دار علم ، كما هي دار ملك ، مجارة لدولة الجراكسة في مصر والشام ، وأعظم لذلك الأقطاب والهبات ، وانشأ المدارس وحبس الأوقاف ، ولكن ذلك لم يدم إلا بدوامه . حتى اذا مضى لسبيله عادت الحكومة الى زهداها في العلوم ، وقد صارت رسمية على عهد المفتي أنى السعود الذى سعى لجعل العلم وراثياً ، وصار ابن العالم يرث أباه ووظائفه ورواتبه ، وان كان أجهل من قاضى جبل . وعالم هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا ، والبلاء العم على البلاد .

ومع أن الفرس والترک سواء في المعجمة ، فالفرس أقدر من الترك على تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ، ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم بيانها . وما تراه من حال علماء فارس اليوم واتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية ، وانحطاط العربية في بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها ، لا يرجع إلا الى أن ميل أبناء فارس الى إحكام العربية قديم فيهم ، وان الترك بأمرائهم المتبريرين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى

ولما أرادت الدولة أن تنهض وتنشبه بأوروبا وأخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغى لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع أخذت روح التفلسف تسرى الى الاستانة ومنها سرت الى الولايات ومصر ، فلم يعبأ انصار القديم بما رأوه أولاً ، واحتقروا ذلك السيل الجارف الآتى عليهم من أوروبا ، وارتأى بعضهم ان خير ما يقابل به المتزندقون ان يكفروا أو يجرموا

أو يضربوا ، أو يجبسوا أو يهددوا بالقتل أو يقتلوا ، ولم يعدوا لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم ، وحفظ ملكة الدين في القلوب ، لتسير مع علوم الدنيا كمنفاً الى كتف ، وجاءت أدوار أصح الوزراء وولاية الأمر إلا قليلا من الطائفة التي نزعت ربة القديم ، فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين في انحلالهم يدعون سراً وجهراً الى عدم التأدب بأداب الدين ، محتجين بما هو مائل للعيان من فساد القائم عليه ، وانحطاط المنتسبين اليه

وها قد اصبحتنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والأمة شطرين شطر هو الى البلاهة والغباوة ، وشطر الى الحمق والنفرة ، وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب أن معظم المستميرين بقبس العلوم الأوربية منا لا يرجعون الى آداب دينهم . ويعيلون في الظاهر والباطن الى أن يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسة والجنسية ، واذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الأديان صعدوا اليك خدودهم وقالوا لك إن الأمة تعيش بحديثها دون قديمها ، وان ذاك القديم ان لم يضرنا إلا خذ به فهو لا ينفعنا . والعاقل لا يقبل الا على ما ينفعه ويعلى قدره

تلك هي شنشنة أنصار الحديث أو الملاحدة والزنادقة الطبيعيين كما يطلق عليهم المتدينون ، وهذه حالة هؤلاء مع أولئك ، وستكون الغلبة لأنصار الحديث اذا لم يقم خصومهم بلم شعهم على صورة معقولة مقبولة ، وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط بينهما فلم ير طرح القديم كله ، ولا الأخذ بالحديث بجملته ، بل آثر أن يأخذ النافع من كل شئ ويضم شتاته ، وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخريين مقاومة فعلية ، وعامتهما غير راضين عنهم بالطبع ، لأن أكثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب الينا أحد علماء المشرقيات في برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمناً ، وانقطعوا للدرس أحواله الاجتماعية وعلومه الأثرية ، كتاباً بالعربية يصف فيه المقتبس وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذلك السبات الطويل قال فيه : —

أما الرسائل التي هي لها (المجلة) فرأيها تدور أبداً على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الأفرنجية الحديثة فيها وحياء الآداب العربية ، وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم . إذ لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ، ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده ، بل الخير كل الخير في الأخذ من هنا وهناك ، وتعميم الدرس والبحث مع اضرام تلك الشعلة العظيمة التي هي دات نور ، وذات حرارة . وذات إنبات . واعنى بها المبدأ الشعبي . ولما أن سميته الشعوبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة

اجتهد الاسلام والمصرانية أن ينشأ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله الا أنها فشلا . ولقد تنبأ بعض المساميين بأن الجامعة الاسلامية التي ستكون في أواخر هذه السنة لن تأتي بما يرجوه أكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستقوى الاحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني . أما أنا فاقول إن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المنمية على وحدة التربية والاخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه ، لأن هذا الاجتماع من شأنه أن يدعو الي نمو عامة التقوى فيزيد من له ميل الى الحياة الدينية اعتقاداً وعملاً ، كما يزيد من له ميل الى غير الدين قوة فيما اختاره وعلى هذا فن مصلحة كل دين أن يكون نصف منتحليه مجتهدين مخلصين ، أكثر من أن يكون الجميع فاترين غير مكثرين شيء اه

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ أشهر نشرناه ليطلع عليه أنصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القديم أن لا قيام لأمرنا بغير الاخذ من مدنية أوربا ، ويدرك أنصار الحديث بأن هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم وتنفع بني قومهم الا اذا رافقها ما يجملها من علوم الاسلاف وآدابهم ، والامة التي تنزع ربة قديمها جملة واحدة وتنتقل الى طور آخر دفعة ، قد ينعكس عليها الامر ويلتوى عليها القصد ، ولم تنجح اليابان الا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها باجزاء مدنيها وهذا سر قول العالم

المشار اليه « لافائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التناغى فقط بالآثار الشعبية » أى ماورثناه عن أجدادنا من التشبث باهداب الوطنية ، وذكر القديم والحرص عليه

ولنا فى الغرب دولتان كبيرتان هما مثال فى اقتباس الجديد والحرص على القديم . فقد شهدنا المانيا الى اليوم تجرى فى مدارسها وكلياتها على آداب النصرانية المنقحة فلا تسند التدريس فيها الا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة أن يفسد عليها تربية أبنائها فتكون مدنية دينية أما فرنسا فماهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له فى السنين الاخيرة حتى نزعنا لفظ الجلالة من المعاهد العامة وأخذت تضيق الخناق على أهل التدين من حملة العلم والاقلام حتى صار المتدين سراً يتجاهر بالانحلال جهراً ليأمن على معاشه وررقة وسموا هذا حرية ولكن الله يحصى على الأمم دنوبها كما لا يغفل عن الافراد . وها قد أخذت المدنية الافرنسية التى بهرت العيون فى الزمن الماصى ترجع القهقري و علماء الاخلاق فيها يبكون دماً على انتمات شملهم وتراجع عمرانهم ، حتى روى بعض الاحصائيين ان عدد الفرنسيين سينزل فى أواخر القرن العشرين الى ثلاثة ملايين لأن المواليد أخذت تنقص عن الوفيات . أما فى المانيا فبفصل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تنزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خلق الالمانى أن يترك من القديم كل ما لا ينفع منه أما الفرنسيون فيجرف منه النافع مع الصار ، وشتان بين الخلقين والمدينتين وهاهى النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير فى احتفاظها بقديها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد على أن تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بأمن من طعن الطاعنين بها كما تجرى المدنية على الشوط الذى يراه واذا رأى بعضهم فى بعض المعتقدات مالا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو رأى كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا

بالتسليم ، وتركوا العالم حراً يسير وحده دون أن يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل
الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله أعلم

الشعوبية^(١)

يقوى تفاخر كل عنصر لعنصرهم ، وأهل كل جنس بجنسهم كلما كانوا أقرب
الى الالهةجية والعصبية الجاهلية . جاء الاسلام فكان من أعظم اصلاحه اسقاط
دعوى الجنسيات أو القضاء على التفاخر بالآباء والاحداد فساوى بين العربي
والفارسي والاحمر والاصفر والابيض والاسود وكانت قاعدته العامة أن لا فضل
لعربي على عجمي الا بالتقوى

والظاهر أن دعوى الشعوبية أى عدم الاستعداد بالعرب وتفضيل العجم
عليهم دخا بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط فى خدمة الدولة
الاسلامية فنشأت منها العداوات بين العرب أهل الدولة وبين العجم كما كانت تنشأ
فى هذه البلاد بين تركى وعربى كلما اشتد الاول فى ارهاق الثانى

سألنا اسنادنا الشيخ طاهر الجزائرى عن الشعوبية فكتب اليما ما يأتى « اما
الزمى الذى ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرنى فيه شىء . والوقوف على أوائل
الاشياء من أصعب المسائل وأدقها . الا ان الذى ظهر لى أن ذلك حدث بعيد عصر
العلماء الراشدين لوجود الداعى الى ذلك وهو التفاخر بالجس الذى هو من عادات
الجاهلية الى آتى الدين باباطها . ومن نظر لمترة سامان الفارسي وصهيب الرومى
وبلال الحبشى فى أوائل الأمة رال عنه الشك فى هذه المسألة ، ولا يدحل فى هذا
الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاحناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق ،
فان هذا نوع آخر الا أن من بحث عن أحوال الامم ووفى النظر حقه تبين له أن
العرب فى الجملة لا تساميهم أمة البتة

« وأظن أن لا بد ان تؤلف بعد حين كتب فى خصائص الأمم وكتب فى
خصائص البلاد ، كما ألفت كتب فى خصائص اللغات ، وتجعل من الفنون التى يعنى

بها وتميز من غيرها ولا تذكر لطريق العرض ، إلا ان فن خصائص الأمم تيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره وكل فن وضعت مقدماته ونقحت مسأله ويبدأ بسرعة عوار المغالط فيه . هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية ، وهما الفريقان اللدان يجمعهما اسم العرب ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالخبار ولم يزل أثر ذلك باقياً في بعض الجهات الى ما قبل عصرنا وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون الى الآن نحن قبسية وآخريين يقولون نحن يمانية .

هذا مقاله أستاذنا وفيه من كشف الغامض ما لم نظفر به في كتاب . والشعوبي بالصم محقر أمر العرب قال ابن منظور وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبي أضافوا الى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصاري وهم الشعوبية وهم فرقة لا تفضل العرب على العجم ولا ترى لهم فضلاً على غيرهم وأما الذي في حديث مسروق ان رحلا من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فامر عمر أن لا تؤخذ منه قال ابن الاثير الشعوب ههنا العجم ووجهه أن الشعب ما تشعب من قبائل العرب أو العجم فخص بأحدها ويجوز أن يكون جمع الشعوبي كقولهم اليهود والمجوس في جمع اليهودي والمجوسي قال شارح المفصل في شرح قول الرمضري « الله احمد على أن جعلني من علماء العربية وجبلي على الغضب للعرب وللعصبية وأبي لي أن أتفرد عن صميم أنصارهم وامتاز وانصوي الى لفيف الشعوبية وانجاز » والشعوبية مصدر الشعوبي بضم الشين وهو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم على العجم فضلاً اذ الفضل بالتقوى وهو منسوب الى قوله تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله أتقاكم) . وقال ابن الحاجب في شرح المفصل أيضاً والشعوبية بضم الشين قوم متعصبون على العرب مفضلون عليهم العجم وان كان الشعوب جيل العجم إلا أنه غلبت النسبة اليه لهذا القبيل ويقال أن منهم معمر بن المثنى وله كتاب في مثالب العرب وقد انشد بعض الشعوبية للصاحب بن عباد يمدحه

غنينا بالطبول عن الطلول وعن عنس عذافرة ذمول

فلست بتارك ايوان كسرى لتوضح أو لحومل فالدخول

وضب بالفلا ساع وذئب بها يعوى وليث وسط غيل
إذا نحروا فذلك يوم عيد وان ذبحوا ففي عرس جليل
يسلون السيوف لرأس ضب هراشاً بالغداة وبالاصيل
بأية رتبة قدمتموها على ذى الاصل والشرف الأصيل
أما لو لم يكن للفرس الا نجار الصاحب العدل الجليل
لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيل
فقال له الصاحب قدك ثم قال لبيدع الزمان أجبه فاجابه مرتجلاً .

أراك على شفا خطر مهول بما أودعت رأسك من فضول
طلبت على مكارمنا دليلاً متى احتاج النهار الى دليل
ألسنا الضارين حرى عليكم فان الجزى افعد بالدليل
متى قرع المنابر فارسى متى عرف الأغر من الحجول
متى علقت وأنت بها زعيم اكف الفرس أهرف الخيول
نحرت بملء ما ضغتيك فخراً على قحطان والبيت الاصيل
فخرت بان ما كولا ولبساً وذلك فيخر ربات الحجول
بماخرهن في خد أسيل وضرع من مفارقة وسيل

فقال الصاحب للشعوبي . كيف ترى فقال لو سمعت ما صدقت ثم قال له .

جائزتك جوازك ان وحدتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك

وقد النعمان بن المنذر على كسرى فوحد عنده وفود الروم والهند والصين
فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الامم
لايستثنى فارساً ولا غيرهم فقال كسرى وأخذته عزة الملك . يا نعمان لقد فكرت
في أمر العرب وغيرهم من الامم فرأيت الروم كذا ووصف من حالهم وجعل
يثنى عليهم ورأيت الهند التي لها كذا وكذا ثم قال مثل ذلك في الترك والخزر
والصين متى ذكر قبيلة أثنى عليها ووصف ما يفتخرون به ثم قال . ولم أر للعرب
شيئاً من خصال الخير وجعل يصف شأنهم وهو يحقرهم ويصغرهم فقال النعمان .
أصلح الله الملك وجعل يثنى عليه ثم قال ألا ان عندي جواباً في كل ما نطق به
الملك في غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فان آمنى من غضبه نطقت به قال كسرى

فانت آمن فقال النعمان . أما أمتك أيها الملك فلدست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به في عقولها وأحلامها وبسطة محلها . وبجبوحه عزها . وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك ، وأما الامم التي ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب الا فضلها قال كسرى : بماذا قال النعمان بعزها وممعتها ، وحسن وجوهها . ودينها وبأسها وسخائها ، وحكمة ألسنها ، وشدة عقولها وأبصارها ووفائها ، فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك الدين دوحوا البلاد ، ووطدوا الملك وقادوا الجنود ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم . مهادهم الارض وسقفهم السماء . وجنتهم السيوف . وعدتهم الصبر . اذ غيرها من الامم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور

وأما حسن وجوهها وألوانها . فقد تعرف فصلهم في ذلك على غيرهم من الهند المتحرقة . والصين المحتتمة ، والترك المشوهة . والروم المقشوة . وأما احسابها وأسبابها ، فليست أمة من الامم الا وقد حثت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها وآخرها ، حتى ان أحدهم يسأل عما وراء أبيه ديباً فلا يدسه ولا يعرفه وليس أحد من العرب الا يسمى آباءه ابا انا حفظوا بذلك احسابهم . وصبطوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير فومه . ولا يفتسب الى غير نسبه . ولا يدعى الى غير أبيه وأما سخاؤها فان أدناهم رجلا الذي يكون عنده البكرة أو الباب عليها بلاغه في حمولته وشعبه وريه فيطرقة الطارق الذي يكتفى بالفلذة ويحترى بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج له من ديباه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الثناء

وأما حكمة السنن فان الله اعطاهم في أشعارهم ورواق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة وضرب الأمثال وابلغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الاجناس ثم خيلهم أفضل الخيول ونساؤهم اعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة والحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التي لا يبعد عن مثلها سفر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر

وأما دينها وشريعتها فانهم متمسكون بها حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه ان لهم اشهرأ حرماً وبلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم وينبحون

ذبايحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثاره وإدراك دمه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى وأما وفاؤها فان أحدهم يلحظ اللحظة ويومي الايمان فهي الب وعقد لا يحلها الا خروج نفسه وان أحدهم ليرفع عدداً من الأرض فيكون رهناً بديه فلا يفلق رهنه ولا تخفر ذمته وان أحدهم ليبلغه ان رحلا استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التي اصابته أو تفنى قبيلته لما خفر من جواره وانه ليلجأ اليهم المجرم المحروب من غير معرفة ولا قرابة . فسكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله ، وأما قولك أيها الملك انهم يثدون أولادهم من الحاجة فانما يفعله من يفعله منهم بالأثبات أنفة من العار ، وغيره من الأرواح ، وأما تحاربهم . وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الاتقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فاعلم يفعل ذلك من يفعله من الأمم اذا آنت من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف وانه انما يكون في المملكة المظيمة أهل بيت واحد يعرف فضاهم على سائرهم فيلقون اليهم أمورهم وينقادون اليهم بأزمتهيم

وأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين ، مع أنفهم من أداء الخراج والوظء والعسف فمحب كسرى مما أجاهه النعمان به وقال : انك لأهل لموضعك من الرياسة و اقايمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من نقيبص العرب وتهجين أمرهم بعث الى اكنم بن صيفي وحاجب بن زرارة وجماعة من رؤوس العرب سماهم فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم : قد عرفتم حال هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منهم وقد سمعت من كسرى مقالة تخوف أن يكون لها غدر . واقتص عليهم مقالة كسرى وما رد عليه فقالوا : وفقك الله أيها الملك ما أحسن ما رددت عليه وابلغ ما حججته به فرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت قال النعمان انما أنا رجل منكم وانما ملكت وعزرت بمكانكم وبما يتخوف من ناحيتكم وليس شيء أحب الى مما سدد الله به أمركم ، واصلح به شأنكم والرأي ان تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا بكتابي هذا الى باب كسرى ، فاذا دخلتم عليه نطق كل واحد منكم بما حضره ، ليعلم أن

العرب على غير ما ظن أو حدثته به نفسه . ووصاهم بوصايا فذهب به اليه وقد ساق
القصة صاحب العقد وأوردها البلوى في كتاب الف با

*
*

ومن حجة الشعوبية على العرب ان قالت اننا ذهبنا الى العدل والتسوية وان
الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبي عليه
الصلاة والسلام : المؤمنون اخوة تتكافأ دماءهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم
يد على من سواهم . وقوله في حجة الوداع وهي خطبته التي ودع فيها أمته وختم بها
نبوته : أيها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء . كلكم لآدم
وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فصل الا بالقوى . وهذا القول من
النبي عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)
فأبتم الا حراً . وقتلتم لا تساويننا وان تقدمتمنا الى الاسلام ، ثم صليت حتى تصير
كالخني وصمت حتى تصير كأوتار ، ونحن لساحمكم ونجيبكم الى الفخر بالآباء الذي
نهاكم عنه نبيكم صلى الله عليه وسلم إذ أبتم الا خلافة ، وانما نجيبكم الى ذلك
لا اتباع حديثه وما أمر به صلى الله عليه وسلم فردد عليكم حججتكم في المباحرة ونقول:
أخبرونا ان قالت لكم العجم هل تمدون الفخر كله ان يكون ملكاً أو نبوة فان
زعمتم أنه ملك قالت لكم : وان لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والتماردة
والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك
سليمان الذي سخرت له الألس والجى والطير والريح وإما هو رجل منا أم هل
كان لأحد مثل ملك الاسكندر الذي ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس
ومغربها . وبني ردماً من حديد ساوى به بين الصدفين وسجن وراءه خلقاً من
الناس تربى على خاق الأرض كلها كثرة لقول الله عز وجل (حتى اذا فتحت
يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) فليس شئ أدل على كثرة عددهم
من هذا ، أو ليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره في الأرض ولو لم يكن له الا
منارة الاسكندرية التي أسسها في قعر البحر ، وجعل في رأسها مرآة يظهر البحر
كله في زجاجتها وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم الى عمر بن عبد العزيز

من ملك الاملاك الذى هو ابن الف ملك والذى تحته بنت الف ملك والذى
فى مربطة الف فيل والذى له نهران ينبتان العود والثوة والجوز والكافور والذى
يوجد ريجه على اثني عشر ميلا الى ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئاً أما بعد
فانى أردت أن تبعث الى رجال يعامنى الاسلام ويوقمنى على حدوده والسلام .
وان زعمتم أنه لا يكون الفخر الا بنبوة فان منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من
لدى آدم ما خلا أربعة هوذا وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون من العالمين
آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما النسر فمجن الأصل وأتم الفرع
واما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا

ولم نزل للأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الارض ملوك تجمعها ومدائن
نصمها ، وأحكام تدين بها . وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات
مثل صنعة الديباج وهى أبداع صنعة ، واعب الشطرنج وهى أشرف لعبة . ورمانة
القمان التى بوزنها رطل واحد ومائة رطل . ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق
والقانون والاسطرلاب الذى يعدل به النجوم ، ودوران الافلاك وعلم الكسوف ،
لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها . ويصم قواصمها ، ويقمع ظالمها ، ويهوى
سفيها ، ولا كان لها فط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة الا ما كان من
الشعر وقد شاركتها فيه العجم . وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة فائمة الوزن والعروض
وما الذى نفخر به العرب على العجم ، فانما هى كالثياب العادية ، والوحوش النافرة ،
يأكل بعضها بعضاً ، وانقر بعضها على بعض . ورجالها موثوقون فى حلق الاسر ،
ونسائوها سبايا مردعات على حقائب الابل ، فاذا أدركهن الصريح استنقذن بالعشى ،
قال بجير يعير العرب باختلافها فى النسب واسنلحافها للأدعياء .

رعمتم بان الهند أولاد حمدف	وبينكم قريبي وبين البرابر
وديلم من نسل بن صبة ناسل	وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
فقد صار كل الناس أولاد واحد	وصاروا سواء فى أصول العناصر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم	وأولى بقربانا ملوك الأكاسر
أطعم فى صهري دعياً مجاهراً	ولم تر سترأ عن دعى مجاهر
وتشتم لؤماً رهطه وقبيله	وعدح جهلاً طاهراً وابن طاهر

وقال الحسن بن هانىء على مذهب الشعوبية :
وجاورت قوماً ليس بينى وبينهم أواصر إلا دعوة وبطون
إذا ما دعى باسمى العريف أجبته الى دعوة مما على يهون
لازد عمان بن الملهب نزوة اذا افتخر الاقوام ثم تلين
وبكريرى أن النبوة أنزلت على مسمع فى البطن وهو جنين
وقالت تميم لا ترى أن واحداً كأحنفنا حتى المات يكون
فلامت قيساً بعدها فى قتيبة اذا افتخروا إن الحديث شحون

* *

قال ابن قتيبة فى كتاب تفصيل العرب . وأما أهل التسوية فإن منهم قوماً
أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه فذهبوا
الى قوله عز وجل (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله (إنما المؤمنون إخوة
فأصلحوا بين أخويكم) والى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة
الوداع أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس
لعربى على عجمى نحر الا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقوله المؤمنون
تتكافأدماؤهم ويسعى بدمتهم أذنهم وهم يد على من سواهم وإنما المعنى فى هذا
ان الناس كلهم من المؤمنين سواء فى طريق الاحكام والمنزلة عند الله عز وجل
والدار الآخرة لو كان الناس كلهم سواء فى أمور الدنيا ليس لأحد فضل الا بامر
الآخرة لم يكن فى الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول فما معنى
قوله صلى الله عليه وسلم اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله صلى الله عليه وسلم
أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم وقوله صلى الله عليه وسلم فى قيس بن عاصم هذا
سيد الوبر . وكانت العرب تقول لا يزال الناس بخير ما تباينوا فادأساووا هلكوا
نقول لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف واخيار فاذا حملوا كلهم جملة واحدة
هلكوا أو اذا ذمت العرب قوماً قالوا : سواسية كأسنان الحمار . وكيف يستوى
الناس فى فضائلهم والرجل الواحد لا تستوى فى نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله
ولكن لبعضها الفضل على بعض وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس

الخمس ، وقالوا القلب أمير الجسد ومن الاعضاء خادم ومنها مخدومة
قال ومن أعظم ما ادعت الشعوبية نحرهم على العرب آدم عليه السلام ويقول
النبي عليه الصلاة والسلام الا تفضلوني عليه فانما أنا حسنة من حسناته ثم نحرهم
بالانبياء أجمعين وانهم من العجم غير أربعة هود وصالح واسماعيل ومحمد عليهم
الصلاة والسلام واحتجوا بقول الله عز وجل (ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل
ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) ثم نحروا
باسحق بن ابراهيم وانه لسارة وأن اسماعيل لأمة تسمى هاجر قال شاعرهم

في بلدة لم يصل عكن بها طنباً ولا خباء ولا عك وحمدان
ولا لجرم ولا نهديها وطن لكنها بنى الاحرار أوطان
أرض تبني بها كسرى مساكنه فما بها من بنى اللخناء انسان

فبنوا الاحرار عندهم العجم وسوا اللخناء عندهم العرب لانهم من ولد
هاجر وهي أمة وقد غلطوا في هذا التأويل وليس كل أمة يقال لها اللخناء من
الاماء الممتحنة في رعي الابل وسقيها وجمع الحطب وانما أخذ من اللخن وهو نين
الريح يقال لخن الشقاء اذا نعيم ريحه فاما مثل هاجر التي طهرها الله كل داس
وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين اسماعيل ومحمد أمماً وجعلها سلالة فهل يجوز
لملحد فصلاً عن مسلم أن يسميها اللخناء

قال بعض من يرى رأى الشعوبية فيما يرد به على بن قتيبة في تباين الناس
وتفاضلهم والسيد منهم والمسود اننا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا
السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ولكننا نزع أن تفاضل الناس فيما بينهم
ليس بآبائهم ولا باحسابهم ولكنه بافعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد
همسهم ألا ترى انه من كان دنياً الهمة ساقط المروءة لم يشرف وان كان من بنى
هاشم في ذؤابتها ومن أمية في أورمتها ومن قيس في أشرف بطن منها انما الكريم
من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته وهو معنى حديث النبي صلى الله
عليه وسلم إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله في قيس بن عاصم هذا سيد أهل
الوير انما قال فيه لسؤدده في قومه بالذب عن حريمهم وبذله رفته لهم الا ترى ان
عامر بن الطفيل كان في أشرف بطن في قيس يقول .

وإني وان كنت بن سيد عامر وفارسها المشهور في كل مركب
فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله أن أسمو بأمر ولا أب
ولكنني أحى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنك
وقال آخر .

إنا وان كرمت أوائلنا لسنا على الاحساب نتكل
نبي كما كانت أوائلنا تبني ونعمل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة ، لاقصين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا
يردها أحد بعدى أيما رجل رمى رجلا علامة دونها كرم فلا لوم عليه ، وأيما
رجل ادعى كرمًا دونه لؤم فلا كرم له ، ومثله قول عائشة أم المؤمنين كل كرم
دونه لؤم فاللؤم أولى به وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به ، تعنى بقولها أن أولى
الاشياء بالالسان طبائع نفسه وخصالها فاذا كرمت فلا بصره لؤم أوليته . وان
لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته وقال الشاعر

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والاقداما * وجعلته ملكا هماما
وقال آخر . مالى عقلى وهمتى حسبى ما أنا مولى ولا أنا عربى
ان انتمى منتم الى أحد فانى منتم الى أدبى

روى بن العيينة الهاشمى عن الفخذى عن شبيب بن شبة قال ، كنا وقوفا
بالمربد موضع بالبصرة وكان المربد مألّف الاشراف اذ أقبل بن المقفع فبششنا به
وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ثم قال لومتم الى دار بيروز ، وطلها الظليل ،
وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تهيد الارض ، وأرحتم
دوابكم من جهد الثقل ، فان الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من
شئ تنالوه ، فقبلنا وملنا ولما استقر بنا المكان قال لنا : أى الامم أعقل فنظر
بعضنا الى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا . فارس فقال . ليسوا
بذلك انهم ملكوا كثيرا من الارض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على
كثير من الحق ، ولبت فيهم عقد الامر ، فما استنبطوا شيئا بعقولهم ، ولا
ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم قلنا فالروم قال . أصحاب صنعة قلنا . فالصين قال
أصحاب طرفة قلنا الهند قال . أصحاب فلسفة قلنا السودان قال . شر خلق الله قلنا

الخزر قال . بقدر سائمة قلنا . فقل قال العرب قال . فضحكنا قال . أما انى ما أردت موافقتكم ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من اعرافة ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت ، أصحاب ابل وغنم ، وسكان شعر وأدم . يجوز أحدهم بقوته . ويتفضل بمجهوده ، وبشارك في ميسوره ومعسوره . ويصف الشئ بعقله فيكون قدوة . ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن . وبقبح ما شاء فيقبح . أدبتهم أنفسهم . ورفعتم همهم وأعاتهم قلوبهم والستهم . فلم يزل حياء الله فيهم . وحياءؤهم في أنفسهم . حتى رفع لهم الحجر . وبلغ بهم أشرف الذكر . وحم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وحلافته بهم الى الحشر . على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فمن وضع حقهم خسر . ومن أنكر فضلهم حصم ودفع الحق باللسان . اكبت للجان اه

*
* :

أما عناية الاسلام باسقاط الحسنية فتراه مائلا من حسن معاملتهم لله والى فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة ريذاً مولاه وقال إن قتل فأميركم جعفر وأمر رسول الله أسامة بن زيد فبلغه أن قوماً قد طعنوا في امارته ، وكان أمره على جيش فيه جلة المهاجرين والايصار ، فقال عليه السلام : ان طعنتم في امارته لقد طعنتم في اماره أبيه قبله ، ولقد كان لها أهلا ، وان أسامة لها لأهل وقالت عائشة : لو كان زيد حياً ما استخلف رسول الله غيره وقال عبد الله بن عمر لأبيه لم فصلت أسامة على وأنا وهو سيان فقال : كان أبوه أحب الى رسول الله من أبيك وكان أحب الى رسول الله منك أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أزواجه لتميط عن أسامة أذى من مخاط أو لعاب فكأنها تكرهته ، فتولى منه ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال له يوماً ولم يكن أسامة من أجل الناس ، لو كنت جارية لنجلك وحليناك حتى يرغب الرجال فيك ، وفي بعض الحديث أنه قال : أسامة من أحب الناس الى . وكان صلى الله عليه وسلم أدى الى بنى قريظة مكاتبه سلمان فكان سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال على بن أبي طالب عليه السلام : سلمان منا أهل البيت . ويروي أن المهدي نظر اليه ويد عمارة بن حمزة في يده فقال له رجل من هذا يا أمير المؤمنين فقال أخى وابن عمى عمارة بن حمزة فلما ولى الرجل ذكر ذلك المهدي كالممازح لعماراة فقال له عمارة انتظرت أنه يقول ومولاي فاتفق والله يدك من يدي فتسم أمير المؤمنين المهدي ولم يكن الا كرام للموالى فى حفاة العرب

زعم الليثى انه كانت بين جعفر بن سليمان وبين مسمع بن كردين منازعة وبين يدي مسمع مولى له بهاء ورواء ولسن . فوجه جعفر الى مسمع مولى له لينازعه ومجلس مسمع حافل فقال ، ان أنصفنى والله جعفر أنصفته ، وان حضر حضرت معه ، وان عند عن الحق عندت عنه ، وان وحه الى مولى مثل هذا وأوماً الى مولى جعفر فقال : مولى مثل هذا عاضاً لما يكره وجهت اليه ، وأوماً الى مولاه فعجب أهل المجلس من وضعه مولاه ذلك الموضع الذى تباهى بمثله العرب ، وقد قيل ، الرجل لأبيه والمولى من مواليه ، وفى بعض الاحاديث . ان المعتق من فصل طينة المعتق . ويروي أن سلمان أخذ من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمرة من تمر الصدقة فوضعها فى فيه فاترعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يا أما عبد الله انما يحل لك من هذا ما يحل لى . ويروي أن رجلاً من موالى بنى مازن يقال له عبد الله بن سليمان وكان من جلة الرجال نارع عمرو بن هداى المازنى وهو فى ذلك الوقت سيد بنى تميم قاطبة فظهر عليه المولى حتى أذن له فى هدم داره . فأدخل الفعلة دار عمرو فلما قلع من سطحه ساقاً كف عنه ثم قال : يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو . وقد كان فى قريش من فيه جفوة ونبوة

كان نافع بن جبير أحد بنى نوفل بن عبد مناف اذا مر عليه بالجنازة سأل عنها فان قيل قرشى قال واقوماه وان قيل عربى قال واماداتاه . وان قيل مولى أو عجمى قال اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت . ويروي أن ناسكاً من بنى الهجيم بن عمر بن تميم كان يقول فى قصصه . اللهم اغفر للعرب

خاصة وللموالى عامة . فاما العجم فهم عبيدك والأمر اليك
ومثل ذلك ما كان بمصهم يقولونه . لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة حمار أو كلب
أو مولى . وكانوا لا يكتنونهم بالكنى . ولا يدعونهم الا بالأسماء والألقاب .
ولا يعيشون في الصف معهم . ولا يتقدمونهم في الموكب وان حضروا طعاماً قاموا
على رؤوسهم . وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طريق
الخباز لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز
اذا حضر أحد من العرب . وإن كان الذي يحضر عزيزاً وكان الخاطب لا يخاطب
المرأة منهم الى أبيها ولا الى أخيها وانما يخاطبها الى مواليتها فان رضى زوج والارد
فان زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح وان كان قد دخل بها
كان سفاحاً غير نكاح

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الموالى والعرب أن الحجاج لما خرج
عليه ابن الاشعث وعبد الله بن الجارود ولقي مالتى من قراء أهل العراق وكان
أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة فلما
علم انهم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم
حتى لا يتألفوا ولا يتماقدوا فاقبل على الموالى وقال أنتم علوج وعجم وقراؤكم
أولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل
رجل منهم اسم البلدة التى وجهه اليها وكان الذى تولى ذلك منهم رجل من بنى
سعد بن عجل بن لجين يقال له حراش وقال شاعرهم

وأنت من نقش العجلى راحتته وفر شيخك حتى عاد بالحكم

يريد الحكم بن أيوب التميمى عامل الحجاج على البصرة
ولقد أورد ابن بسام فى الذخيرة فى ترجمة الأديب أبى جعفر أحمد الدودين
البلنسى رسالة بن غرسية يخاطب بها أبى جعفر بن الجزار فى فضل الشعوبية وذم
العرب ابتدأها بقوله

يا ابن الأتارب ما علينا ناس لم نحك الا ما حكاه الناس

وقال :

ولم أشتم لكم حساباً ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء
وقال فيها في وصف المعجم

هم ملكوا شرق الملاد وغربها وهم منحوكم بعد ذلك سؤوداً
حلم وعلم ، ذوو الآراء الفلسفية الارضية والعلوم المنطقية الرياضية ، حملة
الاسترلوميقا والجومطريقا ، والعلمة بالارتماطيقا والانولوطيقا والقومة بالموسيقى
والطوبيقا ، والنهضة لعلوم الشرائع والطبائع والنفرة في علوم الاديان والابدان
ماشئت من تحقيق وترقيق حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لاعلى
وصف الناقة المعدنيه ، فعلهم ليس بالسفاه كفعل نائلة وإساف ، أصغر شأنكم
اذ بزق خمر باع الكعبة أبو غسانكم وإذبوا رغالكم قاذفيل الحبشة الى حرم
الله لاستئصالكم

والرسالة كلها على هذا النسق استغرقت مع الردود عليها سبع عشرة ورقة من
الذخيرة وقد رد عليها كثيرون من أدباء الابدلس في عصر كاتبها ومن جملتهم
المخاطب بها أبو جعفر وردودهم كلها الى السفاهة والمداءة أقرب وكتابة ابن
غرسية أمتن وحججه أوضح

وقال الجاحظ في رسالته الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد في المابطة
وقد انتظموا (الى ولاية الامر في عهده) معاني العناد اجمع . وبلغوا غاية البدع
ثم قرنوا بذلك المصيبة التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقى ديماً إلا
أفسدته ، ولادنيا الا أهلكته ، وهو ما صارت اليه المعجم من مذهب الشعوبية
وما قد صار اليه الموالي من الفخر على المعجم والعرب ، وقد نجمت من الموالي
ناجمة ، ونبتت منهم نابتة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربياً لقول النبي صلى
الله عليه وسلم ، مولى القوم منهم ، ولقوله الولاء لجمعة النسب لا يباع ولا
يوهب ، . فقد علمنا أن المعجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب
وأن الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا فنحن معاشر
الموالي بتقديمنا في المعجم أشرف من العرب وبالحديث الذي صار لنا في العرب
أشرف من المعجم وللعرب القديم دون الحديث ولنا خصلتان جميعاً وافرتان فينا

وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة . وقد جعل الله المولى بعد أن كان أعجمياً عربياً بولائه كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بخلفه وبعد أن جعل اسماعيل أعجمياً عربياً ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان اسماعيل كان عربياً ما كان عندنا الا أعجمياً لان الاعجم لا يصير عربياً كما ان العربي لا يصير أعجمياً فانما علمنا ان اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان أعجمياً بقول النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك حكم قوله مولى القوم منهم وقوله الولاء لجمعة الى أن قال وليس أدعى الى الفساد ولا أوجب للشر من المفاخرة وليس على ظهرها الا نخور الا قليل ، وأى شىء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر انه صار شريئاً بمنقك إياه .

العلم الصحيح^(١)

قالوا العلم علمان علم الابدان وعلم الأديان ، أو دنيوى ودينى ، فالدنيوى علم ما فيه صلاح المعاش ، وحفظ النظام فى عالم الكون والفساد ، والدينى كل ماله حساس بالمعاد ، وتهذيب النفس ، والابتعاد عن المنكرات فى هذه الفانية ، للظفر بالباقيات الصالحات فى تلك الدار الباقية

كان العلم الدينى لأول أمره موجزاً مندججاً . لم يتقد قواعد مقررة ، وأصولاً ناعمة ، فكان العربى يقصد الرسول عليه السلام يعلمه الدين فى ساعة ، ثم يحيله على القرآن ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك وأهلك ، فقد عرفت من الدين جوهره وسره ، وما ينبغى له ، فمن ثم دام الاسلام الى السذاجة حتى قامت قائمة العصبية من أجل التنازع على الملك ، وتجاذب حبل السلطة ، فزج الدين بالسياسة ، ودخل فى الاسلام من لا يهمه منه غير المغنم ، وراح بعضهم يدسون مالم يقل فيما قيل ، وكثر المنافقون ممن سمعوا بالدين فى سرهم ، وهم من اتباعه فى جهرم ، وأنشأوا يلبسون ثياب الأصدقاء وهم له أعداء ما كرون

دسوا عوامل إفسادهم وفى القوم يومئذ صفوة من الأخيار ، توفروا على محاربة البدع والموضوعات بكل لسان وبنان ، بكل سيف وسنان ، وكانوا على اخلاصهم وتأثيرهم كلما استأصلوا شأفة فاسد نبض من الأفسد نابض ، ورجال

السياسة وأكثرهم لا يرجع في الغالب الى رأى ومذهب ، يدهنون من وراء ذلك
لمحلة الدين ، ويبذلون لهم ما يستغفونهم به ، لينطقوا بألسنتهم ، ولا يفسدوا
عليهم امرهم ، اذا رفعوا أصواتهم ونعوا عليهم تبديلهم لما أنزل ، وإلصاقهم به
ما ليس منه . ولما رأى العقلاء عاثت الفساد يدب ديبه في علوم المعاد ، خافوا
أن يتدرج من العبث بالاعراض الى العبث بالجواهر ، فلم يروا بدأ من التدوين
والتقييد ، والدلالة على مواضع الضعف والسخف ليدو السليم لا شائبة فيه ،
وأنت خير بما يقتضى ذلك من التطويل دع ما يتحلله بالطبع لأن في القاعين
به العالم العامل وفيهم صاحب البدعة والمقالة

مضى على هذه الحال ربح من الزمن ، وعلوم الدين لم تخرج بشيء من علوم
الدنيا ، الى أن دخلت علوم الحضارة في الملة وسموها علوم الأوائل ورأت من
بعض خلفائنا من أخذ بيدها وهياً لها أسباب انتشارها ، فعندها كثرت المذاهب
والآراء ، ونشأ العراك الأول بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية أى بين
الدين القائم بالتسليم ، وبين الفلسفة المبنية على البرهان

وظلت حال العلم الدينى تابعة لمجرى السياسة ، ان جاء عاقل من الأمراء والملوك
يكل أمره لجهاذة من المحققين ينظرون فيه وهم مؤتمنون مأمونون ، وإذا ولى
رقاب الناس جاهل ينزل نهسه في كل المنازل ، فيتولى من الخلق أمور دنياهم
ودينهم ، ويقرب اليه كل من يتابعه على أهوائه ، ولا ينكر عليه مغالاته ، والعقلاء
بمعزل لا ينطقون إلا كارهين ، وربما تدرعوا الحمول وآثروا الا تقطاع على الدخول
في المجتمع لا محاضه المصحح ، وتخليصه من المفاصد الطارئة عليه

نعم ان التاريخ لم يخل من وجود عقلاء في كل دور من أدواره ولكن قوتهم
ضئيلة لا تنفع وصوتهم خريد لا يسمع ، اذا نسبتهم لأولئك المنافقين ، في خدمة
الأميرين والناهين ، وقد قل عددهم كثيراً في هذه الديار خصوصا بعد الدولتين
النورية والصلاحية ، وصار العلم أشبه بتقاليد ورسوم منه بعلم وعمل ، ومناطق
ومفاهيم ، وما فتئت العادات يتخيلها بعضهم من الدين ، ويدسونها فيه ، وللجهل
الكلمة النافذة في الهيئة الاجتماعية ، الى أن كان القرن التاسع والعاشروما يليهما من
قرون الهجرة ، وهي من العصور المظلمة من تاريخ الاسلام حقيقة ، فعندئذ قل

المميز والمفكر ، وبطلت علوم الحكمة جملة واحدة ، وصار من يتعاطاها في نفسه وبين خاصته كمن يأتي أمراً إداً ، ويخون دينه وأمته ، وبطل النظر في الاصول وتحم على كل عقل أن لا ينظر في غير الفروع ، مما أملتته خواطر المتأخرين . فأصبح بذلك يعد العالم كل العالم من يحقق من هذه الفروع أكثر . اجتبر ذلك بما تتلوه في تراجم أعيان العلماء في هذه القرون ، فانك لا تراها تتمدى الأقوال والآراء وأهل كل جيل يقدسون قول من سلمهم ولو يبضع سنين ، نعم انك لو انصفت لا تكاد ترى لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والخلاص من التقليد البحت ولقد أتت أيام في معظم الاصقاع الاسلامية حرم النظر فيها حتى في الكتاب والسنة ، وعد الناظر فيهما محاولاً للخروج عن سنن الجماعة ، فاذا خالف فرد ما الفوه أهانوه ومن قاوم ن فكره سحنوه أو نموه وشردوه ، واذا خافوا بأسه قتلوه وحنوه عبرة ومثلاً للآخرين

تأصلت الأوهام فعدت من أقدس القربات ، وسار الناس مع تيار الجهل وتقديس أقوال أدياء العلم ، والتقوى ، وصدرت الأحكام ، بعمامل الأوهام وغدت هذه البلاد كبرج بابل في التبليل والتشويش اتخذت كل منهما لها أئمة وأولياء ، وانشأت تكبر أمرهم وتدعى لهم مقاما ادعوه لأنفسهم ، وراح الفقيه يكفر الصوفى ، والصوفى ينقم على تقديسهم . والطمع فيمن عداهم ممن لم يصوروا لهم بالصورة المناسبة لما قرى نفوسهم وركز في طبائعهم ، وعشش في مخيلاتهم : وهكذا امتزجت علوم الدين بالمشاغبات والمباحكات . لو بعث الشارع وأصحابه لرؤا الاختلاف بين ماورد وما صار اليه مستحكماً بعيد الأطراف يصعب الجمع بينهما كما يصعب الجمع بين النقيضين . وماذا أصف من تسرب الجهل الى العبث بالعقول في تلك القرون ، وانك لترى أثراً من آثاره لهذا العهد عن بعض من فطموا أنفسهم من النظر في المعقولات منا ، فترى كلمات التصليل والتكفير والتبديع والتفسيق أسرع الى أفواههم من الماء الى الحدور وتشهد الغر الغمر يتحكم بالحنة فيعطيها لمن يشاء ، ويخرج منها من يشاء ، فوارحمته على أناس أضاعوا فضل عقولهم في الجدل ، ولكم كان الخير يأتي من جهتها لو اشتغلت بالمفيد ،

ونبذت الاهواء ظهرياً ، ولكن اذا اراد الله بقوم سوء آرزقهم الجدل ومنعهم العمل قلت فيما سلف ان علوم الدنيا دخلت في الملة لما رأيت من يعضدها من رجال السياسة وكان ذلك في القرن الاول بيد انها لم تنتشر الا انتشار المطلوب الا في القرن الثاني والثالث. شاعت قرنين ثم أخذت تضعف الى أواخر القرن السابع أيام قل المشتغلون ولو على طريقة نظرية لعلوم العقل التي لا قائمة لأمة بدونها مهما أخلصت في دينها . واذا استفتيت تواريخهم نجد المتلبسين بشعار العلماء لا يمدون في جملتهم ذاك الرياضى والجغرافى وربما فصلوا عليها المعمار والترنار . من أجل هذا نرى المدارس على تفنن القوم في اشائها بعد القرون الوسطى منازل خاصة بالفقيه والمحدث والقارىء والرباطات للمجدمين المعدمين والكسالى . ولم نجد مدرسة اللهم الا بعض مدارس الطب والهندسة موقوفة على الرياضيين والطبيعيين والفلكيين والمؤرخين كأن علومهم هذه أباطيل لا تصح الاعانة عليها . وحسب الرياضى أن يفضى الفقيه عنه ما دامت الحالة بين هبوط وصعود والاجود بها أن تدعى سقوطاً الى منتصف القرن الماضى أيام أخذ السلطان عبد المجيد في البلاد العثمانية ومحمد على في هذا القطر يسهلان السبل لهذه العلوم ويمدان أهلها في مصاف العلماء وأنشئت المدارس لتعليمها وغدا المشتغلون بالعلوم الدنيوية حزباً والمتوفرون على تعليم العلوم الدينية حزباً آخر . على انه لم نجد عودة تلك العلوم الدنيوية التي سماها بعضهم عصرية وبعضهم دعاها حديثة لما نتج عنها من حركة كانت أشبه برد فعل ما ظلت الامة معها صائماً أخذ منه الجوع فلم يجد ما يطعمه حتى ساقته الاقدار الى مائدة موسر وقدحوت ما طاب وحلا من صوف الاطعمة والحلواء فأخذ يلتهم ما وصلت يده اليه بدون ترود يزدرده بلا مصغ ويمزج بارده بحاره وحلوه بحامصه ويؤخر ما يقتضى تقديمه ويقدم ما يحس تأخيره . ونشأت ناشئة لم تدر من العلم الحقيقى غير قشوره شربت مصة من مورده ظننها غاية ما يرتوى به المرتوون وراحت تعد المروق غاية النور والارراء على النبوات من آيات الحكماء والطعن في الشرائع من عمل الجهابذة النجارير وانكار القديم مهما كان نفعه والتعلق بالحديث مهما ضؤل قائله من دواعى النهوض والاستنارة . وعلى الجملة ينبذون كل ما ليس لهم به علم

من تراث أجدادهم حاسبين الصحيح منه والسقيم في مقام واحد مما حكين ولو بان لهم الراحح من المرجوح .

يقول فتية اليوم إنه لا نجاح للأمة الا بنبذ ذاك القديم مباشرة والاخذ بهذا الحديث على علته . وفاتهم أن ما يسوغ في الغرب لا يتم في الشرق . وأن لكل أمة طبيعة ومنازع لا بد من مراعاتها . وأن اقامة مدينة جديدة في بادية أسهل من اصلاح مدينة قديمة لاغنية عن البناء فيها . وأن من العقل أن لا ينبذ ذاك القديم بل يرجع فيه الى الاصل القليل . ويؤخذ النافع منه . ويترك ما عدا ذلك من تحريف المخرفين وضلالات المبتدعين والاخذ من هذا الحديث بالعلم الصحيح الذي تمس اليه الحاجة . واطلاق الحكم للعقل يعمل عمله في طريقه . العلم الصحيح هو الذي يبعث صاحبه على عمل النافع ولو كان في ذلك ضياع مصلحته الشخصية فلا يبالي حامله بغصب الرؤساء والزعماء ولا يستغويه رضى الغوغاء والدهماء . يتجشم المخاطر في نشر خاطر . ويركب كل صعب وذلول لانهارة مظلمات العقول

العلم الصحيح هو الذى خالص من ضغط الالهواء السياسية والمذهبية وسلم من التأثيرات والغايات فلقنه صاحبه بريئاً من شوائب النزعات والنزغات . وأثر في نفسه تأثيراً مجرداً . فاذا نطق بعده فلا ينطق الا بما يوحى اليه هاتف الفهم السليم . والعقل الحكيم . فلا يتمصب للآباء والجدود . ومألوفات المحيط وعادات الاهل والاقليم . ويتحزب لشيخه واستاذه ولو تجلى له أنها تنكبا عن طريق الحق .

العلم الصحيح هو الذى يحترم صاحبه به آراء غيره . ولو كانت مباينة لافكاره كل المباينة . ولا يعدها سخافات وترهان . فينكر كل ما لا يعلم ويستكثر ما وعى . ولا يعد حطة عليه أن يتسقط الحكمة أني وجدها وفي أى المظاهر ظهرت فياخذ نفسه بالتعلم ولو شاب وجاوز الثمانين .

العلم الصحيح هو الذى تكون نتائجه أكثر من مقدماته وفروعه خيراً من أصوله يأخذ له حامله من نفسه . فلا يتكبر عن افادة . ولا يستنكف من استفادة . ويسمى الى بث ما يعرف في كل أفق ويعد البشر إخوة فلا يقصر في

تعليمهم مما علم . يقينه ان صلاح الافراد سلم للوصول الى اصلاح الجماعة .
والمصلحة العامة هي أبدأ موضوع نظر من رزق حظا من هذا العلم
العلم الصحيح هو الذى يربى الملكات ويهذب النفوس فلا يستخدم صاحبه
علمه أداة للغلبة بالباطل والأدلال على الاقران والذهاب بفصل الشهرة والمحمدة
الزائلة والتبجح والننطس . فامنح اللهم نفضلك هذه الديار شيئا من هدا العلم
وكثر فيها سواد أهله بمنك وحسن تسديك

علاقة العرب بالغرب^(١)

فأميرنا هو الذى وضع المسألة العربية على بساط البحث ووجه اليها انظار
العالم الغربى وكانت مسألتنا من قبل مندججة فى المسألة الشرقية فيز بصحة عقله
بين المسألتين الشرقية والعربية وأبان للغربيين أن العرب غير الترك واننا أمة قوية
الشكيمة يبلغ عددنا أكثر من نصف سكان تلك الامبراطورية العثمانية المنحلة
وأبعد منهم كعباً فى المدنية وليس لهم من المزايا علينا الا ان الطالع ساعد ملوكهم
الاقدمين وقاموا بغفلة الدهر عنهم فانشأوا ذلك الملك الضخم بقوة سلاحهم
الذى لم يبرحوا شاهريه الى ساعة انهزامهم من بين أظهرنا أى أنهم اكتفوا مدة
أربعة قرون باستصفاء البلاد وما استطاعوا أن يستصفوا القلوب وشتان بين من
يخضع الاجسام الجامدة ومن يخضع الاجسام الحية

ربما كان بين أهل الغرب اليوم عدد قليل من الناس لا يثبتون مزية للمدنية
العربية القديمة وهؤلاء ممن أخذوا معلوماتهم عن كتب املاها المتعصبون منهم
وبعضهم من سكان الاديار الذين ضاقت عن تحملهم مثل أرض فرنسا وسويسرا
الحررة ولكن هناك مئات من علماء المشرقيات أخصوا بعلوم الشرق ولغاته ولا

(١) من محاضرة فى النادى العربى بدمشق مساء ١٤ شعبان ١٣٣٧ (١٩١٩) نشرت فى جريدة

سما بسيدتها اللغة العربية فدرسوا الحصار العربية والتاريخ العربي في مظانه وبلغته وأزالوا غشاوة الاوهام عن العوام بما أنشأوه من المجلات ونشروه من الكتب بلغاتهم المختلفة يبينون للناس مجد هذه الامة الغابر وأيامها الغر المحجلة وربما كان منهم المتعصب للعرب وتحميد دولهم السالفة أكثر من تعصبه لمدينة الامم الحديثة وهؤلاء هم الذين يخدمون العلم للعلم لا يتبعون فيه على الغالب هوى النفوس في السياسة ولاسلطان للأديان تمليه على ضمائرهم

ومن قرأ دائرة المعارف الاسلامية التي لا تزال تصدر الى اليوم في مطبعة ليدن من عمل هولاندة بلغات العلم الثلاث الانكليزية والالمانية والفرنسوية وهو أصح كتاب كتب في تاريخ بلاد العرب وجغرافيتها وتراجم رجالها وأصول شعوبها ومن عرف ان أمهات كتبنا في الدين والعلم والتاريخ لا تزال تطبع في مطابع الغرب منذ رهاء أربعمئة سنة أى على أوائل عهد اختراع الطباعة وأن المطبوع منها بالعناية المائقة تتألف منه خزانة كتب كبرى تحتوى على كل فن ومطلب وأن ما طبع من أسفار أسلافنا في اوربا وأميركا على أيدي المستشرقين من أهل تينك القارتين يبلغ أضعاف أضعاف ما طبع بلغات الشرق كله — من عرف كل هذا يدرك ولا حرم مبلغ عنايه الافرنج باغتنا ومدنيتنا وتاريخنا

أكدوا أيها السادة أن تفسير القرآن الكريم يقرأ درساً على طلاب الجامعات في الغرب كما تقرأ دروس الفلسفة والتاريخ والادب . وما أنس لا أنس وقد دطاني في بوداست الاستاذ غولد صهير العلامة المجرى الى داره وهو يقول انى الآن ذاهب الى الكلية لالقاء درسى وأعود اليك بعد مدة فسألته ماذا تقرأ الآن لتلاميذك يا أستاذ فقال تفسير القرآن وأغرب من هذا ما ذكره لى صديقي العلامة أحمد زكى باشا المصرى قال دخلت على الاستاذ درانبورغ فى مدرسة اللغات الشرقية الحية فرأيتة اسرائيلياً يدرس كتاب المسلمين لجماعة من المسيحيين أما الحديث والفقه والاصول والتصرف فهو أيضاً مما يعانونه كما يعانون غيره من آدابنا وتاريخنا وعلومنا ورجال الافرنج يدركون حقيقة العرب وعلومهم منذ توطد سلطان الامويين فى الاندلس وأخذ بعض المتنورين منهم يدخلون تلك المملكة العربية ويدرسون العلوم على علمائها ويعودون الى فرنسا وإيطاليا

ينشرونها بين قومهم وكان بعض المشتغلين على علماء العرب من الاسرائيليين وبعضهم من المسيحيين الذين تولوا بما تعلموه أعظم منصب ديني في النصرانية . وكان الله سخر العرب ليفتحوا الاندلس ويعمروها حتى ينقلوا لاهل أوروبا العلم والحضارة ولما انهوا مهمتهم عادوا أدراجهم من تلك المملكة البديعة

امتاز المسلمون باحسانهم الى من خالفهم اذا كان مما تحمد سيرته السياسية والوطنية ولذلك هموا الاسرائيليين مواطنيهم في الاندلس ويوم أخرجوا منها فكروا في حماية الاسرائيليين ومصالحهم كما نظروا في حماية أبناء دينهم اشترطوا على الغالب شروطاً تقيهم بأسه وكان الاسرائيليون اذ ذاك في الغرب مضطهدين في كل مكان الا في الاندلس وكم استمتع الاسرائيليون بحريتهم على عهد العرب في الاندلس على عهد العرب في الاندلس على صورة لم يعد لهم مثلها الا في القرن الاخير في أوروبا حتى العرب الاسرائيليين في الغرب كما هم في الشرق واعتمدوا عليهم في مصالح الدولة لان الاسرائيليين كانوا اذ ذاك يعصدون الحكومة التي تحكمهم كما هو اليوم في إيطاليا حيث كان لهم القدح المعلى في قيام الوحدة الإيطالية منذ نحو خمسين سنة وكان لهم من النفوذ الاقتصادي العظيم ما خدموا به الوحدة واخلصوا لها وخدموا سياسة إيطاليا حتى أصبح منهم الولاة ورؤساء المظار وكبار العمال^(١) لا ينازعهم منازع وذلك لان الاسرائيليين في إيطاليا ايطالي أولاً ثم اسرائيلي خلافاً لما عليه سائر الممالك

ولو لم يكن حكم العرب في الاندلس الى الالين والعدل مادام ثمانية قرون وكذلك حكمهم في جزائر صقلية وسردانية ومنورقة وميورقة وقرسقة وغيرها من جزر الطليان وكان اختلاط العرب بالامم اللاتينية ولاسيما بالبرتغاليين والاسبانيين والفرنسيين والاطليان ولذلك تجد في لغات هذه الامم مئات من الالفاظ العربية ولم ير الايطاليون أن يغيروا شيئاً من مصطلحات العرب حتى أن الملك رجار الذي عاد فاستولى على صقلية سنة ١٤٥٠ كان يتكلم بالعربية ومثله كثير من ملوك إيطاليا وكان يفضل كثيراً على علماء العرب وهو الذي وضع له الشريف

(١) إيطاليا الحديثة للأمر حيوفاي بورغزة

الادريسي الجغرافي كرة أرضية بالهضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أحيال الافرنج كلهم (١)

وكانت دراسة العربية شائعة في شبه جزيرة ايطاليا ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية وقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ م باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفة في عدة أماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط نورمانديا وهو هانسوفين وفريدريك الثاني ودي منفروا لغة العلم العالي والشعر والادب . وكان من سقوط الدولة البيزنطية في القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان الى ايطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح الديني ان همت في أرحاء ايطاليا حركة النهضة العلمية التي تجلت في أجمل مظاهرها في الدروس الشرقية و لاسيما في دروس العربية والاسلام

وشاعت في القرون الوسطى في أوروبا (٢) لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهي اللغة العبرانية التي كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التي كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا وابن زهر والفارابي ، لذلك انشئ في باريز منذ أواسط القرن الثالث للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية . وفي سنة ١١ م شرع في باريز واكسفورد وبولون وفلمنكة بتدريس العربية مع العبرانية والسكلمانية وكان لأسرة ميديسيس الايطالية فضل على الآداب العربية كما لها الفضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

ثم ان الافرنج راد احتلالهم بالعرب في الحروب الصليبية فان هذه وان كلفت أمم أوروبا ملايين من الانفس والاموال الا أن أهلها عادوا منها بعد جهاد نحو قرنين وقد لقنوا أموراً كثيرة من العرب أثرت في حضارتهم و اخلاقهم وعلومهم وصناعاتهم لانهم شاهدوا أمة أرقى منهم إذ ذاك فأخذوا عنها ما اتسعت له أوقاتهم وكانوا على اختلاط تام مع الامم التي يحاربونها

(١) مجلة المقتبس م ٨ ص ٧٦

(٢) المقتبس م ٨ ص ٤٠١

وبينا كان السيف والنشاب والمجانيق تعمل عملها بين المريقين كان تجار
الافرنج يدخلون بلاد العرب وينجرون على الرحب والسعة لا ينارعههم منارح
فأعجب بهذه الاخلاق مؤرخو الحروب الصليبية منهم واقر بمنافعها لهم أهل
الاجيال الخالقة وفي مقدمتهم ميشو في تاريخ الحروب الصليبية وقد ذكر على
تعصه أشياء كثيرة مما أخذه الافرنج عن العرب دع مئات من كتاب الغرب
وباحثهم ذكروا في كتبهم ومقالاتهم كثيرا مما استمداته أجيال الفرنجة وغيرهم
من امتزاج الصليبيين بالعرب وقد أدهشهم ما شهدوه من عدل اصلاح الدين يوسف
ابن أيوب رحمه الله حتى ادعى شاعره عبد المنعم الجلياني أنهم رسموه في هياكلهم فقال .
وخطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الاقائم
يدين لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشتمى به في التأمم

*
* *

وان ما نقرؤه في تاريخ شواطئ البحر الأبيض حيث ينزل العرب من مراکش
بالجزائر فتونس فطرابلس فبرقة فمصر فسورية من وقائع حدثت في أزمان مختلفة
بين العرب وبين البنادقة والجنوزيين والبيزن والاسبانيين والبرتغاليين لا تطعن
في حسن الصلات بين العرب وجيرانهم على الشاطئ المحاذي لهم من هذا البحر
لأن هذه الغزوات البحرية كانت بصنع قراصين ومتشردين وغاغة ظالمين لا دخل
فيها للأمم ولخاصتها على الأقل ولا سلطة فيها للأديان لأن الأديان كلها تأمر
بالمعرف وتنهى عن المنكر ومن أعظم المنكرات فيها قتل النفس التي حرم الله .
ولذلك تجدد المعاهدات تعقد الحين بعد الآخر بين صاحب تونس أو مصر أو الشام
أو الغرب الاقصى وبين الملوك النازلين من الافرنج في جنوبي أوروبا وهذه الغزوات
البحرية أشبه بالغزوات البرية التي طالما حدثت لها أمثال بين الامة الواحدة من
الافرنج أو الامة الواحدة من العرب

ولطالما غزا سكان جنوبي فرنسا سكان شمالها ودينهم واحد ولسانهم واحد
وعاداتهم وتقاليدهم متقاربة ولم يتيسر نزع هذا الخلق وهو من اخلاق البداوة
في الغالب الا بما قام في فرنسا من الاعمال المالية التي ربطت ابن الشمال بابن الجنوب

برباط معنوى مادى فارتفعت الخصومات من بينهما لأن المصلحة المادية مفضلة على كل شئ فقد قال الجاحظ « وليس يكون أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلاف وتستوى لاهلها وتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهونون لان ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل . »

قال الكونت هنرى دى كاستر فى كتابه الاسلام خواطر وسوانح . ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الاندلس حتى صاروا فى حالة اهنأ من التى كانوا عليها أيام خصوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم الفيزيغوت . ويقول دوزى إن هذا الفتح لم يكن مضرأ بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج اعمده لم يلبث أن رال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد . وقد أبى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) وتولد عن هذه السيادة الرحيمة أن انحار عقلاء الامة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير وكم من اندلسى بقى على دينه ولكنه اعجبته طلاوة التمدن العربى فتعلم اللغة وآدابها وأصبح القسس يلومونهم على ترك الحان الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها لذلك لما اصطهدت أوربا الموسويين لجأوا الى خلفاء الاندلس فى قرطبة ولما دخل الملك كارلوس الى سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين قال ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً الا واعملوا السيف فى يهودها ومسلميها وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجيراً وماجأ فى الاسلام فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم . اه

وقال سيديليو فى كتابه حصاره العرب مما يدل على شأن الامة العربية أنها فتحت بلاداً أجنبية ولم يتغلب عليها غريب مع اتصافها منذ أربعة آلاف سنة بما انفردت به من جميل الاخلاق والعمادات فكانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأموورها متأهبة للاغارة على مجاوريها أخذت مملكتي مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ما ملكته من البلاد الاجنبية وانحصرت سطوتها فى بلادها العربية فأخذت تقاتل المراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش

ملك الفرس واسكندر المقدوني وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان الدنيا القديمة ثم أتى النبي فربط علائق المودة بين قائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج في اسبانيا والبرتقال الى نهر القانج في الهند وانتشر نور المعارف والتمدن في المشرق والمغرب وأهل أوروبا إذ ذاك في ظلمة جهل القرون المتوسطة وكانهم نسوا نسياناً كلياً ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان واجتهد العباسية ببغداد والاموية بقرطبة والفاطمية في القاهرة بترقية الفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية واقتصروا على السلطة الدينية التي استمرت لهم في جميع ارجاء ممالكهم وكان لديهم من المعلومات والصنائع والاكتشافات ما استفاد منه نصارى اسبانيا حين طردوهم منها كما أن الاتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم . اهـ

وبعد فان أمة هذا ماضيها وهذا حاضرها كيف يجهل بعضهم أو يتجاهلون أمرها وهي التي كانت الصلة والعائد بين المدنية القديمة والمدنية الحديثة ولولا العرب لتأخرت نشأة الحضارة الغربية قرونًا كما أكد بعض المنصفين من علماء الغرب . فاذا كان ماضيها ما رأيت وفي حالتنا الحاضرة بعض النواقص جاء لما من الحكم الاستبدادي الذي نخر العظم قرونًا طويلة فانما لا يصح الا أن يقال عنا اليوم كما وصفنا رئيس الكلية الاميركية الدكتور هورديلس في مؤتمر الصلح أمة كسائر الامم فينا من العيوب ما في غيرنا أما استعدادنا للرقى اذا رفعت عن عيوننا العصائب فقد أثبتته رجالنا الذين آملوا وتهذبوا فكانوا في مصر والسودان وفي أميركا وأوروبا على مستوى الغربي الراقى في علمهم وآدابهم ومناجرهم وصناعاتهم وأثبتته دعاة الثورة العربية وما ظهر من تقانيهم في وطنهم لارجاع مجد أمتهم بعد ذبوله

واليك مع هذا ما ذكره غستاف لوبون صاحب كتاب مدينة العرب في كتابه علم النفس السياسية^(١) في باب الاسباب النفسية: التق بالمدينة الاوربية عن تحويل الشعوب المنحطة عن حالتهم قال : لا تعمل التربية الا أن تلخص المدنية

والاوضاع والمعتقدات تمثل حاجيات هذه المدنية واذا لم يكن بين المدنية وافكار شعب وعواطفه اتصال فان التربية التي تؤلف هذه المدنية لا يكون لها تأثير فيه . وكذلك الحال في الاوضاع المناسبة لبعض الحاجات فانها لا تطابق الحاجات المختلفة ويدرك المرء بأدنى نظر الفرق بين عقول أمم الشرق ولا سيما المسلمون والهنود الصيديون وبين عقول أهل الغرب فيحده عظيمًا بحيث يتعذر تطبيق أوضاع بعضهم على الآخر . فان الاوسكار والمناحي والمعتقدات وطرق العيش تختلف بين المراقبين اختلافاً ظاهراً

فبينما نرى أمم الغرب تشتد كل يوم في نزع مؤثرات الاجداد بحمد الشرق بعيش بمناصيه الاقايلا فالمجتمعات الشرقية ثابتة في عاداتها وهي في الشرقيين خالدة على صورة ليست لها في أوروبا اليوم فان المعتقدات التي أضعتها يعنون هم بالاحتفاظ بها جدا الاحتفاظ والعائلة التي تقوصت من أساسها في الغرب لم ترح متبنة الدعائم في الشرق على نحو ما كانت منذ أبعد عصور التاريخ . والمباديء التي فقدت من تأثيرها فينا أصبحت محافظة على تأثيرها فيهم . غاية الشرقيين قوية جداً وحاجاتهم صعبة كل الضعف وغاية الغربيين غير أكيدة وحاجاتهم عظيمة جداً . فان الدين والاسرة والسلطة العالية والعادات وجميع هذه الأسس القوية في المجتمعات القديمة التي نزعها الغرب من أصولها قد احتفظت بنفودها في الشرق ولا من منارع لها . وذلك لان الاهتمام بالاستعاضة عنها لم ينمذ بعد الى عقول الشرقيين ويتجلى الفرق الفاحش بين الشرق والغرب من أوضاعها فان جميع الاوضاع السياسية والاجتماعية في الشرقيين عربا كانوا أو هنوداً تنبعث خاصة من معتقداتهم الدينية على حين نرى أكثر الشعوب الاوربية تديناً قد فصل منذ زمن طويل بين الاوضاع السياسية والمعتقدات

ليس في الشرق قانون مدني بل هناك قانون ديني فقط . وكل جديد مهما كان نوعه لا يقبل الا على شرط أن يكون نتيجة قواعد لاهوتية وليس الاختلاف بين الغربيين والشرقيين في تركيب العقول والأوضاع والمعتقدات فقط بل في أدنى أسباب الحياة ولا سيما في بساطة الحاجات بالنسبة الى تشعب حاجاتها فان مطالب الحياة عندهم قليلة جداً اذا قيست بمطالبنا وتشعباتها ولذلك يلتقي الشرقي اذا قبل

المدنية الاوربية لأنها تلزمه بامور لا يستطيع تطبيقها ولا تستلزمها حالته وبيئته فتتقضى فيه على ما وردته من ماضيه وتركه لا يعرف كيف يستقر أمام الحاضر والنتيجة القطعية الوحيدة من التعليم الأوربي سواء كان في الزنجى أو الهندي هو أن تتبدل الصفات الارثية فيه دون أن تتمكن من ابلاغ التربية الاوروبية اليه . وقد يحصل الشرقى على قطع من الافكار الاوربية ولكن انتفاعه بها يكون بعواطف وأفكار وحشية أو نصف متحضرة وتتقاذف عقول الشرقين آراء متضاربة ومبادئ في الاخلاق متعارضة . ولا يخذعنا هذا الطلاء الضعيف الذى يظهر فيه الشرقى اذا لقف شيئاً من التربية الاوربية فان ذلك أشبه بالالبسة الموقته في دور التمثيل لا يجب أن ينظر اليها عن أمم

قال ولقد حدثت مئات من المرات أناساً من أدباء الهنود تخرجوا في جامعات انكلترا أو الغرب فثبت عندي أن بين أفكارهم وافكارنا ومنطقهم ومنطقنا وعواطفهم وعواطفنا فروقا واسعة المدى وهوى سحيقة بعيدة . وليس معنى هذا أنه يستحيل على الشرقى أن يكون كالأوربي حذو القذة بالقذة . كلا فان الشرقى يكون كالغربي ولكن بعد تعاقب الدهور والأعصار كما وقع لأجدادنا فانهم ظلوا نحو الف سنة يتخبطون في حالة التذبذب والتوحش حتى تأصل فيهم حب المدنية القديمة والأخذ منها . وقانون الدشوء الاجتماعى كالنشوء الطبيعى لا بد من أن يستوفي حظه

والسبب المهم في أن مدنيتنا عاجزة عن الوصول الى الشعوب المنحطة هو انها متشعبة مركبة والشرقىون أمم من السداجة اقرب فاقتضت لهم البسائط فانا نرى المدنية الاسلامية وما أثره المسلمون في الشرق ولا يزالون يؤثرونه قد نجحت في هذا المعنى ذلك لان الامم التى دانت للاسلام كانت أو هى فى الغالب شرقية لها من العواطف والحاجات والعادات فى الحياة ما يماثل عواطف الفاتحين وحاجاتهم وعاداتهم . وليس فى قبولهم أصول المدنية الاسلامية ما يتنافر مع حاجتهم وعلى العكس اذا صحت عزيمتهم على الأخذ بالمدنية الغربية فانها تدك بنيان ما تعودوه بما فيها من الاختلاط والارتباك

قال وقد زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والاحلاقية العجيبة التي أثرها المسلمون في الارض كانت بفضل مادياتهم ولكن لا يصح اليوم أن نجهل بان هذه المؤثرات قد دامت في محراها حتى بعد أن أضع المسلمون نفوذهم السياسي فان المسلمين في الصين يزيدون اليوم على ٢٠ مليوناً وفي الهند على خمسين أي أن سوادهم أوفر من العهد الذي بلغت فيه دولة المغول أرقى درجات عزتها ومنعتها ولا يزال هذا العدد في نمو . ان المسلمين بعد الرومان هم الامه الممدنة الوحيدة التي نجحت في نقل تهديدها الاجتماعي ودينها وأوضاعها وعلومها الى العناصر المختلفة التي افتتحتها ولسرت بينها . هذه التأثيرات لا نصحل بل نراها على العكس آخذة بالنمو تتعدى الحدود التي بلغت في أيام القوة المادية . ان القرآن وما اشتق منه هو الى الفطرة بحيث يلنم مع حاجات الشعوب الاولية حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق . وحيث ينزل المسلمون ولو كانوا تجارا سذجا تدخل أوضاعهم ومعتقداتهم وكلما توغل الرواد من أهل المدينة الحديثة في صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الاسلام . والمسلمون الآن يعدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون في تلك القارة الغربية على حين يطوف الاوربيون في الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثرا لنفوذ أدبي

ولا التربية ولا الاوضاع ولا المعتقدات ولا غير ذلك من الاسباب التي يتذرع بها الاوربيون للتأثير في الشرق تميد في تمدينه ولا سيما في الشعوب المنحطة منه . وحالة اليابان لا تقوم دليلا على نقض هذه القضية لان اليابان وقد بلغت درجة راقية في المدنية كان السبب في تمدنها انها قبلت نتائج المدنية الغربية بجملة دفعة واحدة فلم تغير في الحقيقة قوانينها الاساسية ولا معتقداتها ولا أخلاقها فهي تشبه شريفاً من أرباب الاقطاعات عاد الى الحياة بعد موته فتعلم استعمال القاطرات واطلاق المدافع

هذا رأى الفيلسوف غستاف لوبون في مدينتنا وحالتنا الاجتماعية وتأثرنا بالمدنية الغربية وصلاتنا مع أهلها وصلاتهم معنا وهو كما ترون صحيح من أكثر وجوهه لاشائبة للتعصب والنقاليد فيه وقد حمد حالتنا من حيث تكوين الاسرة

والبيوت والسذاجة. وعسانا اليوم وقد زاد اختلاطنا بالغرب لا نأخذ منه الا ما
تمس حاجتنا اليه وننقى على القديم النافع فقد قيل إن القوة الحقيقية في كل مملكة
ما عرفت به من الاخلاق الطبيعية . وتقليد الاجانب على أى صورة كانت عار
على الوطنية

لم يخل عصر من العصور من احتلاط العرب بالغرب سواء كان بطرق الفصح
أو التجارة أو طلب العلم أو للجوار وقد قصد اوربا كثير من رجالنا منذ رهاء
عشرة قرون وكذلك الاوربيون وصلوا الى بلادنا منذ القديم وكان الظليان
أسبق الأمم الى هذا الاختلاط كما رأيتهم ومع أنه على أعمق ولا سيما منذ اسنولى
نابليون على مصر وجازت من الشام لم يرح الشرق شرفا والغرب غربا أخذوا
منا وأخذنا منهم ولكن ما أحدوه عنا مزجوه في حضارتهم وكذلك كانت
حالنا معهم وما اقتبسناه من نور علومهم وأساليب تربيتهم في القرن الماضي
وهذا القرن

ولا غصاصة علينا اذا وقفنا معاشر العرب مع الغرب عند حد الأخذ من
حصارته وعاداته فان التخوم اذا تناءت تختلف أهويتها وطباع أهائها فما يهيد من
القوانين هنا لا يطبق على سكان ما وراء النهر مثلا وما ينفع سكان الارحسين لا
يتأى نطبيقه على أهل الصين . ومن أسرار هذا الكون أن كل أمة تحرص على
سلطانها ولسانها وأوضاعها وتدافع عنها جهدها والوقائع التاريخيه الكبرى تظهر
آثارها في الأمم حتى بعد قرون فغارات الصليبيين والتاتار على هذا الشرق
الاقرب أثرت فيه قرونًا . وغارات العرب على اوربا أثرت فيها بحيث يشهد التاريخ
ان العرب يوم زحزحوا عن بواتيه في فرسا على يد شارل مارتل هم غيرهم يوم
جلوا عن أرض الاندلس

اذا كان الاختلاف طبيعياً بين أهل قطرين لسان كل منهما يختلف عن صاحبه
أما العادات والتقاليد فواحدة الا قليلا أفلا يكون أشد بين أمم متباعدة في
معظم مشخصاتها ومقوماتها؟ ولضرب لذلك مثال أمتين حيتين في الغرب :
البلجيك وسويسرا وهما مملكتان صغيرتان أدهشتا العالم بمدنيتها ووطنيتها
وحريةتها ولم يمنع اختلاف العناصر فيهما من اتفاق كلمة كل منهما على الثاني في

حب الكمال بحيث أصبح في أهلها عادة وجبلة وغدتا نموذجا ينقل عنه حتى أرقى شعوب أوربا كعنا في المدينة من مجاوريهما كما هو الحال في البلجيك فانها بين ثلاث ممالك هي مصدر لمدينة انكلترا وفرنسا والمانيا. وسويسرا وهي بين أربع المانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وكل هذه الممالك الكبرى تغطت تينك المملكتين الصغريين على أوصاعهما واستعدادهما . بلاد البلجيك مؤلفة من عنصرين مختلفين في الاصل وهما العنصر الغلاندرى أو الفلامندى سكان الشمال والعنصر الفالونى سكان الجنوب وهم فرسيس يجيدون التصوير والآحرون الموسيقى^(١) ولكن بلاد الموسيقى لا تحملمهم فتقبلهم فرنسا وإيطاليا والمانيا وأسبانيا وحال البلجيك مع الدول المجاورة حال سورية مع غيرها على عهد الاتراك فقد كانت هذه البلاد تضيق على رحها بابنائها فيها جرون الى القارات الخمس في طلب الرزق ولكن أين مساحة بلاد البلجيك من مساحة بلادنا^(٢)

والتراع بين الفلامنديين والمالونيين على أتمه بشأن اللغة فتجد الفلامنديين سكان الفلاندر من أحرص الامم على لسانهم وقد حاولت البلجيك بعد سنة ١٨٣٠ أن تفنلس الفلاندر فنارت هذه على كل ما أريدت عليه ولم تستطع ذلك بل احتفظت بروحها وأخلاقها وأفكارها وتقاليدها وعواظفها وأساليب تصورها قال شاريو : الامة بلغتها ومامن أمة بدون لغة . ولذلك تجد الجدل قائما قاعداً في فنلندا وبولونيا والنمسا والمجر وسويسرا وأسبانيا بل وفي كل مكان في هذا الشأن

دعا نابليون الاول أرض بلجيك بانها ساحة حروب أوربا وسماها اليزه ركلو ساحة اختبار أوربا وسماها بعضهم مغرس بقولها ، كما سماوا الاندلس حديقة زهرها ، وكما أصبحت سويسرا بالعلم مصيف أوربا ومشتاها قلنا إن اللسان منبع الخصام بين كثير من الامم المختلطة العناصر ومع أن في

(١) بلجيك الحديثة لشاريو H Charrault - La Belgique moderne

(٢) سويسرا الحديثة لدوزا A. Dauzat - La Suisse moderne

سويسرا ثلاثة عناصر وهي الالمانى والفرنساوى والايطالى وأربع لغات وهي الالمانية والافرنسية والايطالية والرومانشية فانها أشبه بنفسيفساء من الشعوب تلاقت وامتزجت وتعاشرت ونشأت من هذه العناصر المعزوجة روح سويسرية - أمر غريب لم يعهد له نظير في امة من الامم وأغرب منه ان ثلاثة من فلاحي سويسرا يؤسسون هذه الجمهورية السعيدة منذ عشرة قرون فتبلغ بالعلم هذه الدرجة من الرقى وما أظن في الارض أمة سعدت بحكومتها كالامة السويسرية ولا شعباً أكثر لطفاً من اهلها وهم في غناهم واقتصادهم يعلمون الامم العنيفة المقتصدة . وكان امتزاج الفكر الجرمانى بالمكر اللاتينى من آكد الاسباب في هذا التركيب الغريب فاخذ السويسرى عن الالمانى صفات التدين والبراعة والشعور بالتصامن والمظام والشمات والرغبة في الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتينى تقاليد البشاشة والادب وصحة الحكم وحسن التقليد والظرف . ولم تصبح سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلمة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براءة غريبة في حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية (١)

هذا مثال من تشدد الامم حتى الصغرى منها في عاداتها ولسانها فاحر بالعرب أن يحافظوا على شخصياتهم وكانوا في القديم أشبه بأمة الرومان يفتحون البلاد ويدخلون اليها من عاداتهم وأحلافهم ما هو في استطاعتهم ويأخذون عنها ما ينفعهم وما لا غمة لهم عنه فاصبحت بلادهم مهد الوطنية السياسية في أيامهم كاهى الحال اليوم عند الامم التي عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة في رؤسها وأعظم مثال لها الامم الفرنسوية والالمانية والروسية والاطليانية والاسبانية كما قال ديولان في كتابه سر تقدم الانكليز السكسونيين : وكل أمة في القديم والحديث تأخذ من غيرها ما يناسبها أو تدخلة الاحوال في روحها وجسمها على غير شعور منها فانا شاهدنا في الاوربيين مثالا مجسما من هذا المعنى

قال جول هورى (٢) : يمكن ارجاع الامم الرئيسة في أوربا الى ثلاثة عناصر مختلفة . العنصر اللاتينى والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافونى فالعنصر

(١) مجلة المقتبس ص ٢٦٩ و ٣٤١ م ٨

(٢) كتاب برلين لحول هورى Jules Huy - En Allemagne, Berlin

اللاتيني هم الطليان والفرنسيس والاسبانيون والبرتغاليون وقد ورثوا من الرومان مدنيتهم ولسانهم والالمان والسويسريون والانكليز والسويديان والدانمركيون والهولانديون هم من الشعوب التويونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية وأن الامم التي كان تهذيبها العقلي من أصل لاتيني هي أعرق في المدنية من غيرها ورثت الاقايلا من ذكاء الرومان ومهارتهم في إدارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم المصرية قاموا بالشاء معاهد اجتماعية نديت على أساس الوثنية

رلمسا حاءت أم الشمال تفتح بلادهم قبلت هذه الامم أخلاق الملاد التي اوسحها . فال: وهذا الملاحظات تحلف ولاشك باختلاف الأهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطنة الكمسة مثلاً في ايطاليا آثاراً لا تمحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب ان قوت العادات العسكرية وكررة الاقدام على العنثائم في الاسبابين ويقال بالاجمال ان هذا الجزء من أوروبا الذي اشتقت السننه من اللسان اللاتيني وامرج منذ الزمن الاطول سياسة رومية تقرأ في صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما مضى وثنيه . وادا كان الامم الجرمانية قاومت سلطنة الرومان لم يتشبع بالمدنية الا مؤخراً دخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية فلم تلبث في الحال أن انقلبت من نوع من البربرية الى مجمع مسيحي أما مدينة الاسكلافونيين وهي أحدث المدن وأسرعها من سائر مدنيتات الشعوب ولذلك لا يزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتداء وتفقد فيها صفات الابداع والاحترار



ولو شئنا أن نعدد الامثلة من هذا القبيل لأصاب نفوس الحضور سأم ولكن اكتفينا بما أوردنا على مسامعكم برهاناً على تمارح أجدادنا العرب بأهل الغرب تمارحاً حمد الاخلاف عاقبه وأن جمودنا عن الاخذ بكل ما في مطاوى مدنيتهم من الاوضاع أمر طبيعي يعد في باب حنا لوطنيتنا واذا كانت أوروبا ظات تتسكع في دياحي الجهالة قرونا حتى صحت نيتها على اقتباس المدنية القديمة

الرومانية واليونانية والعربية أفلسنا نحن أسرع منها خطى ولقد رأيتنا في قرن أو بعض قرن اقتبسنا طرفا صالحا لا يستهان به من علوم الغرب، وقوانينه في ترتيباته ومصطلحاته . وهاك الآن جملة لامام العرب في العقل والعلم أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله وهي فصل الخطاب في هذا الباب استمعوا اليها بقلوبكم فانها مثال العلم الناصح منذ أحد عشر قرنا وانموذج البيان العربي أذكرها لا على سبيل التفاصيل بين الامم بل للعبرة والحكمة

قال الجاحظ في رسالته الى المتح ابن خاقان في مناقب الترك وعامه حند الخلافة إن كل أمة وقرن وكل حيل ونبي أب، وحدثهم قد برعوا في الصناعات ووصلوا الناس في البيان أو فاقوهم في الآداب أو في تأسيس الملك أو في النصر بالحرب فانك لا مجدهم في الغاية وفي أقصى النهايه إلا أن يكون الله تعالى قد سحرهم لذلك المعنى بالاسباب وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وأصلح لتلك المعاني لان من كان متقنم الهوى مشترك الرأي متشعب النفس غير موافق على ذلك الشيء ولا مهيباً له لم يحدق من تلك الاشياء شيئاً بأسره ولم يبلغ فيه غايته كأهل الصين في الصناعات واليونانيين في الحكم والآداب والعرب فيما نحن ذا كروه في موضعه وآل ساسان في الملك والأتراك في الحروب . الا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العليل ثم لم يكونوا تجارا ولا صناعاً كأفهم ولا أصحاب ررع ولا فلاحه ولا بناء وغرس ولا أصحاب جمع وممع وحرص وكذ وكانت الملوك تفرغهم وتجري عليهم كنفائهم فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمعة وقوى وافرة وادهان فارغة حتى استحرحوا الآلات والادوات والملاهي الى تكون جماما للنفس وراحة اعد الكد وسروراً يداوى قرح الهموم . فسمعوا اعد المرافق وصاغوا من المنافع كاتر سطونات والقنانات والاسطرلابات وآلة الساعات وكالكوبيا والكسبوان والبركار وكأصناف المزامير والمعازف وكالطب والهندسة والايحون وآلات الحر كالمجانيق والعرادات والرتيلات والذبابات وآلة النمط وغير ذلك مما يطول ذكره . وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة يصورون الآلة ويحرقون الاداة ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به ويشيرون اليها ولا يمسونها يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل فاما سكان

الصين فهم أصحاب السبك والصبغة والافراغ والاذابة والاصباغ العجيبة
وأصحاب الخرط والدحت والتصاوير والنسج والخط ورفق الكف في كل شيء
يتولونه ويعانونه وان اخلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه . فاليونانيون
يعرفون العلل ولا يباشرون العمل وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون
العلل لان أولئك حكماء وهؤلاء فعلة وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً
ولا أطباء ولا حساباً ولا أصحاب فلاحه فيكونوا مهنة ولا أصحاب ررع
لخوفهم من صفار الجزية ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار
لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورؤوس
المكاييل ولا عرفوا الدوائيق والقراريط ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل
عن المعرفة ولم يستغنوا الغناء الذي يورث التلديد (ترك الاتجاه لشيء) والثروة
التي تحدث الغرة ولم يتحملوا ذلأ قط فيميت قلوبهم أو يصغر عندهم أنفسهم
وكانوا سكان فياف وتربية عراء لا يعرفون الغمق ولا اللثق (أى ركوب الندى
الارض وركود الريح وكثرة الندى) ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم
أذهان حداد ونموس مفكرة حين حملوا حدهم ووحهوا قواهم الى قول الشعر
وبلاغة المطلق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الاثر
وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء والبصر
بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس
وإحكام شأن المناقب والمثالب — بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية وبعض
هده العلل صارت نفوسهم أكبر وهمهم أرفع وهم من جميع الامم أنخر
ولأيامهم أذكر . وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش وهم
أعراب المعجم كما أن هذيلاً أكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات
ولا الطب ولا الفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بثق أنهار ولا جباية
غلات ولم تكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة
الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت همهم الى ذلك مصروفة وكانت
لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها — أحكموا ذلك
الامر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم ونفخرهم

وحدثهم وسمهم فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات والاعراب فيما عددنا ونزلنا وكآل ساسان في الملك والسياسة قال الجاحظ وليس في الارض كل تركي كما وصفنا كما أنه ليس كل يوناني حكيم ولا كل صيني في غاية من الحدق ولا كل اعرابي شاعراً فائقاً ولكن هذه الامور في هؤلاء أعم وأتم، وفيهم أظهر وأكبر اهـ

وقال الجاحظ في نحر السودان على البيضان يعير بين اليهود والصينيين : وأما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب ولهم الخط الهندي خاصة ويقدمون في الطب ولهم أسرار بالطب وعلاج فاحش الادواء خاصة ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصماغ تجرد من المحاريب وأشباه ذلك ولهم الشطرنج وهي أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة ولهم السيوف القلمية وهم ألعاب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها ولهم الرقي النافذة في السموم وفي الاوجاع ولهم غناء معجب ولهم الكسكة وهي وتر واحد يمر على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ولهم ضروب الرقص والخفة ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة ولهم معرفة المناصفة ولهم السحر والتدخين والدمازكية ولهم خط جامع لحروف اللغات وحطوط أيضاً كثيرة ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب في الفاسفة والادب وغنم أخذ كتاب كلية ودمنة ولهم رأي ونجدة وليس لاحد من أهل الصين ما لهم ولهم من الرأي الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلة والقرود والسواك والاحتباء والفرق والحضاب وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق والى لسائهم تصرب الامثال ومن عندهم جاؤا الملوك بالعود الهندي الذي لا يعد له عود ومن عندهم خرج علم الفكر وما اذا يكلم به على السم لم يضر وأصل حساب النجوم من عندهم أخذ الناس خاصة .

هذا أجمل وصف للأمم القديمة في الحصار وما امتار به الأبيض والأصفر والأحمر والأسود والفروق لا ترتفع من بين الأجيال الا بالتربية والتهذيب والعلوم الأدبية الصحيحة وتبقى كل أمة في العاقبة على ما لا غنية لها عنه وهو من دواعي أفقها وتاريخها — والرجاء معقود بأن يكون الدور الجديد الذي تدخل فيه العرب اليوم دور التجدد والنشوء الاجتماعي الكبير فتنبذ كل ما لا يمس

أصلاً من أصولها القديمة وتقبل كل حديد فيه النهوض والاعتلاء وأن يعطينا الغرب القدر الذي أحذه من علم أجدادنا يستعين به على قيام أمرنا فان الأيام دول والدهر بالناس قاب حول فسحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو القاضى الباسط المعز المذل .

ارتقاء العرب وانحطاطهم^(١)

بحثت الأمم المحصورة منذ الزمن الاطول في الاحلاق وكان لمؤلفي العرب حظ وافر في هذا الموضوع شأنهم في أكثر العلوم التي عالجوها وبحجوا في الخوص فيها . وأكثرت العلماء على أن الاحلاق تصلح بالتعليم والتربية ولا سيما ما كان منها مستماداً بالعادة والتدريب . وليس من الغريبة في شيء . فان من غلبت عليه السويداء أو الحدة مثلا لا يطمع في استصلاحه الا اطول الزمن والتوفر على المعالجة والمرء يبتذل بالآداب والمواعظ اما سراً أو علاناً . ومن قال ان الخلق طبعي لا يخرج الا انسان عن أحكامه فقد قال على راي ابن مسكونه باطال قوى التمييز والعقل ورفض السياسات كلها ورك الناس همجاً مهملين وبرزك الاحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه غير سياسة ولا تعلم .

لا حرم أن الأقليم كالحرارة والرودة والاعمدال والخصب والقلة تأثيراً كبيراً في الطباع وهي من حملة العوامل في ارتضاع الامم وتدليلها ولكن ما ينقص بتأثير المحيط والبيئة والهواء قد تجره الرية .

وقد رأينا العرب قاموا من جزيرتهم وهي في غاة الحرارة وكانوا نصف متمدين فانتلوا على الشرق والشمال وفتحوا فارس والشام ومصر وغيرها ولم يعقبهم عائق من اقليمهم وحرارته واوغلوا عليهم رأيداهم وقد طهر الاسلام من اخلاقهم وهذبتهم وعلمهم العسر والمصاء والرفق والتسامح والترفع عن الدنيا فنشروا في البلاد المغلوبة في سمين قليلة دنهم ولسانهم على صورة لم تكند يسبق لها مثيل في العالم . ولا يذكر أنه كتب لأمة أن غلبت ونمت مثل هذه السرعة فقلب وجه الأرض وأطاعها العناصر والادبان المختلفة في آسيا وافرقيه وأوربا

(١) محاصرة القيماها بدمشق على جماعه المعلمين والمعلمات في مدارس الحكومة

فلو كان للحرارة في قيام الأمة أو الفرد كل ما يدعيه بعضهم من التأثيرات لما
انشأت العرب مدينتها ولا ارتفعت في الارض قروناً كلمتها . قال بنتام صاحب
روح الشرائع : الظاهر كل الظهور ان سكان البلاد الحارة أقل قوة ونشاطاً من
سكان البلاد الباردة وحاحتهم للعمل أقل لخصب أرضهم وهم أميل الى العشق
واللذات تبادرهم مظاهرها

وهذا القول لا يصح على اطلاقه لأن التاريخ قد أتى بأمثلة كثيرة قديماً
وحديثاً على نقض هذا الرأي فالعرب في القدماء واليابان في المحدثين أكبر دليل
على نقض قول بنتام وادا كان للهواء اعص المأبى في النشاط فان البرودة تأثيرات
أخرى تعوق العقل الاساني عن كل ما ينتظر منه . وادا قيل ان شمالي كل مملكة
في أوروبا وأميركا أرقى مدنية من جنوبها في العادة فلذلك غير امل أخرى تاريخية
وسياسية فما يرى وادا كان شمال فرنسا يتقدم جنوبها من حيث الاربعاء وشمال
ألمانيا وشمال إيطاليا أرسخ في المدنية من جنوبها وأميركا الشمالية أعلى كعباً
في هذا المعنى من أميركا الجنوبية فقد رأينا جنوب أوروبا على عهد الرومان
والعرب يتقدم شمالها بل رأينا جنوب بلاد العرب أرقى من شمالها على عهد عز
الأمة العربية . وهذا يرجع الى الحكومه في أغلب الحالات واتخاذ البلد الملائي
مركزاً لتوفر الحماية به وبأهله فتناول المدينة الأقرب فالأقرب من نقطة
دائرتها .

فالعول أن شعوب البلاد الحارة يحكم عليها اقليمها فلا تفور بكثير أمر
في المجتمع الاساني قول فيه لطر لأن العقل والتهذب اللذين بهما حياة الممالك
وسفوطها تنشأ من البلاد الحارة كما ينشأ من البلاد الباردة .

ولو اقتضى أن يكون سكان كل بلاد باردة راقين في مناحيهم وحضارتهم
لاسلمم أن يكون سكان سبيريا أرقى من سكان انكلترا ولو كان أهل كل بلاد
حارة منحطين لما شاهدنا المصريين اليوم اصبحوا بالترقية في أربعين سنة يشبهون
الراقين من أهل أوروبا وأميركا بل ولترتب على ذلك أن يكون سكان جنوبي
أمريكية وأكثرهم من طالية هولاندة منحطين مثل جيرانهم السودان لغلبة
الاقليم على طباعهم بعد اطون وأجيال .

قال فوليه الفيلسوف الفرساوى : لقد خرج كثير من الشعوب الفاتحة من البلاد الحارة مثل العرب على عهد عمر وعثمان وكذلك الموحدون والمرابطون أما القول بأن البلاد الحارة تولد القسوة على رأى مونتسكيو فقد شوهدت القسوة ماثلة للعيان فى تاريخ عامة بنى الانسان . رأيناها متجلية فى اليونان ورومية وايطاليا واسبانيا وانكلترا وروسيا كما ظهرت فى مصر وأشور وفارس . ولقد سكن الاسكيمو فى بلاد بادرة فكانوا أكثر توحشاً من الذئاب والذبابة التى ملأت صحاريهم . اه

اغداد من البلاد الحارة نشأت فيها مدينة عربية مدهشة ولما انتظمت حكومتها وحسنت تربيته سكانها أفادت النور على الارض كلها فعد عصر المأمون فيها من العصور الراهرة بكل العلوم والصناعات كما عد عصر بكرليسى فى أتبنة وعصر أغسطس فى رومية وتعد القسطنطينية من الأقاليم الباردة المعتدلة حاول محمد الفاتح أن ينشئ لها مدينة مع ما كان فيها من أثر لا يستهان به من بقايا عز قديم فلم يوفق الى ذلك فغلب طماع الترك طماع الاقليم . والترك أمة صربية لم تعهد للترقى الحقيقى عصراً وكانت قرآنح أبنائها محصورة على الدوام فى الحرب فقط فلما كانت الغلطة لهم والفتوح مواتية والعيش رخاء لم يتأدبوا بأدب النفس ولم يدخلوا فى التربية الصحيحة من أبوابها ولذلك لم نستقم لهم حضارة ثابتة وقضى الترك على آحر آثار مدينة البزنطين يوم حلوا محلهم واستولوا على تراثهم كما قضوا على البقية الباقية من مدينة العرب وغيرهم من الامم ذات المجد المعتبر ولم يتيسر لهم وياللاسف اقامة شيء جديد ولبس الذنب فى ذلك كله على طماع رسخت فيهم بل العيب كل العيب على نظام حكومتهم وغلوهم فى تكبير رقعة مملكتهم مع سوء ادارتهم فقد رأينا شعوبنا أخط منهم جنساً ألسأوا لهم مدينة وأحسنوا لمن الضووا تحت رايتهم على الاغلب أما الترك فكان رائدهم فى فتوحاتهم الغزو واستجلاب الغنائم ففجحوا بلاداً يستحيل عليهم ان يخضعوها لسلطانهم أبداً لان أهلها أرقى منهم مدينة وعنصراً ولا يرجى أن يكونوا منحطين عنهم أبداً . وفى تاريخ استيلاء الترك على المجريين واليونانيين والرومانيين والصربيين والبلغاريين وفى

حالة هذه الامم على عهد الترك وحالتها بعدهم أكبر دليل على أن العبرة في الفتوح بالاخلاق الفاضلة والطباع اللينة واقتناس النافع من أسباب النشوء والارتقاء بالقوس والنشاب والمدافع والحرب

حكى لي أحد قناصل فرنسا على عهد العثمانيين في هذه الحاضرة انه كان قنصلاً في طرابلس الغرب وكان صديقاً لاحد كبار عمال الاتراك هناك وكان هذا لا يفتأ يظعن في العرب ويبدى الاشمئزاز من حالهم . فلما عيل صبر القنصل الفرنسي وكان محبباً للعرب يعرف لسانهم وتاريخهم ومدنيتهم فاتح صاحبه ذات يوم بالأمر وسأله عن سر كراهيته للعرب فأجابه العامل التركي اني لا أعرف لذلك سبباً الا ما أراه من انحطاطهم . فقال له : سأمحك الله ان العرب استولوا قروناً على كثير من البلاد التي استوليتم أنتم معاشر الترك عليها كما استولوا على غيرها ، وهاهي آثار مدنيتهم ظاهرة الى اليوم من بلاد اسبانيا الى بلاد الصين وأنتم قد حكمتهم قروناً أيضاً فأين مدنيتكم ان لم تكونوا قصيتم على حضارة من سبقوكم وخربتهم العامر منها فاذا انحط العرب فبسياسةكم أنفسكم . فدهش العامل التركي ولم ينبس بينب شفة ورجع عن النيل من العرب .

وعندي ان ذلك العامل لو درس ولو قليلاً لغة العرب وتاريخهم لما بدا منه هذا السخف في اسقاط أمة عظيمة جذيرة بالتجلة . وهيئات أن يلبسها غير صورتها الحقيقية بمجرد ثمرات يلوكلها وترهان يدلي بها .

ومثل هذا العامل اذا تولى ولاية وكان ذا ارادة قوية يؤخر من تحت يده ولا سيما اذا كانوا عرباً عقوداً من السنين الى الورا ، وبهذه المناسبة أذكر لكم قصة وقعت لي بالذات مع وال من ولاية دمشق على عهد العثمانيين وكان ثمراناً مثل أكثر عمالهم تظنه لأول وهلة على شيء من العلم والفهم حتى اذا ما درست أخلاقه وجدته قاسياً جاهلاً ليس عنده شفقة ولم تتشبع روحه بالتربية الفاضلة وعلمه طلاء كالتقصب الذي يعلقه على صدره ليتراءى لك لأول أمره ذهباً ابريزاً . كتب الى قائم مقام عجولون مرة يقول لي إن أهل قضاة عزموا على ان ينشؤا ستين مكتباً أهلياً لتعليم أحوالهم وانهم جمعوا لذلك المال فهو يرجو ان ينتخب له ستين معلماً فشرعت أبحث مدة ثلاثة أشهر عن كفاة يليقون للتعليم فلم أجـد سوى ثلاثة

عشر ولما عازمت على تسفيرهم من الغد أخذتهم الى الوالى وذكرت له قصيتهم ليطلع على الامر قبل أن يطلعه عليه حواسيسه فكان أول سؤال سألم اياه هل تعرفون التركية ولما أجابوا غير الايجاب امنقع لونه والفت الى قائلاً : وكيف ذلك فقلت له : أرجو أن يتعلموا ومهمتهم الآن تعليم أبناء الفلاحين منادى القراءة والكتابة والحساب والامور الدينية فقط فسكت و بصرفنا . وبعد ساعتين اتنى برقية من قائم مقام عجلون يوسل الى أن لا أرسل المعلمين بعدان كان يلح في ارسالهم فعلمت عقيب ذلك ان الوالى أبرق لعامله في جبل عجلون بعد حروحي من عنده يلومه على اعتماده على في انقاء معلمين لمدارس أهلية . ولما عادت الوالى في إحدى العشايا قال لى : وهل أنت وكنت تظن أن الدولة تعطيك سلاحاً تقا تلونها به . ان من سياستنا ان لا تتعلموا فتألمت نفسى وأقسمت في سرى أن هذه الدولة لا تدوم وكل دولة بعد جهل الامة سلاحها في المحكم برقاب من تحكمه تهلك وإياهم . والعدو العاقل خير من الصديق الجاهل .

رحع الى العرب ومدنيتهم - وان أحلاقهم كانت سبباً في علوهم ولما فسدت فسدوا وراجع سلطانهم فقد ذكر المؤرخون ان العرب أسسوا أيام جاهليتهم ممالك صغرى في العراق والشام وانتشروا حلف شبه جزيرتهم ومنهم من سكن بوادى مصر وملكوا بالارث جميع صحارى أفريقيا منمصلين من أعلى شمال آسيا برمال كالبحار أمنوا بها هجمات الماتحين وانهدوا بحريتهم وعظمتهم لجلالة أصولهم وشهامتهم وفصاحة لغتهم الباقية على نقاتها وانجروا مع من يأتى الى مراكزهم من تجار الجنوب والمشرق واكتسوا معارف من جاورهم من الامم فكانت الامة العربية متغللة على من حاورها مدة أربعة آلاف سنة

قال سيد يلبسو صاحب تاريخ العرب : وبما انفردت به الامة العربية من جميل الأخلاق والعادات كانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأموورها متأهبة للاغارة على مجاورها وقد استولت على مملكتي مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذت من مملكتها من البلاد الأجنبية وانحصرت سلطتها في مملكتها الأصلية فأخذت تحارب الفراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش ملك الفرس

والاسكندر المقدوني وبقيت على استقلالها زمن أحد الرومان القديم ثم جاء النبي (عليه الصلاة والسلام) وربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنهم حتى امتدت سلطنتهم من نهر التاج (المار ناسبانيا والبرتقال) الى نهر الكنجج (أعظم أنهار الهند) وانتشر نور المعارف والتدوين في المشرق والمغرب وأهل أوروبا اذ ذك في جهل القرون الوسطى وكأنهم بسوا ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان

وقد غنى العباسيون ببغداد والأمويون بقرطبة والماطيون في القاهرة بنشر العلوم والفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية ولم تبق لهم الا السلطة الدينية التي استمرت لهم في سائر أرجاء ممالكهم وكان لهم من العلوم والصناعات والاكتشافات ما استمده منهم نصارى اسبانيا حين طردوهم منها ، فقد العرب في أواخر القرن الثامن بعد الميلاد حماسهم الحربية وشغفهم بالمعارف فمالئت قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومرآكش والرقه واسفهان وسمرقند تناظر بغداد في الأخذ بأسباب العلوم والمعارف . وقرىء ما ترجم الى العربية من كتب اليونان في المدارس الاسلامية وبذل العرب همهم في الاشتغال بجمع ما ابتكرته العقول البشرية من العلوم والفنون واعرفوا في معظم البلاد خصوصا في الاصقاع المسيحية من أوروبا بابتكارات تدل على أنهم أئمة المعارف وقد مارسوا العلوم الصحيحة على غاية النشاط من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر (من سنة ٢٨٨ — ٩٠٧ هـ)

وقال جيون في كلامه على حماية المسلمين للعالم في الشرق وفي الغرب ان ولاية الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعماء ووسط اليد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة المقراء على طلبه وكان من ذلك ان ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة وقد أنهق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد (المدرسة النظامية) وجعل لها من الربيع ليصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة وكان الذين يغدون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أقر الصانع

فيها غير ان الفقير ينفق عليه من الربيع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه وكان المعاصرون ينقدون رواتب وافرة

ذاك رأى سيديليو في العرب وأخلاقهم وما نشأ عنها وهذا رأى جيون وإعجابهم بمدنيتهم فماذا وقع لتلك النفوس الأبية وذاك العمران المستمر ، لا جرم ان لانحطاط الشعوب عوامل كثيرة طبيعية وأخلاقية وبهذه العوامل أصيبت الأمة العربية كما أصيبت الأمة الاسبانية . فالعرب والاسبان يتشابهون من وجوه كثيرة . نشأ العرب كالاسبان من شبه جزيرتهم في الجنوب الغربي من أوربا وأولئك نشأوا من شبه جزيرتهم في الجنوب الغربي من آسيا . العرب فتحوا بلاداً كثيرة ومنها البعيد الذي وزعوا قواهم في استصفائه وادارته وكان يفصلهم عنها البحر ففتحوا الأندلس وصقلية بل وجميع الجزر الكبرى في جنوبي أوربا كما توسع الاسبان في فتوحهم على عهد شارل كان فحكوا جزءاً مهماً من أوربا ثم ركبوا البحر فاستعمروا معظم بلاد أميركا الجنوبية . ولو تأملنا عوامل الانحطاط التي فعلت في الاسبان لاثبتنا لها مثالا في مجتمعا فقد ذكر نوليه ان العنصر الاسباني أصيب بما استنزف دمه وصرف من قواه كل طاهر وحى وكثيراً ما أتت عليه أدوار هلكت في خلالها عناصره الحية وطاقاته العالية فان ديوان التفتيش الدينى قضى على كل من كان من ايمان ومعتقد خاص وفكر مستقل و ارادة لا تقف أمام ما فيه المصلحة ووجدان لا يلتوى ولا يتحول وعلى ذلك العهد وبسوء هذه السياسة تداعت كثير من البيوت والأسر ، ومنها ما كان بنوه من أهل الطبقة الممتازة بقرايحها وعقولها فدعا فقدها الى انقراض الصناعة والعلوم والآداب .

ولقد استعملت اسبانيا أقصى الشدة في قصاص من خالف دينها الذى تعتقد به ثم أخذت تختار ممن تعدهم مؤمنين أناساً هم من أذكياها وتقضى عليهم بالتبتل والترهب فلم يولد لهم واندثرت أنسالهم وذراريهم . وما من زمن جاء على اسبانيا كان فيه السعد والرغد والحياة والنماء على حصة موفورة أكثر من أيام الرومان ومن غيرها على عهد الحضارة العربية في القرون الوسطى فكان اذ ذاك فى اسبانيا أربعون مليوناً من النفوس أرباب صنائع وأهل عمل وفى تلك الايام

قامت فيها المدن الكبرى الجميلة التي لم نبرح نعجب بحسن هندستها ونددهش
بخرائبها وعلى ذلك العهد كانت زراعتها ناحجة وبفضل هندسة العرب كان الماء
يجرى الى كل مكان في فلات اسبانيا وقفارها

ثم نشبت حروب شارل كان التي جن بها وأهلك من الاسبانيين كل قوى
الشكيمة في سبيلها وكذلك ما تذرعت به اسبانيا من فتوحاتها في أميركا وهي
فتوحات فقد منها المحاربون الاشداء أصحاب العزائم والارادات القوية ثم ان
طرد اليهود من اسبانيا (سنة ١٤٩٢) وطرد العرب أجمع (سنة ١٦٠٩ — ١٦١٠)
قد حرم اسبانيا من شعب عامل نشيط . وفي أساطير الشعب الاسباني ان اسبانيا
طلبت الى الخالق منذ البدء سماء جميلة ونالها وطلبت بحراً جميلاً ورزقته وأثماراً
طيبة ونساء حسناً فقارت بهما ولما طلبت حكومة صالحة رد قولها لانها اذا تم لها
ما تريد تصبح جنة أرضية لا محالة . قلنا وهكذا كان شأن الشعب العربي تفرق في
جنوبي أوربا وشمالى أفريقية وغيرها وجاءت عليه سبعة قرون وهو السائد في
العالم بسياسته وعامه وصناعته وآثاره فكان قوله الفصل وسياسته هي الرشيدة
فلما أخذ بعض ملوكه يحاربون العقل ويعادون الفلسفة بل يقتلون أهلها وجدوا
بأن أوصدوا باب الاجتهاد في كل شىء وزهدوا في الصنائع النفيسة مدعين أنها
مما يحظره الشرع مع أن الشرع مرن يليق لكل عصر ومصر . أسرب اليهم الخرافات
فانشأوا يعتقدون بالقضاء والقدر على خلاف ما كان يعتقدوه أهل الصدر الأول
فقل فيهم أرباب البصيرة وضعفت فيهم الأسر الزكية . ثم ان الحروب والفتن
الاهلية والخارجية التي تنازعهم قروناً قد هلك فيها أناس من أهل الطبقة المبيلة
فيهم . ومنهم من لم يعقب والغنى الذي خلف أولادا فطروا على الترف والرفاهية
فاسرفوا في أموالهم وقواهم في الموبقات فدثروا ودثرت أسالهم — ومما طاق
مجتعنا في ميدان الترقى أساطر رجال الدين على جمهور الشعب وعلى أكثر
الحكومات زمناً طويلاً وساقوها الى دركات التأخر بحسب أهوائهم وضعف
مداركهم وعلمهم الناقص ومن رجال الدين والقضاء من ليس لهم من العلم الا
العمائم ومن الأخلاق الا اختراع الطرق السافلة لاخذ الأموال بالباطل . ومما رحت

الحكومات التي تسلطت على العرب تقرب عن قصد الجاهل من أهل تلك الطبقة على العالم فيعيب الجاهل بالمقدسات ويستحل المحرمات عن علم وعن غير علم حتى جاء زمن على الأمة كانت فيه جاهلة متمصصة فقيرة ذليلة متسفلة في أخلاقها وعاداتها . ومن عيوب الحكومات التي استولت علينا وكان أثرها ظاهراً في الاخلاق اعتماد الناس على الشفاعات والمصالعات والرشوات حتى كان الملك نفسه اذا لم يهد اليه عاملة هدية يريد بها يعزله أو يقتله فكانت الأمة من أرقى رحل يحكم في أرواحها الى أدنى الطبقات فيها بين راس ومرئش وسارق ومسروق فضعفت ملكة الشم وعزة النفس والمفاداة والأمل وحل مكانها الذل والكسل واليأس ثم ان تلك الحكومات المشؤمة لم تنظم شؤونها ولم يكن لها تسلسل في أفكارها فا كانت تقرر وتعمد عليه من القوانين رمن الحاكم الملاني يأتي خلفه فينقصه من أساسه ويبتدع غيره ولذلك لم يقم لها عمل يذكر من أعمال العمران لان حكامها يحكون باذواقهم فهم أبداً ما بين مبرم وناقض يعيب الخلف بما تعب فيه السلف .

ومن جملة الأمور التي عمتها البلوى فساد نظام البيوت بتعدد الزوجات والاكتثار من التسرى على غير داع ففسد كثير من الأسر ونقلت نيات الأولاد وقل تبادل الحب بين أبناء الأب الواحد والمحط التربية ولم تنتقل ثروة قروناً من الاحداد الى الاحفاد حتى ولو وقفها صاحبها الأول اذ يحيى أناس من بعده يستحلون أكلها وتغيير شرطها . ثم ان التربية الاتكالية تأصت في الأمة حتى لا ترى فيها على الاكثر الارحلا يفكر في الطرق القريبة للثراء والراحة فان كان ابن ذى نعمة ينتظر مند وعيه على نفسه أباه أو أمه أو مورثه حتى يموت فيستمتع على هواه بالمال من دون تعب ويطلق لشهواته العنان والغالب أن ابن الموسر لا يعمل ولذلك قلما دامت ثروة هنا ثلاثة بطون وقلما رأينا شبانا يعتمدون على أنفسهم في تحصيل الثروة ويعدون الماهر فيهم من يساعده التوفيق فيتزوج من فتاة عندها مال غير ناظرين الى شروط الزواج بين المتزوجين . ولحفظ الثروة رأيت بعض الاسرا تتهامل في تزويج الاقارب فتزوج شبانها من بناتها حتى ضعف النسل وكثر البله والزمنى والمرضى فيهم وربما عصل كثير من الناس بناتهم

ومنهم عن الزواج استبقاء للارث في الذكور دون الاناث وكثير من الاسر تحرم الاناث ارثهن وتعاملهن معاملة البهائم ولذلك تعطل جانب عظيم من الامة وهم النساء وطمهن الرجال أى ظلم فلم يفكروا في تعليمهن حق التفكير ولا في سعادتهن الحقيقية كأن المرأة حلت بلا نفس كما كانوا يعتقدون في القديم في بعض بلاد الافرنج

ومن دواعي الانحطاط أن الهمة في الفرد عندنا لا تنبعث الى أقصى حدودها فاداء تدوق المتعلم لمأظة من العلم يطن من نفسه الغناء في كل علم ويكتفى بما لفته في صغره فلا يعمد الى البحث والنظر وتممية معلوماته وايجاد الجديد واخترع المعبد بل يعتقد أن العمل كله في المدرسة فاذا انتهت أيامها فليس له الا الراحة واستثمار ما اعلم بجاء متعامونا وسطا في كل شيء . والوسط لا يعمل عملا في هذا المجتمع البشرى . وكذلك الحال في الصانع والماعن والزراع فأصبحنا أمه لانرى فينا مالياً متفمناً ولا رارعا من العمط الاول ولا رساما نابغة ولا نقشأولا كياوياً ولا ميكانيكياً ولا غير ذلك ممن تشتد حاجة العمران الى تكثير سواد العاملين فيه ولذلك ندر فينا النوانغ وانقطع سمد هذه العلوم من الامة بجاءت عليها قرون وهي تحسب أن العلم كله محصور في بعض العلوم الدينية واللسابية وعندهم ان من روى حديثاً نمويّاً أو شارك في مسألة من فروع الفقه أو قرص بيتين من الشعر عد محدثاً أو فقيهاً أو أديباً

ومن بواعث ندلينا في سلم الاحتماع انما لانحس العشرة ولا يحسن الاحتماع وذلك لاحتلافنا في طرق التربية لأن ابناء الوطن الواحد لا يرمون في تعاليمهم الى مقصد معين فاذا حللنا تحليلاً كياوياً دقيقاً نجد الامراء المنعاهين منا لا بأس بهم بالنسبة للمجموع هنا بل بالنسبة للمتعلمين من الغربيين ولكن اذا جئت تنظر فينا مجتمعين تكبر علينا أربع تكبيرات ولذلك جاء كل عمل تقدم بمعناية الجماعة عندنا منحنطاً أكثر من عمل الفرد على خلاف سمة الامم . من أحل هذا لم تنشأ لنا حتى اليوم جمعيات ولا مجامع ولا مجالس ولا شركات تجمع من القليل كثيراً وتضم متفرق القوى ومشتت القرائح والافكار فتحي المعالم وتفيد البلاد في اقتصادياتها ومعنوياتها . هذا القول في الرجال فما الحال بربات الحجال

اللاتى صاهين فى الغرب الرحل فى علمه وعمله الا قليلا وانحططن عندنا أى انحطاط
اعد ان كان منهن عندنا المفسرة والمحدثه والراوية والشاعرة والادبية والطبية
والواعظة والخطيبة المؤثرة

قال صاحب روح الشرائع : اذا أردت أن تعرف ملكات أمة من الامم
مادية كانت أو أدبية فارجع الى إدارة التربية فيها وتوزيع الخدم ونشر المكافأة
ونوقيع العقوبات تعلم ماتريد . وقال انظر الى بلد كثرت فيها المظالم وامتد بقاؤها
وارتفعت ثقة المالك فيما ملكت يميمها ترى الزارع تسقط همته وتبخل قوته وان
استمر على الزراعة فلكيلا لا يموت جوعا كأنما يطلب من الكسل مسليا على آلامه
ومصائبه وكذلك تسقط الصناعة لسقوط الامل فى النجاح وينت الشوك فى
أجود الاراضى

وقال فوليه : لشوء الشعوب على ما أبانه الدرويديون طريقان : الجماعة
والانتخاب الطبيعى فالشعب فى الحالة الاولى خاضع لتأثيرات متشابهة من المحيط
والاقليم وفى الحالة الثانية يعيس فيه بعض أفراد فقط يكون نظامهم الخاص عون
لهم على التمثل والاحتداء فيعاشون ويتركون لهم أسالا وهكذا يتحول المجتمع
ناطراح بعض الاسرات وبعض العناصر الخاصة ويعمل الانتخاب الطبيعى على
كل سرعة أكثر من المحيط والاقليم ولكن يهلك فى سبيله كثير من الخلق فله
يتوهم متوهم أن شعباً يندقل بمجموعه من الشباب إلى سن الرشد ثم إلى
الشيخوخة بل ان الشعب يرتقى بواسطة الانتخاب الطبيعى وتحكيم الصفات التى
تحمى الافراد ومتى ظهر الهرم والسقوط تصبح أحسن مقوماته وقد داهمتها عناصر
أصغر منها ونزلت منارها

قال : وعوامل الانتخاب الطبيعى التى تجرى بين الشعوب المختلفة هى الحرب
والاستعمار ونمو السكان والمنافسة فى التفوق الاقتصادى والسياسى والعلمى
أما عوامل الانتخاب الطبيعى التى تفعل فى نفس الامة فهى الحرب والحد
العسكرية وتنقل الافراد فى ربوع الوطن الواحد ونحو سكان المدن وعقو
المجرمين ومعاونة الفقراء والمحاويج وتشريد المسيئين للدين أو لغيره واضطهاد
وانتشار الشفاعات السياسية كأن لا يحمى صاحب الشأن غير جماعته وجملة حاش

والنفور السياسى والفردية والشرائع والعادات والافكار الاجتماعية والدينية بشأن الزواج واجتماع الجنسين الذكر والانثى و ارادة النهوض هذه أهم العوامل التى تنمى أمة أو تقرضها وتحسن سيرها أو تسيئته وبعد فان الناظر فى ماضى الامة العربية وحاضرها يدهش للفروق الكثيرة المحسوسة وعند ما يشاهد حرائيم النهضة وعوامل الحياة تنشر وتندب فى جسمها اليوم يعتقد بان الحاضر سيكون على مثال الغابر أو أجمل منه وعلى طريق نافع والامل معقود فى هذا الشأن على المعلم والمعلمة فقد قيل : لولا المرئى ما عرفت ربى .

لاجرم أن الغيور على قوم يفادى بكل نفيس ليحمل اليهم الخير والكامل من سعى الى تكميل غيره وان كان ناقصاً والجاهل فى ذمة العالم له عليه حق التعليم والاشترك فى النعمة .

أتم أطباء أرواح . والارواح تفضل الاشباح . فهل عهد طيب لا يعالج حتى عدوه بما يصلحه وينفعه فى صحته دع صدقه وأخاه وابنه وابنته . بايديكم إصلاح هذه النفوس الصعيفة المحططة فى معارفها وتربيتها وترقية مستوى البيوت وثقوا أن فتى واحداً وفتاة واحدة اذا علم وتهدب يدخل على أسرة كبيرة المظام وفى الجملة يلقنها الشعور بالحاجة الى التعلم أى أنه يسوق آله الى أول مراتب الكمال وكل هذا العمل الجليل هو عمل المعلم والمعلمة لا محالة .

وربما كان واجب المعلمة فى هذا الشأن أعظم من واجب المعلم لان مجموع النساء عندنا فى الغاية من الانحطاط ولاعرة بالقائلات المعامات مهن وأكثر ما تعلمن حتى الآن القشور ولم ينفدن فيه الى اللباب على ما يجب . وأى وطنى لا يملكى لجهل المرأة المسامة علة العمل فى انحطاط المجتمع الاسلامى ومن منا يكر تأثير المرأة فى كل هضة . وهذه المرأة المصرية والمرأة التركية قد أتبا فى الحوادث الاخيرة ما دل على أن القوم فى القاهرة والاسماة أخذوا بنحط وافر من العناية بالمرأة وما أحرانا فى الشام أن نحتدى مثالهم وهذا قريب الحصول اذا قام المعلم والمعلمة بواجبهما حق القيام والسلام

اعداء الاصلاح

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والساالكون طريق الحق افراد
لا يعرفون ولا تدرى مفاصلهم فهم على مهل يمشون قصاد
والناس في غملة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد
ما حلا عصر من عصور الاسلام من اعداء لكل جديد ومن جامدين ينكرون
كل ما لا يألون فقد لقي المعتزلة والملاسنفة والمسكرمون والنظار من اعداء
العقل كل شدة في القرون الراقية ، وكان عقل الملوك هو الذي يحول على الاغاب
بين الجامدين وس ما يشتهون . من الاعتداء على القائميين بتأييد سنن العقل ،
والناصرين بأقوالهم وأفعالهم مذاهب السنة والمقل ومن نظر نظرة مجردة عن
الغرض في سيرة المناهضين للمصلحين على اختلاف الأعصار ، مجدهم حروا على
غير ما يعنفون وطلبوا بمقاومة المصلحين ارضاء العامة ونيل الحظوة لديهم ،
واستتباع الجاهلين من الملوك والسلاطين ، وقايل جداً من كان الاخلاص رائدهم
في اعمالهم وما آتاهم

يقاوم في العادة الخامل النابه لتكون له مكانة كمكانته . وتتجاهل الجاهل
على العالم ليعرف بين قومه بأنه قسيمه في صناعته ، ومثيله في فضيلته . ويظعن
الجامد المحرق على من يحب أن يعبد الله بعمل ، ويبحث في عالم الكون والانساد
بروية ، ليتظاهر بأنه اعيد الغور شديد الغيرة ، وما أقواله الارياء . وما افعاله
الا وسارس وأهواء .

لقي المصلحون من الاهاويل في الأمة العربية أكثر مما لقيه أمثالهم في الأمم
الآخري فيما بحسب ، وخصوصاً بعد القرن السابع وقد توزعت بلاد الاسلام
ملوك الطوائف ، وكان أكثرهم على جانب من الجهل والغباوة لا يهتمهم الارضاء
المشعبذين بالدين ، ليحولوا العامة اليهم فيقوى بهم صمعتهم ، ويستعينون بهم على
تكبير رقعة ممالكهم ، وبسط ظل سلطنتهم على النفوس فيستمتعون شهواتهم
وبذخهم ورفاهيتهم .

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه بدنياه سواء فهو من ذين أعجب
ساعد على الانتقام من العالمين العاملين أناس من أرباب المذاهب سرت احكامهم
بقوة أربابها . فكان الحكم يحرى على المبتدعة وأرباب الاهواء يزعمهم بموجب
قوانين لهم سواها ، ومنها المذهب المالكي الذي كان بحكم قاضيه يقتل أكر عالم
في الأمة — والقتل يعد من التعزير في مذهب مالك — خالف المؤلف من العادات
التي اعتقدتها من أصل الدين ، وعد الخروج عنها كعراً والحاداً ، وما أسهلهم
وأسهل صدور الحكم بهما من اعداء الاصلاح المباحكين
سالت الدماء كالأودية في بغداد للفتن بين الحنابلة والشافعية مرات ، وسالت
دماء كثير من الخاصة في كل قرن وعدبوا وأودوا بواسطة أرباب المطاهر من
المتنطعين . ممن شق عليهم ان يروا كلمة الاصلاح الديني والديوي تعمل في الارواح
فعلها المطلوب ، حدثهم أنفسهم ان يتساوى المتكرون وغيرهم في نظر العامة
ان لم يتمكنوا من اسقاطهم . ليخلوهم الجو . ويقتصر في تقبيل الايدي . وطلب
الدعوات ، والتماس البركات ، عليهم دون سائر المتسبين للعلم والشراعة .
ومن غريب اسرار الله في خلقه ان جميع من قاوموا المخلصين من المصلحين
دُروا ودثرت سماؤهم ، وظلت اسماء من عادوهم وآدوهم تشهد بالجهل المركب
على اعداء العقل السليم والتعاليم الصحيحة
أين اعداء الغزالي والسهروردى والآمدى وابن حرير وابن تيمية وابن رشد؟
ذهبوا كلهم كأمس الدابر . وبقيت الامة تردد على وجه الدهر أسماء هؤلاء
المصلحين العالمين ، وتتناقل ما خطبه أناملهم من سطور الاصلاح « فأما الزبد
فيذهب جفاء وأما ما نفع الناس فيمكث في الارض »
لا يذكر التاريخ اليوم إلا افراداً ممن ناوأوا رجال العقل الرحيح . والنقل
الصحيح . اشتهروا لاحسبكا بهم بالحكام وموهوا على العامة بحسن حالهم لمظهر
دنيوي أرادوه وحطام من الدنيا تطالت نفوسهم لان يقتنوه كأن يكون أحدهم
قاضياً يخاف أن يشركه ذلك العالم المستنير في قصائه . أو شيخ عامة حديثه نفسه
بالاستئثار بهذا المظهر الذي يعتقده جماع فصائل الدنيا والآخرة .

أمثال هؤلاء الممخرقين المنافقين ، بدلوا المعالم والتعاليم مرصاة لارباب الرئاسات والزعامات . وسجلوا على أنفسهم العار للنت فيما لم ينزل به سلطان ، وجازوا حد الشرع وهم يتظاهرون بأنهم المؤتمنون عليه ، ومنهم ومن أعمالهم يشكو ويئس كما تنكرو المدنية والاسانية

وهل أفسد الدين الا الملو ك وأحمار سوء ورهبانها

ان من يتظاهرون بالدين وباطهم منه برىء أضر على الدين ممن يعقونه . ومن يدعو في الغالب الى الاصلاح وينخذ التقيه أمام العامة درعه . يكون أقرب الى الانحلال والضلال ، منه الى من لا يطنطنون بأنهم دعاة الدين والقائمون عليه ، وعندهم يؤخذ ، ويهدبهم يهتدى . وشر الناس من يسرون غير ما يظهرن ويتلونون باللون الذي يرون أنه أوفق لهم لجر مغم ، واحرار مظهر

ان هؤلاء العامة ممن يتطالون الى مقامات العلماء ، هم أفسد من العامة لأن شيطانهم يتكلم ، وشيطان هؤلاء أحرص لا يبدي ولا يعيد . هم سوس الفساد في كيان هذا المجتمع ، يدعون معرفة كل شىء وهم لم يتقنوا شيئاً الا ماسولته لهم أنفسهم ، وحدثهم به شياطينهم . شعارهم التدليس والتظاهر بالغيرة على المحارم ولو بحثت عن أعمالهم لرأيتهم أول المجترئين على انتهاك حرمت الأديان والشرائع وهم يقدسونها بلسانهم ، والعابثين بحدودها . وهم يدعون الناس الى الوقوف عند مراسيمها ، والسعاية بالمصلحين ليفتوا في اعصادهم ، ويفسدوا عليهم أمرهم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره أبالسة التججيل والتضليل من علماء السوء

لو كان اعداء المصلحين على شىء من التدين الحقيقى . لكانوا اشتغلوا منذ القديم بارشاد العامة وانكار المنكرات الماثلة في كل عصر أمامهم مشول الشمس في السماء راد الضحى . ولكن المتدلسة أمثالهم يتعلمون من قشور العلوم ما يستعميون به على الاخذ من اموال الحكومات والاغنياء ، والتفجير بالعامة ، ولذلك كان أكثر اشتغال من سمو أنفسهم بالعلماء في كل عصر بالفقه ، لانه سلم الى ما يتطاولون اليه من الجاه والمال وحسن الحال

قال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء : « اعلم ان الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولها الخلفاء الراشدون المهديون ، وكانوا أئمة اعداء بالله

تعالى فقهاء في أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقصية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة . فتمرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها . وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعاق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكمه احتراهم ، كما نقل من سيرهم ، فلما أفصت الخلافة بعمدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام . اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء ، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمع علماء السلف وكانوا إذا طولبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولادة عليهم واعراضهم عنهم فأشربوا لطلب العلم . توصلوا إلى بيل العز ، ودرك الحاه . من قبل الولاية فأكبروا على علم الفتاوى ، وعرضوا أنفسهم على الولاية وتعرفوا إليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فمنهم من حرم ومنهم من أبحح والمصحح لم يخل من دل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالأعراض عن السلاطين ، أدلة إلامن وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله

وقد كان أكثر الأقاليم في تلك الأعصار على التماوى والأقصية ، لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات . ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمرء ، من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد . ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام ، فأك الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات . واستخرجوا فنون المناقضات ، في المقالات ، ورعموا أن غرضهم الدب عن دين الله . والمصال عن السنة ، وقع المبتدعة ، كما رعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين ، وتقلد أحكام المسلمين ، اشتفاقاً على خاق الله ولصيحة لهم . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور . من لم يستصوب الخوض في الكلام ، وفتح باب المناظرة فيه . لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة ، والخصومات الناشئة ، المفضية

الى اهراق الدماء ، وتخریب البلاد ، ومالت نفسه الى الماطرة في الفقه ، وبيان
الاولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك
الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة
على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان واحمد رحمهم الله تعالى
وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذهب ،
وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها
أنواع المجادلات والتصنيفات ، وهم مستمررون الى الآن ، وليس ندرى مالذى
يحدث الله فيما بعدنا من الاعصار . فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات
والمناظرات لا غير . ولو مالت نفوس أرباب الدنيا الى الخلاف مع امام آخر من
الأئمة أو علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بان
ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب الى رب العالمين اه
هذا موجز من تاريخ المتجدلقين في الدين ، وصف به حجة الاسلام طغتمهم
في عصره ، وعصره الخامس من أفضل عصور النور في الاسلام ، فانالك بامثالهم
بعده وقد حدثت من الاحداث ما كان الجهل سداها ولحمتها ، والنيل من المخلصين
مبدأها وغايتها ، وما أصدق مقاله حجة الاسلام أيضاً في هؤلاء الطغام أعداء
الاسلام والسلام في أول كتابه التفرقة بين الاسلام والزندقة قال : « وأبى
تتحلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم . ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم
دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، وارادتهم حاهمهم وشهواتهم ، وعبادتهم
خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكثرهم سواوسهم ، وفكرهم استنباط
الحيلة لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من أين تميز لهم ظامة الكفر من ضياء
الايان ، أبالهام إلهى ، ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها ، أم بكال
علمى وانما بضاعتهم في العلم مسألة المحاسة وماء الزعفران وأمثالهما ، هيئات هينات
هذا المطلب أنمس وأعز من أن يدرك بالمتى ، أو ينال بالهويننا ، فاشتغل أنت
بشأنك ، ولا تضيع فهم بقية زمانك . (وأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد
الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو أعلم عن ضل عن سبيله وهو
أعلم بمن اهتدى)

وبعد فان في هذا العصر فئات في هذا الشرق ممن استعاذ منهم المصاحون في كل عصر ، ولكنهم وبالأسف حثالة الحثالة ، ومثال الجهالة والضلالة ، ان قلت لهم تعاليم فلان ، قالوا لك أو نسيت تعاليم فلان فهي أحسن وأسلم ، وان حرصتهم على علم كذا قالوا علم كذا أفضل ، وان شرحت لهم أساليب المدنية ، قالوا اننا لم نؤت الا من قبل ديننا فتركناه فصارت حالنا الى ماترى ، وان حدثتهم بطرق الارتقاء قالوا انه يدعونا الى الانحلال كانه ما كفانا ما نحن فيه من المدع ، وان دعوتهم الى الاخذ بما صح من أحكام الحلال والحرام ، أوردوا لك من أقوال شيوخهم ، وأقاصيص عجائزهم ، وأحلام حالمهم ، ومثبطات المترهدين والمتورعين منهم ، ما تسأل الله معه السلامة ، وان حبيت اليهم المعروف ، قالوا لك ما أكثر المنكرات .

حملة أهواء ، لاحملة شريعة ، وجعاب لغو وحشو ، لاقوام على ما يقوم العقل ، سلاحهم المغالطة ، ومجنهم السفسطة ، رأس ما لهم الثرثرة . وربحهم الغلبة بالاطل ، والمهارة في المهارة على غير طائل ، مناهم من دينهم ودنياهم ، ان تمخ القابهم ، وتلا كراشهم وعابهم ، وترفع بين الغاغة منارهم ، ويزيدوا بسطة في الجسم لاقى العقل ، وتكذب لهم في العالمين شهرة بعيدة ، بدون ان يعدوا لها أداة من أدواتها ، ويصرفوا في التحصيل ساعة من أوقاتهم ، دأبهم الحط من الفضلاء ، وهجيراهم النيل من العظماء

يرقعون ويلفقون ، ويراوغون ويماحكون ، واكسون ما كسون ، مدلسون موالسون ، يعادون ما يجهلون ، يجمدون على ما يعرفون ، يصانعون ولا يتلطفون ، ينفون وهم لا يعلمون ، يجتهدون ويخطؤون ، يهرفون بما لا يعرفون ، يعدون علوم الشر ذرة من معارفهم ، ويحتقرون ما لا تبلغه مداركهم ، كأن فضل الله محصور فيهم ، وكأن من لا يجرى على هواهم محروم من السعادة هالك ، أولئك هم ثعالب الالاس يأكلون لحم اخوانهم بالغيبة والوشاية ، ويمشون بين الناس بالنخيمة والسعاية ، أسود ولكن على نحت أثلاث مخالفيهم ، نور ولكن لا يحسنون الوثب الا على من لا يصلحون خدمة لهم . يفترون ويفرون يفوون ولا يخافون ، يخربون ولا يدرون ، يخرفون ولا يستحون ، يمخرقون ولا ينتهون ، فهم أضر على

الناس من قطاع السابلة ، وأفسد في جسم المجتمع من الادواء القتالة ، برحمون بالامة القهقري . والدواعى تهيب بها الى التقدم ، ويزينون لها الفناء والعدم . والمصلحة قاضية بالحماسك والتعاون ، ويعلمون لها الذل والصغار ، وركوب متن العار . والحالة تدعوا الى تحكيم العقل ، في كل قول وعمل

فاللهم ثبت أقدام المصلحين ، وهى لهم من الكفاية ما يقوون به على رد غارات أعداء الامة في إصلاحها ، فقد كفاها جهلا وحلة بما كسبت أيدي المنافقين وما جلدوا عليها من الخزي المبين (وعماد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً)

تعليم اللغات^(١)

ان تعليم اللغات على الطريقة التي جرى عليها الغربيون واقتبسها المشاركة قد تكون نظرية أكثر مما هي عملية ، فيطول أمرها ويصعب تناولها ، ولطالما رأينا من يترجم أشعار سكسبير الانكليزي أو بوالو الافرنسي ، اذا رمته الاقدار في شوارع لندن أو باريس لا يطاوعه لسانه أن يلمط كلمات يهتدى بها لوجه طريقه ذلك لان الطريقة في تعلمه تلك اللغة الاجنبية هي عين الطريقة التي يستخدمها الاوربيون في تعليم الصم البكم بل عين النهج الذي ينهجه المغاربة في تعليم إحدى اللغات الميثة من لاتينية ويونانية ، أو إحدى اللغات الحية من انكليزية وفرنسية وإيطالية وغيرها . اذ يكون تدريس النحو والصرف والترجمة من الكتب هو العدة في اتقان اللغات ويسهل على المعلم أن يدرس تلميذه على هذا النحو وربما أخذ في تعليمه لغة وهو لا يحسن أن يؤلف بين جملتين صحيحتين في تلك اللغة التي عهد اليه تدريسها ، ولم يجود التلفظ بها فكان شغله الشاغل تعليم تلامذته

(١) نشرت في العدد الاول من مجلة المقتبس الصادر سنة ١٣٢٤ و ١٩٠٦

أصول التصريف والاعراب والترجمة على حين قد ثبت أن الدارس قد يستظهر قواعد لغة وقوانينها ولا يبرع في اللغة نفسها . وأسقم المذاهب في تعلم لغة أن يتكلم المرأ بلغته في حلال تعلمه لغة غيرها .

من أجل هذا قضت الحال أن تكون دراسة قواعد الاعراب والتصريف بعد معرفة اللغة معرفة عملية لا نظرية ، ولا تفيد الترجمة والنقل الا اذا توفرت للطالب باديء بدء معرفة الاساليب في اللغة الغريبة . فعلى من رام أن يتكلم لغة ويكتب فيها أن يفكر في تلك اللغة ويكون شعوره شعور أهلها فيها . لا أن يصيغ تراجم ويسقل جملا . فتستدعي الافكار والانفعالات للحال ما يحتاج اليه الطالب من الالفاظ التي يعبر بها عنها ، فتصير اللغة التي يتعلمها لغة ثانية له . ولا تكون الترجمة من لغته أو اليها اذا دعت الحال حرفا بحرف بل على طريقة تنقل بها الصورة الى التعبير عنها . وقلمما يسمع المتعلم في معظم المدارس اليوم صدى اللغة التي يتعلمها ويقتضى له أن يرى عليها أذنه وذاكرته ما أمكن . وما أشبه المدرس وهو يشرح للدارس دروسه بلغته الاصلية إلا بأمر تود أن تعلم طفلها وهو ألكن تمام قواعد الفعل الماضي وتصريف الافعال الشاذة بدلا من أن يعنى بتعليمه أن يحسن تلفظ الكلمات الاولى التي يحاول التلمظ بها

وما فتىء تعلم اللغات يختلف باختلاف الاجتهاد في كل قوم ومعظمه دائر في الغرب منذ ثلاثين سنة على طريقتين وهما إما أن يقيم المتعلم زمناً في بلد اللغة التي يريد تعلمها أو أن يكون أهل الطفل في سمة من العيش فيتخذون له مؤدباً أو مؤدبة يعلمه اللغة بالعمل بين ظهراى أهله وأسرته . وقد انتدع الاستاذ برليتز الامريكاني طريقة سهلة لتعليم اللغات جرى عليها بعضهم في أميركا وأوربا فأسفرت عن نجاح أكيد . وطريقته عبارة عن نظر عقلى وعلم عملى . وبلفظ آخر نظر في المحسوسات لا المجردات اذ اللغة عبارة عن أصوات محكية لا اشارات مكتوبة . والتعليم سماعى أولاً ثم نظرى . ولا يعتمد في طريقته الى الترجمة ولا الى النقل ولا يستخدم فيها الطالب معجماً ولا يستصحب كتاب قواعد بل يتعلم الانسان القوانين بعد كمال المعرفة العملية على نحو ما يتعلم الطفل لغة أبيه وأمه . وليس لتعلم القواعد نفع حقيقى الا متى عرف المرأ اللغة . فالقواعد

تشرح اللغة شرحاً علمياً فتبحث عن علل يتأتى الاستغناء عنها باديء بدء وقلما تذمغ في تلقين اللغة شأن المصور لا يحتاج الى اتقان العلوم الطبيعية والكياوية ليصنع صوراً شمسية بديعة .

ماللغة في الحقيقة الا صورة محكية من الحياة فاقتضى في تعلمها أن يسير الانسان من نفس الحياة لا أن يعتمد الى اشكال من ، التعبير لا تمس ولا تتحرك وقلما تتلاءم الالفاظ وصور الافكار بين لغة وأخرى كل التلاءم فالبدء بالترجمة الحرفية من لغة الى لغة يراد تعلمها إضاعة للوقت وآتعب للذهن على غير طائل ومن العسر المعتذر أن يرسم المرء صورتين رسماً خفيفاً على حين لا يضع احدهما على الاخرى . وكذلك الحال في اللغات فقد امتنع أن يحكم وضع لغتين احدهما على الاخرى .

واللغة بموجب هذه الاصول الجديدة عبارة عن محادثة دائمة باللغة الغريبة . فكل ما يقع نظر التلميذ عليه مباشرة يكون له منه مادة درس وموضوع تعلم . وذلك برؤية الاذن والحواس الصوتية فيلقن الاستاذ تلميذه حسن اللفظ وسرعة التركيب فيدرس الافعال الاولى بالاعمال والحركات : يقوم ويذهب الى اللوح الاسود فيكتب أو يفتح الباب ويرفع الكتاب و يضعه ثم تعرض على سمعه مشاهد الحياة اليومية فيسهل عليه تأليف جمل صغيرة يتزايد كل يوم عددها اسرعة فيكون التلميذ بهذه الطريقة في تأليف الجملة ما يلزمه من أوليات القواعد والروابط - والامم بأسرها تتعلم لغاتها بالعمل أولاً ثم بالنظر . فيتعلم المتعلم ما تمس حاجته اليه الى أن يكتب بدون غلط أو يتعلم التلميذ أولاً معاني الكلمات الغريبة ثم يلقي التمرينات العديدة بعد معرفة اللغة معرفة فطرية فمعرفة عقلية . ومن اللازم اللاب الا تزايد عل الصور قبل القواعد . ثم يبدأ المعلم بالسؤال فيجيبه المتعلم ولا يزالان ينتقلان من البسيط الى المركب ومن شرح المفردات الى تفسير العبارات ويكون كل ذلك باللغة التي يراد اتقانها

وللفظ في هذه الطريقة المقام الاعلى . ولم يكن يعنى بتقديمه من قبل . والاساتذة الذين يحسنون التلفظ بلغة ما هم ممن تعلموها من الاسلوب الطبيعي في طفوليتهم أو أتقنوها بمقامهم في البلاد التي تتكلم فيها تلك اللغة . وجودة التلفظ هو روح

اللغة على التحقيق ولا تعد العبارة شيئاً مهما بلغت من الضبط متى قبح اللفظ وتجلت اللهجة الاعجمية فيه عياناً . ومن المؤكد ان التلفظ لا يكاد يصلح اذا فسد لأول مرة . وصعب على الانسان ما لم يعود . فالطريقة المشار اليها مغايرة لطريقة الترجمة المألوفة في الاغلب . اذ كل معرفة يرشد اليها المتعلم على هذه الصورة لا تحسب ناقصة الجهاز مشوشة الاسلوب . وقلما تجد الالفاظ في لغة ما يقابلها في لغة نانية ولكل لغة اصطلاحاتها الخاصة بها ليس للترجمة مهما أتقنت أن تنقلها على أصلها إذ التصورات التي تمثلها لغة لا تتحد مع تصورات تمثلها ألفاظ لغة أخرى اتحاداً ذاتياً معنى ومبنى . كتب أحد الغرباء الى فبلون العالم الفرنسي المشهور (أن لي منك يامولاي أمعاء والد) يريد أن يقول « قلب والد » وقال الغوس الثاني عشر ملك أسبانيا وقد جاء قصره في يوم احتفال ! « أتود أن تتعب معي نحو النافذة » يعنى بذلك أن تقترب نحو النافذة .

ولو تعلم ذلك الكاتب وهذا الملك أن يتكلموا الافرسية على طريقة الاستاذ رليتز اذا لمجيا من هذا الغلط الشائن وكان شأنها في سهولة التعبير ووحدة التصوير شأن أوامك النجار والسوقه ممن ينزلون بلاداً لا يحسنون لغتها فهاهو الا قليل حتى يمرنوا على تكلمها رمناً فيحسنونها ولا احسان من تعلموها على دكات المدارس وهم يقلبون المعاجم ويأاطون كتب نحوها وصرفها وبيانها ناقلين ناسخين مستظهريين ناسين . وطريقة رليتز هذه أن يستعمل أولاً اللغة المتعلمة خاصة وأن يتابع التصور في اللغة الغريبة مباشرة بدون وساطة اللغة الاصلية وأن تعلم أسماء الاعيان بقوة الحس وتعلم أسماء المعاني بتتابع التصور أو يدرس النحو بالامثلة والشوهد

هذا مذهب الاستاذ برليتز في اتقان ملكة اللغات وقد انتقل من نيو يورك الى باربز عام ١٨٨٩ فأسست في هذه العاصمة أول مدرسة على تلك الطريقة وانتقل هذا المذهب في تلك السنة الى انكلترا وألمانيا فأسست في كل من لندن وبريس مدارس لهذا الغرض وما برحت مدارسها تتكاثر في الاصقاع الاوربية حتى كانت في بدء هذه السنة ٣٤٣ مدرسة في أوروبا وحدها وكلها أسفرت عن ارتقاء واقتصاد في الوقت والمال . وطريقة القائمين بهذا الامر أن يكون لكل

تلميذ استاده الخاص به فيأخذ هذا يعلم تلميذه ما يقع نظره عليه في قاعة الدرس من منصدة وكرسى وكتاب وباب ونافذة يلفظها بلغتها ولا يزال يكررها المتعلم حتى يتقن التلفظ فاذا نمت المسميات لدى الاستاذ في الغرفة يعمد الى صور سهلة واصحة رسمت على صفحات مجموعة فها هو الا أن يتعلم التلميذ أسماء الاشياء الواقعة تحت بصره مع الالوان التي يمتاز بها كل منها ثم ينتقل الى صفات الجسم وأفعال الحركات والاعداد . فاذا أنجز درس الاشياء يشرع المعلم في اختيار جمل يكون التلميذ قد عرف أكثر مفرداتها . فلا يمضي ثلاثون درساً الا وقد عرف التلميذ الافعال الشائعة في الاستعمال والمفردات التي تدخل غالباً في الاحاديث العامة ويتمكن في ستين درساً من بيان فكره أصح بيان في كل حالة علاقة بحرى الحياة الاجتماعية العادى . ويحسن في اختيار المعلمين أن يكونوا ممن لا يعلمون لغة المتعلم .

ومما يصحك ما وقع لولد أحد كبار المنشئين الفرنسيين وكان يدرس الالمانية على طريقه برليتر قيل انه لما بلغ به المعلم الى تمييز الفعل المعتدى من اللازم لم يفهم التلميذ المراد من المعتدى واللازم وأخذ معلمه يشرحها له بالاشارة تارة والتشبيه طوراً فلم يفلح وكان تلميذه معه كأعجم طمطم لا يفهم ولا يفهم . وأبى الاستاذ على تلميذه أن يفسر له شيئاً بلغته مع الحاحه عليه في ذلك وراح الطفل الى دار أبيه وقد بلغ منه الغيظ وأنشأ يقلب كتاب نحوه يفتش عن الاشكال فاهتدى بنفسه الى حله وشكا أمره الى والده فقال له : أى بنى لقد احسن الاستاذ أن أبى عليك شرح ما يريد تعليمك بلغتك ولو قاله لك لعزب عن ذهك وأصبح لديك بعد زمن لسياً منسياً . أما الآن فأنى على ثقة من انك لاتنس التفرقة بين الفعل اللازم والمعتدى ولو بعد مئة سنة .

قال الكاتب الذى عربنا عنه أكثر هذا المبحث وقد كان أرباب الافكار والحصافة يجمعون على أن اللغات الحية لاتعلم كاللغات الميتة بل انه لايد فى الاولى من المران على التكلم بها من أول وهلة وانه مامن لغة مهما تراءى من صعوبتها على المتعلمين لاول الامر سواء كانت اللغة الروسية أو الهندية أو العربية أو الصينية الا ويتيسر اتقانها على طريقة برليتر في مدة تختلف باختلاف ذكاء المتعلم وصعوبة اللغة والله أعلم .

اللغات الافرنجية^(١)

لهجت بعض الألسن في منافع اللغات الأوروبية ومضارها في مجتمعنا عقيب ان قام صاحب المؤيد في الجمعية العمومية في الربيع الماضي وناقش ناظر معارف مصر في وجوب تعليم العلوم في المدارس الأميرية باللغة العربية وكان من أثر ذلك الحوار ان لطلت دروس الاشياء وجعل تدريس علم تقويم البلدان باللغة العربية في المدارس الابتدائية كما شرع في تعلم الرياضيات في السنين الأولى من المدارس الثانوية باللغة العربية أيضاً .

فقام بعض الناس متحذنين من هذا الاصلاح حجة على قلة غناء اللغات الافرنجية زاعمين ان في العربية ما يكفئها من العلوم . على حين كان مادعا اليه الداعون من التدريس بالعربية لمقصد آخر أريد به إحياء لغة الملاد اذا درست العلوم بها وإشراب نفوس المتعلمين حب أممهم ليعم النفع مما يتعلمون لا للتنفير من تعلم اللغات الافرنجية التي لا يمتري عاقلان في وجوب تعلمها على فريق كبير من الناس ولا سيما من تصدوا للنفع والتأليف والكتابة على نحو ما يفعل علماء اليابان فيتعلمون الانكليزية كما يتعلمون لغتهم الاصلية .

نقول تعلم اللغات الأجنبية وما أحرانا ان نقول اتقانها لان المبادئ البسيطة منها قد لا تفيد المتعلم الا توهمه انه أصبح من العارفين . فان تعود علماؤنا قديماً من نصف فقيه ونصف صوفي ونصف كاتب ونصف شاعر فما أحرانا ان نتعود من ناشيء يتعلم طرفاً من لغة لا يستفيد منها ولا يفيد . وليس معنى هذا انه يتحتم وجوباً على كل متعلم للغة أجنبية أن يكون فيها مؤلفاً خطيباً كاتباً مترجماً فهذا مناف لسنة الكون ولكن المطلوب ان يعرف الناس في اعلم احدى اللغات الاوروبية القدر الذي يؤهلهم للانتفاع بها في التجارة وأعمال الادارة والقضاء والعلم .

(١) نشرت في جريدة المؤيد (١٣٢٥ - ١٩٠٧)

ولا مشاحة في أن أكثر من تعلموا اللغات الأجنبية من أبنائنا لم يتقنوها وان حذقوها فلا يكون لهم من المعرفة بلغتهم ما يستطيعون معه ان يعبروا به عن أفكارهم وينقلوا اليها ما يعوزها من علوم الغرب وحضارته . بيد أن اللغة وان أتقنها صاحبها لا تنفعه وينتفع بها النفع المطلوب الا اذا أضاف اليها علماً أو فناً أخصى فيه واللغة آلة لا غاية وان كان من يتقن لغة أوروبية لا يتسى له ذلك الا بعد ان ينظر نظرة اجمالية في الفنون المتعارفة . أما ما يقوله بعض من لا ساعدتهم الوقت على تعلم لغة أجنبية من أنه ليس في النقل من اللغات الغربية كبيراً وأن العالم يستفيد من الوجود أكثر من استفادته مما دونه كبار أرباب العقول من أمم الحضارة وهذا من الآراء التي يقصد بها الاعتذار عن التقصير ومن جهل شيئاً عاداه . اذ من الثابت المقرر أننا مهما تأملنا في صحيفة الكون لا نستطيع ان ندرس فيه نظام الاجتماع ولا تقنين القوانين ولا الطب ولا الهندسة ولا الفلك والطبيعة والكيمياء وفنون الأدب والتاريخ ورسم الأرض وغيرها من الفروع الكثيرة التي لا أسماء لها في العربية اذ لم يكن للعرب عهد بها ولا تم شعادة مجتمع اليوم الا بنعلمها واتقانها . ومن قال بان أسلافنا من العرب قد أجالوا في هذه العلوم قداح أنظارهم ووضعوا فيها ما وضعوا من رسائلهم وأسفارهم فهو على صواب وخطاء . وذلك ان أحدادنا قاموا بالواجب من خدمة هذه العلوم في عصر تماسكهم وانبساط ظل دولتهم الا أنه انقطعت سلسلتها بعد القرن السادس الى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة وهي القرون التي كانت فيها الأمة العربية في غفلة والأمم الغربية في انقماه فأخذ الغرب عن الشرق ما عنده من حضارة وزاد عليها أضعافاً ولا يزال يركض طرف عقله في مضمار البحث والاستقراء ويعانى من ضروب العلم مانحن فيه معه أجهل من تلميذ مبتدئ بالتهجئة بالنسبة الى عالم يكتب الكتاب ويقصد القصيد

فالأمة العربية اذا أرادت النهوض العقلي والعلمي يجب عليها ان تأخذ من كل علم بالسهم الأوفر ولا يتم لها ذلك الا بالنقل عن الامم الغربية وهذا لا يتأتى الا بعد أن تخرج مدارسنا الالوف من الطلبة المتعلمين على الاساليب الحديثة لينشأ لنا منهم عشرات يكونون لنا عوناً على ما ينقصنا من أسباب نهضتنا وما

شئت حاجتنا اليه . ويكاد ذلك الى الآن يعد مفقوداً بيننا اللهم الا طائفة من سفار نقلها بعض الموالع بالعربية وما يتيسر للمجلات تعريبه من حين الى آخر من علوم الغرب . وكله دون حد الكفاية بكثير

قال ابن رشد في فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال : اذا قرر أنه يجب بالشرع النظر في القياس الفقهي فبين انه ان كان لم يتقدم أحد من علماء الفحص عن القياس العقلي وأنواعه انه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه وأن نستعين في ذلك المتقدم بالمتأخر حتى نكمل المعرفة فانه عسيراً وغير ممكن أن نقف واحد من الناس من تلقاء نفسه وابتداء على جمع ما يحتاج اليه من معرفة نواع القياس الفقهي بل معرفة القياس العقلي أخرى بذلك وأن كان غير ناقد يخص من ذلك فبين أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا بذلك وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة فان آراءه التي تسح بها التزكية ليس يعتبر في صحة التزكية بها كونه آلة لمشارك لما في الملة أو غير مشارك اذا كانت فيها صراحة والصحة وأعني تغير المشارك من نظر في هذه الاشياء من القدماء قبل ملة الاسلام

« واذا كان الامر هكذا وكان كل ما يحتاج اليه من النظر في أمر المقاييس عقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا الى كتبهم ننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كل صواباً قبلناه منهم وان كان فيه ما ليس بصواب بهنا عليه فاذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصت عندنا الآلات التي بها تقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالة الصنعة فيها فان من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب أن نشرع في لفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة المقاييس البرهانية وبين أيضاً أن هذا الغرض انما يتم لنا في الموجودات بتداول لفحص عنها واحداً بعد واحد وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ما عرض في علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير لاحرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك مثل أن يعرف

قدر الشمس من الارض وغير ذلك من مقادير الكواكب ولو كان أذكى الناس طبعاً إلا بوحى أو شيء يشبه الوحي . بل لو قيل ان الشمس أعظم من الارض بنحو ١٥٠ ضعفاً أو سنين يعد هذا القول جنونا من قائله .

وهذا شيء قد قام عليه البرهان في علم الهبئة قياماً لا يشك فيه من هو من أصحاب هذا العلم » قال وهذا أمر بين بنفسه ليس في الصنائع العامية فقط وفي العملية فإنه ليس منها صناعة يقدر أن ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة . وإذا كان هذا فقد يجب علينا ان لقينا لمن تقدمنا من الامم السالفة نظرا في الموجودات واعباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم فما كان منها موافقاً للحق فبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم :

هذا ما قاله الفيلسوف الاسلامي في عصر كان العرب أساتدة العلم في العالم وقوله كما رأيت غاية الحكمة وما الغربيون الآن بالنسبة اليها الا قدماء متقدمون وبهديهم يجب علينا أن نهتدي في العلوم . وهذا لا يقدر فيما خلفه لنا أسلافنا من آثارهم أيام استبحار عمرانهم واتساع سلطنتهم . أما اللغات الحديثة التي تشتد حاجتنا الى الاخذ منها فهي الانكليزية والافراسية والالمانية . وفي كل لغة من هذه اللغات من أنواع المعارف ما لا يكاد يحلم به من لا يعرف لغاتهم . ولين شعري اذا كان بعض أهل الغرب والعلوم قد بلغت عندهم ما علمت من الارتقاء الغريب يتعلمون لغات الشرق لينقلوا منها الى لغاتهم بعض الكتب التاريخية والادبية والاخلاقية والشرعية ويستعينوا بها على قراءة آثاره وما زير على أحجاره ألسنا نحن أحرى بان نتعلم لغاتهم على مقرنا الثابت ونقتبس منهم ما يعورنا من علوم البشر ؟

الا أن ما تفاخر به من علم أسلافنا وحضارتهم العظيمة انما قام باحيائهم مدنية من قبلهم من الامم كالروم والفرس وغيرهم ولم يتأت لهم ذلك الا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها فكانوا بذلك أحسن صلة وعائد بين أمم الحضارة السالفة والامم الاوروبية الخالفة . فحضارة الاسلام إذا أنصفنا قامت بفضل

التراجمة والنقلة من اليعاقمة والاسرائيليين والمسلمين لا يابىدى علماء الكلام مثلاً . وقد كان على يد هؤلاء التشتيت وعلى يد أولئك الجمع . وشتان بين المفرق والجمع . وليس معنى هذا انكار فصل من تمحصوا لخدمة الشريعة واللغة في القرون الاولى للاسلام وما في الناظرين من يقول بان الخليل والجاحظ والغزالي والماوردي هم في حَسْبِ بلاهم في خدمة هذه الأمة دون أبي الريحان البيروني ونصير الدين الطوسي وحين بن اسحق وثابت بن قررة . وما كان قط أهل الفريق الاول يحتقرون علم الفريق الثاني ولا العكس لما وقر في النفوس من أن المجتمع لا يقوم على أمتى الدعائم الا اذا أتقن كل ذى علم عمله

قال الجاحظ : الانسان وان أضيف الى الكمال وعرف بالبلاغة وناقض العلماء فانه لا يمكن أن يحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة أيام الدنيا ولو استمد بكل نطار عظيم واستعان بكل بحاث واع وكل نقاب في البلاد ودارسة للكتب . وما أشك ان عند الورراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء . وعند الانبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الانبياء . وما عند الله عز وجل أكثر ، والخلق في بلوغه أعجز ، وانما علم الله كل طبقة من حلقه بقدر احتمال فطرهم ومقدار مصلحتهم .

وقال الراغب الاصبهاني في الدررية : العلم طريق الله تعالى ذو منارل قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرناطات والشعور في طريق الحج والغزو ضمن منازل معرفة اللغة التي عليها بنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاحلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائل ومعرفة أصول البراهين والادلة ولهذا قال (هم درجات عند الله) وقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والدين أوتوا العلم درجات) وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته في حق ما هو بصدده فهو في جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثواباً على قدر علمه لكن قلما ينفك كل منزل منها من شير في ذاته ، وشره في مكسبه ، وطالب لرياسته . وجاهل معجب بنفسه ، بصير لاجل تنفيق سلعته ، صارفاً عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم ، وعائياً له ، فلهذا ترى كثيراً ممن حصل في منزلة من منازل العلم دون الغايه طائباً لما فوقه ،

وصارفا عن رايه فان قدر أن يصرف عنه الناس شبهة مزخرفة فعل أو ينفر الناس فعل اه .

وان ما في عبارة هذين الخبرين ليذكر بما يجب للمجتمع من مراعاة مبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي وقد قال أحد كبار شيوخ العلم من المعاصرين إن مما يؤخر الشرق في العلم عدم مراعاة أبنائه لمبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي ففيه من يحسن التفصيل كما فيه من يحسن الخياطة وليس بينهما من يضم أعمال الفئة الاولى للثانية لينفع بها المجتمع حق الانتفاع ومثل ذلك من نقلوا لنا العلوم على عهد الحصار الاسلامية الاولى فقال : انه كان يندر أن يجمع المترجم بين معرفة العرب الذي يترجمه واللغنين اللذين ينقل منهما واليهما فمن كان يجيد السريانية لا يحسن العربية الا انه كان يترجم ما يفهم بعبارة ركيكه أو عامية وبجسء المصححون يصلحون العبارة على الاسلوب العربي فتحسب معرفتهم من أصح ما يكون لفظاً ومعنى وعلى هذا درج ديوان الترجمة في الدولة العالوية الخديوية في القرن الثالث عشر في مصر فكان المترجم غير المصحح ولذلك طاء فيما نقلوه روح العربية أكثر من المصنفات التي نقلت الى العربية حتى في هذا القرن قال وهكذا عرفت دولة العباسيين في بغداد والامويين في الاندلس والاسرة العالوية في القاهرة أن يجمع بين من يحسن التفصيل ويحسن الخياطة فكان من هذا الجمع ما كان كما حسن النفع من كل ما تصرف تحت اسم علم .

الحافظة والحفاظ (١)

أى نعمة يناها المرء أعظم من أن تعي ذاكرته كل ما تريد وعيه ، وتدحره الى ساعة الحاجة للانتفاع به . الحافظة من العوامل المؤثرة في ترقية الافراد والجماعات . وبدونها يصعب الوصول الى إدراك الحقائق وتمحيصها ، لانا اذا لم نستعن في كل مطالب من مطالب الحياة بتجارب من سبقونا ، ونحفظ المأثور عنهم لننسج على منواله ، كنا أشبه بمن يريد أن يبني له كل يوم بناء . وطلت العلوم

والصناعات والآداب في طفولتها الاولى تجرى على نظام مضطرب ، اذ يكون كل امرىء وما يختار

والذاكرة أو الحافظة حاسة يحفظ بها الذهن على صورة دائمة أموراً مضت وتأثرات وقعت فهي بذلك كما قال مونتين الفيلسوف (١٥٩٢ م) وعاء العلم وصوان الحكمة . وقال لاروشفوكولد الكاتب (١٦٨٠) جميع الناس يشكون من حافظتهم وما شكوا قط أحد من عقله . قال آخر : ان الذكاء بدون حافظة أشبه بغربال لا يكاد يمسك ما يضعه فيه وقال أحدهم . الحافظة واسطة من وسائل الكمال وبدونها لا يستطيع امرؤ أن يقلد شيئاً وينسج على منواله . وقال كورنيل الشاعر : يجب لمن يعتمد الكذب أن يكون ذا ذاكرة جيدة . وهذا مثل قولهم اذا كنت كذوباً فكن ذكوراً . وقال بيكته الأديب السويسرى (١٨٧٥) : لقد كان للحافظة شأن مهم جداً عند الناس في العصور الأولى أكثر مما صار لها في القرون اللاحقة . كانت الحافظة قبل اختراع الكتابة هي التي تتولى حاسة نفل التقاليد الوطنية والدينية وعامة القوانين والعادات والشعر ولذلك كانت هذه الحاسة التي فلما نحمل الآن بأمرها عند قدماء الآريين مشابهة للفكر نفسه

اختلف مذهب الفلاسفة فيما اذا كانت الحافظة حاسة قائمة بذاتها ، أو فيما اذا كان لكل حاسة فينا ذاكرة معينة . ومعظم الحكماء وعلماء النفس على ان الحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الانسان ، ولا يكاد أحد يدرك كيف تعي الحافظة الارقام والأعداد ، وتحتفظ العبارات والمفردات . وتحكم اللغات واللهجات وتردد الالحان والاصوات . ويقول علماء النفس . إن الشروط النفسية اللازمة لجودة الذهن موقفة على جودة تركيب أنسجة الدماغ وحسن تغذية هذه لا نسجة . والتعب والشيخوخة من العوامل المؤثرة في ضعف الحافظة لانهما ملازمان لضعف تغذية الأنسجة . ولذلك قالوا ان درجة الحافظة لا تختلف بحسب الاشخاص بل تختلف في الشخص الواحد في أدوار مختلفة من حياته ، واذا صرفنا النظر عن الآفات العضوية التي تضر بها فان هناك أيضاً أحوالاً أقل منها تزيدها ضعفاً الى ضعفها مثل اضطرابات المعدة وسوء الهضم والشقيقة ، فان

جميع هذه العوارض على الجسم يغيرها تغييراً محسوساً
واتركيب الدماغ وحالته تأثير ظاهر في الحافظة فقد ذكر بلين الطبيعى
الرومانى أن رجلاً نسى حتى رسائله بعد أن أصيب أشجة في رأسه وزعم
البانا كليمان السادس أن حافظته قويت قوة عجيبة عقب أن أصاب برصة شديدة
في دماغه . وكيفما كانت الحال فالتمارين بد طولى في تخصيص الحافظة بشيء
معين فالممثلون تقوى فيهم الملكة الحافظة الشفاهية وهى من اللوازم لهم في
صناعتهم ورجال الشرطة تقوى فيهم الحافظة في تذكر صور الاشخاص وليس
البشر كلهم سواء في الحفظ والاسظهار . فمنهم من يحنظون الاشكال الهندسية
وهم الذين حللوا رياضيين بالمطرة ومنهم من يرزقون حافظة قوية في الانعام
كالموسيفيين وغيرهم في غير ذلك . ومن الناس من يدكرون الكلمات بسرعة غريبة
ومن الاطفال من تقرأ لهم بصوت عال عدة صفحات فيستظهرونها في الحال وبتلونها
على مساءك لأول مرة . وتذكر الالفاظ خاصة بمازها الاولاد في العادة أكثر
من الكبار في السن ممن لا تكون قوت فيهم حاسة التفكير فيحفظون الكلمات
التي يسمعونها على أيسر وجه بدون أن يفهموها . والسبب في سهولة الحفظ عليهم
فقدان قوة التفكير فيهم ، وعند ما يبدأ التفكير في معظم الناس تضعف الحافظة
فيهم وقد تزول من بعضهم . والحافظة الشفاهية اذا كانت هى وحدها فى الانسان
لا تكون له سبيلا الى التفكير ومن فقد الاولى فلا بأسف لحاله لانه يستطيع بقوة
التفكير ان يأتى بالحيد من الافكار ولكن الحافظة وحدها قد تكون من أكبر
العوائق عن جودة التصور

وبعد فان للحافظة شأناً عظيماً في ترقية الفكر الانسانى وبدونها يكون كل
شئ عقيماً لاثمرة له ، لأنها واسطة لبقاء الافكار التى صدرت . وأحسن ذريعة
للحصول على أفكار جديدة ولم يعرف القانون الذى تسير عليه كما أن جوهرها
لم يدرك الباحثون حقيقته وغاية ما عرف من أمرها أنها تقوى بالانتباه والتمرن
كما تقدم ، وان الكسل ابن الترف والكسل يجرح الحافظة ان لم نقل يقتلها
ذكر التاريخ كثيرين من أرباب الحافظة النادرة فمنهم فى القديم ميتريداتس
الكبير ملك شمالى غربى آسيا الصغرى (١٢٣ - ٦٣ ق . م) فقد كان يحكم على

اثنين وعشرين أمة مختلفة ويخطب امام كل منها بلغتها ويدعو كل واحد من جنده باسمه . وذكروا مثل ذلك عن قورش ملك المرس وتيمو ستقلس وسيبيون الآسيوي والامراطور ادریان وقال ان مرآة الحافظة هيأت لآوتون الروماني تولى الملك . وتعلم تيمو ستقلس اللغة الفارسية في سنة

وكان ليبس اللغوي الأديب البلجيكي (١٦٠٦) يحفظ تاريخ تاسيب المؤرخ اللاتيني بألفاظه حرفاً بحرف وقد قال انه يرضى أن يقف جلاد ويده سيف على رأسه وهو يتلو هذا التاريخ فاذا أخل بحرف واحد يضرب عنقه

وكان لرينودي بون حافظة سميدة يذكر جميع الآبيات اللاتينية والمونانية التي قرأها في صباه ويتلو صفحات برمتها من ديوان هو ميروس وان كان مضى عليه أربعون سنة وهو لم يظفر فيه نظرة واحدة . وكان هودج دونو الفقيه المشهور في القرن السادس يستظهر القوانين المعروفة في عصره بالحرف الواحد . وحفظ يوسف سكاليجه الأديب (١٦٠٩) الآليادة والآوذيصة في واحد وعشرين يوماً . ومن أطف مايروي في باب الحافظة ان أحد الملاحين في فرنسا جاء الى باريز يقصد صاحباً مديماً له كان اسنلف منه خمسة فرنكات ممد خمس عشرة سنة وطلب اليه ان ينقده ماله قبله فتركه صاحبه وعاد فدفع اليه ليرة واحدة وخمسة فرنكات وقال له . هذا باصاح وقد كنت قلت وأنا في المدرسه ليرة جائزه على حافظتي فرأيتك أحد منى ذاكره وانك أحق بهده الجائزة منى

* * *

ليس في الدنيا خير محض ، وقد احترعت الطباعة منذ نحو خمسمائة سنة فعم نعمها أهل الارض كافة . ولكن ما عتمت ان نتج عنها بعض شر اذا أصبح الناس يعتمدون على الكتب في جماع علومهم وآدابهم . بعد ان كان حل اعتمادهم على محفوظاتهم ومخطوطاتهم . والغالب ان الاعتماد على الحافظة والحفاظ كان في الاسلام على أشده قبل تدوين الكتب وتآليف الرسائل والمصنعات . ولما بلغ بعض الأئمة تدوين الكتب اسفوا وعدوه من دواعي تقهقر العلم ، وانقطاع سند الرواية ، وما رالت الحال ترتق بعض الشيء في بعض الاعوام ثم يزهد في الحفظ حتى انتشرت الطباعة في بلادنا بانتشار الصناعات الفكرية ، فأمسى الناس يستمدون

الى السطور بدل الصدور . والقراطيس والاسفار بدل الحفظ والاستظهار .
فضعفت بهذا الضعف الحافظة . وان قويت الممكرة ، وقلت الرواية ، وان لم
تقل الدراية

انقطع سند الحفظ الا في بعض مالا يسع الامة جهله من القرآن وعلومه
فأخذ بعضهم يفتنون على من عرفوا قديماً بسعة محموطهم ، وزيفون ولكن بدون
برهان مارواه طائفة الراوين من أنباء الأذكياء الحافظين . ولو صح الاعتماد على
القاء الكلام على عوامه في هذا الباب ادا لسقط التاريخ وارتفعت الثقة من كل
حبر حتى من مجيئ الرسل وحروب الملوك ودثور الشعوب والمدن وما اليها . وما
أشبهه من يكذب بادىء الرأي بلا دليل قاطع بمن يؤثر الهدم على البناء . وشتان
بين المخرب والمعمار . والمتلف والمخاف . والمفسد والمصاح .

* *

ما عنيت أمة تتدبر دنيا وحفظه ولعتها وتوابطها عمارة المسامين بدينهم
ولغتهم وكان من أمر حملة الكتاب العزيز ما اشتهر في كل مصر وعصر ولا يزال
في البلاد اثر من آثار تلك العناية . اما الأحاديث فقد عنوا بها قديماً وجمعوا
أشنائها ، وابتوا صالحها من موضوعها . وصعيتهما من فوبها ، مما يدركه كل من كان له
الملم بالمراجعة ونظر في كتب القوم . لم تكن العلم في القرون الأولى للاسلام بالارث
ولا بالمظاهر ولا بالتوسطات والشماعات بل كان بالاستحقاق وكذا القرائح سير
على قرانين بقيود وروابط ولذلك لم يكن ينال لقب حافظ من لم يحفظ ألوقاً من
الأحاديث بأسانئها فقد كانوا يطلقون اسم المسند على من بروى الحديث
بأسناده سواء كان عمده علم به أم لا ، لس له الا مجرد رواية ويطلقون اسم المحدث
على من كان أرفع منه والعالم على من بعلم المتن والاسناد جميعاً والمقيه على من
يعرف المتن ولا يعرف الاسناد والحافظ على من يعرف الاسناد ولا يعرف المتن
والراوى على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد . وكان السلف يطلقون المحدث
والحافظ بمعنى . والمحدث من عرف الاسانيد والعمل وأسماء الرجال والعالي والنازل
وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمى الكتب الينة ومسند أحمد
ابن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وجم الى هذا التقدير الفجزء عن الاجزاء

الحديث، هذا أقل درجاته، فاذا سمع ما ذكر وكتبه الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسائيد كان في أول درجات المحدثين . وكان السلف يسمعون فيقرؤون فيرحلون فيفسرون ويحفظون فيعملون قال بعضهم

ان الذي يروى ولكنه يجهل ما روي وما يكتب
كصخرة تنبع أمواها تسقى الاراضي وهي لا تشرب

سأل تقي الدين السبكي الحافظ جمال الدين المزي عن حد الحفظ الذي اذا انتهى اليه الرجل جار له أن يطلق عليه الحافظ قال : يرجع الى أهل العرف فقلت وأين أهل العرف قليل جداً قال : أقل ما يكون أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم ومدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب فقلت له هذا عزيز في هذا الزمان أدرك أن أحداً كذلك فقال : ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدهياطي ثم قال . وابن دقيق العيد كان له في هذا مشاركة جيدة . قال ومع الدين بن سبب الداس وأما المحدث في عصرنا فهو من اشغل في الحديث رواية ودراية وجمع رواية واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه حظه واشتهر فيه صبغته فان توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من علل طبقاته أكثر مما يجمله منها فهذا هو الحافظ وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم كنا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين الف حديث من الاملاء فذلك بحسب أرمنتهم .

وقال أبو ذرعة الرازي : كان أحمد بن حنبل يحفظ الف الف حديث قيل له وما يدريك قال : ذاكرته فاخذت عليه الابواب . وقال البخاري . احفظ مائة الف حديث صحيح ومائتي الف حديث غير صحيح . وقال الحاكم في المدخل كان الواحد من الحفاظ يحفظ خمسمائة الف حديث : سمعت أبا عبد الله بن وارة يقول كنت عند اسحق بن ابراهيم بنديسابور فقال رحل من أهل العراق : سمعت احمد بن حنبل يقول صحح من الحديث سبعمائة الف وكسر وهذا الفتى يعني أنا زرعة قد حفظ سبعمائة الف حديث قال البيهقي : أراد ما صح من الاحاديث وأقارب الصحابة والناعين وقال غيره : سئل أبو زرعة عن رجل حاف بالطلاق

أن أبا زرعة يحفظ مائتي الف حدث هل يحنث قال لا . ثم قال احفظ مائة الف حدث كما يحفظ الا لسان سورة قل هو الله أحد وفي المذاكرة ثلثمائة الف حديث وقال أبو بكر محمد بن عمر الرارى الحافظ : كان أبو زرعة يحفظ سبعمائة الف حديث وكان يحفظ مائة وأربعين ألفاً في التفسير والقرآن : وكان اسحق بن راهويه يملئ سبعين الف حدث حفظاً وأسند بن عدى عن ابن شبرمة عن الشعبي قال : ما كتب سواداً في بيضاء الى يومى هذا ولا حدثنى رجل بحديث قط الا حفظته فحدث بهذا الحديث اسحق بن راهوية فقال : تعجب من هذا قلت نعم قال ، ما كنت لأسمع شيئاً الا حفظته وكأني أنظر الى سبعين الف حديث أو قال أكثر من سبعين الف حديث في كتبي . وأسند عن أبي داود الخفاف قال سمعت اسحق بن راهوية يقول : كأني أنظر الى مائة الف حديث في كتبي وثلاثين ألفاً أسردها : وأسند الخطيب عن محمد بن يحيى بن خالد قال . سمعت اسحق بن راهويه يقول : أعرف مكان مائة الف حديث كأني أنظر اليها وأحفظ سبعين ألف حدث عن ظهر قلبي وأحفظ أربعة آلاف ضرورة وقال عبد الله ابن احمد بن حنبل قال أبي لداود بن عمرو الضبي وأنا أسمع : كان يحدثكم اسماعيل ابن عباس هذه الاحاديث بحفظه قال : نعم ما رأيت معه كتاباً قط قال له : لقد كان حافظاً كم كان يحفظ قال شيئاً كثيراً قال : أ كان يحفظ عشرة آلاف قال عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف فقد كان أبي هذا كان مثل وكيع . وقال يزيد بن هرون أحفظ خمسة وعشرين الف حدث وقال الآحري : كان عبد الله بن معاذ العنبري يحفظ عشرة آلاف حدث

قال السبكي لم تر عيناي أحفظ من أبي الحجاج المزى وأبي عبد الله الذهبي والوالد وغالب طنى ان المزى نفوقهما في العمل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة سمعت شيخنا الذهبي يقول ما رأيت أحداً في هذا الشأن أحفظ من الامام أبي الحجاج المزى وبلغني عنه انه قال ما رأيت أحفظ من أربعة : ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تيمية والمزى فالاول أعرفهم بالعمل وفقه الحديث والثاني بالانساب والثالث بالمتون والرابع باسماء الرجال . وكان الدمياطي يقول : ما رأى شيخنا أحفظ من زكي

الدين عبد العظيم وما رأى الزكي أحفظ من أبي الحسن علي بن المفضل ولا رأى ابن المفضل أحفظ من الحافظ عبد الغني ولا رأى عبد الغني أحفظ من أبي موسى المدني إلا أن يكون الحافظ أبا القاسم بن عساكر ولا رأى بن عساكر والمديني أحفظ من أبي القاسم اسماعيل بن محمد التيمي ولا رأى اسماعيل أحفظ من أبي الفاضل محمد بن طاهر المقدسي ولا رأى ابن طاهر أحفظ من أبي نصر بن ماكول ولا رأى ابن ماكول أحفظ من أبي بكر الخطيب ولا رأى الخطيب أحفظ من أبي نعيم وأبو نعيم ما رأى أحفظ من الدارقطني وأبي عبد الله بن منده ومعها الحاكم وكان ابن منده يقول . ما رأيت أحفظ من أبي اسحق بن حمزة الاصبهاني وقال بن حمزة . ما رأيت أحفظ من أبي جعفر احمد بن يحيى بن زهير الشقيري وقال ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازي وأما الدارقطني فما رأى أحفظ من نفسه وأما الحاكم فما رأى أحفظ من الدارقطني بل وكان يقول الحاكم ما رأيت أحفظ من أبي علي اليسابوري ومن أبي بكر ابن الجمابي وما رأى الثلاثة أحفظ من أبي العباس بن عقدة ولا رأى أبو علي النبساوري مثل النسائي ولا رأى النسائي مثل اسحق ابن راهوية ولا رأى أبو زرعة مثل أبي بكر بن أبي شيبة وما رأى أبو علي اليسابوري مثل بن خزيمة وما رأى بن خزيمة مثل أبي عبد الله البخاري ولا رأى البخاري فيما ذكر مثل علي بن المدني أولاً رأى أيضاً أبو زرعة والبخاري وأبو حاتم وأبو داود مثل احمد بن حنبل ولا مثل يحيى بن معين وابن راهوية ولا رأى احمد ورفاقه مثل يحيى بن سعيد القطان ولا رأى هو مثل سفيان ومالك وشعبة ولا رأوا مثل أبواب السخيتياني نعم ولا رأى مالك مثل الزهري ولا رأى الزهري مثل أبي المسيب ولا رأى بن المسيب أحفظ من أبي هريرة ولا رأى أيوب مثل بن سيرين ولا رأى مثل أبي هريرة نعم ولا رأى الثوري مثل منصور ولا رأى منصور مثل ابراهيم ولا رأى ابراهيم مثل علقمة كابن مسعود

هذا كان مبلغ القوم في حفظ الحديث وروايته على كثرة المتشابه فيه وتوفر الاسانيد والرواة بحيث لو ارد أحد لهذا العهد أن يحفظ شيئاً مما كانوا يحفظونه لاختار استظهار اللغة الصينية واستسهاها أكثر وذلك لصعف الحافظة من هذا المعنى وانقطاع سند هذه العلوم الجليلة الا قليلاً

كان الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون من أعيان حفاظ الاسلام قال ابن عساكر انه أحفظ شيخ لقيه وشيوع بن عساكر زهاء الف ومائتي شيخ وكان الفقيه أعلم الدين القمى بحفظ ما سمعه من مرة واحدة . وكان الشافعي من أحفظ أهل دهره قضى عشرين سنة في تعلم الادب والتاريخ وقال ما أردت بهذا الا الاستماعة على الفقه : ويروى أنه نظر في كتاب لابي حنيفة لما كان من الغد الا أن غدا راويا له مستظهاً إياه بجملة . وابن دريد صاحب المقصورة من علماء اللغة كان آتة من آيات الله في اساع صدره للرواية تقرأ عليه دواوين العرب فيسارع الى إملانها من محفوظه . وقيل ان أحمد بن حنبل امام المحدثين كان يحفظ ألف ألف حديث . قال سعيد بن حبير من أعلام التابعين قرأت القرآن في ركعة في الباط الحرام وقال اسمعيل بن عبد الملك كان سعيد بن جبير يؤمنا في شهر رمضان فتقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة ردي بن ثابت وليلة بقراءة غيره هكذا أبداً ولا عجب وهو الذي قال فيه احمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد ابن جبير وما على وجه الارض أحد الا وهو مفتقر الى علمه

وكان على الرازي يقول من فهم هذا الكتاب (يعني الجامع الصغير لمحمد) فهو من أصحابنا ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا وان المتقدمين من مشايخنا كانوا لا يقلدون أحداً القصاص حتى يمتحنوه فان حفظه قلده القصاص ولا أمره بالحفظ . وذكر صاحب نصح الطبيب انه كان خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقه مقلص تكون الفنيا في الاحكام والشرائع له وكان لا يجعل القاص منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث والمدونة كان بديع الزمان الهمداني يجمع خمسين بيتاً لسماع واحد ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر في كتاب نظراً خميماً ويحفظ أوراقاً ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر في الاربعة والخمسة الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهداها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها . وكان أبو رياس أحمد بن ابراهيم من رواة الأدب يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة وعشرين ألف بيت شعر الا أن أبا محمد المافروخي بد عليه لأنها اجتمعا أول ما تشاهدا بالبصرة فتذاكرا أشعار الجاهلية وكان أبو محمد يذكر القصيدة

فيأتي أبو ريش على عيونها فيقول أبو محمد الا أن تهذها من أولها الى آخرها
فينشد معه وبقاشدان الى آخرها ثم أتى أبو محمد بعدة قصائد لم يتمكن أبو ريش
ان يأتي بها الى آخرها وفعل ذلك في أكثر من مائة قصيدة حدثني بذلك من
حضر ذلك المجلس معها — قاله ياقوت في معجم الادبا .

وكان الحفظ في كل فن شائعاً بين أهل الآدب وطلاب العلم على اختلاف
ضروبه عند العرب على نحو ما يتضح من نصفح سير رجالهم ولو لم يكن استناد
المؤلفين في الاغلب الا على ما في لوح محفوظهم لما تيسر لهم أن يؤلف أحدهم
عشراب من المجلدات يعجز العالم اليوم عن نسخها بل عن اصعبها

فقد كان العرب قبل البعثة يروون قصائد شعرائهم وأغاني حداثهم كما يؤخذ
من اجتماعاتهم في سوق عكاظ ووربد البصرة ولم تكن بصاعتهم من ذلك كثيرة
لأذمراء الكلام لم ينبغوا الا في الاسلام بظهور نور النبوة ومصاحبة الكتاب
العزير . ولقد كان الراوية والنسابة يشد عشراب بل مئات من القصائد كما يحفظ
أحدنا لهذا العهد الايات القليلة غير متعلم ولا متردد . حذ مثالا لذلك حماد
الرواية المتوفى سنة ١٥٥ فقد كان على قلة بضاعته من العربية يروى المئات من
القصائد للجاهليين والمخضرمين كما يروى فاتحة الكتاب ويذكر أشعار العرب وأيامهم
وأسابهم ولغاتهم كأنه يروى قصة وكان ملوك نبي أمية يرجعون اليه في هدا المعنى
ويحلونه منزلة عالية من التجارة والاكرام روى الوليد بن يزيد الاموى قارله يوماً
وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقبل لك الراوية فقال : بأني أروى
لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروى لا أكثر منهم ممن تعرف
انك لا تعرفه ولا سمعت به ثم لا ينشدني أحد شعراً قديماً ولا محدثاً الا ميزت القديم
من المحدث فقال : ثم فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال : كثير ولكنني أشدك
على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر
الجاهلية دون شعر الاسلام قال : سأمتحك في هذا ثم أمره بالانشاد فأنشد حتى
ضجر الوليد ثم وكل به من استخلفه ان يصدقه عنه ويستوفى عليه فأنشده
ألفين وتسماة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم
ونواده كثيرة

وكان الأصمعي المتوفى سنة ٢١٨ أو قبلها صاحب لغة ونحو وإماماً في أخبار العرب وملحهم وغرائبهم قال عمر بن شبة سمعت الاصمعي يقول . احفظ سنة عشر الف أرجوزة وقال اسحق الموصلي : لم أر الاصمعي يدعى شيئاً من العلم فيكون أعلم به منه وحصر يوماً عند الفصل بن الربيع هو وأبو عبيدة معمر ابن المثنى فقال له كم كتابك في الخيل فقال الاصمعي مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال خمسون مجلدة فقال له : قم الى هذا الفرس وامسك عصواً عصواً منه وسمه فقال . لست بيطاراً وإنما هذا شيء أخذته عن العرب فقال للاصمعي قم وافعل أنت ذلك فقام الاصمعي وأمسك ناصيته وشرع يذكر عضواً عضواً ويضع يده عليه وأنشد ما قالت العرب فيه الى ان فرغ منه قال أبو حمدون الطيب ابن اسماعيل شهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليربوعي قريباً من الف مجلد عن أبي عمر بن العلاء خاصة ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة لأن تقدير المجلد عشر ورقات

قال أبو نواس . ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال . قلت ولذلك جاء شعر أبي نواس أحسن شعر المولدين كما شهد له بذلك أصحاب الشأن في هذه الصناعة وفي مقدمتهم الجاحظ الذي فضل شعره على شعر العرب العرباء قال اسماعيل بن نوبخت ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا فيه الا قطراً فيه جزار مشتمل على غريب ونحو

قال ابو العباس احمد بن يحيى نعلب دخل أبو عمرو اسحق بن مراد الشيباني البادية ومعه وستبجتان من حبر فما خرج حتى اناهما بكتب ساعه عن العرب وكان أبو عمرو عالماً بايام العرب جامعاً لأشعارها ويروي عن عمرو بن أبي عمرو قال لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها الى الناس كتب مصحفاً بخطه ويحكى انه أخذ عن المفضل الضبي دواوين العرب وسمعها منه أبو حيان وابنه عمرو بن أبي عمرو الشيباني من العلم والسمع أصعاف ما كان مع أبي عبيدة ولم يكن من أهل البصرة مثل أبي عبيدة في السماع والعلم قال سلمة . أملى القراء كتبه كلها حفظاً لم يأخذ بيده

نسخة الا في كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار
الكتابين خمسين ورقة . ونقال ان الاصمعي كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل
يحفظ نصف اللغة وكان أبو فيد يحفظ الثلثين وكان ابو مالك يحفظ اللغة كلها
وكان الغالب على أبي مالك حفظ الغريب والموادر . وكان ابن الاعرابي أحفظ
الناس للغات والايام والانساب وقال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب : قال لي ابن
الاعرابي . أملت قبل أن تجيئني يا أحمد حمل حمل وقال ثعلب : انتهى علم اللغة
والحفظ الي ابن الاعرابي وقال ثعلب سمعت ابن الاعرابي يقول في كلمة رواها
الاصمعي سمعت من الف اعرابي خلاف ما قاله الاصمعي .

وكان قتادة عالماً نحريراً وأجمع الناس لاشعار العرب وأنسابهم قال ابو عبيدة
ما كنا ن فقد كل يوم راكباً من ناحية نبي أمية يبيع على باب قتادة فيسأله عن
خبر أو نسب أو شعر وكان من أنسب الناس . وكان ابن الكلابي النسابة واسع
الرواية ومن أعلم الناس بالنسب وكان من الحفاظ المشاهير قال : حفظت ما لم يحفظه
أحد ونسيت ما لم ينسه أحد كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن فدحلت بيتاً
وحلفت ان لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن حفظته في ثلاثة أيام واتصانيقه يزيد
على مائة وخمسين تصنيفاً وتوفي سنة ٢٠٤

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارهم
وأشعارهم قال الجاحظ لم يكن في الارض خارجي ولا جماعي اعلم بجميع العلوم
منه ومع انه كان يلحن ويخطيء اذا قرأ القرآن واذا اشد بيتاً لا بقيم وزنه واذا
تحدث او قرأ لحن اعتماداً منه لذلك فقد صنف قرابة مائة مصنف وكان يري رأي
الخواارج ولذلك كثر الطاعنون في نسبه ومشربه ومذهبه وتوفي سنه ٢٠٩

كان أبو المحاسن الرؤناني المتوفي سنة ٥٠٢ من رؤوس الافاضل في أيامه
يقول : لو احترقت كتب الشافعي لأملت منها من خاطري . وقال ابو بكر النحوي لما
قدم الحسن بن سهل العراق قال : أحب ان أجمع قوماً من أهل الادب فأحضر أبا
عبيدة والاصمعي ونصر بن علي الجهضمي وحضرت معهم وأفضنا مرة في ذكر
الحفاظ فذكرنا الزهري و قتادة ومررنا فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض أيها

الامير في ذكر من مضى وبالحضرة ههنا من يقول ماقرأ كتاباً قط فاحتاج الى أن يعود فيه ولا دخل قلبه شيء نخرج عنه فالتفت الاصمعي وقال انما يريدني بهذا القول أيها الامير والامر في ذلك على ماحكى وأنا أقرب اليك قد نظر الامير فيما نظر فيه من الرقاع - وكان نظر قبل أن يلتفت اليهم في رقاع بين يديه للناس في حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة - وأنا أعيد ما فيها وما وقع به الامير على رقعة رقعة قال فأمر وأحضرت الرقاع . قال الاصمعي سأل صاحب الرقعة الاولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في نيف وأربعين رقعة فالتفت اليه نصر بن علي فقال أيها الرجل ابق على نفسك من العين فكف الاصمعي .

ومالى واعداد الاسماء على هذا النحو فكتب القوم طائفة بها وانما يكفي منها التمثيل والقليل يغنى . ولقائل ان هذا القدر من الحفظ كان بعصه شائعاً في القرنين الاولين والقرون الثلاثة وقد بالغ فيه الرواة حتى اتصل بنا على هذه الصورة وما حجتى في نقض هذا الا وقوع أمثال أمثاله في كتب أهل القرون المتأخرة مما تواطأ الثقات على نقله وتجزوا في اثباته . ولقد كان الغرب في هذه المزية كالشرق اذ قد حذا المغاربة في حضارتهم وعلومهم حذو المشاركة . فقد كان ابن عمدون أحد حول شعراء الاندلس وكتابتها مستكثراً من الحفظ قال الوزير أبو بكر بن زهر : بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل شيخ أمرته أن يكتب لى كتاب الاغانى فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبتها فقات له : أين الأصل الذى كتبت عنه لا قابل معك به قال : ما أتيت به معنى فبينما أنا معه في ذلك اذ دخل رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاؤها من غير اتقان وقال لى : يا بنى استأذن لى على الوزير أبى مروان فقلت له : هو نائم . هذا بعد ان تكلفت جوابه غاية التكلف حملتنى على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عنى ساعة وقال : ما هذا الكتاب الذى بأيديكما فقلت له : ما سؤالك عنه فقال : أحب أن أعرف اسمه فاني كنت أعرف اسماء الكتب فقلت : هو كتاب الاغانى فقال : الى أين بلغ الكاتب منه قلت : بلغ موضع كذا وجمعات أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على

قال به فقال : وما لكاتبك لا يكتب قلت : طلعت منه الاصل الذي يكتب منه
لاعارض به هذه الأوراق فقال : لم أحيء به معنى فقال : يا بني خذ كراريسك
وعارض قلت : بماذا وأين الاصل قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صمى
قال : فتبسمت من قوله ولما رأى تبسّمى قال يا بني أمسك على قال : فامسكت عليه
وحمل يقرأ فوالله ان أخطأ واوياً ولا وطاء قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم أخذت
له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء فاشتد عجبى وقت مسرعاً
حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان
ملتقياً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حاق القدمين لا يرفق على نفسه
وأنا بين يديه ويقول : يا امرئ لا يذنب فوالله ما أعاننى هذا الخلف الا الساعة
وجعل أسنى والرجل يخفض عليه ويقول : ما عرفى وأبى يقول : هبه ما عرفك
فما عذره في حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجاسه وخلا به فتحدثا طويلاً
ثم خرج الرجل وأنى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدايته التي يركبها فاسرجت
وحاف عليه ليركبها ثم لا ترجع اليه أبدأ فلما اتصلت قلت لابي : من هذا الرجل
الذي عظمته هذا التعظيم قال لي اسكت ويحك هذا أديب الاندلس وامامها
وسيدها في علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته
كتاب الأغاني رواها المراكشي

وروى أيضاً قصة تشبهها قال انه لزم أنا جعفر الحميري آخر من اسهى اليه علم
الآداب بالاندلس المتوفى سنة ٦١٠ نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم
ولا حديث ولا أذكر محكاية تتعلق بادب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجع
مستحسنة منه أدرك جلة من مشايخ الاندلس فاخذ عنهم علم الحديث والقرآن
والآداب وأعانته على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم قال لي
ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت على أو أكثرها
فالقيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت في نقلها
فقال لي . ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل اصح من الاصل الذي كتبت منه
فقلت له : أين هو فقال لي عن يمينك فعامت انه يريد الشيخ فقلت : ما على يميني
الا الاستاذ فقال لي : هو أصلى وباملائه كتبت كان على من حفظه جمعات

تعجب فسمع الاستاذ حديثنا فالتفت الينا وقال : فيما اتنا فاخبره ولده الخبر فلما رأى تعجبي قال : بعيد أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً ومن نظر فيما أثر عن الاندلسيين وحدهم من هذا القبيل يكتب أوراقاً كثيرة وكنت قرأت في الاستقصاء ان من جملة من غرق مع السلطان أبي الحسن لما قصد الغرب في البحر باسطوله الغرق وكان مؤلفاً من نحو ستمائة قطعة مع من غرق من الفقهاء والعلماء والكتاب والاشراف أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير اربعمائة فائدة

وقيل إن صدر الدين بن الوكيل ويعرف عند المصريين بابن المرغل من أئمة الشافعية حفظ المفصل في مائة يوم ويوم والمقامات الحريرية في خمسين يوماً وديوان المتنبي على ما قيل في جمعة واحدة

وذكر المقرئ عن حكايات أهل الاندلس في الحفظ ان الاديب الاوحد حافظ اشبيلية بل الاندلس في عصره أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره في الرواية للاشعار والاشراف قال ابن سعيد : اخبرني من أتقن به انه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء اشبيلية جرى ذكر حفظه وكان ذلك من أول الليل فقال لهم ان شئتم تخبروني أحببتم فقالوا له اسم الله انا نريد أن نحدث عن تحقيق فقال اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا فاختاروا القاف فابتدأ من أول الليل الى أن طلع العجر وهو ينشد وزن (أرق على أرق ومثلي يارق) وسماه قد نام بعض وضج بعض وهو ما فارق قافية القاف وقال أبو عمران بن سعيد دخلت عليه يوماً بدار الاشراف باشبيلية وحوله أدباء ينظرون في كنب مها ديوان ذي الرمة فمد الهيثم يده الى الديوان المذكور فنه أحد الادباء فقال . يا أبا عمران اواجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتاً وأنا أحفظه فاكذبه الجماعة فقال اسمعوني ، وامسكوه فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه فاقسمنا عليه أن يكف وشهدنا له بالحفظ وكان آية في سرعة البديهة مشهوراً بذلك قال أبو الحسن بن سعيد . عهدى به في اشبيلية على أحد

الطلبة شعراً وعلى ثمان موشحة وعلى ثلاث زحلاكل ذلك ارتجالاً .
قال ابن خلكان: كان أبو الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الاغانى يحفظ من الشعر
والاغانى والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب ما لم ارقط من يحفظ
مثله ويحفظ دون ذلك من علوم آخر منها اللغة والمحو والخرافات والسير والمغازى
ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والسيطرة وتنف من الطب
والنجوم والاشربة وغير ذلك وذكر صاحب الصبح المنبى ان العلم الفردى فى قوه
الحافظة عبد الله بن عباس رضى الله عنها . ولقد شرط الملك المعظم عيسى لسكر
من يحفظ المفصل للزخشرى مائة دينار وخلعة تحفظه لهذا السبب جماعة

قال ابو عمر الطاهمكى دخلت مرسية فتشبت بى أهلها يسمعون على الغرب
المصنف فقامت انظروا من يقرأ لكم وأمسكت أنا كتابى فأتونى برجل أعمى
يعرف بابن سيدة (وهو صاحب المخصص فى اللغة الذى طبع . وخرأ) فقرأه على
من أوله الى آخره فعجبت من حفظه . ولقد لارم ثعلب بن الاعرابى فما رآه
نظر فى كتاب وأخبار الاصمعى فى الحفظ والرواية أشهر من أن تذكر وكذلك
خلف الاحمر والسكابي وعبيد ودعبل . وكان ابو تمام لا يلحق فى محفوظاته وقيل
انه كان يحفظ أربعة عشر الف ارجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع . قال ابو
الحسن محمد بن على العلوى كان المتنبى يلازم الوارقين فاحبرنى وزان كان يجاس
اليه قال مارأيت أحفظ من هذا الفتى بن عبدان السقى (المتنبى) قلب له . كيف
قال اليوم كان عندى وقد أحصر رجل كتابا من كتب الاصمعى يكون نحو
من ثلاثين ورقة لبيعه فأحذه فنظر اليه طويلاً فقال له الرجل أريد بيعه وقد
قطعتنى عن ذلك فان كنت قد حفظته فى هذه المدة فالى عليك قال . أهب لك
الكتاب قال . فأخذته من يده فأقبل بهذه على الى آخره ثم استسأه فجعله فى كه
وقام فتعلق به صاحبه طالباً بعاله فقال ما الى ذلك سبيل وقد وهبته لى قال .
فمنعناه منه وقلنا . أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه . والامثلة
كثيرة فى هذا الباب والله أعلم

الانشاء والمنشؤون^(١)

إذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم ومصنفاتهم وبدأنا بأهل القرن الأول للإسلام ، نرى على رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) . فانه سيد البلغاء على الإطلاق ، وواضع بنيان الميان العربي ، وكلامه كما قال العارفون بعد كلام الله وكلام رسوله (عليه الصلاة والسلام) أبلغ كلام ، ونهج البلاغة (٢) الذي جمعه الشريف الرضى من كلامه وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الخالد . وقد عد كثير من الصحابة أئمة في الكتابه والخطابه (راجع « اعجاز القرآن » للباقلاني و « الاتقان » و « المرهر » للسوطي)

ولم يؤثر عن عصور الجاهلية خطب ورسائل كثيرة لان التدوين لم يحدث في الامة العربية الا في أوائل القرن الثاني للهجرة ، وكانت العرب تعتمد على ذاكرتها ومخطوطها ورواياتها المتسلسلة . قال الرقاشي : ماتكلمت به العرب من حيد المنشور أكثر مما تكلمت به من حيد المورون فلم يحفظ من المنشور عشره ولا صاع من الموزون عشره . ومعظم الذي أبقتة الايام من أدب العرب لم يبرح محفوظا في الخزائن لم يطبع وأكثره محفوظ في جامعات أوروبا ودور كتبها . حم القرن الاول بأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فان رسائله الموجزة وخطبه الفراء التي نقلها ابن سعد في « الطبقات الكبير » وابن الجوري في « مناقه » ، آية في البلاغة ، وفيها من أدب العرب مسحة وطلاوة ، ورسائله وخطبه في الادارة والسياسة على قلتها . تربي فيمن يتدبرها ملكة الانشاء وتقف به على أصول الادارة العربية . ومن بلغاه هذا القرن زياد بن أبيه والحجاج ابن يوسف الثقفي وقطري بن المجاعة وعمران بن حطان . وهذان الاحيران من

(١) نشرت أولالعمة الامرسية في مجلة التعليم Bulletin de l'enseignement التي تصدر في بيروت وفي جريدة البلاغ المصرية بتاريخ ١٢ و١٣ و١٥ و١٧ جمادى الاولى ١٣٤٣ (١٩٢٤)
(٢) جميع الكتب الواردة أسماؤها في هذا المبحث مما طالعهنا وتدارسناه وحكمنا عليه بأنفسنا .

خطباء الخوارج . وقد استغرقت أخبار الخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع يوم النهروان ، جزءاً مهماً من كتاب «الكامل» للمبرد تتمثل بها بلاغة الفوصو بين والعدميين والشيوعيين في الاسلام.

جاء القرن الثاني وقد نبغ في أوله عبد الحميد بن يحيى الكاتب . وهو النهاية في البلاغة والفصاحة ، احتط للناس خطة الترسل والانشاء ، ثم عبدالله بن المقفع الذي أسلست له الكتابة قيادها ، فلم تعد له هنة واحدة في باب التكلف ، بل كان في « اليتيمة » يسائر ما فاصت به قريحته من رسائله ابتداء كما كان في ترجماته « ككليمة ودمنة » طمقة عالية في البلاغة . ولو عمر ابن المقفع (عاش ستاً وثلاثين سنة) لانتقى لنا أمثلة في البيان ، يتخرج بها طلاب الادب من العرب . على غابر الحقب . ونبغ في هذا القرن سهل بن هرون وهو بالقليل الذي وصلنا من رسائله نالفة في علمه وأدبه ، وناهبك بمن كان الجاحظ ينوره به . ويمقل عنه في كتبه . وكان كثيراً ما يؤلف الكتاب وينسبه لسهل بن هارون فيجمع الناس على استحسانه ، أكثر مما كان لو نسبه لنفسه ، وكنابه سهل من السهل الممتنع . لاحوشى فيها ولا متذلل . أو كما قال الجاحظ في الكتاب « انهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً » ومن خطباء هذا القرن داود بن علي وشبيب بن شيبعة ومن كتبه اسماعيل بن صديح كاتب الرشيد وعمر بن مطرف كاتب المنصور والمهدى والهادى والرشيد . وصالح بن جناح صاحب كتاب « الادب والمروءة » وكلامه رشيق دقيق مستفاد في الحكمة .

وكان يقال بلغاء الناس عشرة عبد الله ابن المقفع وعمارة بن حمزة وخالدين يزيد وحجر بن محمد وأبس بن أبي شيخ وسالم بن عبدالله ومسعدة والهزبروعبدالجبدا . ابن عدى وأحمد بن عدى وأحمد بن يوسف . قال صاحب « الفهرست » ومن البلغاء الحدث ابراهيم بن العباس الصولى والحسن بن وهب وسعيد بن عبدالملك ولم يصل اليينا من كلام هؤلاء الجهادة شىء يذكر اللهم إلا ما عرف من كلام ابن المقفع وأحمد بن يوسف والصولى والباقون دثرت كتاباتهم إلا نثفاً قليلة لا يبنى عليها حكم

ومن كتاب هذا القرن أبو اسحاق الكاتب ابراهيم بن محمد المدبر وزير المعتمد

على الله الموفى سنة ٢٧٩ « صاحب النظم الرائق والثر الفائق » وهو صاحب « الرسالة العذراء في موارد البلاغة وأدوات الكتابة » التي نشرناها في « رسائل اللغاء »

وامتاز القرن الثالث اظهور الجاحظ (٢٥٥ هـ) الذي رزق الاجادة في كل ما كتب وهو رب البديهة في أفكاره ومظاهر علمه وتقديره ولم يعهد قبله أن تبرر الموضوعات المختلفة في هذا القالب الفتان . الذي يظهرها فيه غير متكلف ولا متعسف . وكلامه كلما كررتها حات وبقدر ماتتلوها تتجلى لك رقة معانيها . ومثانه مبانيها . وتدهش وأنت تطالع كلامه من تملكه ناصية اللغة وبراعته في استعمال الألفاظ في أماكنها وربما ساهل فأورد الماطاً عامية في معرض كلامه لينقل الافكار بحالتها . ولم يكده يعهد مثله في المجودين من المؤلفين من يريك بديانه الباطل حقاً ، والحق باطلا ، يقول الشيء ونقيضه . ويقنعك في الأول حتى لا تظلمك تقنع بعد بكلام ، ويرجع عليك بكلم طيب ، فيديك ما أصاب في الأولى . وهكذا يلعب بالعقول كالسحر ولكنه السحر الحلال

افتح أى كتاب من كتب الجاحظ التي أبقته الايام للمكتبة العربية ذخراً وخرأ ، تشهد المعجب من تمننه وإبداعه ، وتدرك كيف تستجيب له المعاني ، وتنقاد الألفاظ برشاقنها وجزالتها ، وقد يشوب كلامه ببعض الظرف والهزل والموادر أحياناً لئلا يمل مطالعته هكذا تراه في « كتاب الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « المحاسن والاضداد » و « الحاسد والمחסود » وغيرها من رسائله وهي اضع وعشر رسائل مطبوعة وكل صفحة من صفحاتها أفيد من مجلد برمته ومن يجيىء بعد الجاحظ أبو حنيفة الدينورى صاحب كتاب « الاخبار الطوال » « وأبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان (الجاحظ) أكثر حلاوة ، ومعاني أبي عثمان لا تطفة بالنفس ، سهلة في السمع ، ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل في أساليب العرب قال أبو حيان التوحيدى والذي أقول وأعتقده وأخذ به وأساهم عليه انى لم أجد في جميع من تقدم وتأخر الا ثلاثة لو اجتمع الثقلان (؛) على تقريرهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعامهم ومصنفاتهم ورسائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، وذكر الجاحظ والدينورى

وثالث بأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، ووصف كل واحد بألفاظ عجيبة .
ومما امتاز به هذا القرن ان علوم الاوائل التي بدىء بترجمتها في منتصف القرن
الاول في دمشق بمعرفة خالد بن يزيد الاموي وعنى بها عمر بن عبد العزيز
وأخوه ، قد زادت العناية بها في بغداد على عهد المنصور العباسي ، ثم بلغت
أشدها في زمن المأمون . وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات في العربية روحاً
جديداً ، فترجم اليها من اليونانية والسريانية والمارسية والهندية وغيرها ،
فاغتنت اللغة ورأت من الاساليب والافكار مالا عهد لها به . وهذا أول تأثير
من آداب الامم الاخرى أصاب اللغة العربية فأصبح لغة علم وصناعة ، امدان
كانت لغة شعر وحكمة فقط . وعصر المأمون هو في الحقيقة العصر الذهبي في
الادب والكتابة والعلم وسائر مفومات الحضارة العربية .

قلنا إن أحمد بن يوسف الكاتب هو من أوائل البلغاء . وقد أورد بعض
رسائله الصولى في كتاب « الاوراق » المخطوط وأورد له ابن طيفور صاحب
« كتاب بغداد » المطبوع ، واذجات من رسائله . وفي كتب التراجم المطولة شيء
عن كنهاناته المسجعة على مثال السجع الذي يقع في كلام أئمة البلاغة في القرن
الاول وناهيك برجل أعجب المأمون لعقله وأدبه فاستورره واستكتمه . والكاتب
المجودون في هذا القرن كثيرون ومنهم عمرو بن مسعدة ورير المأمون « وكان
كاتباً بليغاً جزل العبارة وحيزها ، سديد المقاصد والمعاني » وصدق عليه مقاله
الرشيد في البلاغة « البلاغة النباعد عن الاطالة . والتقرب من معنى المغية .
والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وأبو علي الدامغانى الوزير
وأبو الفتح البستي « صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس المنيس البديع الأساس »
ومن أهم من انتشرت كتبهم ابن قتيبة (٢٧٦) فهو ثاني الجاحظ لعلمه وحوودة
انشائه وتأثيره ، وفي كتابه « الامامة والسياسة » و « كتاب العرب » و « مختلف
« تأويل الحديث » و « الاشربة » و « المعارف » و « عيون الاحبار » و « أدب
الكاتب » ما يدل على روح سام سار فيه الأدب مع العلم سيراً متساوفاً ويعد
من كتاب الدرجة الأولى في القرن الرابع أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية
(٣٤٠) بغدادى الاصل انتقل أبوه الى مصر وكان أحمد من كتاب الدولة الطولونية

وقد عرفناه من كتاب « المكافأة » الذي نشر له مؤخراً مع قطعة من كتابه « حسن العقبي » وهي عبارة عن حكايات فيها حكمة ومواعظ واعتبار آية في البلاغة ومنهم أبو بكر الصولي (٣٣٥) صاحب كتاب « الاوراق » و « أدب الكتاب » وأحمد بن عبد ربه (٣٢٨) صاحب « العقد المرید » وجمفر بن قدامة ابن زياد الكاتب (٣١٩) . وعرفنا من أهل هذا القرن زمرة من الكتاب الذين زانوه بأقوالهم وأفصالهم ومنهم أبو الفصل بن العميد وزير بني بويه (٣٦٠) وكان أبوه أيضاً كاتباً مترسلاً من كتاب الدولة السامانية وابن العميد أول من فتح باب السجع وأكثر من أنواع البديع . وكان يقال فتحت لرسائل بعبد الحميد وحتمت باب العميد كما قبل بديع الشعر بملك أي امريء القيس وحتم بملك أي أنى فراس الحمداني . وما قبل في ابن العميد يقال في الصحاح بن عباد (٣٨٧) وهو أيضاً ممن تناغى بالجناس . واكثر من الاسجاع وكان يقول . كتاب العصر أربعة الاستاذ الرئيس يعني ابن العميد . والاستاذ أبو القاسم يعني عميد العرير بن يوسف . وأبو اسحق يعني الصابي ولو شئت لذكرت الرابع يعني نفسه

ويجى مع هذه الطيقة ابو بكر الخوارزمي (٣٨٣) وكان يميل الى طريقة ابن العميد في الكتابة و « رسائله » المطبوعة المشهورة مثال البلاغة والمصاحبة على كثرة الاسجاع فيها حتى لا يكاد يعدوها . وقلمها تفوته . وأما بديع الزمان الحمداني (٣٦٨) صاحب « الرسائل » و « المقامات » المشهورة فانه سار مع الطبع أكثر من الخوارزمي وكثيراً ما يترك التسجيع وأنواع البديع . واذا استعماها ففي مواطن خاصة وجل معينة ثم يعود الى طبعه فتأخذ أقواله بمجامع القلوب . وأكثر ما فرأناه من « رسائل الصابي » (٣٨٤) الصادرة عن الخلفاء وغيرهم ومنها ما طبع على حدة ومنها ما اقتبس في « صبح الاعشى » — قد أفرغ في قالب من السجع البديع المستملح وقد تغلخى عنه في بعض التقاليد والعهود ، ولو تيسر له أن يطرح السجع على طريقة البديع لجاءت كتاباته مفخر الأسلاف ، وأعظم معلم للاخلاف

ومن نبغ في ذلك القرن أبو الفرج الببغا وعبد الله بن عمرو الفياض كاتب

سيف الدولة ونديعه وأبو القاسم على الاسكافي النيسابوري وكان من علو الرتبة في النثر والنحطاطها في النظم كالجاحظ وعلى بن هند صاحب «الكلم الروحانية» ويحيى بن عدى صاحب تهذيب الاخلاق أو سياسة النفس (٣٦٤) وابن حمان البستي (٣٥٤) صاحب «روضة العقلاء» والحامى صاحب «الرسالة الحاتمية» التي شرح فيها ماجرى بينه وبين أبي الطيب المننبي من اظهار سرقاته وانقاصه عيوب شعره والقاضى التموخى (٣٨٤) صاحب «النشوا» و «المرج بعد الشدة» وفدامة بن حمزة الكاتب (٣٣٧) صاحب «نقد الشعر» و «كتاب الخراج» وابن نباتة صاحب «الخطب» المشهورة ومنهم أبو جعفر محمد بن العباس وزير المكتفى والمقتدر وابو منصور البغوى (٧٥) ورأس أدبه هذا القرن ابو العلاء المعرى والشعر غالب عليه وكتابه مصنعه فيها كثير من عووض اللغة وسبكها لا يخلو من يبوسة وجفاء طبع ولكن «رسالة الغفران» الى كتبها رداً على رسالة بن القارح وكلاهما مطبوع اشبهت رواية دانتى الشاعر الايطالى La divine comedie وكات من أعظم الروايات الخيالية الدالة على أن أعشى المعره كان معلماً لمناغة ايطاليا في الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المشرقين في أو. با على ان دانتى في روايته الالهية المؤلمة من ثلاث روايات وهى جهنم والمطهر والحنة التى ألها بين سنتى ١٣٠٠ - ٣١٨ م قد اقتبسها ولا سما رواية جهنم من رسالة الغفران للمعرى ونسج على منواله في التصور . وان ما كتبه المعرى على ديوان أبي تمام الطائى وسماه «ذكري حبيب» وعلى ديوان أبي عبادة البحتري وسماه «عبث الوليد» وما كتبه على ديوان أبي الطيب المتنبى وسماه «معجز احمد» يدل على احاطة المعرى بأسرار العربية وفهم كلام العرب ومراميهم وشدة ملكته في المقيد الادبى . دغ فلسفته في «لثومياته» و «دواوينه» فالمعرى فيلسوف لغوى وليس بكاتب . ومنهم على ابن خلف صاحب «مواد البيان» الذى نقل القلقشندى في صبح الاعشى جزءاً مما منه .

وتميز القرن الخامس اظهور كثير من الڪتاب فيه ومن أشهرهم الذين تركت الايام انا شيئاً من كتاباتهم الامير قابوس بن وشكمير (٤٠٣) صاحب « كمال اللغات » فان كتاباته هي الموسيقى برنتها ، والشعر الفتان ، ولكن بدون قافية وروى . الا ان الاسجاع غالبية عليه ، مستحكة في حواشى كلامه ، آخذة بجماع أدبه . حلاًواً للثعالبي (٤٢٦) سيد ڪتاب هذا العصر ، ومن أعظم مؤلفيهم في اللغة والآداب ، فان مقدمة كتابه « فقه اللغة » طبقة عالية في الڪتاب المرسله في عصره واعدده ولو تحلى عن السجع في « يتيمة الدهر » التي ترجم فيها أدباء عصره على نحو ما تركه في « المصاف والمسوب » و« لطائف المعارف » وغيرها من كتبه ورسائله لما عيب عليه في شيء . ومثل ذلك يقال في ابن رشيق القيرواني (٤٥٦) صاحب « العمدة » أحد أمهات كتب الأدب الذي انتقده أبو عبد الله ابن شرف القيرواني في (رسائل الانقاد) وكان الناس في الدهر القدام يعتمدون على أربعة كتب لاتقان فن الأدب . « البيان والتبيين » للجاحظ و « أدب الڪاتب » لابن قتيبة و« الڪامل » لامبرد و« الامالى » لابن على النفالى . ومن هذه الڪتاب الاربعة ما شرح ومنها ما احتصر ومنها ما انتقد شرح « أدب الڪاتب » لابن قتيبة بن السيد البطليوسى ومن اسفدوا « آمانى القالى » أبو عبيد الڪرى صاحب « معجم ما استعجم » في جزء لا يزال مخطوط ، سماه « التذبيح على أوهام أبى على في أماليه »

ومن توفى على رأس الاربعمائة أبو حيان التوحيدى وهو مبتدع صريفة خاصه به قرأناها في ڪتاب « المقابسات » و « رسالة الصديق والصداقه » و « الاشارات الالهية » . وذكر الثعالبي ثلاثة من ڪتاب آل بويه وهم أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وادو احمد عبد الرحمن بن الفصل الشيرارى وأبو القاسم على ابن القاسم العاشانى وأورد من كلامهم نمودحات لطيفة . ويعمد في الطقة لاولى من المؤلفين والڪتاب المجيدين ابو الفرج الاصفهاني صاحب « الاغانى » أبو الحسن على بن عبد العزيز صاحب ڪتاب « الوساطة » بين المسبى وخصومه الامير عبد الله الميڪالى فانه من الڪتاب المجيدين والسجع غالب عليه ومثله أبو نصر العتبى واصع « تاريخ بن سبكتكين » المعروف باليميني وهو التاريخ

المسجع البديع ويعد مؤلفه من أكبر المنشئين
ومن كتات هذا القرن ابن موصلايا (٤٩٨) وابن ناويا (٤٨٥) والموفق
بن الخلال صاحب ديوان الانشاء على عهد الخاوظ العبيدى بمصر (وكانت له قوة
على الترسل يكتب كما يشاء » وكان الغالب على الموفق بن الخلال فى رسائله
العناية بالمعانى أكثر من طاب السجع وكان من الكتاتنة عصر فى زمن الدولة
المملوية غصاً طريا وكان لا يحلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا
ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا ، « ومن أثرت بعض رسائله فى هذا القرن هلال بن
المحسن الصابى (٤٤٨) حفيد أبى اسحق صاحب الرسائل ومؤلف كتاب
« أخبار الورراء » ومن المجيدين فى الانشاء وأن عددهم الناس فى طبقة الحكماء
أحمد بن مسكويه (٤٢١) مؤلف « تهذيب الاخلاق » و « العوز الاصغر »
و « تجارب الأمم » فان كتابته مثال الانشاء المرسل البديع ومنهم أبو طاهر
محمد بن حيدر (٥١٧) صاحب « قانون البلاغة » وهو لم يطبع

وفى هذا العصر نبغ فى الاندلس الوزير ابن ريدون (٤٦٣) فى العظم والمتر
و « رسالته » على لسان ولادة بنت المستكى بالله أدبية عصرها من المرقص
المطرب . ومثل ذلك يقال فى الورير ابن حزم الاندلسى (٤٥٦) فانه من اكتب
العلاء فى عصره . ومن المكثرين من التأليف المجودين فيه . وناهيك بكتابه
« طوق الحمامة » و « رسالته فى الاخلاق » دليلا على أدبه الراقى ، ومثالا من
أنشاء عصره الذى أشبه فى الادب عصر لويز الرابع عشر فى فرنسا

ونشأ فى هذا القرن والذى يليه فى الاندلس طبقة من الكتات ومنهم من تولى
الوزارة . والغالب ان الكتات المجيد فى الدهر السالف يكون وزيراً كالخطيب
المصقع فى هذا الدهر يكون رئيس وزراء . مثل الباجى وابن الدباغ وابن الجد
وابن القاسم وأبى الاصبغ وابنه أبو عامر وابن سفيان وابن الحاج وابن عمدون
وابن أبى الخصال وابن عبد العزيز وابن السقاط وابن القصيرة « وكان هدا على
طريقة قدماء الكتات من اتيان جزل الالفاظ ، وصحيح المعانى ، من غير التتات
الى الاسجاع التى أخذها متأخرو الكتات اللهم الا ما جاء فى رسائله من ذلك عفواً
من غير استدعاء » ومنهم ابن عبد الغفور وابن عمار وابن الافطس وابن سالم

ومنذر بن سعيد وابن أيمن وابن اللبانة وابن عبد البر والفرضي وابن سعيد المؤرخ وابن حيان وابن القوطية وأبو عبيد البكري صاحب « معجم ما استعجم » و « المسالك والممالك » و ابن الطميل صاحب « رسالة حى بن يقظان » وفيها اشارات لمذهب المشوء والارتقاء . ومنهم البطليوسى وابن تومار وابن هود والنحلى والاشمونى والقسطلى وابن لئون وابن رزين والنمري والسرقسطى وابن القلاس والقصاعى والبهارى والحجارى والدانى والبلنسى والطليطلى وغيرهم وما منهم الا منشىء مجود ومؤلف جزل العبارة رشيق الالفاظ . ولا غرو فان الاندلس أخرجت للادب رجالا عظاما . نشم من مكتوباتهم أرج الغرب ، وقد جمع أحد علماء المشرفيات من الاسبان تراجم الاندلسيين من العرب فكانوا ثلاثين الف عالم وأدب وفقه ومهندس وطبيب الخ من أصحاب المنزلة . وترجم الفتح بن خاقان (٥٣٥) صاحب « قلائد العقيان » و « مطمح الانفس » لبعض أولئك الادباء بالاسجاع المطوعة كما ترجم لهم ولغيرهم ابن لسام فى « الذخيرة » واشتهر بالورارة من الكتاب المجودين فى بغداد الورير على بن عيسى والورير أبو الحسن ابن الفرات . وعلى بن عيسى (مذهب فى الترسلا يلحقه فيه أحد ولا ابن المرات) ومنهم أبو على محمد بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزيات الى غيرهم من الكتاب السابقين والخاملين وربما كان فى الخاملين من هم أعلى كعنا من السابقين ومن اشتهر بنثره فى هذا العصر الحريرى (٥١٠) صاحب « المقامات » و « درة الغواص » . وقد ررق بالمقامات الحظوة التامة ولكنها أيضا من النثر المتكلف لا المرسل ولو حيرنا بين نثره ونثر حجة الاسلام الغزالى (٥٠٥) لاحترنا كتابة الغزالى ولا سيما فى الجزء الثالث من « الاحياء » ورسائله التى أبان فيها عن طبعه خصوصا « التفرقة بين الاسلام والزندقة » و « تهافت الفلاسفة » و « الرد على الباطنية » أو نثر الراغب الاصفهانى فى « الدريرة الى مكارم الشريعة » و « تفصيل الشأتين » و « المحاضرات » أو الماوردى فى « أدب الدنيا والدين » و « الاحكام السلطانية » . وفى كلام الحريرى مسحة من التعمل قد يصل اليه معظم من جمعوا أدواته من اللغة وكلام العرب لو شاءوا أن يحصروا وكدهم ويتعملوا فى منشورهم . وكان ابن الخشاب يقول ان الحريرى رجل مقامات أى

انه لم يحسن من الكلام المنشور سواها فان أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . ولعل
جار الله الزمخشري (٥٣٨) يفوقه باجادة صناعة النثر فسجماته في « تفسيره »
و « المفصل » و « أساس البلاغة » و « مقاماته » و « أطواق الذهب »
و « الكلم النوابغ » و « الفائق » في الغاية من الرقة والجرالة وكادت بينه وبين
رشيد الدين الوطواط صاحب « الرسائل » المطبوعة المسجعة محاورات ومرادات
والزمخشري أرقى بياناً وأوسع علماً . ويعد في كتاب هذا القرن أبو الفتوح
ابن الجوزي (٥٩٧) الواعظ المؤلف فانه حلف كتباً كثيرة ومنها كتاب
« الاذكياء » و « أحبار الحمقى والمغفلين » وأمثال هذه الكتب أشبه شيء بما
يطلق عليه الأورنج اسم « أي المعادات والتقاليد ومن مثل هذا كثير
في العربية مثل أخبار « عقلاء المجانين » للحسن بن حبيب السمر . وقد حدثنا
التاريخ ان كثيراً من الكتاب ولا سيما في القرون الأولى وضع حكايات أشبه
شيء بتقصص الغربيين اليوم يقصدون بها تلقين فكر ، أو بث دعوة ، أو أحداث
مشغلة للعامة ، لصدهم عن البحث في شأن مهم للدولة . وقد صنّفوا كثيراً في
الاسمار والخرافات منها ما عرّبه عن فارس والهند والروم وما بل ومنها ما ابتدعه
ومنها كتب روايات غرامية ذكروا فيها أخبار العشاق الذين عشقوا في الجاهلية
والاسلام ومنهم من ذكر الحماة المتظرفات أو اكتبى بأخبار العشاق الذين تدخل
أحاديثهم في السمر . وصنع المتأخرون قصة ألف ليلة وليلة فاشتهرت في الغرب ،
ونقلت الى معظم لغات أوربا ، كما اشتهرت في الشرق العربي ومثل ذلك يقال
في قصة السندباد البحري والظاهر ونغرية بنى هلال الى غير ذلك مما لا يعد في
الادب الراقى لانه كتب للعامة ولم يكتبه كتاب مجودون

ومن نشأ في هذا القرن ضياء الدين بن الاثير صاحب « المثل السائر » فهو
أيضاً كاتب مسجع مبدع وهو الذي تصدى ابن أنى الحديد المدائني لمؤاخذته
والرد عليه وعنته وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل
السائر » . وسيد المذثئين على التحقيق في هذا العصر القاضي الناضل وزير صلاح
الدين ، فهو حجة المذثئين سواء توسل بالسجع أو نحى عنه ، مع انه لم يكن يفارقه
على الاغلب ، ولو انتهت اليها رسائله كلها لجات بصعة مجلدات والقليل المقتبس

منه في صبح الاعشى « ورسائله » المخطوطة وما نقل له في « الروضتين » مما تنبسط له النفس ويحيى بعده في المرتبة عماد الدين الكاتب الاصفهاني فهو سالك طريقته ، ولكمه في دعواه التفوق على غيره من الكتاب أشبه الناس بصاحب المثل السائر . والدعوى تذهب بهجة العلم وان كانت صحيحة وكتابه « الفتح القسى » « وربذة النصر » نموذج أدبه . وراموز صالح من سجمه وترسله ، وقد نشأ في عصر القاضي الفاضل والعماد الكاتب . كاتب هزلى اسمه الوهراني (ركن الدين ابو عبد الله محمد ٥٨٥) عمل « المتامات والرسائل » المشهورة التي لم تطبع وذلك لانه أيقن لما دخل الشام مهاجراً من الجزائر أن بضاعته لا تنمق مع وجود القاضي الفاضل والعماد الكاتب وتلك الحلبة كما قال بن حلكان في « وفيات الاعيان » فعمد الى الهزل ونمق سوقه ومنهم ابن منقذ صاحب كتاب « الاعتمار » ذكر فيه قصصاً في الشجاعة وقمت له ولاسرتة أصحاب قلعة شيرر على عهد الحملات الصليبية الاولى وذكر شيئاً من عادات الصليبيين وأخبارهم وشجاعتهم على صورة مسنوعة ، ومنهم يحيى بن زيادة الشيماني انتهت اليه المعرفة بامور الكتابة والانشاء وابن الصيرفي صاحب « الإشارة الى من نال الوزارة » و « قانوديان الرسائل » وممن كان في القرن السابع من الكتاب وسار على الطريقة الماضية في الانشاء محي الدين ابن عبد الظاهر (٦٩٢) وابنه محمد فتح الدين ويعمد الاب والابن من واصعى نظام الانشاء في عصرهما والعصرين التاليين . وابن عبد الظاهر أضعف في البلاغة بما ورد له في صبح الاعشى من الماضل والعماد ومن تقدمه في الميلاد وممن عرف بالبراعة في تصوير البلدان والآثار عماد اللطيف البغدادي الفيلسوف (٦٢٩) فان كتابه « الافادة والاعتبار » شاهد له بانه من خيرة البلغاء في عصره ومنهم الوزير عبد المحسن ابن جمو (٦٤٣) وبهاء الدين الاربلى والكمال بن المديم (٦٦٦)

وتعمد رحلة بن خبير الكناني الاندلسي (٤١٦) الى الشرق من الادب العالى فقد وصف البلدان في عصره وصفاً فاق فيه من تقدمه مثل بن بطلان وابن فضلان كما فاق من تأخر مثل العمدرى (٦٨٨) والبلوى (٧٤٠) وابن اطوطة (٧٧٩) والزركشى (٧٩٤) وابن أبى البركات النجدى (٨٩٥) على ان الجمل

التي أثرت عن ابن بطالان في مطولات الجغرافية ، وكانت رحلته من العراق الى الشام في النصف الاول من القرن الخامس — تم عن أدب وفضل ذوق في وصف البلدان والسكان ، والقليل مما قرأناه من هذا القبيل في معجم البلدان ولاحمد بن فضلان — وكان المقتدر بالله العباسي أرسله الى ملك الصقالبة سنة ٣٠٩ هـ — يدل أيضاً على ذوق وفضل علم وأدب

وعلى ذكر الجغرافية يجب أن يعد في جملة الادب الجيد ما كتبه ياقوت الحموي فان « معجم البلدان » « ومعجم الادباء » من أنفس ما كتب الكاتبون في هذا القرن كما ان ما كتبه القفطي (٦٤٦) في « أخبار الحكماء » وما كتبه ابن أبي أصيبعة (٦٦٨) في « طبقات الاطباء » يعد من الادب العالى في تراجم الناس ومن هذه الكتب الاراحة التي طبعها المستشرقون استفدنا أموراً كثيرة في الحضارة العربية لم نكن نعرفها من قبل كما استفدنا أى استفادة من نشرهم لنا (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبرى « ومروج الذهب » للمسعودى و « الكامل » لابن الاثير و « تاريخ اليعقوبى » و « تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء » لحمزة الاصفهاني و « الفخرى » لابن الطقطقى و « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسى وغير ذلك من تواريخ الاولين وكذلك استفدنا من نحو خمسة عشر مجلداً لجغرافى العرب طبعوها فعلمونا بها تاريخ بلادنا الاقتصادية والعمرائى وأشياء مهمة لم نكن نحلم بوجودها وكثير بها رأس مالنا من الفصيح والتعابير العلمية

ومن كتاب القرن الثامن في مصر والشام بن فضل الله العمري صاحب (مسالك الانصار) و (التعريف بالمصطلح الشريف) والصلاح الصفدى (٧٦٤) صاحب (الوافى بالوفيات) و (تحفة ذوى الالباب) و (نكت الهميان) و (جنان الجناس) و (دمنة الباكي) والشهاب محمود الحلبي صاحب (حسن التوسل في معرفة صناعة الترسى) وعلاء الدين بن غانم واحمد الانصارى وابن القيسرانى وكمال الدين الزملكاني . ونبغ في الاندلس لسان الدين بن الخطيب ولو لم يكن له الا (الاحاطة في أخبار غرناطة) لكفى في تفوقه في كتابته وشعره فانه صور

وبرجمهم كأنك تراهم فهو كاتب ومصور على ما يظهر . ونفح الطيب للمقرى يحوى طرفاً صالحاً من نظم لسان الدين وثره مع زمرة من رجالات الاندلس . وقد حل لسان الدين بعض القيود فى الكتابة هو وصاحبه ابن خلدون (٨٠٨) وكان الكتاب قبلهما ولا سيما فى القرنين السادس والسابع يقلد بعضهم بعضاً فأصبحت الصناعة تسير نحو التقليد لا إبداع فيها ولا تجديد . فالمجددون فى الحقيقة فى القرن التاسع هما عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب . ولم تكذب العلوم الاجتماعية والتاريخية قبل بن خلدون بمثل ذلك اللسان الذى استعمله ولا غرو فهو وصاحبه حسنة من حسنات الاندلس ، وزهرتان ناضرتان من الزهور التى أهداها المغرب للمشرق وبهما ختم عهد الاندلس

* * *

كانت دواوين الانشاء فى قرطبة وغرناطة والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز الحكومات فى القرون الوسطى مدارس لتعلم الانشاء ، والاخذ من فن الادب العربى الواسع فلما انحلت دولة الاندلس ، واستولى الترك العثمانيون على مصر والشام والعراق بطل النماغى بالادب والانشاء لأن التميز فى هذا الشأن ، أصبح لا يجدى صاحبه شيئاً ، وغدا فن الانشاء مقصوراً على بعض أفراد فى كل قطر عربى يستخدمونه حلية وزينة ، واذ لم يبق فى الحكومات من يقدر الادب قدره ، ضعف بحكم الطبيعة ، وزاد عدد الشعراء أكثر من الكتاب لسهولة الشعر ، وامكان الانتفاع به فى المديح . وان كان الشعراء فى كل دور من أدوار العرب فيما رأينا أكثر من الكتاب بما لا يقاس

طالع كتاب « عجائب المقدور » فى أخبار تيمور المسجع الجنس و « فاكهة الخلفاء » وكلاهما لابن عربشاه من أهل القرن التاسع وتأملهما وتأمل « تاريخ العتبى » وسجعه تجد حتى فى السجع فروقا وأى فروق . وطالع « مقامات السيوطى » و « مقامات ابن الوردى » وعارضها بمقامات الحريرى وبديع الزمان يتجلى لك الفرق بين النمط العالى على ما يقال فيه والذى دونه بمراحل . واقرأ « ریحانة الالباب » للشهاب الخفاجى ، وطالع سجمه الذى هو أرقى سجع فى القرن العاشر ، تجد بينه وبين نثر ابن بسام فى « الذخيرة » وابن خاقان فى « قلائد العقيان » فرقا

بيناً أيضاً ، كما أنك قلما تجد في الادباء الذين ترجم لهم الخفاجي وكانوا تقدموه وطاصروه في الشام ومصر والحجاز واليمن والمغرب الاشاعراً . والكتاب قلائل . والأدب العربي كاد يستحيل الى أماديح وأكثره للترلف من الكبراء وهو ضيق العطن ، مبتذل الديباجة ، فللنثر أسجاع ، تشق على الاسماع ، وللنظم قواف لا تألفها الطباع ، والروح منقولة ، والالفاظ من جنس المبتذل مدخولة ، ومعظم المنشئين والمتأدين يكتبون نمطاً واحداً من عهد أبي اسحق الصابي وأحمد ابن يوسف الى عهد لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون وهما اللذان أثبتا أن للمعاني تأثيراً أعظم من تأثير الألفاظ ، فأتيا بالجديد المبتدع ، وخلص كلامهما من المصنع الفث ، وسارا مع الطبع في التأليف والوضع

وفي القرن التاسع نشأ القلقشندي (٨٢١) صاحب « صبح الاعشى » وكتابه من السجع على الطريقة الفاضلية المتناسبة مع زمنه ، وقد جمع في كتابه نموذجات من انشاء العصور السالفة الى عصره ، فكان كتابه معلمة (السيكلوبديا) للمنشئين كما كان كتاب (نهاية الارب للنويري) . وأهل البصر بعيوب الكلام يفضلون على القلقشندي المؤرخ المقريري وجمال الدين السيوطي . ومن كتاب القرن التاسع محمد بن أبي بكر المخزومي ومحمد بن عبدالدايم وابن حجة الحموي (٨٣٧) وكتابه (خزانة الادب) و (ثمرات الاوراق) لابن حجة مثال التكلف ، ومن اقتصر في درسه عليهما أخذت فيه ملكة البيان لاجالة

والقرن الحادي عشر مبدأ قرون الظلمات في الكتابات فان (نفحة الريحانة) للمحبي صاحب (خلاصة الاثر) في أعيان القرن الحادي عشر نموذج من نثر ذلك العصر ، ومن ترجم لهم من الادباء وأكثرهم ممن ترجمهم في (خلاصة الاثر) عنوان أهل جيله وكذلك يقال في (سلافة العصر) لابن معصوم من أهل ذلك القرن فان سجعهم متكلف ، ومن ترجمهم وليسوا من الكتاب قل فيهم النبوغ ، وغاية إجادة المجيد منهم أن ينظم قصيدة غزلية تقع موقع القبول من بعض القلوب ، أو قصيدة يتكسب بها من أرباب المظاهر ، أو يؤلف كلمات مسجوعة متشاكلتها والشعر ، ومثل ذلك يقال في كلام الحسن البوريني (١٠٢٤) في تراجم الاعيان فانه من هذا البحر والقافية . وكان في أوائل هذا القرن رجل استفاضت شهرته لانه

جمع علوماً كثيرة وكان أديباً بارعاً وهو بهاء الدين العاملي (١٠٠٣) صاحب (الكشكول) و (المخلاة) و (أسرار البلاغة) فانه كان زينة عصره في الادب متفنناً في تنويع موضوعاته

وما قيل في المحبى وابن معصوم والبوريني يقال في الغزى مترجم أهل القرن الحادى عشر والمرادى مترجم علماء القرن الثانى عشر وما أورد هذا لهم من الشعر والمثر في كتاب (سلك الدرر) وبعضه أثقل من رضوى وأبرد من عزرس وأين هو من السحاوى في (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ومثل هذا قل في كتاب أهل القرن الثالث عشر مثل سجع البربر (١٢٢٦) في (مقاماته) وابن شاشو في (تراجم أعيان دمشق) فانه غاية ما وصلت اليه الكتابة من الابتذال والسجع الثقيل على الطبع. ولكن هذا القرن تجلت في أواخر نصفه الاول حركة تجدد فاحتلظ أهل مصر والشام بأهل الغرب ولا سيما مع علماء فرنسا وتخرج بعض أبناء القطرين في جامعاتها، فأحدث المترجمان في العلوم المختلفة على عهد محمد على مؤسس الدولة العلوية الماركة بؤثر تأثيرها المطلوب في روح الكتابة، وأخذوا طرفاً من آداب الغربيين ولا سيما الفرنسيون نقلوه الى العربية نقلاً ضعيفاً ركيكاً وأبقن الدارسون من أبناء مصر والشام ان الآداب العربية خلت في أرقى عصورها من التمثيل وان لم تخلو من القصص والروايات والحكايات التاريخية والأديبة، ولكن على صورة مصغرة

ومن المجددين الذين ختم بهم القرن الماضى أحمد فارس الشدياق اللبنانى فانه أقام سنين طويلة في إنجلترا وفرنسا ومالطة والاسنانة ونقل للعرب طريقة جديدة في تأليفه، وترك أثراً جميلاً من نبوغه وتمننه في أساليبه. وفي كتابه (الساق على الساق) و (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) ومقالاته العلمية في جريدة الجوائب التي جمعت في (كنز الرغائب) و (الجاسوس على القاموس) و (سر الليال) يتجلى لنا نقد البصير كيف قلب الافكار. وأتى العرب بسمط مبتكر في التفكير والبحث، وفهم الأدب على غير ما فهمه أهل عصره، ومن سلفه من الأعصار

ومن كان في المصنف الثانى من القرن الماضى في مصر وعد إمام النهضة الحديثة

رفاعة بك الطهطاوى (١٢٩٠) فانه ترجم وألف كثيراً وبه تخرج عشرات من رجال مصر ، وكان السجع يغلب عليه . ومن أديبهم عبد الله فكبرى باشا وهو ملتزم السحر ، ولكنه السجع القصير البعيد عن التكلف في الجملة ، وكذلك على مبارك باشا (١٣١١) وأهم الرجال الذين أدخلوا الانشاء في طور جديد ، وحلوه من قيوده الثقيلة التي رسف فيها قرونًا ، الشيخ محمد عبده المصرى (١٣٢٢) فانه كان حطياً مصقماً وكاتباً مليغاً ، ولم يعهد لرجال الدين كاتب مثله في القرون الأخيرة ، وكان كما قيل فيه يكتب الشريعة بلسان صاحبها ، نشهد له بذلك (رسالة النوحيد) و (الاسلام والنصرانية) و (رحلته الى ايطاليا) و (درس تفسيره) وقد تخرج به كثيرون من رجال مصر الحديثه ، كما تخرج اصدقه الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي كثير من رجال نهضة في الشام ، فان هذا أيضاً خلع الثوب القديم البالى في الانشاء بعد أن لبسه في أول عهده وأخذ يسير مع الطبع ، تاركاً للجناسات وأنواع البديع حائلاً ، تشهد له الكتب الكثيرة التي ألفها في الشريعة والطبيعة واللغة والآداب . ونشأ في الشام كتاب عصر يون منذ خمسين سنة ومعظمهم ممن تشبعوا باللغات الافرنجية والمبدع منهم قليل . ولا نذكر انه نشأ في الشام على عهدها الا حير كاتب مثل ابراهيم المويلحى المصرى في ابداعه ولا سيما الجد في قالب الهزل وكان يقلد الجاحظ في سرد الحقائق على أسلوب . الريالست ، ونشأ في الانشاء في الشام أمثال ابراهيم اليازجى و ابراهيم المصور وشكيب ارسلان وبعقوب صروف وغيرهم من المجودين ، وفي مصر أمثال حفنى ناصف وقاسم أمين و ابراهيم اللقانى واحمد سمير واضرابهم من الاحياء والاموات في الاقطار العربية ولو كتب لبعض الكتاب المشهورين في الشام والعراق أن يحذقوا أدب الغرب كما حذقوا أدب العرب لخدموا الادب كثيراً بيد ان الاجادة المتناهية قليلة ، وعيوب الانشاء تبدو أكثر من عيوب الشعر وفي الثانى يغتفر مالا يغتفر فى الاول ، فقد قال لاروبر . أربعة لا يطاق فيها الاعتدال الشعر والموسيقى والخطابة والتصوير

الى اليوم على كثرة احتلاط مصر والشام وتونس والجزائر بأديب الغرب وأخذهم عنهم لم يكتب اللغة العربية اقتباس التمثيل كما هو الحال فى الغرب وذلك

لان التمثيل عارض في المدنية العربية ، وإيجاد المفقود أصعب من اصلاح الموجود ولكن الخروج بالكتابة عن روحها العتيقة مع لباسها الحلة العربية القديمة التي كانت لها في القرنين الثاني والثالث مثلاً والرغبة في القصص والنوادر آخذة بالترقي ، ومعظم قصصنا ونوادرها ورواياتنا التشخيصية محتذاة من الافرنجية أو منقولة عنها بالحرف ، وهذا من أشنع ضروب الاقتباس ، ولعله لا يطول الامر حتى ينشأ للأمة العربية روائيون وقصصيون وكتاب فاجعات وما أس على الصورة التي جرت عليها أمم الحضارة الحديثة فيعود أرباب الاقلام الى الابداع والاختراع ويسير المنشئون بروح الامة يعالجونها بما يوائمها فما ينفع من أدب الغرب قد لا ينفع ولا يلتئم مع حالة ابن المشرق .

* * *

أكتب هذا بمناسبة سفر بديع ظهر حديثاً^(١) في عالم الادب العربي فأدخل السرور على قلوب أنصار التجدد واعنى به كتاب « مطالعات في الكتب والحياة » لكاتب من أفذاذ الكتاب بمصر الاستاذ العقاد ومؤلفه بحائثة نقادة في الادب والشعر على مثال أدباء الغرب . نشر قبل سنين كتاب (الفصول) فأجاد والآن جاء يعبد وأهل حلقتة ، تلك الطريقة وينشر على الادب جملة فصله الرائع ، الذي جمع فيه بين أجمل القديم وأنفع الحديث . ومن حسنت ملكته وصحت قريحته كان جديراً بأن يختار الاطيب في كل ما يعرض له

تقرأ الاستاذ العقاد فتظنك تقرأ نقاداً من نقاد فرنسا أمثال : فاجية ، ولتر وبيدو ، وبريستون ولكن بديباجة عربية تشبه اللغة يوم عزها ، ويدهشك بسلامة ذوقه ، وسلاسة تعبيره ، ورصف جملة ، ورنة تراكييه ، وقلما يكتب ذلك الا لافراد في كل عصر ، فقد كانت الطبقة السابقة التي حاولت ادخال هذه الطريقة في اللغة الى جانب القصور ، لضعف ملكتها من اللغة التي حاولت تبديل قياقتها ، وكثيراً ما كانت ضعيفة أيضاً في اللغة التي حاولت الاخذ عن بنيتها تفهم الالفاظ ولكنها عن المعاني بمعزل . بيد ان هذا النابغة رزق السعادتين ،

(١) « مطالعات في الكتب والحياة » للاستاذ عباس محمود العقاد طبع بالمطبعة التجارية الكبرى في

فأتقن الادب الافرنجى إتقانه للعربى ، وجاء منه جهيد بحائة ، ذو أسلوب مبتكر لا ينكره المنصفون من الغالين بتمجيد القديم ، ويعتبط به المجددون أية غبطة منذ أكثر من خمس وعشرين سنة وأنا أنظر فى الكتب المصرية التى تخرجها المطابع العربية فى الشرق والغرب ، فلم أجد أقرأ كتاباً فى الادب لمعاصر تأليفاً كان أم ترجمة إلا وتراءى لى كثرة تفریطه فى تأليفه ، وقلمارأت إبداعا الا فى بعض التأليف أمثال « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى الصغير و (النظرات) و (العبرات) للمفلوطى و (ليالى سطيح) لحافظ واضعة كتب أخرى ليست على خاطرى . رجوت لها الخلود ، وباقىها ومنه المسجع أو الممسوخ أو المسلوح أو المنسوخ ، لا استحق أن أقول انها تتساقط كما يتساقط ورق الشجر فى الخريف ، وتضيع كما تضيع مقالات الصحف اليومية امد صدورها بساعات معدودة

لم يبرح النزاع عندنا بين أنصار الجديد والقديم على أتمه ، ولكن التطور يعمل عمله ، رغم احتجاج المحتجين ، وصياح الصائحين ، والانتقال محسوس فى الادب ، كما هو محسوس فى كل أطوار الحياة عندنا ، وأنت اليوم اذا قرأت صفحة من (مقامات اليازجى) أو رسالة من (رسائل الاحدب) أو جملا من مصطفى نجيب وحمزة فتح الله على تلميذ شدا شيئاً من الادب يضحك مما تسمعه . ويقول لك هذا كلام يضعف اللغة ويذهب ببهجتها وألفاظه أكثر من ممانيه . ولكنك اذا تلوت عليه صفحات من السيد العقاد تطربه نعمته ، وتعجبه ديباجته ، فستغرق معه ساعات فى المطالعة لاتمل ، وكلما أتممت فصلا وددت لو طال . أكثر . فقالات العقاد فى تحليل روح المعرى وحياة المتنبي وأدبه دات عن أدب بارع ونفس طويل ، وخواطره فى ما كس نوردو وأتاتول فرانس والشعر ومزايه والطبع والتقليد وعبقرية الجمال والتشاؤم وأدوار العمر كل ذلك مما يحمل للقارىء علما طريفاً وتليداً ، ونبوغا وعبقرية وتجديداً ، يروقك بأسلوبه فتستفيد من الفكرة ومن القوالب البديعة التى ظهرت فيه

طلق الاستاذ العقاد الاسجاع والجناس وأنواع البديع ، وجاءنا بالشاء فيه طلاوة الحديث بسبكه ومعناه ، وجلالة القديم ببيانه . وربما تلوت له فصلا برمته

وليس فيه سجمة أو معنى مكرر ، تراه يكتفى في تصويره بعشرة الفاظ ، وكان غيره يحشر له العشرين والثلاثين لفظة ، واذا عمد الى استعمال الفصيح الذي لم يبتذل ، فانه يكون في كلامه بمقدار الخال في صفحة الوجه الجميل أما التراكيب فتظن نفسك وأنت تقرأ كلامه أمام (أبدي بدوي وعلى طباع أفصح عربي)
وان أهل هذه الطبقة العالية ، قدأ كذبوا القائلين بأن العربية لا يتسع صدرها للمعاني الجليلة ، وان العرب عنوا بالالفاظ أكثر من المعاني ، وما الالفاظ الا القوال فقد قال بن جنى في الخصائص ، رداً على من ادعى على العرب عنايتها بالالفاظ وأغفلها المعاني . ان العرب كما تعنى بالفاظها ، وتصلحها وتهذبها وتداعبها ، وتلاحظ أحكامها بالشعرتارة ، وبالخطب أخرى ، وبالشجاع التي تلزمها وتكلف استمرارها ، فان المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدراً في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بالفاظها ، فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقاً الى اظهار اغراضها ومرئيتها ، أصلحوها وبالغوا في تجميلها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهب في الدلالة على القصد . فاذا رأيت العرب قد أصلحو الفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا تريد ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ بل هي عندهم خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها ، وتشريف منها ، ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتخصينه ، وتكويينه وتقديسه وانما المبنى بذلك منه الاحتياط للموعى ، وعليه جوازه بما يعطر نشره . . وقال عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز) لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك ، من معناه الى قلبك وقولهم يدخل في الاذن بلا اذن ، فهذا مما لا يشك العاقل في انه يرجع الى دلالة المعنى على المعنى وانه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة

قلنا وهذا ما جعله المجودون من كتابنا المعاصرين نصب أعينهم فلم يقنعوا بالقشور بل اهتموا باللباب ، وعنوا بالقوال وماتحويه ، واذا قد أرهفوا أقلامهم لنقد الكاتبين المتوسطين كانوا أحرىء بأن يظهر واكتاباتهم خالية من الشوائب اللفظية والمعنوية وأدبنا في كل عصر ما خلا من نقاد ، يوازنون بين كلام المبرزين في

منثورهم ومنظومهم ، ينوهون بالكلام الشريف ، ويرذلون الساقط الوضيع
ومعولهم في أحكامهم على قوانين اللغاء والذوق السليم
لولا تغفل عين العناية بعد القرن الرابع للهجرة عن الاقتباس عن الامم
الاخرى ولولا يكتف أهل الادب والعلوم بما حصل لهم ونهجوهم وأضافوه حتى
القرن الثالث عشر أى لولا نقف بادبنا عند حد ما عرفنا تسعة قرون ، لكننا
اليوم كفرنا بالشعر والادب تفهم منهما يفهمه الفرنسيين ، بل سائر أمم الغرب
الراقى من الشعوب الانجلوسكسونية واللاتينية والسلافية ، ولكننا نال
جوائز نوبل فى الادب على نحو ما يأخذها الهولانديون والسويديون على الاقل
ونحن معاشر العرب بعددنا نحو عشرة أضعاف كل أمة من تلك الامم الصغيرة
الممدنة .

وانا نرى هذا التجدد محسوساً فى الشعر كما هو محسوس فى النثر ، فقد جاء
محمود سامى البارودى أواخر القرن الماضى فى شعره عربياً قحاً ، ونلاه اسماعيل
صبرى شىء من أدب العصر مثل قيوداً من قيوده ، وجاء بعدها حافظ ابراهيم
بشعره الاجتماعى المرقص ففك قيود سائقيه . وسيجىء صاحب السلسلة الرابعة
بما ليس الآن فى الحسبان والتجدد والنشوء الاجتماعى . لاجرم ان للصحف
والمجلات اليوم يداً طولى فى هذا التطور فانها تنقل الينا كل يوم شيئاً جديداً
عن آداب الامم الاخرى وكلما تطورت مدننا تطور العصر فالادب اول ما
يتطور فينا يعلم ذلك كل من تصفح سخرأ نشر قبل خمسين سنة ، وكتابا نشر
اليوم . ومن تلا الصحف لعهدنا وعارضها بما كان يكتب من نوعها أوائل عهد
الصحافة العربية فى مصر والشام وتونس . يدرك الخطوات السريعة التى حطوناها
نحو المدنية ، وجددناها على ما يوافق اقليمنا وطباعنا . والبسائها حلة من حللنا
الشرقية البديعة . وأساتذة هذا الشأن بمصر اليوم العقاد وطه حسين والمازني
وعبد القادر حمزة وغيرهم من حملة الاقلام الذين تقودون قراءهم الى سوق
عكاظ جديد وفى الشاميين كتاب من هذه الطبقة يطرسون على آثار كتاب
مصر ولا نعلم فى العراق وتونس والجزائر أناساً يصدق عليهم تعريف المجددين
فى الانشاء .

ربما يتساءل القارئ ، وقد بلغ به البحث الى هذه الجملة ، وهل كان النساء ياترن بعيدات عن هذه الحركة الادبية على حين لم يكن في بغداد ولا الاندلس ولا في صدر الاسلام بعيدات عنها ؟ (راجع الجزء الخاص بالصحائيات من طبقات بن سعد الكبرى) و (بلاغات النساء) لابن طيفور وأخبار الاندلسيات في (نفح الطيب) فالجواب انهن شاركن بقدر اللزوم ، ولا يزال عددهن ينمو بنمو روح العلم فيهن ، فقديماً رأينا المحدثات والواعظات والمتفقيات والاديبات واليوم نرى الكاتبات والاديبات والباحثات والخطيبات فقد افتخرت مصر بنبوغ السيدة عائشة عصمت التيمورية شقيقة الاستاذ احمد تيمور باشا العالم المشهور ، ولها ديوان شعر سلس رقيق ، وجاءت بعدها السيدة ملك ناصف الملقبة بباحثة البادية وهي ابنة حفنى ناصف شيخ الأدب في عصره وصاحبة كتاب (النساءيات) وكانت كاتبة مبدعة فعاجلتها المنية وكان يرجى منها ان تقلب حياة المرأة المصرية رأساً على عقب . وقد حملت الكاتبة المشهورة السيدة ماري زيادة الملقبة بعي حياة ملك ناصف في سفر بديع دل على علو كعبها في الأدب وتحليل النفوس . وفي الشام ومصر اليوم زمرة من الكاتبات المجيدات المتشبعات بالأداب الغربية لا تحضرن الآن أسماؤهن باجمعن . والنساء عندنا في دور المهم والتطور والافتباس .

ولا يسعنا ان نختم هذه العجالة قبل ان نرسل سلاماً طيباً الى كتابنا الشاميين في المهاجر ولا سيما في الامريكيتين فأنهم تشبعوا بالأداب الافرنجى فأخذوا يكتبون لقومهم هنا وهناك بلسان جديد من التجديد . بل أكثر من التجدد ، واشتهر منهم أمين الريحاني صاحب (الريحانيات) ولاملوك العرب وغيرهما من تأليفه وجبران خليل جبران وهو كاتب ومصور ولكن تصوير الكلام بالحروف يتعاضى عليه أحياناً أكثر من التصوير بالقلم والخطوط على ما يظهر ، فيبدو الغموض في تصايف سطوره ومثال من ذلك كتابه (الأجنحة المتكسرة) ولكل منهما قراء ومعجبون بادهما ولو كتب لهما ان يرزقا حظاً من البيان العربي يوازي حظهما من الآداب الانجليزية اذا لجا من شعرهما المنشور ، وخيالهما اللطيف ، مادة للمجددين في أدب لغتنا . وهناك بضعة من الكتاب نزلوا بمالك الجنوب

والشمال من أميركا فكتبوا وعلموا قومهم ولم يكتب لنا الاطلاع على عامة ماخطته
أناملهم ، ونعقته أفكارهم

ولا بأس من التصريح هنا برأى لنا خاص في الكتاب الاقدمين منهم والمحدثين
وربما كان في حملة الاقلام من لا يساهمنا هذا الرأي ، ويعدون حكماً من باب التهجم
على من عرفوا كلهم شهد الله بالفضل واغنوا غناءهم في جانب الآداب . ولكن
هو الرأي يصدره الصغير امام الكبير ولا اثم عليه ولا حرج . نريد ان نقول ان
عمر الطالب يقصر عن استيعاب جميع ما كتبه المنشئون في هذه الملة تصفحاً
ودرساً . فالأولى ان يختار الزبدة ويأخذ الاهم فالاهم مما يعينه على تحسين ملكته
في البيان ، وما نخاله من حيث الاسلوب الا مخترع طريقته بنفسه ، متى تمت أدواته
اللازمة ، وأتقن مالا غنية عنه من نحو اللغة و صرفها و بيانها و بلاغتها . والاولى
الاقتصار في الدراسة على من أجمت الامة على تبريزهم في هذه الصناعة كهمرو
ابن بحر الجاحظ وعبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وسهل بن هرون وأحمد
ابن يوسف واضرابهم ممن كتبوا مع طبعهم غير متعلمين . وما قيل في الكتاب
يقال في الشعراء جاهليهم ومخضرميهم ومولديهم وهم بحمد الله كثيرون جداً
والأولى الاقتصار على بضعة من الشهود لهم بالاجادة المتناهية . أما أدب أهل
العصور المتأخرة فان الطالب يقرأه حب الاطلاع أولاًخذ مادة عن تاريخ الادب
في عصورهم وبعبارة أوجز يعتمد في البيان على القدماء من قبل الاسلام الى
أواخر القرن الرابع كما يأخذ العلوم عن المحدثين من أمم الحضارة وغيرهم

لاجرم ان الادب العربي قد اتسع أمامه مجال التجدد الآن وما حدث فيه
من التطور منذ نحو مائة سنة فكاد يلحقه بأداب الغربيين إلا قليلاً ، دليل على
قابلية هذه اللغة - بما فيها من الفصيح والمترادف والقلب والابدال ومالا تأباه
من التصريف والاشتقاق والوضع والدلالة والمجاز والكنائية - للتجدد في كل
عصر وبرهان على صروتها للاخذ بالاصح على قاعدة الانتخاب الطبيعي مع مراعاة
قواعدها وروابطها التي استقرت باستقرار القرآن الكريم

ولذلك ساع لنا ان نقول : ان لغة القرآن صالحة للمدنية في كل زمان ومكان
وان أدبا عرف تاريخه منذ خمسة عشر قرناً هو من السعة بحيث لا يتسع مبحث
صغير كهذا لاستيعاب جرمة الكبير .

الخطابة عند العرب

(١) توطئة

دلنا الحرب الحاضرة على كثير مما نقصنا من العلوم والصناعات الشائعة عند الامم الغربية وكانت فاشية في القديم عند اجدادنا . ومن ذلك صناعة الخطابة وهي من أجل العوامل في تربية النفوس أيام الحرب والسلم أو في بث دعوة أو سفارة بين متخاصمين أو متحابين واقناع يوم الحفل . واستمالة الافكار الى رأى أو حزب في المجالس والمؤتمرات والجامع والجوامع ، لانسنغنى عنها أمة دستورية يحكمها مجلس نوابها اد أن التنمير من مسألة والتذكير باخرى لا يتم الا بقوة البيان ، وسلاطة اللسان ، وفصاحة الحججة ، وظهور الحججة

والسبب في قصورنا عن هذه الغاية طول عهدنا بالحكومة الاستبدادية المطلقة حتى اذا انقلبت الى حكومة شورية أحسننا بنقص في عامة مكونات الامم ، وكان خطباءؤنا المصارع بمدون على الاصابع في جميع أدوار مجلسنا الديابي والمرز منهم من كتب له ان كان أستاذاً في مدرسة أو مدرساً في جامع ففتقت السن أهل هذه الطبقة وقليل ماهي على أيسر وجه لانها كانت على جانب من الفضل ، ومعرفة باصول المجالس ، أما أكثر النواب وكانوا بمعزل عما ينبغي لهم من أدوات الفهم والكلام ، والحرية فصاحة فصحننا بقله المتكلمين والمفكرين منا مع ان الخطابة مما أوجده علينا الشريعة الاسلامية ، كما ظهر أمرنا . وتبين عجزنا ، واستبان أفلاسنا في مسائل العلم والتأليف

فقد كان بعضهم يوهمون ان طبائع الحكومة المطلقة وهي قائمة بكم اللسان وحجز الأقلام هي التي تحول دورهم وما يشتهون من انبعاث عامهم ونشر آرائهم ودروسهم وظهور أثر فصلهم . وأدبهم وتحقيقاتهم ، وربما غالى بعضهم فقال اختراعهم واكتشافهم وانهم لا يتوفعون الادور الاطلاق ، حتى يظهر واما كسه صدورهم من العلوم والفنون وها نحن نعيش في ظل الحكومة الدستورية ولم نشهد أثراً لغير من عرفوا من قبل بالفهم والعلم ، وحل ما اتصل بما انه نشرت مباحث ومناقشات قلما تفيد أمة تريد النهوض من طريق العلم والعمل

نحن موقنون ان التبريز في الخطابة صعب ، ولكن بالتعلم والمعاناة يصل المرء الى درجة حسنة في الجملة ، وفي العادة ان يكون النوابع قلائل في كل من فاذا عد في الأمة عشرة منهم في كل شأن ومطلب تعدغنية بعلمها وعقلها . ولا نخطاط الخطابة الدينية في هذا العهد تأفف كثير من حضور الجمع حتى لا يسمعوا خطباً لا كتبها الألسن منذقرون ولبس فيها شيء من النفع ، ولقلة المجيدين بل المتوسطين في هذه الصناعة غدا الناس يسمون خطيباً كل من يرفع عقيرته ولو كان جاهلاً عامياً ، بل أمياً غيبياً ، وعلى العكس رأينا في بعض البلاد خطباء بعض المساجد مجودين في الجملة يقولون مائة معنى في الوعظ والارشاد قد حسوا غشيان المساجد لمن كانوا لا يعرفونها ، وبتأثير الاحلاس والاجادة والكلام بحسب طوائع القوم . وحاضر العصر ، كثير العاملون بأحكام الدين القاعون بتكاليفه .

وبلغت حال الاحطاط في ضعف البيان . وفسولة الرأي والحجة . بأكثر خطباء الجوامع ومنهم الأميون الذين لا يكادون يقرأون الكتاب ان أصبح نصف خطبهم رهداً في الدنيا على غير طريقة السلف المشروعة ، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لا يخرمون منه كلمة ثم هم يدعون نادعية مردودة في الشرع شأنهم في بيان فضائل الشهور والايام والمليان والحواء مع حتى حطب بعضهم وكان حشويماً جليجوتياً في أعظم حامع في هذه البلاد عند ارادة الحث على تجديد بنائه فقال : ان الصلاة فيه تعادل ثلاثين ألف صلاة وأورد لذلك أحداث لا تعرفها الا عقول الوضاعين والقصاصين ، ولطالما خطبوا ان من صام يوم كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر الى غير ذلك من البدع والفضول التي لم تأت بها شريعة الرسول وقد انكرها أئمة الفقه والعلم من المتقدمين والمتأخرين ولا سيما شيخ الاسلام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨) وابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١) وابن الحاج المنوفى سنة ٧٣٧

ولو كان الخطباء على جانب من فهم أسرار الشريعة ، ومعرفة طرق البلاغة . وما يصلح الناس ، ما عالجوا من الموضوعات ما يرجع بالناس القهقري ، هذا في الخطب الدنيه ، أما الخطب المدنية فهي أيضاً تتصرف على ذلك النحو نصفها تحميدات ومقدمات ، واعتدارات وسخافات . واسطرادات منوعات ، ولو محصت

لما بقي منها الا التافه اليسير من المعاني . اما تأثيراتها في الافكار فضعيفة جداً . ولعل هذا النقص البين يتلافاه أساتذة المدارس الابتدائية والوسطى والعليا بتمرين طلبتهم أبدأ على الالتقاء وممارسة الكلم الفحل يوم الحفل وفي النوازل والأمر العامة ، فينشأ من هذا الجيل فئات تسد هذا النقص المحسوس المشاهد في طبقة رؤساء الدين ورؤساء الدنيا ويمرن الجميع على كتابة ما يريدون الخوض فيه ، وعلى استظهاره أو القائه على نحو مسارات الامم الحديثة والامم القديمة الراقية ، فينبغ فيها خطباء ووعاظ ومرشدون داووا جهالة شعوبهم باساليب القول الجزل ، والمنطق الخلاب والبرهان الساطع وهانحن نحط لطلاب هذا الفن الطريق الذي سلكته العرب في تقوية ملكة البيان ، معتمدين في النقل على أئمة هذا الشأن مشيرين الى تاريخ الخطابة ، والمجودين فيها من أهل هذا اللسان ، قبل الاسلام وبعده تلقيحاً للعقول واهابة بها الى ما يصلحها ويزكيها بالبلاغة فنقول :

(٢) حد الخطابة وأقسامها

نقل ابن رشد ان الخطابة صناعة تتكلف الاقتناع الممكن في كل مقولة من المقولات وغايتها اقناع الجمهور فيما يحق عليهم ان يصدقوا به من الامور السياسية والوظائف الشرعية وقال أبو البقاء : الخطابة هي الكلام النفسى الموجه به نحو الغير للافهام : قالوا : وليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمنزل عن غيره ولذلك كان على الخطيب ان يلم بكل صنف من المعارف فوجب عليه لبلوغ هذه الأمنية ان يتبحر في العلم ويتفنن في ضروب الفهم حتى كان شيشرون خطيب الزومان يوجب على الخطيب معرفة الفنون الأدبية والرياضيات والرسم والتصوير والنقش والموسيقى وغير ذلك

ومعنى اقناع الجمهور ارضاء السامعين بالبرهان بحيث تكون البلاغة ملكة في الخطيب وهناك يقتضى له من العلم الواسع ونفاذ البصيرة وحضور الذهن وقوة التأثير وطلاقة اللسان ولطف البيان ما يستميل به الجمهور اليه في موضوع ويصرف أذهانهم عن أمر ويوجه أنظارهم الى آخر ويحرضهم ويقنمهم ولذلك أدخل الحكماء الخطابة الشعر في أقسام المنطق كما نقل عن ارسطولان المقصود منه أن يوصل الى

التصديق وأصولها عندهم ثلاثة الاول ايجاد المعاني الحقيقية بالاقناع من الادلة والآداب والثاني تنسيق المعاني أى سرد أجزائها على نظام واحد ليحكم تركيب الخطة وارتباط أقسامها بحيث تكون أبين غرضاً واحسن فى النفوس وقمأ والثالث التغيير الذى يراعى فيه حال السامع لتصاغ له المعانى فى ألفاظ تنشر بها نفسه وتمتج باجزاء فهمه . ويمكن ارجاع الخطابة الى قسمين : الخطابة المدنية والخطابة الدينية فالمدنية يتصرف تحتها كل ما فيه اصلاح المدينة والخطابة الدينية كل ما يرجع الى تطهير النفوس ليكون لاهلها مدنية فاضلة فى الدنيا وسعادة شاملة فى الاخرى الخطابة نوع من منشور الكلام يأخذ من النثر تصوير الحقائق وابلاغها النفوس من دون اتعاب ذهن ولا تكلف فى الاداء ومن النظم سلاسته وتأثيره فى النفس وقد كانت العرب فى جاهليتها تقدم الشاعر على الخطيب بفرط حاجتها الى الشعر الذى يقيده ما أثرها ويفخم شأنها ويهول على عدوها ومن غزاها ويهيب من فرسانها ويخوف من كثرة عددها ويهايبها شاعر غيرها . قال أبو عمرو بن العلاء : فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وتسرعوا الى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . وكان لكل قبيلة شاعر كما كان لكل واحدة خطيب . الخطب والوصايا متقاربة يقصد بالاولى قوم لاعلى سبيل التعيين والتخصيص ، فتكون فى المشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر ، وامام العظماء والملوك والامراء والوفود ، وفى الصلح واشهار الحرب ، وفى الخطوب والنوازل ، أما الوصايا فتكون لقوم بعينهم فى زمن مخصوص على شىء منصوص وربما كانت من شخص لاهل بيته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض أو أجل أو هجرة فى الارض

(٣) الخطابة والانبياء

ذكروا ان العرب عنيت بالخطب فى جاهليتها أكثر من عنايتها بها فى الاسلام ولم يظهر لنا سر هذا لانا رأينا هدى النبیین والمرسلين على خلاف ذلك رأينا الرسول صلوات الله عليه لم يتعلم الشعر وما ينبغى له وكان سيد الخطباء بلا مرأ ، وكلامه خطب وحكم وسيرته الشريفة اقتدى كبار الصحابة والتابعين والخلفاء والملوك والمرشدين والعلماء العاملين ولكن كثر الشعراء أكثر من الخطب

لأن الشعر أقرب الى تقييد المآثر والتأثير ، ولانه يحتتمل من الخيال والمحال ، ما لا يحتمله الخطاب بحال من الاحوال

قال صاحب (الريحان والريهان) : ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ، ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون الا انه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من المورون عشره لان الخطيب انما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهته الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا انقضى المقام حمظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فانه لا يضيع منه بيت واحد : قال ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسها الانام وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فاطار ذكرها . اتميزت عما سواها .

قال (الفلقشندي) : ولبس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم ، وقلة اعتناءهم به لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم وبادبهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فانه لم يعاطها منهم الا القليل النادر من الفصحاء المصاقع فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فار بقدر الفصل ، وسبق الى ررى المجد . ويخصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويثني عليه ثم يدكر ما سنج له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر . أو فخر ، أو اصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام

نعم ان الخطابة صناعة الرسل عليهم السلام لانهم يدعون الى الله ويكلفون بارشاد الخلق وهذا يقتضى البلاغة والبيان المتناهي لذلك قال موسى : رب اشرح لي صدري ويسرلي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . وذلك لانه كان به لثغة فخشى أن يعدها قومه عينا ، ويلووا بوجوههم عن دعوته ، أما شعيب عليه السلام فقد سماه نبينا عليه الصلاة والسلام خطيب الانبياء لما ورد في الكتاب العزيز من أسلوبه البديع في البيان وتلفظه في ابلاغ دعوته الى أهل مدين الذين غلبت عليهم الشقوة قال تعالى : (والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير

وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيظ ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تمثو في الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . الى أن قال . ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه إن أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب : وياقوم لا يجرمكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود

ولشرف الخطابة وتأثيرها في تطهير النفوس أوجبها الشارع وسنها للمسلمين في مساجدهم كل جمعة وعيد وفي الحج أى في عرفة وأوجب على الحضور الترام الادب مع الخطيب بل علمهم حسن الاصغاء وفي الحديث : اذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت . ولم يعين الشارع للخطب الدينية أو خطب الجوامع والمواسم موضوعاً خاصاً بل جعلها مطلقة يتناول الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية ويورد للحضور من هدى الشارع ما يهذب به ارواحهم وهدب بهم الى بارئهم ، ويفرس فيهم مكارم الاخلاق ، ويطبعهم بطابع الفضائل ويحذرهم البغى والظلم ، ويستل بلطيف أسلوبه سخائمهم واحقادهم ، ويأمر بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويزين لهم العمل الصالح ويربأ بهم عن مهلكات الشهوات

(٤) البلاغة للعرب

قال الجاحظ : انا لا نعرف الخطب الا للعرب والفرس وأما الهند فاعلمهم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لا تضاف الى رجل معروف ، ولا الى عالم موصوف ، وانما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة ، مذكورة ، ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكى اللسان ، غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله . ومعانيه بخصائصه . وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ، ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفي الفرس خطباء الا ان كل كلام للفرس . وكل معنى للمعجم . فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعارنة وعن طول التفكير ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الاول وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم وكل شيء للعرب فانما هو بديهية وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة لفكرة ولا استعانة ، وانما هو ان يصرف همه الى الكلام والى رجز يوم الخصاص ، أو حين أن يمنح على رأس بر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو في حرب فما هو الا أن يصرف همه الى جملة المذاهب ، والى العمود الذي يليه بقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا ، وتثال عليه الالفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلمون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر . وهم عليه أقدر وأمهز ، وكل واحد في نفسه انطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطبائهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، أو يحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وان شيئاً الذي أبدينا جزء منه لبالمقدار الذي لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب ، وعدد التراب ، وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

« ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع . ومن المزدوج ومالا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم في البيان ، ان يقول في مثل ذلك الا في اليسير والنبذ القليل ، ونحن لانستطيع ان نعلم ان الرسائل التي في أيدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير . وأخري انك متى أخذت

بيد الشعوى فأدخلته بلاد الأعراب الخالص ، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم ان الذى قلت هو الحق وأبصر الشاهد عياناً فهذا فرق ما بيننا وبينهم فتفهم عى فهمك الله ما أنا قائل »

هذه حجة الجاحظ فى أن العرب أفصح الأمم وقال أيضاً : « ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر ، والبدو والحضر ، على حزين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضوع يحسن به ، ومن الطوال ما يكون مستوياً فى الجودة ، ومشاكل فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسان ، والنتف الحيات ، وليس فيها بعد ذلك شىء يستحق الحفظ وإنما حفظها التخليد فى بطون الصحف . قال ومتى شا كل ابقاك الله ذلك اللفظ معناه . واعرب عن فواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر نفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قيمياً بحسن الموقع ، وناثف المستمع . وأحذر ان بأمن جانبه من تناول الطاعنين ، ويحى عرضه من اعتراض العيابين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومن كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متحيراً فى جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبيب الى النفوس ، واتصل بالاذهان ، والتحم بالعقول ، ودهشت اليه الاسماع ، وارتاحت له القلوب وخف على السن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطرهم ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياسة للمتعلم الرريض .

فان أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ، ومصلحة حال الخاصة ، وكان ممن يعم ولا يخص . وينصح ولا يغش ، وكان مشغولاً بأهل الجماعة ، شتقاً لاهل الاختلاف والمرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسبقت اليه القلوب بازمتها ، وجمعت النفوس المختلفة الالهواء على محبته ، وجبات على تصويب ارادته ، ومن أطاره الله من معرفته نصيباً ، وأفرع عليه من محبته ذنوباً ، حنت اليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم ، ولم أجد فى خطب السلف الطيب ، والاعراب الاقحاح ، ألفاظاً مسخوطة ، ولا معانى مدخولة ، ولا طبعاً ردياً ، ولا قولاً مستكرهاً ، وأكثر ما نجد ذلك فى خطب المولدين اللدنيين المتكلفين ومن أهل الصنعة

المتأدين سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج
التخير والتفكير اهـ

(٥) مكانة الخطابة وعيوب الخطباء

تقدم لك قانون البلاغة والخطابة الذي وضعه عمرو بن بحر الجاحظ في صفحة
وتدارسه يغني طالب الخطابة عن كتاب ، ورب مقالة خير من سفر ، ولقد عرفت
العرب مع ما كانت عليه من الغريزة المائقة في البيان صعوبة الخطابة وانها لا يوفق
اليها إلا أفراد ولذلك كانت تكرم الخطيب أكثر من اكرام الشاعر . وقد
ضربت المثل بالخطيب في قولها . (الخطب مشوار كثير العثار) والمشوار هو
المكان الذي تعرض فيه الدواب . وقالوا « عقل المرء من فوق لسانه » وكانت تتعاير
بالفهاة وقلة الاجادة في البيان . وتقول : نعوذ بالله من الالهمال . ومن كلال
الغرب في المقال . ومن خطيب دائم السعال . قال بشر بن معمر في مثل ذلك
ومن الكبراء مقول متمتع جم التنحنج متمعب ميهود
وقال شاعرهم يعيب بعض خطباءهم :

ملء بهر والتفات وسعلة ومسحة عتمون وقتل الأصابع
وضربوا المثل بالبلاغة اسحبان وائل فقالوا فلان اخطب من سحبان كما
ضربوا المثل بالعي في الكلام بباقل فقالوا فلان أعبي من باقل وقد جمع الجاحظ
في البيان والتبيين كثيراً من أخبار البلاغة والحصر والخطباء والبلغاء ومما قال :
ولبس حفظك الله مضررة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم
إطالة الخطبة باعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحججة ، وعن الحصر من فوق
درك الحاجة . والناس لا يعيرون الخرس . ولا يلومون من استولى على بيانه العجز
وهم يذمون الحصر . ويؤنبون العي . فان تكلفنا مع ذلك مقامات الخطباء .
وتعاطيا مناظرة البلغاء . نضاعف عليهما الدم . وترادف عليهما التأنيب . ومما تمه
(مماثلة) العي الحصر البليغ المصقع . في سبيل مما تمه المنقطع المفعم للشاعر المفلق
وأحدهما الوهم من صاحبه . والالسنه اليه أسرع . وليس اللجلج « المتردد في
كلامه » والتمتام « من تسبق كلمته الى حنكه الاعلى والتمتمة رد الكلام الى التاء

والميم « والالئغ « الذى يحول لسانه من السين الى الثاء أو من الراء الى الغين «
والنفاء « مردد الماء « وذو الحبسة « الذى لا يسمع قوله « والحكلة « الذى
لا يسمع صوته « والرتة « العجمة « وذو اللقف « عي بطن الكلام اذا تكلم
ملاً لسانه فه « والعجلة فى سبيل الحصر فى خطبته والعى فى مناضلته خصومه كما
أن سبيل المتفهم عند الشعراء والبكىء عند الخطباء . خلاف سبيل المسهب الثرثار
والخطل المكثار

ثم اعلم أبقاك الله ان صاحب التشديق « تكلف البلاغة « والمقير « التكلم
باقصى الفم « والتقميب « تقصير الكلام « من الخطباء والبلغاء مع سماحة التكلف
وشنعة التريد . أعذر من عى يتكلف الخطابة . ومن حصر يعرض لاهل الاعتياد
والدربة ومدار الأئمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخاطبها التكلف . وبياناً
يمارجه التريد : الا ان تعاطى الحصر المنقوص مقام الدرب التام . أقبح من تعاطى
البليغ الخطيب . ومن تشادق الاعرابى القح وانتحال المعروف ببعض الغزارة
فى المعانى والالفاظ وفى التعبير والارتجال انه البحر الذى لا ينرح . والغمر لا
يسير أيسر من انتحال الحصر المنحوب « الجبان « انه فى مسلاخ « صفة « التام
الموفر والجامع المحكك وان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : إياى
والتشادق . وقال . أبغصكم الى الثرثارون المتفهبون . وقال : من بدا حفا . وعاب
العدادين (الشديدى الصوت) والمتريدين فى حهارة الصوت . وانتحال سعة
الاشداق . ورحب العلاصم . وهدل الشفاء « ارسلها الى أسفل « وأعلمنا ان
ذلك من أهل الورا أكثر وفى أهل المدر أقل . فاذا عاب المدرى . فأكثر مما
عاب به الورى . فما ظنك بالمولد القروى . والمتكلف الملبى . فالحصر المتكلف
والعى المتريد الوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده . وهو أعذر لان الشبهة
الداخلة عليه أقوى فمن أسوأ حالا أبقاك الله ممن يكون ألوم من المتشادقين .
ومن الثرثارين المتفهبين . ومن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نساء . وحمل
النهى عن مذهبه مفسراً . وذكر مقتته له ونغصه إياه

(٦) الخطابة ملكة كسبية وفطرية

الخطابة كالكتابة وقرض الشعر ملكة فطرية وملكة كسبية . اذا صاحبت

فيها الكسبية الفطرية جاء من الخطيب . كل قول عجيب . وقد كان دمرستينوس وهو أخطب خطيب عند اليونان — كما ان شيشرون أخطب خطيب عند الرومان حطب في الجمهور أول مرة ولم يحسن الالتقاء لانه كان ألثغ مثل واصل بن عطاء شيخ المعترلة وكان ضعيف الصوت فحاول اصلاح ذلك وتمكن منه بوضع حصة في مه وانشاد أبيات وهو يركض على شاطئ البحر ويرتقى الروابي والآكام قال الجاحظ أحبرني محمد بن عباد وكان شاعراً راوية وطلابة للعلم علامة قال سمعت ابا داود بن جرير يقول وقد جرى شيء من ذكر الخطب وتنجير الكلام واقتصابه . وسعوبة ذلك المقام وأهواله فقال : تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز . والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر في عيون الناس عى . ومس اللحية هلك . والجروح مما بنى عليه أول الكلام أسهب ، قال : وسمته يقول : رأس الخطابة الطبع . وعمودها الدربة ، وجباها رواة الكلام وحليها الاعراب . وبهاؤها تخير اللفظ . والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه وذاكر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال : انى لأكره ان يكون مقدار لسانه فاصلا عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله . قال أبو عثمان الجاحظ : هذا كلام شريف نافع . فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه ، ثم اعلموا ان المعنى الحقير الفاسد . والدنى الساقط يعيش في القلوب . ثم يبيض ثم يفرخ ، فاذا ضرب بحراة . وممكن اعروقه ، استفحل الفساد ونزل . وتمكن الجهل وفرح ، فعند ذلك بقوى داؤه . ويتمتع دواؤه . ولأن اللفظ الهجين الرديء ، والمستكره الغبى ، أعلق باللسان ، وآلف للسمع . أشد التحاماً بالقلب ، من اللفظ النديه الشريف ، والمعنى الرفيع الكريم ولو جالست الجهال والنوكى ، والسخفاء والحمقى ، شهراً فقط لم تنقذ من أضرار كلامهم . وخيال معانيهم ، بمجالسة أهل البيان والعقل دهرأ ، ولأن الفساد أسرع الى الناس ، وأشد التحاماً بالطبع ، واللسان بالتعلم والتكلف ، واطول الاحتلاف الى العلماء ومدارسه كتب الحكمة ، يجود لفظه ، ويحسن أدبه ، وهو لا يحتاج في الجهل الى أكثر من ترك التعلم ، وفي فساد البيان الى أكثر من ترك التخير

قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدى : ما هذه البلاغة التي فيكم قال : شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا ، فقال له رجل من عرض القوم : يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبشر والرطب . أصر منهم بالخطب ، فقال صحار : اجل والله انا لنعلم ان الريح لتنقحه ، وان البرد ليعقده ، وان القم ليصبغه ، وان الحر لينضجه

قال أبو عثمان : قال صاحب البلاغة والخطابة ، وأهل البيان وحب التبیین انما عاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتشادقين والثرثارين ، والذي يتخلل بلسانه ، كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابي المتشادق ، هو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه اهل الادب من خطباء أهل المدر ، فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب ، والذم له ألزم ، وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسا عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها الا لما فيها من المرافة والانتماع ومدار العلم على الشاهد والمثل ، وانما حثوا على الصمت ، لان العام الى معرفة خطأ القول ، أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت في صمته أحفى من معنى القائل في قوله ، والا فالسكوت عن قول الحق ، في معزة النطق بالباطل ولعمري ان الناس الى الكلام لا أسرع ، لان في أصل التركيب الحاجة الى القول والعمل ، أكثر من الحاجة الى ترك العمل ، والسكوت عن جميع القول ، وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله . ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله ، بل قد علمنا ان عامة الكلام ، أفضل من عامة السكوت . وقد قال الله عز وجل ، سماعون للكذب أ كالون للسحت . جعل سمعه وكذبه سو وقال الشاعر :

نبى عدى ألا ينهى سفيهم ان السفية اذا لم ينه مأمور

وقال الآخر :

فان انا لم أمر ولم أنه عنكما صحتك له حتى يلج ويستشرى
وكيف يكون الصمت انفع ، والابثار له افضل ، ونفعه لا يكاد يجاوز رأه
ص حبه ، ونفع الكلام يعم ويخص ، والرواة لم يرووا سكوت الصامتين ، كآرو
كلام الناطقين ، وبالكلام أرسل الله انبياءه لا بالصمت ، ومواضع الصم

المحمودة قليلة ، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة ، وطول الصمت يفسد البيان وقال ابو بكر بن عبد الله المزني : طول الصمت حبسة كما قال عمر : ترك الحركة عقلة . واذا ترك الانسان القول ماتت خواطره ، وتبدلت نفسه ، وفسد حسه ، وكانوا يروون صبيانهم الارجاز ، ويعلمونهم المناقلات ، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الاعراب . لأن ذلك يفتق اللهاة ، ويفتح الجرح (الصوت) ، واللسان اذا كثرت تحريكه رق ولان ، واذا أقلت تقلبيه وأطلت اسكاته جسا وغلظ ، وقال عباة الجعفي : لولا الدربة وسوء العادة ، لأمرت فتياننا أن يمارى بعضهم بعضاً ، وأية جارحة منعتها الحركة ، ولم تمرنها على الاعمال . أصابها من التعمد على حسب ذلك المبع

(٧) نصائح لطالب الخطابة

ص بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه . وكان أول ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، واجابتها اياك ، فان قلبك تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسباً وأحسن في الاسماع ، وأحلى في الصدر . وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين ، وعزة من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، وأعلم ان ذلك أجدى عليك ، مما يعطيك يومك الا طول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة ، ومهما أخطأك لم يخطئك ان يكون مقبولاً قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلاً ، وكما خرج من يدبوعه ، ونجم من معدنه ، واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراع معنى كريماً ، فليلتمس له لفظاً كريماً . فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما ، وكن في ثلاث منازل ، فان أولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقاً عذباً ، ونحماً سهلاً ،

ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، أما عند الخاصة ان كنت للخاصة
قصدت ، وأما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بان يكون
من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتصنع بأن يكون من معاني العامة ، وانما مدار
الشرف على الصواب ، واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من
المقال ، وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فان أممك أن تبلغ من بيان لسانك
وبلاغة قلبك ، لطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على ان تفهم العامة معاني
الخاصة ، وتكسوها الالفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهاء ، ولا تجفو عن
الا كفاء ، فانت البليغ التام

قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لي : أنا أحوج الى هدا من هؤلاء
الفتيان . قال أبو عثمان : اما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب
فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً وادا
سمعتهم اذ كر العوام . فاني لست أعنى الفلاحين والحشوة . والصناع والباعة
ولست أعنى الا كراد في الجمال . وسكان الجزائر في المحار ، ولست أعنى من الامم
مثل اليبس والطبلسان . ومثل موقان وجيلان . ومثل الزنج وأمثال الزنج . وانما
الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم ، والماقوذ
همج وأشباههم . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأحلاقنا
فالطبقة التي عقولها وأحلاقها فوق تلك الامم لم يبلغوا منزلة الخاصة منا . على
أن الخاصة تتفاضل في الطبقات أيضا .

قال بشر : فان كانت المنزلة الأولى لاتوايك ولا تعتربك . ولا تسنح لك
عند أول نظرك ، وفي أول تكلمك . وتجد اللفظة التي لم تقع موقعها ، ولم نصر
الى قرارها والى حقها من أما كتبها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها ،
وفي نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها نائرة عن موضعها ، فلا
تكرها على اغتصاب الاماكن والنزول في غير أوطانها . فانك اذا لم تتعاط قريض
الشعر المورون ، ولم تتكلف اختبار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد .
وان أنت تكلمتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكما لسانك ، نصيراً عما عليك
أو مالك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك انه فوقك

فان ابتليت بان تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطبع في
ل وهلة ، وتعصى عليك بعد اجابة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه
اض يومك أو سواد ليلتك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ نالك ، فانك لاتعدم
اجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، أوحريت من الصناعة على عرق ، فان
نع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول اهمال ،
لمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها
ليك . وان لم لشبهه ولم تتارع اليه الا وبينكما سب ، والشىء لايجن الاالى
يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات لأن النموس لاتجود
كنونها مع الرغبة . ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة
(٨) مايجب على الخطيب وما لايجب

قال بشر بن المعنمر : ونفغى للمتكم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوارن بينها
بين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ،
لكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى تقسم اقدار الكلام على اقدار المعانى ، ويقسم
اقدار المعانى على أقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات ،
ان كان الخطيب من كلاماً تجنب اللفاظ المتكلمين كما أنه ان عبر عن شىء من صناعة
كلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الالفاظ به اللفاظ المتكلمين اذ كانوا
لك العبارات أفهم ، والى تلك الالفاظ أميل واليها أحسن وبها أشغف ، ولأن
كبار المتكلمين ورؤساء المظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير
من البلغاء وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعانى . وهم اشتقوا لها من كلام العرب
لك الاسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا
ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع

قالوا : وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين أو على المنبر
وفى سدة دار الخلافة أو فى يوم جمع وحفل اما فى اصلاح بين العشائر واحتمال
ماء القبائل واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على
منبر صخيم الشأن رفيع المكان : ثم ان الله عزوجل بعد ان أنشأ الخلق وسواهم
مكن لهم لاشاهم فتلاشوا ولولا ان المتكم افتقر الى أن يلفظ بالتلاشى لكان

ينبغي أن يؤخذ فوق يده . وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال في خطبته :
وأخرجه الله من باب الليسية فأدخله في باب الايسية الخ . قال : وكما لا ينبغي ان
يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن
يكون المتكلم بدوياً أعرابياً فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما
يفهم السوقى رطانة السوقى ، وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات
فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسميج ، والخفيف
والثقل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمارحوا وتعايبوا
فان زعم زاعم انه لم يكن فى كلامهم تفاصيل ، ولا بينهم فى ذلك تفاوت ،
ولم ذكروا العى والبكى ، والحصر والمنجم ، والخطل والمسهب ، والمتشدد
والمنفهب ، والمهمل والثمر ، والمكثار والمهمل ، ولم ذكروا الهجر والهذر ،
والهذيان والتحليط ، وقالوا رجل تلافاعة (كثير الكلام) وتلهاعة (متشدد)
وفلان يتلهمع فى خطبته وقالوا فلان يخطىء فى جوابه ويحيل فى كلامه ويناقض
فى خبره ولو أن هذه الامور قد كانت تكون فى بعضهم دون بعض لما سعى
ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الاسماء . قال أبو عثمان وأنا أقول انه ليس فى
الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنى ولا ألد فى الاسماع ولا أشد اتصالا
بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث
الاعراب الفصحاء العقلاء العاماء البلغاء

يروى ان مطرف بن عبد الله كان يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهيهِ .
ويقول لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه . وقال عبد الله بن مسعود :
حدثت الناس ما حدجوك باسماعهم ولحظوك بأبصارهم ، فاذا رأيت منهم فترة
فأمسك قال وحمل ابن السماك يوماً يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه فلما
انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامى قالت : ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده
فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : الى أن يفهمه من لم يفهمه يكون
قد مله من فهمه . قال عباد بن عوام عن شعبة عن قتادة قال : مكتوب فى التوراة
لا يعاد الحديث مرتين . وسعيان بن عيينة عن الزهرى قال : اعادة الحديث أشد
من نقل الصخر . وقال بعض الحكماء من لم ينشط لحديثك ، فارفع عنه مؤنة

الاستماع منك ، وجملة القول في الترداد أنه لبس فيه حدي يحصره من العوام والخواص
قال ثمامة بن اشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدو والتمهل ،
والجزالة والحلاوة ، وافهماً يغنيه عن الاعداء ، ولو كان في الارض ناطق يستغنى
بمنطقه عن الاسارة لاستغنى جعفر عن الاشارة كما استغنى عن الاعداء وقال مرة :
مارأيت أحداً كان لا يتجسس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنج ولا يرتقب
لفظاً قد استدعاه من بعد ولا ياتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد
اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى . وقال ثمامة : قات لجعفر بن يحيى
ما البيان : قال ان يكون الاسم يحيط بمعناك ويحلى عن مغزاك ، وتخرجه من
الشركة ولا استعين عليه بالفكرة والذي لا بد منه ان يكون سليماً من التكلف
بعيداً من الصنعة ، بريئاً من المعقيد غنياً عن التأويل

قال أبو عثمان : أعيب عندهم من دقة الصوت وضعف مخرجه وضعف قوته
ان يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق . قال أبو الحسن : قال
سفيان بن عيينة : تكلم صمصمة عند معارية فمرق فقال معاوية : هرك القول
فقال صمصمة : ان الجياد لصاحبة بالماء . والمرس اذا كان سريع العرق وكان هشاً
(كثير العرق) كان ذلك عيباً وكذلك هو في الكثرة واذا أبطأ ذلك وكان قليلاً
قبل قد كما وهو فرس كات وذلك يحب أيضاً

(٩) لطال الاجادة في خطبته

رأيت ثمامة بن اشرس يعرض بعض العيوب التي يجب على الخطيب ان يربأ بنفسه عنها كما ذكره
أبو عثمان الخاطب وهاك الآن قطعة أخرى له قال : قال بعض الربانيين من الادباء
وأهل المعرفة من البلغاء ممن بكره التشادق والتعمق ، ويبغض الاغراق في القول .
والمكاف والاحتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوؤه وما يعترى المتكلم
من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع والذي يورث
الاقتدار من التهمك والتسلط والذي يمكن الحاذق المطبوع من التوويه للمعاني
والخلابة وحسن المطلق . قال في بعض مواعظه : أنذركم حسن الالفاظ وحلاوة
مخارج الكلام فان المعنى اذا اكتسى لمظاناً حسناً ، وأطاره البليغ مخرجاً سهلاً
ومنحه المتكلم قولاً متمشقاً صار في قلبك أحلى ولصدرك أملاً والمعاني اذا

كسبت الالفاظ الكريمة ، والبست الاوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق اقدارها . بقدر ما زينت ، وعلى حسب ما زخرفت . فقد صارت الالفاظ في معنى المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجوارى . والقلب ضعيف . وسلطان الهوى قوى . ومدخل حدع الشيطان خفى . فادكر هذا الباب ولا تنسه . وتأمله ولا تفرط فيه . فان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يقل للاحنف بعد ان احتبسه حولا مجرماً (تاماً) لبستكثر منه وليبالغ في تصفح حاله والتنفير عن شأنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفاً كل موافق عليم . وقد خفت أن تكون منهم . الا لما كان راعه من حسن منطقته ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلمه قال المحافظ : فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشى . ولا تجعل همك في تهذيب الالفاظ وشغلك في التلخص الى غرائب المعاني وفي الاختصار بلاغ وفي التوسط محانة للوعورة وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه

وقد رد الجاحظ على من رعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل ، وحمل المصاححة واللاكنة والخطأ والصواب والاغلاق والالانة والماجون والمعرب كله سواء وكله بياننا قال : وكيف يكون ذلك كله بياننا ولولا طول مخالطة السامع للمعجم وسماعه للماسد من الكلام لما عرفه ونحن لم نفهم عنه الا للمقص الذى فينا وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معانى هؤلاء باكمالهم (؟) كما لا يعرفون ركازة الرومى والصقلبي وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم بمحممة الفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بمواء السنور كثيراً من ارادته وكذلك الكاب والحمار والصبى الرضيع

قال : وكانوا يعدحون شدة المعارضة وقوة اللسن وطهور الحجة . وثبات الجهاد ، وكثرة الريق ، والعلو على الخصم ، ويهجون بخلاف ذلك . ثم قال : وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقة والتجبير والبلاغة والتخلص والرشاقة فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهدر . والتسكف والاسهاب . والاكثر لما في ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى . والمنافسة في العلو والقدر . وكانوا يكرهون

الفضول في البلاغة لان ذلك يدعو الى السلاطة . والسلاطة تدعو الى البذاء .
وكل مرء في الارض فانما هو من نتاج الفضول . ومن حصل كلامه وميزه .
وحاسب نفسه وخاف الأثم والذم . اشفق من الغرارة . وسوء العادة .
وخاف ثمرة العجب . وهجنة القبح . وما في حب السمعة من الفتنة . وما في الرياء
من مجانبه الاخلاص

قال : وكانوا يأمرؤن بالتمين والتثبت . وبالنجرزمن زلل الكلام . ومن زلل
الرأى ومن الرأى الدبرى . والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد
مضى الرأى الاول وفوت استدراكه . وكانوا يأمرؤن بالتحلم والتعلم وبالتقدم
في ذلك أشد المقدم قال : وأنا أوصيك ان لاتدع التماس البيان والتبيين . ان
ظننت ان لك فيها طبيعة . وانها يناسبانك بعض المناسبة . وبشا كلانك في بعض
المشاكله ولا تهمل طبيعتك فيستولى الاهمال على قوة القرينة . ويستبد بها سوء
العادة . وان كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة .
ونقوة المنة يوم الحفل . فلا تقصر في التماس أعلاها سورة . وأرفعها في البيان
منزلة ولا يقطعنك تهيب الجهلاء . وتخويف الجبناء . ولا تصرفنك الروايات
المعدولة عن وجوهها . والاحاديث المتناولة على أقبح مخارجها . فان أردت ان
تتكلف هذه الصناعة . وتنسب الى هذا الادب . فقرضت قصيدة . أو حبرت
خطبة . أو ألقت رسالة ، فايك ان تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بشمرة
عقلك . الى ان تتجمله وتدعيه . ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو
أشعار أو خطب . فان رأيت الاسماع تصغى له . والعيون تحمدج اليه . ورأيت
من يطلبه ويستحسنه . فانتجمله وان كان ذلك في ابتداء أمرك أو في أول تكلفك
فلم تر طالباً ولا مستحسناً فلعله أن يكون ما دام ريضاً أن يحل عندهم محل
المتروك فان طودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الاسماع عنه منصرفة والقلوب
لاهية . نخذ في غير هذه الصناعة . واجعل رائدك الذى لا يكذبك حرصهم عليه
أو زهدهم فيه . قال : وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة
في الكلام ويكون له طبيعة في التجارة وليس له طبيعة في الفلاحة . ويكون له
طبيعة في الحداء . أو في التعبيرات في القراءة بالالخان وليس له طبيعة في الغناء

وان كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحن ويكون له طبيعة في لئاي ، وليس له طبيعة في السرئاي ، ويكون له طبيعة في قسبة الراعي . ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين . ويكون له طبع في صناعة اللحن . ولا يكون له طبع في غيرها ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع . ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر . ومثل هذا كثير جداً

وقال ليس في الارض كلام هو أمتع ولا أنعم . ولا آنفق ولا ألد في الاسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة . ولا أففق للسان . ولا أجود تقوياً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا إلا اني أزعم أن سخييف الالفاظ مشاكل لسخييف المعاني وقد يحتاج الى السخييف في بعض المواضع . وربما أمتع بأكثر من أمتع الجزل الفخم ومن الالفاظ الشريفة الكريمة من المعاني . كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من المادرة الحارة جداً وانما الكرب الذي يختم على القلوب ويأخذ بالانفاس المادرة الفاترة التي هي لا حارة ولا هي باردة . وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط وانما الشأن في الحار جداً والبارد جداً وكان محمد ابن عباد ابن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مغس وسط وأنغض من طريف وسط . قلما وهذا يشبه ما قاله لارويير في كتابه الأخلاق : من الاشياء مالا يطاق فيه التوسط : الشعر والموسيقى والتصوير والخطاب العام .

قال اسحق بن حسان بن فوهة : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد ، سئل ما البلاغة قال . البلاغة اسم جامع لمعان تجري في أمور كثيرة ، منها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع . ومنها ما يكون في الاشارة ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها ، والاشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة فاما الخطب بين السماطين ، وفي اصلاح ذات البين ، فالأكثر في غير خطب ، والاطالة في غير أملال . وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما ان خير أبيات الشعر الميت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته ،

كانه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المذاهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لاخير في كلام لا يدل على معنائه . ولا يشير الى مغزاه ، والى العمود الذى اليه قصدت ، والغرض الذى اليه نزلت قال فقيهل له : فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف . قال : اذا أعطيت لكل مقام حقه وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرصبت من يعرف حقوق الكلام ، ولا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فانه لا يرصيهما شئ . وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شئ لا ينال .

(١٠) خطباء الجاهلية والاسلام

قال الجاحظ فى الخطباء من يكون شاعراً ويكون اذا تحدث أو وصف أو احتج بليغاً مفوهاً ، وربما كان خطيباً فقط وشاعراً فقط ، وبين اللسان فقط ، ومن الشعراء الخطباء الانبياء الحكماء قس بن ساعدة الايادى والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم . ومن يجمع الخطابة والشعر قليل ومنهم عمرو ابن الاثم المنقرى وهو المكحل . ومن الخطباء الشعراء البعيث المجاشعى واسمه خداس بن بشر بن لبيد . ومن الخطباء الشعراء الكهيت بن زيد لاسدى وكنيته أبو المستهل ومن الخطباء الشعراء الطرماح ابن حكيم الطائى وكنيته أبو نقر . ومنهم عمران بن حطان وكنيته أبو شهاب رئيس القعدة من الصفرية وصاحب فتياهم ومقرعهم عند اختلافهم ومنهم دغفل بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة . ومنهم القعقاع بن شور . ومنهم نصر بن سيار أحد بنى ليث بن بكر صاحب خراسان . ومنهم زيد بن جندب الايادى وعجلان بن سحبان الباهلى وهو سحبان وائل وخطيب العرب

ومن الشعراء العلماء أعشى همذان ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العرنى ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولدين منهم بشار الاعمى وهو بشار ابن برد وكنيته أبو معاذ . ومن الخطباء الشعراء ومن يؤلف الكلام الجليل ويصنع المناقلات الحسان ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة مع بيان عجيب ، ورواية كثيرة ، وحسن دل وإشارة ، عيسى بن يزيد بن دأب أحد بنى ليث

ابن بكر وكنيته أبو الوليد . ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الماخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته أبو عمرو . وممن جمع الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاختبار المدونة سهل بن هرون بن راهبيوني الكاتب صاحب كتاب ثعلبة وعفرة في معارضة كتاب كلية ودمنة وكتاب الاخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومي والهدلية وغير ذلك من الكتب . ومن الخطباء الشعراء على بن ابراهيم بن جبلة بن مخزومة

ذكر الجاحظ ثمامة بن اشرس فقال : ما علمت انه كان في زمانه قروي ولا بلدي بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف . ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه في وزن اشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمعك ، باسرع من معناه الى قلبك . قال بعض الكتاب : معاني ثمامة الظاهرة في الفاظه الواضحة في مخارج كلامه ، كما وصف الخريبي شعره في مديح أي دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة ازاء القلوب كركب وقوف

كان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس وكان متكلماً وكان قاصاً مجيداً وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبي عياش وكثير من المقباء وهورئيس المضيلية واليه ينسبون : وكان يزيد بن أبان عم الفضل بن عيسى ابن أبان الرقاشي من أصحاب أنس والحسن كان يتكلم في مجلس الحسن وكان زاهداً عابداً وعالماً فاضلاً وكان خطيباً وكان قاصاً مجيداً . قال أبو عبيدة : وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الاكاسرة فلما سبوا وولد لهم الاولاد في بلاد الاسلام وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق فقاموا في أهل هذه اللغة كقيامهم في أهل تلك اللغة وفيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى أصهر الغبراء اليهم ففسد ذلك العرق ، ودخله الخور . ومن الخطباء زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان شاعراً بيناً ، وخطيباً لسناً . ومن أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللبس واللقن ، والجواب المعجيب ،

والكلام الصحيح . والامثال السائرة ، والمخارج المعجبية ، هند بنت الحسن وهي
الزرقاء وجمعة بنت حاس

ومن الخطباء خالد بن سلمة المخزومي من قريش . وأبو ماضر وسالم وقد تكلم
عند الخلفاء . ومن خطباء بني أسيد الحكم بن زيد بن عمير وقد رأس ومن أهل
اللسن منهم البيان الحجاج بن عمير بن زيد .

ومن الخطباء سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية قيل لسعيد بن
المسيب من أبلغ الناس : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقييل له : ليس
عن هذا نسألك قال : معاوية وابنه وسعيد وابنه وما كان ابن الزبير بدونهم
ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة . فمن العجب ان ابن الزبير ملأ دفاتر العلماء
كلاماً . وهم لا يحفظون لسعيد بن العاصي وابنه من الكلام الا ماله بال

ومن الخطباء عمرو بن سعيد وهو الاشدق وسعيد بن عمرو بن سعيد وكان
ناسباً خطيباً وأعظم الناس كبراً وهو خطيب ابن خطيب ابن خطيب . ومن الخطباء
سهيل بن عمرو الا علم أحد بنى حسل بن معيص . وعبد الله بن عروة ابن الزبير
قالوا وكان خالد بن صفوان يشبه به وما علمت انه كان في الخطباء أحد أجود خطباً
من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه الذي يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من
كلامها وما علمنا ان أحداً ولد لها حرفاً واحداً

ومن النسابين العلماء عتبة بن عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وكان
من ذوى رأى والدهاء وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف وعمر بن عبد الرحمن
خامس خمسة في الشرف وكان هو الساعى بين الازد وتميم فى الصلح ومن بنى
الحرقوس شعبة بن القلم . وكان ذا لسان وجواب وعارضة وكان وصافاً فصيحاً
وبنوه عبد الله وعمر وخالد كلهم كانوا فى هذه الصنعة غير أن خالداً كان قد جمع
بلاغة اللسان والعلم والحلاوة والظرف وكان الحجاج لا يصبر عنه

ومن بنى أسيد بن عمرو بن تميم أبو بكر بن الحكم كان ناسباً راوية شاعراً
وكان أحلى الناس لساناً وأحسنهم منطقاً وأكثرهم تصرفاً ومنهم معلل بن خالد
أحد بنى انمار بن الهجيم وكان نسابه علامة راويه صدوقاً مقلداً ومنهم من بنى العنبر
ثم من بنى عمرو بن جندب أبو الخنساء عباد بن كسيب وكان شاعراً علامة ورواية

نسابة وكانت له حرمة بابي جعفر المنصور ومنهم عمر بن خولة كان ناسباً خطيباً وراوية فصيحاً من ولد سعيد بن العاصي والذي أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب هو اسحق بن هشام المخزومي ومن خزاعة بن مازن أبو عمرو بن العلاء وأخوه أبو سفيان ومنهم أبو نوفل بن أبي عقرب كان علامة ناسباً خطيباً فصيحاً وهو رجل من كنانة أحد بني عريج ومن بني كنانة ثم من بني ليث ثم من بني الشداخ يزيد بن بكر بن دأب وكان يزيد عالماً ناسباً وراوية شاعراً . وولد يزيد يحيى وعيسى وهو الذي يعرف في العامة بابن دأب وكان من أحسن الناس حديثاً وبياناً وكان شاعراً راوية وصاحب رسائل وخطب وكان يجيدها جداً . وكان أبو الاسود الدؤلي واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان خطيباً عالماً وكان قد جمع شدة العقل ، وصواب الرأي ، وجودة اللسان ، وقول الشعر والظرف ، ومنهم زياد بن ظبيان التيمي العائشي وكذلك ابنه عميد الله كان أفتمك الناس ، وأحطب الناس . ومنهم صعصعة بن صوحان من خطباء الخوارج وعبيد الله بن زياد ويضرب به المثل . وكان عثمان بن عروة أخطب الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيه الرأي كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء

ومن خطباء قريش خالد بن سلمة المخزومي . ومن خطباء العرب عطار بن حاجب ابن زرارة وهو كان الخطيب عند النبي صلى الله عليه وسلم . ومن الخطباء عون ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان مع ذلك راوية ناسباً شاعراً . وكان الجارود ابن أبي سبرة ويكنى أبا نوفل من أئمة الناس وأحسنهم حديثاً وكان راوية علامة شاعراً مفلحاً . ومن الخطباء الذين لا يظاهرون ولا يجارون عبد الله بن عباس ذكره حسان بن ثابت فقال :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل بملقطات لا ترى بينها فضلا
كفى وشفي ما في النفوس ولم يدع لدى أربة في القول جداً ولا هزلاً
سموت الى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا دنيا ولا وغلا

ومن الخطباء بني هاشم أيضاً داود بن علي وكان يكنى أبا سليمان . وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبة قط

وله كلام كثير معروف محفوظ . ومهم عبد الله بن الحسن ومن خطباء بني هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان سليمان بن جعفر والى مكة قال المكي : سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون انه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام الا وسليمان أبين منه قاعداً ، واخطب منه قائماً . وكان داود بن جعفر اذا خطب اسحنفر (مضي مسرعاً فلم يرد شئ) وكان في لسانه شبيه بالريثة وكان أيوب فوق داود في الكلام والبيان ولم يكن له مقامات داود في الخطب . وكان اسماعيل بن جعفر من أدق الناس لساناً ، وأحسنهم بيانا

ومن خطباء بني هاشم جعفر بن حسن بن الحسين بن علي وكان أحد من يمازح ريداً في الوصية فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما فقط وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في اصالة الرأي ، وفي الكمال والجلالة ، وفي العلم بقريش والدولة ، ورجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد والنموس الشريفة ، والاقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الاخبار ، وكانوا يجلبون عن هذه الاسماء ، الا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك . منهم عبد الملك ابن صالح وعبد الله بن صالح والعباس بن محمد واسحق ابن عيسى واسحق بن سليمان وأيوب بن جعفر هؤلاء كانوا أعلم بقريش وبالدولة ورجال الدعوة من المعروفين برواية الاخبار . وكان عبد الله بن علي وداود بن علي يعدلان بامة من الامم . ومن مواليتهم ابراهيم ونصر ابنا السندي فاما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث وكان لا يعدو حديث ابن الكلبي والهيثم . وأما ابراهيم فانه كان رجلاً لا نظير له وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً . وكان نحوياً عروضياً ، وحافظاً للحديث راوية للشعر شاعراً ، وكان نغم الالفاظ ، شريف المعاني وكان كاتب القلم كاتب العمل .

ومن خطباء تميم جحذب وكان خطيباً راوية ومن ولد المنذر عبد الله بن شبرمة ابن طفيل بن هبيرة بن المنذر وكان فقيهاً عالماً قاضياً ، وكان راوية شاعراً ، وكان خطيباً ناسباً ، وكان حاضر الجواب مفوهاً ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي وكان يكنى أبا شبرمة . ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين في الخواص خالد بن صفوان الاهتمي . ومن خطباء بني ضبة حنظلة بن ضرار

وقد أدرك الاسلام وطال عمره حتى أدرك وقعة الجمل ومن خطباء بنى ضبية
وعلمائهم مشجور ابن غيلان خرشة وكان مقدماً في المنطق
ومن خطباء الخوارج حبيب بن جدرة وقطري بن الفجاءة وله خطبة طويلة
مشهورة وكلام كثير محفوظ . ابن صديقة وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة
وكان صغرياً خطيباً ناسباً ويشوبه ببعض الظرف والهزل ومن علماء الخوارج
شبيب بن غرزة الضبي صاحب الغريب وكان راوية حطيباً وشاعراً ناسباً ومن
الخطباء المذكورين روح ابن زنباع والحجاج بن يوسف . وعبد الاعلى بن عبد الله
ابن عامر ويزيد بن عبد الله بن رؤبة الشيباني ومن خطباء الخوارج وعلمائهم
عمران بن حطان ومن علمائهم حبيب بن خدره الهلالي ومنهم المقطل قاضي
عسكرا لاراقة أيام قطري ومنهم عبدة بن هلال اليشكري ومنهم الصحاح بن قيس
ومنهم نصر بن فلحان

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبري . ومن خطباء عبد القيس مصقلة بن
رقبة وكرب بن ربيعة . ومن الخطباء قيس بن خارجة . وكان أبو عمار الطائي
خطيب مذحج كلها . ومن الخطباء أيوب بن القرية . ومن خطباء غطفان في الجاهلية
خويلد بن عمر والعشراء بن جابر بن عقيل بن هلال بن سمي بن مارن بن فزارة
وخويلد خطيب يوم الفجار . ومن الخطباء الواضح بن خيشمة ومن أصحاب الاحبار
والنسب والخطب والحكام عند أصحاب النפורات بنو الكواء . ومن الخطباء
القدماء كعب بن لؤي وكان يخطب العرب عامة ويحضر كنانة خاصة على البر فلما
مات أكرهوا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل

ومن الخطباء الايبياء العلماء الذين جروا من الخطابة على اعراق قديمة شبيب
ابن شيبه . قال أبو الحسن : كان أبو بكر خطيباً . وكان عمر حطيباً . وكان عثمان
خطيباً . وكان علي خطيباً . وكان من الخطباء معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية
ابن يزيد وسروان وسليمان بن الوليد ووليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر
ابن عبد العزيز . ومن خطباء بنى هاشم زيد بن علي وعبد الله بن حسن وعبد الله
ابن معاوية خطباء لا يجارون . ومن خطباء النساك والعباد الحسن بن أبي الحسن
البصري . ومطرف بن عبد الله الحرشي . ومورق العجلي . وبكر بن عبد الله المزني .

ومحمد بن واسع الأزدي ويزيد بن أبان الرقاشي ومالك بن دينار السامي . وليس
الأمر كما قال في هؤلاء القاص المجيد ، والواعظ البليغ ، وذو المنطق الوجيز ،
فاما الخطب فانا لانعلم أحداً يتقدم الحسن البصري فيها وهؤلاء وان لم يسموا
خطباء فان الخطيب لم يشق غبارهم

ومن الخطباء من بنى عبد الله بن غطفان أبو البلا وكان راوية ناسباً . ومنهم
هاشم بن عبد الاعلى الفزارى . ومن الخطباء حفص بن معاوية الغلابي ومن بنى
هلال بن عامر زرعة بن ضمرة وكان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة من أخطب
الناس . ومن الخطباء عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي . ومن خطباء بنى تميم عمرو
ابن الاهتم وكان يدعى المكحل لجماله لم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب
منه ومن بنى منقر عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات . ومنهم
صفوان بن عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً رئيساً وابنه خالد بن صفوان . ومنهم
عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وقد ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند
الملوك ومن ولده شبيب بن شيبه بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وعبد الله بن عبد الله
ابن عبد الله بن الاهتم وهاقان بن الاهتم . ومن خطبائهم محمد الاحول بن خاقان
وكان أخطب بنى تميم . ومن خطبائهم معمر بن خاقان . ومن خطبائهم مؤمل
ابن خاقان ومن خطبائهم خاقان بن المؤمل بن خاقان . ومن بنى منقر الحكم بن النصر
وهو أبو العلاء المنقرى . ومن خطباء بنى صريم ابن الحارث الخزرج بن الصدى .
ومن خطباء بنى تميم ثم من مقاعس عمارة بن أبي سليمان . ومن ولد مالك بن سعيد
عبد الله وخير ابنا حبيب ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله والعماس ابنا روبة
وكان العماس علامة عالماً ناسباً راوية وكان عبد الله أرجز الناس وأفصحهم وكان
يكنى أبا الشعثاء وهو العجاج . ومن خطباء هذيل أبو الليح الهذلي أسامة بن عمير .
ومنهم أبو بكر الهذلي كان خطيباً قاصاً وعالماً بيتاً وعالماً بالأخبار والآثار

ومن خطباء عمان مرة ابن فهم التليد . ومن العتيك بشر بن المغيرة بن أبي
صفرة ، ومن خطباء اليمن ثم من حمير الصباح بن شقى الحمري كان أخطب العرب
ومنهم ثم من الأنصار قيس بن الشماس . ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس خطيب
النبي ، ومنهم روح بن زنباع ، ومن خطبائهم الأسود بن الكذاب كعب

العنسى ، وكان طليحة خطيباً وشاعراً وسجاعاً كاهناً وناسباً ، ومن خطباء الانصار بشر بن عمرو بن محض وهو أبو عمرة الخطيب ومنهم سعد بن الربيع ، ومن القدماء في الحكمة والخطابة والرياسة عبيد بن شرية الجرهمي وأسقف نجران واكيدر صاحب دومة الجندل وأفيمي نجران وذرب بن حوط وعليم بن جناب وعمرو بن ربيعة وهو لحى بن حارثة بن عمرو مزيقيا وجذيمة بن مالك الأبرش ، ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن ربوع مموه بذلك لسلطة لسانه ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقس بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أ كثم بن صيفي وربيعه بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب وليبيد بن ربيعة

ومن السالك والزهاد من أهل البيان عامر بن عبد قيس وصلة بن أشيم وعثمان ابن أدهم وصفوان بن محرز والاسود بن كلثوم والربيع بن خيثم وعمرو بن عتبة ابن فرقد وهرم بن حيان ومورق العجلي وبكر بن عبدالله بن الشيخير الحرشي ومالك ابن دينار وحبيب أبو محمد وبزيد الرقاشي وصالح المزني وأبو حازم الاعرج وزياذ مولى عياش بن أبي ربيعة وعبدالواحد بن زيد وحيان أبو الاسود ودهثم أبو العلاء ومن النساء رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن هاشم وأم الدرداء ومن نساء الخوارج البلحاء وغزالة وقطام وحماة وكحيله ومن نساء الغالية ليلي الناعطية والصدوق وهند ، وأبو الوليد الحكم الكندي ومحمد بن محمد الحراني وكلاب وكليب وهاشم الأوقص وابوهاشم الصوفي وصالح بن عبد الجليل والخطفي وهو جد جرير بن عطية بن الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سلمة

ومن القصاص أبو بكر الهزلي وهو عبد الله بن أبي سليمان كان خطيباً بيناً صاحب أخبار وآثار وقص ابنه مطرف بن عبد الله بن الشيخير في مكان أبيه ، ومن كبار القصاص ثم من هزيل مسلم بن جندب وعبد الله بن عرادة بن عبد الله بن الوضين ، ومن القصاص موسى الاسواري وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما

للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأى لسان هو أبين واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل منها الضيم على صاحبها الا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الاسواري
قال أبو عثمان : وشأن عبد القيس عجب وذلك انهم بعد محاربة أياد تفرقوا فرقتين فرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيلة في العرب ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سراة البادية وفي معدن الفصاحة وهذا عجب ومن خطبائهم المشهورين صعصعة ابن صوحان وزيد بن صوحان وشيخان بن صوحان ومنهم صحرار بن عياش وصحرار من شيعة عثمان وصوحان من شيعة علي ومنهم مصقلة بن رقية ورقبة بن مصقلة وكرب بن رقية

نقل بن النديم من خط بن مقله أسماء الخطباء فاذا هم : أمير المؤمنين علي عليه السلام طلحة بن عبيد الله ، خالد واهم اعيل ابنا عبد الله القسري ، عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، جرير بن يزيد بن خالد ، يزيد بن عبد الله بن خالد ، خالد بن صفوان ، عبد الله بن الأهم ، صعصعة بن صوحان ، ابن القرية ، محمد ابن قيس الخطيب ، زياد بن أبي سفيان ، قطري بن الفجاءة ، الوليد بن يزيد ، أبو جعفر المنصور ، المأمون شبيب بن شيبه ، العباس بن الحسن العلوي ، محمد ابن خالد بن عبد الله القسري وعبد الله ابنه ، شبة بن عقال

الخلاصة

قال ابو جعفر المحاس ان حفظ خطب البلغاء والتفنن في أساليب الخطباء من آكد ما يحتاج اليه الكاتب وذلك ان الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب في مشاهدتهم وبها نطقت الخلفاء الأمراء على منابرهم بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشيت الكتاب ، قال أبو هلال العسكري : الرسائل والخطب متشاكلتان في انهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيه وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل فالفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعدوية وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل والفرق بينهما أن الخطبة يشافه

بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة اه
ونحن نوصي القارىء أن لا يغفل خصوصاً عن خطب علي بن أبي طالب كرم
الله وجهه فان نهج البلاغة أكبر كنز للخطيب والكاتب يستقيان منه مادة عقل
وعلم وأدب وبلاغة وسياسة وإدارة ونحن نضمن لمن كان له طبع شفاف اذا
استظهر نهج البلاغة وتفطن لما فيه من النكات العلمية معتمداً مثلاً على شرح ابن
أبي الحديد المطول وتعمرن في أساليب الخطابة على مناحى البلغاء والعرب المستعربة
والعاربة والعرباء يوشك أن يكون من أئمة هذا الشأن في هذا العصر أيضاً فان
كلام أمير المؤمنين رضى الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته ، وكلما كرر حلاً ، ومهما
تأملته علا ، ففي كلامه عبقة من النور الألهى ، ونفحة من الروح النبوى ،
ولو لم يكن للسان العرب غير خطب الخليفة الرابع ، لكان كافياً في شرفه وبيانه
وأن يجرى على لغات الشرق والغرب ذبول الفخر والمباهاة

الخطابة عند الأفرنج

من تأمل في تاريخ الطرق الخطابية ير أن القدماء (١) أفرطوا في فن الخطابة
وانه وان صعب العثور على مبدأ معين في كتب الاقدمين وطريقتهم في خطاب
الجمهور فان جميع المصنفات التعليمية تحوى إبهاماً خلطوا فيه بين علم الكتابة وعلم
الكلام ، فان علم الخطابة لم يكن في نظر القدماء هو علم الكلام واللقاء ، بل علم
تحسين الكلام وتنميق الانشاء . ومن تلا كتاب الجمهورية لأفلاطون وفيه مباحث
جليلة في الخطابة عند اليونان يتجلى له أن جميع خطباء آثينة كانوا ينمقون
العبارات قبل أن يتلوها وتراءى له من خلال سطورهم آثار التعمل والاستعداد
قبل إلقاء خطبهم على مسامع الجمهور ، واذ كان يحظر على المحامى في آثينة أن يدافع
عن غيره اصطر بلغاء اليونان أن يكتبوا خطبهم في الدفاع ويعطوها لغيرهم
يستظهرها ليلقيها ولذلك قل المرتجلون من الخطباء في يونان وان وجدوا فهم
على ندرة

قال بعض المعاصرين لو لم يكن خطباء الأقدمين يهيئون خطبهم قبل إلقائها

ما كان بقي لنا من كلامهم إلا النذر اليسير ، وذلك لأن فن الاختزال لم يكن يعهد اذ ذاك بيد انه مما لاشك فيه أن بعض خطباء اللاتين الذين وصلتنا خطبهم قد ألقوها بدون أن يستعدوا لها بكتابتها ، وكان من العادة أن يعود الخطيب عندهم فيدون بالكتابة ما قاله من خطاب كما فعل شيشرون في بعض خطبه ، والحق الذي لامرية فيه ان الخطط طالما اعتبر في اليونان ورومية بانه الأسلوب الوحيد في الجملة لأعداد الكلام ليلقى على المسمع العام . ويجب أن يلاحظ أن الخطيب الآثيني مهما بلغ من ثقته بنفسه لم يكن يجسر أن يقف موقف الخطابة قبل أن ينظر نظراً بليغاً فيما سيلقى عليهم لانه عارف بدرجة مدارك الحضور ومعرفتهم نقد ما يقول وما بقي من خطب خطباء يونان هو مما هذبه أناملهم ، ونظرت فيه عقولهم ، ملاحظين في ذلك أنهم سيخلفون ذلك للاعقاب فلا يليق أن تكون إلا من أحسن ما يجب

وطالما هذب شبشرون خطبه وتمرن على إلقائها حتى انه في سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على كيفية الألقاء . وكان القدماء يعلقون شأنًا عظيمًا على الألقاء في المجالس العامة حتى لقد افترط شيشرون في قوله بأن الخطاب العام يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة . فقد كتب الى أحد أصحابه ان الرسالة لا يمكن ان تشبه دفاع المحامي أو خطابا سياسياً فانه تستعمل فيه جمل شائعة بالاستعمال . بيد ان كثيرين من خطباء اللاتين وقداماء خطباء اليونان كانوا لا يخفون بأعداد خطبهم ويظهر ان هورتانسيوس وهو استاذ شيشرون لم يكن موافقاً لتلميذه على قضاياها وهورتانسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه ويؤلفها في الحال جارياً في ذلك على طريقة شارلماد وميتروودور وهما خطيبان آثنيان كانا يعدان في ذهنهما ما يريدان القاء

وكانت طريقة القائد الخطيب الروماني « كالبيا » غريبة في بابها فكان ينقطع في داره مع خدامه غداة يريد أن يلقي دفاعاً ويلقى عليهم ممرناً نفسه فيما يريد أن يخوض عبايه فكان يخرج من الغد في حالة تهيج خارقة للعادة وعيناه تقدحان شرراً وهو على غاية التحمس يعبت به هواه ويذهب الى ميدان الفوروم . واعتاد بعض شبان الخطباء من الرومان أن يأتوا الى المحكمة بدفاعهم مكتوباً على الورق

وكان كنتليان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى أن يتقيد الخطباء في أعداد ماسيتلون ولا سيما للمترشح للخطابة المبتدئ فيها ويرى ان الارتجال لا يتأتى للمرء الا في أواخر عمره بعد ان يكون ذاق الامرين في تعلم صناعة الخطابة وعرف حلوها ومرها . ولم يكن في عهده وهو القرن الأول للمسيح سوى خطيبين مرتجلين هما بورسسيوس لآرو وكاسيوس وما عداهما فكانوا ككل الناس يعدون خطبهم قبل القاها

وكان بوسويه خطيب الفرنسي المتوفى سنة ١٧٠٤ يكتب خطبه على الورق فيرسمها ثم يتوقع ما يوحيه اليه المنبر ليجعل فيها حياة وحركة وظلت الاصول المتبعة في فرنسا مدة القرن الثامن عشر بأن يقيد المحامون والخطباء أقوالهم . هكذا كان يسير أكبر المحامين كوشين . ولما حدثت الثورة الفرنسية الأولى اضطرار باب السياسة الى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم بدون أن يستعدوا من قبل ثم ارتقت الخطابة عندهم في الكليات والمحاكم والمجالس حتى قال موريس آجام ما من شيء يضاد الارتقاء في الخطابة أكثر من أعدادها بالكتابة قبل اللقاء فاذا كان وصل كبار المتكلمين الى أرقى درجات الفصاحة فبدونها وصلوا أو بعبارة ثانية على الرغم منها

ويرى ان يتمرن المرء على الارتجال بان يرتجل كل صباح في موضوع من الموضوعات لنفسه ولوربع ساعة فيتمرن جرسه وصوته وذلك بأن يذكر دائماً قاعدة ينبغيون ان المرء يتعلم الارتجال بتكرار العمل فيه . وان الواجب تعويد الناشئة النطق منذ نعومة اظفارهم وان صناعة الخطابة ولا سيما الارتجال لا يتعلمها من جاز الأربعة من العمر ولا من جاوز الثلاثين فالأولى ان يبدأ بها منذ الصغر وانه من اللازم على من يريد تعلم الخطابة ان يستصح صاحباً له يدلّه على عيوبه في النطق والاشارة وان يأخذ النفس كل يوم بسماع . صاقع الخطباء لامتوسطهم حتى يتعلم منهم . فان المتوسط يفسد عليه ملكة الخطابة ولذلك كانت العواصم والحواضر أكبر ميدان للتخرج في الخطابة لان فيها من أهل الطبقة العالية أصنافاً من الخطباء . وذلك لأن السماع يجعل المتكلم متكلماً وفكر البشر يفتدى بالتقليد . وعليك يا هذا ان لا تعتمد الى استعمال الغريب ولا تتعمر بل توخ السهولة

ومألوف الناس من الكلمات تؤثر فيهم وتفعل في عقولهم . لا تعتمد لغير الوضوح .
ودع الكلمة النادرة للشاعر والكلمة المويضة للفيلسوف واذا اعتقدت انه يكفي
الانسان ان يتلو كتابا يبحث في أصول الخطاب حتى يصح خطيباً فألق سريعاً
هذا الكتاب طعاماً للنار

كان بوسويه نصف مرتجل يعد مفكرات لخطبه ثم يزيد عليها وينقص منها
عند اللقاء وكان فليشييه وفنيون في مواعظهما يعدان ما يلقيان من قبل ويستظهرانه
وكان كوشين يعد من قبل مدافعاته حتى استطاع في آخر عمره ان يرتجل . وكان
المحامي جريبه يعد ما يخطب به مطولاً ولا يزال يمحو منه حتى لا يبقى على أكثر
من عشرين سطراً وكان تارجه يكتب دفاعه برمته ويقرأه وكان ميرابو خطيب
الثورة ممن يعتمد على الكتابة ليخطب فاضطرته السياسة ان يرتجل وما كان يحسن
الكتابة وهو مستريح البال اما اذا هاج فانه يعاود القلم ويكتب في الجملة وكان
يسدأ بخطابه متأنيماً في بادىء الامر ويتحمس بالتدريج وكان فيرينو من خطباء
الثورة لا يخطب الا اذا تألم لظلم يقع أو حاذر خطر أيدهم وعندها تفتنه حواسه
ويفكر سريعاً ويعمل في ساعة مالا يعمل في ساعات . بدأ محامياً وكان يكتب
دفاعه ويتلوه ثم كفف عن الكتابة وكان يعد كل الاعداد خطبه الكبرى ولا سيما
في تلاوتها لاصدقائه من قبل أن يلقيها على الجمهور وهذه الطريقة هي التي جرى
عليها بعد حين تيرس رئيس الجمهورية الاول في الجمهورية الثالثة والعالم المشهور
وكان كواديه من خطباء الثورة يكتب خطبه عند ما كان محامياً ولما أصبح
خطيباً سياسياً صار يرتجل وكان ايسارد من خطباء الثورة مرتجلاً ولكنه كان
يكتب . وكان دانتون خطيب الثورة الخطيب التام الأدوات في الثورة وأقدرهم
على ادراك حاجة عنصره . وكان أرول دي سيشل من خطباء الثورة يكتب ويحفظ
خطبه ويعمل بقول فولتير : ان الالماظ يريد الافكار . وكان روسيير من خطباء
الثورة يعد خطابه ويمحو ويثبت كثيراً كتلميذ مبتدئ ومعظم خطبه اخترعت
وألمت من قبل ان تنشر لم يتوسع فيها عند ما يقولها . وكانت طريقة بانجامان
كونستان الكتابة لما يخطب به مثل القائد فواولافيت ودوپون ورويه كولار .
وكان النائب مانويل مرتجلاً لا يكتب خطبه الا في أمور المالية ولم يتخل

دى مارتينيان عن كتابة ما يريد القاءه مع انه يرتجل أحسن ارتجال ومن كان يسمعه يتكلم بصوت رخيم إستريح ويسكت وينوع لهجته يستدل على انه يرتجل . وكان لينه مثل كواديه ورافيه وفيرير من أمراء الكلام لم يجعل المتقيد بالكتابة الا مقاماً ثانوياً . وفيرير كان من أعظم من وجد من رجال المحاماة كان يفكر طويلا فيما يريد أن يلقيه ويتأمله فلم يكن ممن يعتمد على الكتابة صرفاً . وكان هانكن من رجال المحاماة لا يأنف طول حياته من أعداد خطبه . وكان بره المحامى لا يكتب خطبه ولم يعرفوا طريقته في خطبه هل كان يحدث بها أصحابه قبل أن يلقيا كما كان يعمل فرنيو وتيرس أو يفكر فيها مثل فيرير أو يكتبها في فكره مثل هورنانسيورس والذي عرف عنه وكان يكتم طريقة نبوغه ان كلامه كان يسبق فكره وانشاؤه كان منحطاً

وكان الاخوان دوين المحاميان يرتجلان ولكنهما يدرسان موضوعهما حق الدرس قبل النزول الى ميدان الخطابة وكان أحدهما يأسف لان الوقت لا يساعده ان يفكر ملياً في خطابه ويقول لو أكثر ديموستين وشيشرون من الدفاع كثيراً لقلنا لم يكونا ديموستين ولا شيشرون . وكان تيرس يعد معظم خطبه من قبل بان يلقيا مرتين وأحياناً أربعاً على من يغشون محلسه . ولم يكن فيكتور هوغر للشاعر الكبير خطيباً بل كان يضطر ان يكتب خطبه ويستظهرها ولطالما قال لا يستطيع المرء ان يكون خطيباً حقاً الا اذا كتب خطابه . زهد المحامى لاشوفى الكتابة وكان لا يقيد الارؤوس المسائل التي يتكلم فيها . وكان الورير غامبتا لا يكتب ما يخطب وهو يشبه نابليون بعقله وذاكرته وكان يعد بعض خطبه الاولى من قبل فاما نشبت الحرب أخذ يرتجل حقيقة وكان في خطبه يبدأ بصوت منخفض جداً حتى يكاد يقول له الحضور اسكت وبعدهنية ترن القاعة من صوته وتدهش لفضل بيانه . وكان المحامى ليون دو فال يعد خطبه من قبل محتفلاً بها من وراء الغاية . وكان الدوجدى بروكلى يتأنق في أعداد خطبه ولكنه يستطيع ان يرتجل على أسروجه وكان بوفه مرتجلاً يؤثر بفصاحته في مجالس الشيوخ في مسائل كثيرة وان كان عضواً من حزب قليل في الوزراء . وكتب المحامى الايطالى هنريكوفرى

عن نفسه فقال : انه تعلم بان كان يقصد الضواحي ويرفع صوته ويجرب نفسه
بالخطابة حتى حط مرة ثمانى ساعات متوالية ومرة احدى عشرة ساعة

ونشر آجام عادات طائفة من الاساتذة والمحاضرين من العلماء فى الخطابة من
الفرنسيين فكان منهم أناس يفكرون ملياً قبل أن يخطبوا أى انهم يعدون الكلام
أو معناه ومنهم من يكتب ما يريد قبل القائه وآخرون يرتجلون والا كثر فى هذه
الفئة الكتابة قبل الالقاء لان خطبهم علمية على الاغلب ولا يرتجل عادة سوى
السياسيين . وعلى من أحب أن يوجد لها ان يخطب لنفسه فى منزله أو قاعة خاصة
مرة أو عشر مرات ريثما يستجم قريحته ولا تخونه الالفاظ وكل مرة فى الموضوع
الواحد تزيد معانيه وتغزر ألفاظه ويجب أن لا يهتم لانتقائها والتنطع فيها بل
يكتفى بما جاءه عفو الخاطر وابن الساعة

وقد سأل المؤلف كثيرين من المشتهرين بالخطابة من قومه المبرزين فيها عن
طرقهم فى تعلمهم وارتجالهم فمنهم من قال انه يفكر ملياً فى محاضراته بان يقولها
بصوت منخفض أولاً وأحياناً يقولها فى عقله وانه لا يكتب كتاباً صغيراً قبل ان
ينشئه فى عقله ويستظهر الجمل الرابع الاولى حتى لا يفجأه الحضور اذا مثل أمامهم .
ومنهم من تحضره الافكار اذا أمسك القلم وقيدها ولكن يحاذر استظهاره وهو
يرى ان من يكتب محاضراته وخطابه يتعلم الارتجال مع الزمن ومنهم من تتمثل
لعينيه المعانى والالفاظ عند ما يشرع فى الكلام كأنها مكتوبة امام عينيه . ومنهم
من ينظم الافكار التى يحاضر بها على الورق ثم يرتجل ويستعد قبل الكلام ان
يقول فى ذاته ما يجب القاءه على الجمهور مرة أو مرتين وقال انه بكتابته خطابه
من قبل يسقط على الافكار التى لا تجيئه بصورة أخرى . ومنهم من قال ان خير
طريقة لاستظهار ما يريد القاءه ان يكتب تلك القطعة ومنهم وهو استاذ عظيم
يعد موضوعه أولاً ثم يعين فى عقله أفكاره ثم يخطط لها خطة ثم يفكر فى البراهين
التي عثر عليها ونظمها

ومنهم من ضعفت ذاكرته فيضطر للاستظهار أن يحرك شفتيه بما يحفظ حتى

يلق شىء منه في ذهنه ومنهم من لا يحسن الكلام إلا اذا اضطرت نفسه وفرحت أو سخطت فانه في تلك الحال يسرع في خطابة غير مبال اما اذا لم يكن على حاله من تلك الحالات فيتعلم ويتردد ولا يكثر على اللفظ الذى يريده والخجل الذى يشعر به يزيد هذا الارتباك ومنهم من لا تأتيه الافكار وتواتيه الا اذا كان القلم بيده . وآخر يستظهر المقدمة والخاتمة ومعظم الجمل الأساسية ثم يتكلم ويترك الباقي للمصادفات . وغيره يرى أن الكلمات تولد فيه الأفكار وتفتح أمامه أفقاً جديداً وهو يدرس موضوعه بالأبجاذ ويفكر فيه قليلاً أو طويلاً بدون أن يحكيه ولا يكتبه في عقله ويكتب أو يحاول أن يكتب والكتابة تسهل بزوغ الفكر أحياناً وأحياناً يتضرر من الكتابة وتقلج قريحته . وبالجملة فان الكلام في الجمهور من شأن الحكومات الديمقراطية والخطباء يكثرون كما قال مونتيني حيث تكون الامور تتقاذفها العواطف الدائمة بين أخذ ورد

وقال ريبو ان معرفة الموضوع الذى يريد الخطيب الخوض فيه ورسم خطته في الفكر بسيطة للغاية من قبل وهما شرطان لارمان للأجادة في الخطابة وما عدا ذلك فهو من شأن الحضور المستمعين أكثر مما هو من شأن الخطيب وأسمد ضروب الأرتجال ما ساعد فيه الحضور بتراسل عيون الحب بينهم وبين خطيبهم والعبارة في معرفة روح الجمهور فان له مناحى خاصة في الحسن والتعقل والفهم حتى ولو كان مؤلماً من فلاسفة وعقلاء قال ما كس نوردو : اجمع عشرين أو ثلاثين من أمثال كيتي وكانت وهلمهولز وشكسبير ونيوتن واعرض على حكمهم وآرائهم المسائل العملية الحاضرة فان قراراتهم لا تختلف بتاتاً عن مقررات أى مجلس كان . ولماذا يكون ذلك ؟ لأن كلا من العشرين أو الثلاثين منتخباً فضلاً من تفرد به بما يجعله رجلاً فائقاً قد ورث بعض صفات نوعه مما يكون به مثيلاً لجاره في المجلس بل شبيهاً لعامة الاشخاص الذين يمرون في الشارع فان الجوهر الأنسانى مستحكم من شخصية المرء وطربوش العامل يغطى قيمة الفيلسوف

وبقدر ما يستطيع الخطيب قيادة جمهور سامعيه يفعل في أرواحهم ويسوقهم الى حيث يريد . ومن أجل ما قاله بريان من خطباء فرنسا ان الخطاب ليس قطعة أدبية بل هو عمل والخطاب لا يعمل ليقرأ بل ليسمع وصورته التى يظهر فيها

ثانوية فالتأثير يحدث والنتيجة الحاصلة هي كل شيء . ومراعاة القواعد المطلوبة في الخطاب ولكن مهما كانت قيمته من الوجهة الأدبية فانه اذا فصل عن محيطه الذي ألقى فيه وفارق الاسباب التي دعت اليه هل يكون له شأن صحيفة جميلة من الأدب استخرجت من قلم أستاذ في الكتابة

واليك بعض نصائح عملية لطالب النوع في الخطابة منها أن يجتنب حق الاجتناب كل استعداد كتابي للخطاب : أن يحمل الخطيب نفسه كل صباح ولو عشر دقائق على أن يتكلم كثيراً في مكان عام أياً كان نوعه وان لا يكتب مراسلة قبل أن يتكلم بمضمونها سواء كان في عقله أو بصوت جهوري . فالتمكر والكلام قبل الكتابة في أي شيء كان مطلوبان . وان لا يعد خطابه في آخر ساعة بل يجب أن تكون بين ساعة القائه وساعة الاستعداد له ليلة على الاقل . واستحمام الفكر خلال الساعات الاخيرة التي تسبق المحاضرة وأن لا يكثر من استعمال المفكرات بل يقتصر على قيد التقاسيم الكبرى والتواريخ وأن يحفظ حق الحفظ الاسماء الخاصة التي ترد في الكلام وأن يعود المرء نفسه النطق بالصعب من الحروف ومعناة المخارج المختلفة من اللسان وأن يتفنن الخطيب في الجمل التي لا مناص له من استعمالها وهي من لوازم أكثر الناس فيجتهد أن ينوعها ويكثر من الأساليب التي هي بمعنى واحد وبألفاظ متباينة وأن يبدأ الخطيب خطابه أبداً ببطء بل بانخفاض ثم تدرج في رفع صوته . فكل خطيب يبدأ كلامه بصوت جهوري يوشك أن يختمه وقد أبح صوته وانخفض ويحب أن يعرض فكره بدون أن يشور غضبه فان الغضب ليس من الصحة في شيء وبه يبح الصوت . وينبغي له أيضاً أن يمدق بصره فيمن ينصتون اليه وأن لا يشغل نفسه بقراءة شواهد أو التقليل منها ما أمكن

والمحركات في الخطيب مكانة ولكن الأكثر منها لا يهتمل والأحسن أن يذهب الخطيب مع الطبع واذا قوطع الخطيب فعليه أن ينتظر ريثما يعود السكون الى المجلس وعلى الخطيب أن يلاحظ تنمة سلسلة كلامه قبل أن يعد

جواباً على البديهة . والجواب السديد هو على الغالب من حودة الذاكرة وعليه إذا خانت لفظة ان لا يضيع وقته أصلاً في البحث عنها فاللحن والخطأ أفضل من الوقوف في الالتقاء وإياك أن تضيع فرصة أسمع موسيقار حاذق في صناعة الكلام أى خطيب مصقع وفر من المدندنين فرارك من الوناء

هذا ما قاله المؤلف موريس آجام وكتابه علمى عملى معاً وهما الآن خلاصات لفقناها من كتاب آخر في هذا الفن وهو علمى محض واسم مؤلفه سيلفن روديس (١) واسم كتابه الخطيب الحديث توخى فيه تعليم الخطابة في الجملة لمن لا يستغنى عنها من الناس قال : أما النبوغ فيها فلا بد له من هبة الهية . ولكن بالتعلم لاسلوب الخطابة يستطيع من يدخل المجتمع ويشارك في امض الجمعيات الخيرية وتقابات العملة والمعلمين والأندية والجماعات المختلفة أن يخطب على أسلوب حسن ولا ينجل من التعبير عما في فؤاده وان على المرأ أن لا يلتقى بنفسه في ميدان الخطاب العام اذا كان موضوعه لم ينصح أو تافها فالاولى قبل كل شىء دراسة الموضوع للخوض في عباب الكلام الذى تكثر مناخيه والاسباب الملجئة اليه اليوم بعد اليوم

وخير ذريعة للمرء حتى لا ينجونه الكلام ان يستظهر كثيراً من المفردات حتى اذا نسى لفظة أقام غيرها مكانها من دون أن يتوقف فقد كان الشاعر توفيل غوتيه يقرأ كل يوم صفحة من المعجم ولا يبعد أن يكون شأن الشاعرين بالذاك وودلير والكاتب فلوربر على هذا النحو لما علم من تمكنهم من أساليب اللغة ومصادرها فكانوا يتصفحون أيضاً هذه الكتب الصخمة التى جمعت نبوغ عنصر باجمعه وبدت بها مظاهر مدنيته المنوعة على اختلاف العصور . وأرى أن من المفيد التطريس على آثار أولئك الكتاب وأن يقرأ المرء كل يوم صفحة من معجم اللغة وكلم من لفظ تذكر به صاحب الفكر عالماً وروايات وتواريخ وصفحة من الطبيعة وبلاداً وعصراً . ثم ان الالفاظ وحدها لا تكفى لأكثر مادة الخطيب ولا بد له من القوالب فعليه أن يحفظ جملاً مأثورة لطيفة تعلمه أساليب البلغاء

Silvain Roudès : L'orateur moderne

(١) كتاب الخطيب الجديد

أوالتربية على الكلام أو من تعلم الكلام في الجمهور لسان رودس

وتركيب الجمل على مختلف الصور ولا يبالغ في الاستشهاد بها فانه بذلك يضع شخصيته ويكون ناقلاً كلام غيره فقط . وعليه أن يركب لنفسه جملاً يمكنه أن يقولها ويلفظ بها بصوت جهورى كل يوم من ١٥ الى ٣٠ دقيقة ونجاحه مؤكد لا محالة

تعلم الارتجال هو غاية الغايات التي يجب على مرید الخطابة أن يحاول بلوغها واليك ما عساه يهنيء لك الطريق الى ذلك : افرض انك بما لقفته سابقاً من المعارف قد استعددت لأن تكتب بعض الشيء خطاباً لك على الورق فترك الآن عادة تقييد فكرك في الكاغد وفكر في موضوع لك مدة ساعة أو ساعتين وذلك بينا أنت سائر أو راكب في حافلة أو منصرف الى عملك البدوى ان كنت ممن يتعاطون صناعة بيدك أو بينا تكون في مكتبك فالخطب سيان . انظر الى جميع النقط التي تعرض لفكرك وأت بالأعراضات وردّها بما لديك من الحجج تنقضها بها وخر المادة العقلية التي بلغت منزلتها حتى اذا كنت في دارك بمعزل عن المكدرات وجلبة الخارج اترد من ذهنك جميع الشواغل الخارجة وخذ نفسك بما تريد أن تأخذه بها واجمع كل قوتك العقلية في الفكر الذي يأخذ من نفسك بخطط وتدبر فيما تريد بضع دقائق واشرع في التكلم جهاراً جائئاً ذاهباً في غرفتك تكلم على مهلك بدون أن تبحث عن تعابيرك ولا تهتم بحالة جملك ولا لصحتها من النحو والصرف وداوم بدون انقطاع ودع كلماتك تتساقط منك ولكن بان تصل بينها ما أمكن اتصالاً جيداً أو رديئاً فتقارب بينها وتتكرر وتتشوش الافكار فالقطع على هذا الضرب من الكلام تنتهي في الدمدمة أو لا تنتهي ابداً وأنت لا تأخذك قلق من ذلك بل ظل مثابراً أيضاً ونخط العوائق واطرح وراءك الفقرات التي لم تتلطف في رصفها ولا تبتئس أبداً لما لا تذكره حافظتك ولا لما يتخلل كلامك من المنافذ أو لضعف حججك وتفاهة براهينك وثابر ثم ثابر واذهب الى ادراجك لا تلوى على شيء وارفع صوتك حتى ينخفض ويخونك بطبعه

وإياك أن تحبط اذا لحظت ان النتيجة التي تحصل عليها حقيرة فان هذا الجهد الذي يبذلها لك هزواً بانحلال السياق والسباق بين أجزاءه ربما عبث بنشاطك

وخيب من أملك فليس هو من العيب بالدرجة التي تتصورها باديء الرأي لاجرم أن مثل هذه التجربة لتربية ملكة الخطابة لا تنتج شيئاً إذا اقتصر عليها . ومهما بلغت من الثبات في الخطة التي اختطتها لنفسك ورزقت من الصبر لتجديدها على الدوام فانك تصلح منطقك بالتدريج والكلام الذي تدعوه يأتيك هفواً أكثر من قبل ولا تستعصي عليك الجمل وتلين مادة الكلام وتتلاحم أجزاءه على أسلوب حسن وتنجلي الأفكار فتنال كل مرة نتيجة محمد غب سراها فتصل بعد بفضل الثبات والصبر الى ما تريد بلوغه من مراقي الكمال وإياك اذ ذاك أن تقنع بغير سلطة الارادات العالية . لا يكفي السهولة في المنطق بدون ارتجال فكثرة مادة الكلام حسن ولكن الواجب تنظيمه وتخطيط الطريق الذي يجب عليه سيره حتى لا يضل في تافهات لا منفذ لها : ان تعين الخطة ضرورية في انشاء خطاب مكتوب وهو ضروري أكثر عند ارادة الارتجال . ان القريحه المخيلة والمنطق في الخطيب التي تظهر بانها منبعثة من ذهنه هي ثمرة التدريب والنظام العلمي باديء بدء وبدونه لا رباط ولا سياق

ثم شبه الخطيب بالممثل في حركاته ولكن تمثيلاً حسناً بحسن استعمال حركاته وسكناته لا تأخذه رهبة ولا جزع : قال والاحسن أن يعتمد من يحب التبريز في هذا الفن أن يتمرن أمام أصحابه ويقوم بينهم خطيباً كما لو كان بين غرباء وهم يدلونه على نقصه ويبينون له عوراته وبصحة الارادة وفضل الانتباه يتوصل المرء الى ما يريد حتى اذا حصلت له أنسة بالكلام يشرع في خطابه ببطء والمستمعون لا يستمعون له بكليتهم أولاً بل أن لهم من أحواله أعظم جاذب . وعلى الخطيب أن يلاحظ وسط القاعة التي يخطب فيها أو آخر الحضور يحدق النظر فيهم ليدهم بلسان حاله انه يعني بأسماعهم واقناعهم

هذا محصل ما اخترناه من الكتابين في الخطابة عند الفرسييس وهم من الامم المشهورة بفصاحتها وخطبائها فالسياسي الخطيب منهم هو الذي يتسلط على النواب ببيانه ويتولى الوزارات والسفارات وكلما برز في هذا الفن استجاش أنصاراً وأحرز سمعة على وجه الدهر والخطيب بين العلماء هو الذي يستولى كل الاستيلاء على الجامعات العلمية والكليات ويكهرب الشعب باقواله . ويكثر أشياعه وأعوانه .

أصل المعتزلة^(١)

من العادة ان كل فرقة أو أهل مذهب اذا أرادت أن تصف الفرقة المخالفة لها تبخسها حقها ، وربما نسبت اليها ما لم تقله ، اعتقاداً منها بان تنفير الناس عن المخالف والدعوة الى المذهب لا يتيسران الا بهذه الطريقة الفتنة الباردة ، حتى اذا بعضهم جوزوا الكذب على المخالف . وما ندرى أى دين سماوى أو مذهب فلسفى يجور الكذب فى أمثال هذه المسائل .

والمعتزلة ما خلوا ممن يرميهم بما ليس فيهم ، خصوصاً أيام استجرت المجادلات بينهم وبين الفرق الأخرى من أهل الاسلام ، أيام كانوا ممتعين على عهد أوائل الدولة العباسية بحريتهم الدينية على أصولها ، ولم يلاقوا من أرباب السلطة شدة ولا عناء وقد كثر بحث الغربيين فى العصر الأخير عن المعتزلة ومنشأهم حتى قال بعضهم ان من سوء طالع المسلمين ان ينقرض المعتزلة فانهم كانوا معدلين لامزجة الحكومات وأرباب المذاهب الأخرى ، اذ جروا مع العقل وطبقوا المنقول على المعقول ، ونظروا الى الجوهر أكثر من العرض ، ومن حكم العقل فى أقواله وأفعاله ، يحترمه أحبابه وخصومه على السواء .

ولقد استطلعنا طلع رأى أحد كبار علماء الاسلام^(٢) فى أمر المعتزلة فأملئ علينا الجملة التالية فكانت خلاصة أحوالهم وغاية الغايات فى الافصاح عنهم ، قال دام نفعه ! فى أواخر عصر الصحابة ظهرت ثلاث فرق من فرق الاسلام : أولاهم الخوارج وهذه الفرقة من الفرق التى اعترضت على بن أبى طالب فى تجويزه التحكيم فى أمر الخلافة وكانت تحكم بكفر الفاسق صريحاً كشارب الخمر ونحوه فضلاً عن يسعى فى سفك دماء المسلمين لاجل مأرب دنيوي ومذهبها مبنى على هذه القاعدة ، وكان فى ذلك العصر قد دخلت الناس أفواجاً فى دين الاسلام بسبب الفتوحات العظيمة وأكثرهم ممن لم يتهدب بمكارم أخلاق الدين ، فكانت الناس يسمون المتساهل فى الدين . فاسقاً ويجعلونه من المسلمين البتة ، وكان كثير من الناس يصرح بان الامور كانت مقدرة عليهم تخفيفاً عنهم من الملام . وفى خلال

(١) نشرت فى السنة الثالثة من مجلة المقتبس (١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م)

(٢) هو العلامة المصلح أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ

ذلك هبت فرقة لهم شدة تمسك بالدين وتحل بأدابه فأنكروا ذلك وصرحوا بان
الانسان مختار في أعماله وان الله تعالى لو أجبر الانسان على عمله لم يؤاخذ به ،
وجعلوا الناس ثلاثة أقسام : مؤمن وكافر وفاسق : فالمؤمن من يقوم بجميع
شروط الدين ، والكافر الجاحد مطلقاً ، والفاسق من أتى بكبيرة ومنعوا من
تسمية الفاسق باسم المؤمن واعتزلوا مجلس الحسن البصرى لانه لم يرضى بالتصريح
بسبب اسم المؤمن عن الفاسق فسميت هذه الفرقة المعتزلة

وفي أثناء ذلك ظهرت فرقة هي بالفرقة السياسية أشبه منها بالفرقة الدينية
وهي فرقة الشيعة المشايعة لامير المؤمنين على بن أبى طالب . والشيعة حزبان
حزب منهم كانوا يقولون انه هو الاحق بالخلافة غير أن عوارض الاحوال أوجبت
تأخيرها لكثرة أعدائه من المنافقين وغيرهم وكانوا لا يطعنون في الدين أحروه
عنها وقسم يقولون انما أحروه لعداوة في أنفسهم لارعاية لمصلحة الامة ثم أخذ
كل مذهب دوراً من الادوار كما يعلم من التواريخ المفصلة .

واذ كان الخوارج أرباب حرب وضرب وتحمس في الدين وعبادة ونسك
ولم يكن لهم بصيرة في العلم كانت أمورهم العلمية بسيطة جداً وأكثر ما يقابلون
به السيف . أما المعتزلة فكانوا في أمرهم أرباب تؤددة وتأن واستبصار بما يقتضيه
الوقت وكان مقتضى مذهبهم القيام بانكار المنكر ولو أفضى الأمر الى سل السيف
الا أن ذلك مشروط فيه الامكان . فكان المعتزلة يفيضين الى فريقين العامة والامراء
أما الامراء فلما يشترطونه في الامارة من الشروط التي اذا انتشرت في أوسكار العامة
لم يتيسر لامير ان ينطلق في أمر الامة بما يشاء . وأما العامة فلأنهم ينفرون ممن
يخرجهم عن الدين بمجرد أتيان المنكرات التي أطلق لهم العنان فيها من طرف
خفي أمراء السوء الذين يهمهم ان تكون العامة ممن يعينونهم على مقاصدهم .
وكانت هذه الفرقة أعظم الفرق في المناضلة عن الدين ورد شبه الملحدين . وكان
الجمهور يقولون لاجبة لنا الى الجدل فان كل من خالفنا استتبناهُ فان قاب فيها
ونعمت والا طهرنا الارض بسفك دمه عليها .

ولم يزل الأمر كذلك حتى أفضت النوبة الى المأمون وكان ممن خالط ناساً
منهم وكان لهم دهاء عظيم في مخالطة الطبقات العالية مع انكاشهم رشدة ورعهم

فتلقف المأمون أفكارهم فقويت في نفسه فلما أفضت الخلافة اليه بادرا الى إعلانها ، وكان مقتضى الحال ان يدعو الى مذهبهم كما يقتضيه حال كل من أخذ بمذهب . الا أن المأمون للمبدأ والذي كان عليه وهو اطلاق الحرية للموافق له والمخالف وجد منى الواجب ان يطلق العنان لكل الفرق فالتى أخطأت يتيسر اقناعها بالحجة والبرهان والتي معها الحق ينبغي ان تتبع على مامعها منه . فانطلقت في عصره جميع الفرق وجعل في داره مجالس للمناظرات بين أرباب الملل والنحل وكان العصر المفرد في ذلك

ثم لما أفضى الأمر الى من بعده خف اطلاق العنان لهم . غير أنه بقيت من ذلك بقية حتى أفضت الموبة الى المتوكل فقام في اضطهاد الفرق المخالفة للجهمور لرعاية المشرب العامة وخلصاً من فرقة اذا قوى أمرها في مشارق الارض ومغاربها كان فيها الخطر على أمر الخلافة لانها شرطت فيها شروطاً يصعب القيام بها على كثير . ولم تزل حال المعتزلة بين انخفاض وارتفاع حتى انحطت الامة انحطاطاً زائداً وقبل انقراضها كان كثير من الملوك يسعى في ابادتهم بالسيف كما يعلم من التاريخ ولم يبق لهم ملجأ غير اليمن فان فيه تكون حزب ذو عده وعدة يصعب محوه وهم المسمون بالزيدية . فما الزيدية الا فرقة من فرق المعتزلة يخالفون جمهورهم في بعض مسائل الامامة ونحوها . ومذهب المعتزلة في كون الانسان مختاراً ليس كما ينقله عنهم المخالفون لهم فانهم ينقلونه على صيغة مستبشعة ينفر منها العوام فضلاً عن الخواص فمن ثم وافقهم عليه كثير من علماء أهل السنة كما وافقهم على كثير من مسائلهم الفرعية التي استخرجوها . وكانت هذه الفرقة كثيراً ما تذكر في التاريخ بأنها معتزلة مع أن المترجم يكون من المخالفين للمعتزلة في باقى مسائلهم أشد المخالفة فكان يقع للناس في التواريخ اضطراب . وحقيقة الأمر تفهم مما ذكره التاج السبكي في الطبقات فقد نقل في ترجمة القفال عن الحافظ ابن عساكر انه قال في القفال : بلغنى أنه كان مائلاً عن الاعتدال قائلاً بالاعتزال في أول أمره ثم رجع الى مذهب الاشعري . قال السبكي : وهذه فائدة جلية انفرجت بها كربة عظيمة وحسيكة في الصدر جسيمة . فان مذاهب تحكى عن هذا الامام في الاصول لا تصح الا على قواعد المعتزلة وطال ما وقع البحث في ذلك حتى توهم انه معتزلي

واستند الوهم الى ما نقل ان أبا الحسن الصغار قال : سمعت أبا سهل الصعلوكي وسئل عن تفسير الامام أبي بكر القفال فقال : قدسه من وجه ودنه من وجه .
أى دنه من جهة نصره مذهب الاعتزال . والقفال هو أستاذ عصره قرأ عليه
الاشعري علم الفقه وقرأ هو عليه علم الكلام وهو معدود من كبار أئمة الشافعية
وعلى السبكي ذلك بقوله : أعلم

ان هذه الطائفة من أصحابنا ابن سريج وغيره كانوا قد يرعوا في الفقه ولم
يكن لهم قدم راسخ في الكلام وطالعوا على الكبر كتب المعتزلة فاستحسنوا
عباراتهم . والمعتزلة هم الذين أحدثوا علم الكلام وكان الاولون ينهون عنه كثيراً
الا أن النفوس لما كانت مولعة بالعلم مطلقاً تابعهم عليه غيرهم وألغوا فيه كثيراً
وأوهوا اللأعين لهم بأن الكلام المنهى عنه انما هو الكلام على طريقة المعتزلة غير
أن الكتب التي ألفت على طريقة المعتزلة أمتن جداً لما كان في أصولهم من منع
التقليد البتة ولذلك لم يكن بعضهم يقلد بعضاً وان كل انسان مكلف بقدر ما أداه
اليه اجتهاده ووسعه ولا يخفى الفرق بين المقيد والمطلق .

وهم الذين وسعوا أصول الفقه حتى ان أكثر المسائل المذكورة فيها هي من
مبتكراتهم غير ان الأصوليين لم يحبوا ان يتركوها لهم وهذا ظاهر لمن يتتبع فن
الاصول عصرراً فعصرراً وأما ما يرميهم به خصومهم من أن الاعتزال نشأ من انتشار
كتب الفلسفة فهي فرية لأن الاعتزال وقواعده الاصلية نشأت قبل ترجمة كتب
الفلسفة المتعلقة بالالهيات بلاخلاف وكثير مما قالوه كسألة الاختيار المطلق ومسألة
خلود العاصي مؤبداً ونحو ذلك كان يستعين خصومهم في الرد عليهم بها بكلام
الفلاسفة . وانما كان دأب المعتزلة بمقتضى متانتهم ان يخوضوا في أى شىء كان
من العلوم التي كانت قبل ولن يجروا على ما يظهر لهم لاعتقادهم وجزمهم بأنه
لا توجد حقيقة تخالف الدين فكانوا أشد الناس اسراعاً للخوض في الفنون وأكثروا
المؤلفات المهمة في العلوم المنوعة ماعدا الفقه يدهم فيها أطول من يدمن يخالفهم
اجمالا . والتاريخ يظهر ذلك بأجلى مظاهره . وأما الفقه فانهم أخذوا فيه بما أخذ
به غيرهم لاعتقادهم ان الخطب فيه سهل غير أن لهم في الفقه دقائق غريبة يجدها
الانسان في تضاعيف الكتب هم منشأها وأما الحديث فانهم رأوا كثرة الوضع

وظهر لهم أن التمييز بين الصحيح وغيره يعسر لاسيما ماروى من طرق غيرهم فانهم لا يطمئنون اليه لاعتقادهم ان كثيراً من أهل الورع والصدق من غيرهم ربما يجوزون وضع الحديث للمصلحة وشاهدوا في عصرهم أحاديث وضعت في حقهم مثل « القدرية مجوس هذه الامة » فنفروا من المحدثين وثلبواهم أشد ثلث ولما كان لهم علم الحديث أهم علوم الدين وهم أشد الناس ولوعاً به ذهبوا الى قاعدة غريبة وهي أن كل حديث لا يخالف القرآن وهو قريب من مقاصد الشارع أو كان مما يدل على مكارم الاخلاق سلموا به اجمالاً بدون نظر في رواته وما وجدوه مخالفاً لذلك ردوه البتة . ومن هذا نشأ كثرة ما تراه من ذكر الاحاديث في كتب مثل الجاحظ والزخشرى وغيرهما من أئمة المعتزلة منهم يباحثون عن القول لاعتقاده .

غير أنهم اعتقدون ان من أخذوا بقوله كان على مذهبهم ومشر بهم . وقد وقع في التواريخ مناقشات كثيرة في مسألة نحل كثير من المشهورين في العلم والفضل . والسبب في ذلك ان كثيراً من المتقدمين كانوا لا يصرحون بما يصرح به المتأخرون فكان كل فريق يدعى ان فلاناً منهم ويظهر ذلك لمن راجع كتب مناقب المشهورين عن طريقة المتقدمين فانهم كانوا يفيضون في كل شيء لاعتقاديهم المتأخرين الذين يطوون كل شيء لا يوافق ما أربهم الخاص ظناً منهم أنهم بذلك يحسنون صنفاً وكثيراً ما يذكرون منقبة وهي في الباطن مثلية وربما كانت موضوعة

ما يبلغ العاقل من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

هذا ما قاله ننقله بلفظه ومعناه من لسان ذاك الامام الكبير . وقد قال المرآضى :
وأما ما أجمعوا عليه فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لمعان ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عيناً واحداً لا يدرك بحاسة ، عدلاً حكماً ، لا يعمل القبيح ولا يريد ، كلف تعريضاً للثواب ، ومسكن من الفعل وأزاح العلة ، ولا بد من الجزاء ، وعلى وجوب البعثة ، حيث حسنت ولا بد للرسول صلى الله عليه وآله من شرع جديد أو احياء مندرس أو فائدة لم تحصل من غيره وان آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وان الايمان قول ومعرفة وعمل ، وان المؤمن من أهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين

وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافرآ الا من يقول بالارجاء فانه يخالف في تفسير الايمان وفي المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً وأجمعوا على ان فعل العبد غير مخلوق فيه وأجمعوا على تولى الصحابة واختلفوا في عثمان بعد الاحداث التي أحدثها فأكثروهم تولاه وتأول له وأكثروهم على البراءة من معاوية وعمر وبن العاص وأجمعوا على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي تعداد علماءهم مصنفات عدة كالمصاييح لابن يزداد وغيره اه

هذا ما قاله واحد منهم في حقيقة ما أجمعوا عليه . واليك ما قاله الشهرستاني صاحب الملل والنحل وهولين منهم قال : والمعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركا وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازاً عن وصمة اللقب اذ كان الذم به متفقاً عليه لقول النبي عليه السلام القدرية مجوس هذه الامة وكانت الصفانية تعارضهم بالاتباق على ان الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل تضاد فكيف يطلق لفظ الضد على الصد وقد قال النبي عليه السلام القدرية خصماء الله في القدر . والخصومة في القدر وانقسام الخير والشر على فعل الله وفعل العبد ان يتصور على مذهب من يقول بالتسليم والنوكل واحالة الاحوال كلها على القدر المحتوم والحكم المحكوم فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لا يعلم وقدره وحياته هي صفات قديمة ومعان قاتمة به لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أحصر الوصف لمشاركته في الأهمية . واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه فانما وجد في المحل عرض فقد فنى في الحال واتفقوا على ان الارادة والسمع والبصر ليست معاني قاتمة بذاته لكن اختلماوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها واتفقوا على نفي رؤية الله بالابصار في دار القرار ونفي التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيداً واتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيراً وشرها مستحق

ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلاً واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصالح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلاح واللاطف ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلاً واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل معنى آخر وراء الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار . وسموا هذا النمط وعداً ووعيداً واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع . والحس والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك وورود التكاليف اللطيفة للباري تعالى أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة واختلفوا في الإمامة والقول فيها نصاً واختياراً .

وهنا ذكر الشهرستاني مقالة كل طائفة من طوائف المعتزلة مثل «الواصلية» أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال و «الهذيلية» أصحاب أبي الهذيل حمدان بن أبي الهذيل العلاف و «النظامية» أصحاب إبراهيم بن سيار بن هاني النظام و «الحائطية» أصحاب أحمد بن حائط و «الحديثية» أصحاب فضل بن الحديثي و «البشرية» أصحاب بشر بن المعتز و «المعمرية» أصحاب معمر بن عباد السلمى و «المزدارية» أصحاب عيسى بن صبيح المسكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار و «الثمامية» أصحاب ثمامة بن اشرس النخري و «الهشامية» أصحاب هشام بن عمر القوطى و «الجاحظية» أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ و «الخطاطية» أصحاب أبي الحسين بن أبي عمرو الخطاط و «الجباثية والبهشية» أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجباثي وابنه أبي هاشم عبد السلام .

ومن رجال المعتزلة الحسنان عليهما السلام ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وأبو الاسود الدؤلى وعلقمة والاسود وشريح من أصحاب عبد الله بن مسعود والحسن البصرى وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى وعبد الله بن

عباس وغيلان بن مسلم الدمشقي قتله هشام بن عبد الملك وقتل صاحبه صالحا في أشع صورة لانه أنكر على بنى أمية سوء سياستهم في الرعية وواصل بنى عطاء وهو الذي أنقذ أصحابه الى الآفاق وبث دعواته في البلاد فبعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير وبعث الى خراسان حمص بن سالم وبعث القاسم الى اليمن وبعث أيوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وعثمان الطويل الى أرمينية . ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يباليغ في تعظيمه ورتاه وقلما عهدان الخليفة رثى رعية بقوله :

صلى الاله عليك من متوسل قبرا مرتت به على مران
قبر تضمن مؤمناً متخشعاً عبد الاله ودان بالقرآن
واذا الرجال تنازعوا في شهة فصل الحديث بحجة وبيان
ولو أن هذا الدهر أبقى صالحاً أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ومنهم أبو الهذيل العلاف الذي قال فيه المأمون . أطل أبو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الانام . ومنهم ابراهيم النظام وهو الذي يقول فيه الجاحظ الاوائل يقولون في كل الف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحق النظام . وبشر بن المعتمر الهلالي وأبو عمرو بن بحر الجاحظ وعبد الرحمن بن كيسان الاصم واحمد بن أبي دوداء وثمامة بن الاشرس ومنهم الجعفران اللذان يضرب المثل بعلمهما وزهدهما كما يضرب المثل في حسن السيرة بالمعمرين وهما أبو محمد جعفر بن مبشر الثقفي وابو الفصل جعفر بن حرب . ومنهم ابو جعفر الاسكافي وأبو عبد الله الدباغ وأبو علي الجبائي ومنهم ابو العباس الناشئ ومحمد بن عمر الصيمري والسيرافيان أبو القاسم وأبو عمران وقاضى القضاة عبد الجبار الهمداني . ومنهم الصاحب بن عباد والقاضى على بن عبد العزيز الجرجاني والجوهري صاحب الصحاح والشريف المرتضى وأبو بكر الرازي وأبو بكر الدينورى

ومما يؤثر من أخلاق أئمة المعتزلة وورعهم ما قاله الواثق لاحد بن أبى دؤاد لم توالى أصحابى أى (المعتزلة) القضاء كما تولى غيرهم فقال : يا أمير المؤمنين أن أصحابك يمتنعون من ذلك وهذا جعفر بن مبشر وجهت اليه بمشرة آلاف درهم

فأبى أن يقبلها فذهبت اليه بنفس واستأذنت فأبى أن يأذن لي فدخلت من غير
إذن فسل سيفه في وجهي وقال الآن حل لي قتلك فما تصرفت عنه فكيف أولى
القضاء مثله . وروى أن أحد أئمتهم جعفر بن مبشر اضرت به الحاجة حتى كان
يقبل القليل من زكاة اخوانه فخره يوماً بعض التجار فتكلم بحضرتة في خطبة
نكاح فأعجب به ذلك التاجر فسأل عنه وأخبر بمسكنته فبعث اليه بخسمائة دينار
فردها فقبل له قد غدرناك في رد مال السلطان للشبهة وهذا تاجر ماله من كسبه
فلا رجه لردك فقال جعفر : أنه استحسن كلامي افترائي ان آخذ على دعائي الى
الله تعالى وموعظتي ثمناً لو لم أكن فعلت هذا ثم ابتداء في لقبلي . وروى أن
بعض السلاطين وصله لعشرة آلاف درهم فلم يقبل وحمل اليه بعض أصحابه بدرهمين
من الزكاة فقبل فقبل له في ذلك فقال : أرباب العشرة أحق بهما مني وأنا أحق بهذين
الدرهمين لحاجتي اليهما وقد ساقهما الله الى من غير مسألة وأغناني هما عن الشبهة
والحرام .

وفي طبقات السبكي . قال ابن الصلاح هذا الماوردي عفا الله عنه يتهم بالاعتزال
وقد كنت لا أتحقق ذلك عليه وانا أول له واعتذر عنه في كونه يورد في تفسيره
في الآيات التي يختلف فيها أهل التفسير غير أهل السنة ونفسير المعتزلة غير منعرض
لبيان ما هو الحق منهما وأقول لعل قصده إيراد كل ما قيل من حق أو باطل
ولهذا يورد من أقوال المشتبهة أشياء مثل هذا الإيراد حتى وجدته يختار في بعض
المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة ومن ذلك مصيره في الاعتراف
الى أن الله لا يثائر عبادة الأوثان . قال في قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل
نبي عدواً شياطين الأانس والجن) وجهان في جعلنا أحدهما معناه حكماً بأنهم
أعداء والثاني تركهم على العداوة فلم نمنعهم منها . وتفسيره عظيم الضرر لكونه
مشحوناً بتأويلات أهل الباطل تلبيساً وتدليساً على وجه لا يقطن له غير أهل العلم
والبحقيق مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب الى المعتزلة بل يجتهد في كتمان
موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فانه لا يوافقهم في جميع
أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل ما يأتيهم من ذكر
من ربهم يحدث وغير ذلك ويوافقهم في القدر وهي البلية التي غلبت على البصريين
وعيبوا بهما قديماً انتهى .

أصل الوهابية^(١)

لغطت ألسن الناس في هذه الايام بأصل الوهابية وتاريخهم ومعتقداتهم وتناقضت الروايات وكثرت التخرصات والقوم بين مفرط في التشيع لهم . ومفرط في التشيع عليهم . وود الكثير لو كان في الايدي ما يستمد عليه لاستقراء الحقيقة واستجلاء الغامض من هذا السر وما عاد الى ذلك الا اختلاط المتمسكين بذلك المذهب مع أهل الامصار كالقطر العراقي والمصرى والشامى وغيرها من الاقاليم يتجرون ببتائج بلادهم من سمن وأباعر وشياه وأوبار وجلود تجارة رائدها الصدق في التعامل مع الكافة مما ضاعف الثقة بهم على تطاول الايام . وبعد فاني لا أتوخي في هذه العجالة الامام لعقائد تلك الطائفة لنأتى صبرة واحدة فان كتبهم المطبوعة أكثرها في بلاد الهند تتكفل بذلك لمن يروم الاستبقاء . ولا ان أصف بلادهم وأحوالهم وصف مداح متجامل . أو قداح متحامل . بل غاية ما اذ طال اليه ذكر طرف من أحبارهم مشفوعة بصحة النقل والناقل لا تبعة تلحقه اذا خلصت منه النية

قال الجبرتي في تاريخه عجائب الآثار عند حوادث سنة ١٢١٨ هجرية ما نصه وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروبا من الوهابي ولغظ الناس في حبره ، واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجياً وكافراً ، وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم ، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه ، وأرسل الى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ونشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضرك الا نفسه ولن يضر الله شيئاً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

(١) نشرت في المجلد الخامس والعشرين من مجلة المقتطف (١٣١٨ — ١٩٠١)

وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد فقد قال الله تعالى ، قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين وقال الله تعالى ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . وقال تعالى : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . وقال تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه أكمل الدين وأتمم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بلزوم ما أنزل إلينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف وقال تعالى اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون وقال تعالى : وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون

« والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأن أمته تأخذ ما أخذ القرون قبلها شبراً لشبر وذراعاً بذراع وثبت في الصحيحين وغيرها عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى قال فن . وأخبرني الحديث الآخر ان أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي

« اذا عرف هذا فمعلوم ما قدمت به البلوى من حوادث الامور التي أعظمها الاشتراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، التي لا يقدر عليها إلا رب الارض والسماوات وكذلك التقرب اليهم بالندور . وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد ، وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح الا لله . وصرح شيء من انواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الاغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصاً كما قال تعالى : فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار . فأخبر سبحانه انه لا يرضى من الدين الا ما كان خالصاً لوجهه وأخبر ان المشركين يدعون

الملائكة والانبياء والصالحين ليقر بوجههم الى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده واخبر
انه لا يهدى من هو كاذب كفار . وقال تعالى . ويعبدون من دون الله مالا يضرهم
ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم في
السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون فأخبر انه من جعل بينه وبين
الله وسائط يسألهم الشفاعة فقد عبدهم وأشرك بهم وذلك ان الشفاعة كلها لله كما
قال تعالى من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه وقال تعالى : يومئذ لا تنفع الذين
ظلموا معذرتهم وقال تعالى يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له
قولا وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى : ولا يشفعون الا لمن ارتضى
وهم من خشيته مشفقون فالشفاعة حق ولا تطلب في دار الدنيا الا من الله كما قال تعالى
(وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وقال تعالى) ولا تدع من دون الله مالا ينفعك
ولا يضرك فان فعلت فانك اذاً من الظالمين .

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود
وآدم فمن دونه تحت لوائه لا يشفع الا بأذن الله لا يشفع ابتداء بل يأتي فيخر الله
ساجداً فيحمد بحامد يعلمه إياها ثم يقال ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع
ثم يحده حداً فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الاولياء والأنبياء
وهذا الذي ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين بل قد اجمع عليه
السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم
ودرج منهاجهم . وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والاولياء من الشفاعة بعد
موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها واسراجها والصلاة عندها واتخاذها
أعياداً وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التي أخبر بها
النبي صلى الله عليه وسلم وأمته وحذر منها كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم
انه قال لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد قمام من
أمتى الأوثان . وهو صلى الله عليه وسلم حمي جناب التوحيد أعظم حماية وسد
كل طريق يؤدي الى الشرك

فنهى أن يخصص القبور وان يبنى عليه كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر
وثبت فيه أيضاً أنه بعث علياً بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره أن لا يدع قرأ

مشرفاً الا سواه ولا تمثالا الاطمسه ولهذا قال غير واحد من العلماء يجب هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم . فهذا هو الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر الى ان كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرونا بهم وهو الذى ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه اعد ما نقيم عليهم الحججة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع السلف الصالح من الامة ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وندعو الناس الى إقامة الصلوات فى الجماعات على الوجه المشروع وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف ونهى عن المنكر كما قال تعالى (الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) فهذا هو الذى اعتقده ويدين الله به فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له مالنا وعليه ما علينا ونعتقد أيضاً أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وأنه لا يزال طائفة من أمتة على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك انتهى قال الجبرنى بعد إيراد ما تقدم . أقول ان كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً وهو خلاصة لباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين . وقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه إغاثة اللهفان والحافظ المقرئى فى تجريد التوحيد والامام اليوسى فى شرح الكبرى وشرح الحكيم لابن عباد وكتاب جمع الفصائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد الشيطان وغير ذلك

وجاء فى تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصرى عند الكلام على الوهابية ما يأتى . فمن اعتقادهم تكفير عموم المسلمين الذين على الكرة الأرضية إلا من اعتقد اعتقادهم . وسموا أنفسهم بالسلف وبالحمديين ويغضون ويلعنون جملة من علماء السنة مثل أبى الحسن الأشعرى ويقولون أنهم هم الذين أسسوا قواعد الأدلة

والبراهين في علم التوحيد ومنه نشأت الفرق والخلاف بين الأمة المحمدية وإلا فقبله كانت الأدلة هي القرآن والحديث لا غير . وأيضاً يكفرون الامام ابن السبكي الشافعي ولكن ما اعلم السبب في تكفيره دون سائر المصريين . وياليت شعري ما ذنبه معهم وأظنه لكونه كان يغري الملوك بابن تيمية وجماعته الخنابلة حتى حبسهم الناصر محمد بن قلاوون في الاسكندرية كما هو مذكور في الدرر الكامنة لابن حجر

قال والحاصل ان الوهابين آذوا الأحياء والاموات ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها . ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التي ملكوها وصار كلما كان تحت حكمهم من هذه البراري والقفار سلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر خصوصاً بين الحرمين الشريفين ومنعوا غزو الأعراب بعضهم على بعض وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت الى الشام كأنهم اخوان أولاد رجل واحد وهذا بسبب قسوتهم في تأديب القاتل والسارق والناهب الى أن عدم هذا الشر في زمان ابن سعود وانتقلت أخلاق العرب من التوحش الى الأنسانية وتجد في بعض الاراضي المخصبة هذا بيت عنري وبجنبه بيت عتي وبقربه بيت حربى وكلهم يربعون كأنهم إخوان وبهانيين الدسيستين حذعوا جميع العوام يعنى بمحو البدعة وتأمين الطرقات والسبل خصوصاً بين الحرمين وأحدهم سائر الامم وغفلوا عن باقى عقائدهم . ورأيت لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى رعاة غنمهم ومنها

وما الدين الا أن تقام شعائر وتأمين سبل بيننا وشعاب

فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدين ويفهم عقلامن سياستهم انه اذا فقد القاتل والسارق والناهب فأى سبب يمنع عموم الناس من الاشتغال بالزراعة والتجارة واقتناء المواشى في البادية المخصبة للتكسب من البانها وأصوافها وجلودها واذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون فكأن المسألة شبيهة بالدورية أى انه متى وجد الامان ارتفع السارق والقاتل

لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ومتى اشتغلوا بالمعاش الحلال وجد الامان ولكن
هذا الدور منفق الجهة

« ولولا ما في الوهابيين من هذه النزعة أعنى تكفير من عداهم للمكوا
جميع بلاد الاسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم ولكن بسبب هذه
النزعة أبغضتهم الامم وتسلطت عليهم الدول وغزاهم أسد الديار المصرية ابراهيم
باشا بن محمد على باشا بأمر السلطان محمود سنة ١٢٢٨ ومملك بلادهم ومحا آثارهم
وأبادهم وأسكن طائفة المقرن أى بيت الملك وعائلة بن عبد الوهاب الديار المصرية
(وما رجعوا الى بلادهم الا بعد ان عاد الحجاز الى الدولة العلية) وهذه الفرقة
المعبر عنها بالوهابيين هم اتباع محمد بن عبد الوهاب النجدى ولكنهم فى الحقيقة
يسمون أهل الحديث لأنه كان نظيرهم موجوداً فى زمن الدولة العباسية وينكرون
المناكير بالشدة والغلظة مثل الوهابيين ويشورون على الخلفاء بسبب ان الجهاد فى
اعتقادهم ركن من أركان الدين أنظر تاريخ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
من سنة ٣٠٠ هجرية وكانوا يسمونهم الحنابلة وأهل الحديث فى ذلك الزمن
ويقولون قام الحنابلة وثار الحنابلة وكسر الحنابلة حانات الخمر وأدبو من شربها
وكان بينهم وبين العباسيين مقابلات وحروب . ثم ثارت منهم فرق بالمشرق
وبجزيرة الأندلس ويسمون الظاهرية وهم أيضاً أهل الحديث وكانوا ينكرون
المناكير مع الغلظة ويشورون على الملوك وأكثرتهم يموت بين قتيل وطريد .
ثم انه ظهر لهم فرق فى دولة يوسف صلاح الدين وكانوا يسمون أهل الحديث
ولهم ثورات وعداوات مع الملوك أيضاً وينكرون الممكر بغلظة وفضاظة وتسلسلوا
الى زمن ابن تيمية الحرانى وتلاميذه ابن مقلح وابن القيم وابن عبد الهادى . ثم
ظهرت هذه الفرقة التى عمت وطمت فى القرن الثانى عشر ويسمون بالوهابيين
نسبة الى محمد بن عبد الوهاب النجدى والافى الحقيقة أفعالهم وآثارهم هى أفعال
الحنابلة الأقدمين وهى أفعال أهل الحديث فى القرون المتوسطة وأفعال الظاهرية
فالمنى واحد انما يسمون فى كل عصر باسم على اصطلاح أهل ذلك العصر اه »

أما ناظم عقد هذه الجماعة وصاحب دعوتها محمد بن عبد الوهاب النجدي الآنف ذكره فقد ورد في كتاب بنصرة الناقد لأبي الفتح عبد النصير الهندي ثم المدني نقلا عن محمد بن ناصر الحازمي في رسالة فتح المنان في ترجيح الراجح وتزييف الزايف من صلح الاخوان انه محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن احمد بن راشد بن يزيد بن محمد بن يزيد بن مشرف هذا هو المعروف من نسبه ويذكر أنه من مضر ثم من بني تميم والله به عليم . أخذ عن أبيه وهم بيت فقه حنابلة ثم حج وقصد المدينة ولقى بها شيخا عالماً من أهل نجد اسمه عبد الله بن ابراهيم قد لقي أبا المواهب البعلبي الدمشقي وأخذ عنه وانتقل مع أبيه الى حريملا من نجد أيضاً ولما مات أبوه رجع الى العينية وأراد نشر الدعوة فرضى أهل العينية بذلك ثم جرح عنها سبب الى الدرعية وأطاعه أميرها محمد ابن سعود من آل مقرن . ويذكر انهم من بني حنيفة ثم من ربيعة والله أعلم . وهذا في حدود سنة تسع وخمسين بعد المائة وألف وانتشرت دعوته في نجد وشرق بلاد العرب الى عمان ولم يخرج عنها الى الحجاز واليمن الا في حدود المائتين والألف وتوفي سنة ست بعد المائتين والألف اهـ

وقال أيضاً هو رجل عالم متبع الغالب عليه في نفسه الاتباع . ورسائله معروفة وفيها المقبول والمردود واشهر ما ينكر عليه خصلتان كبيرتان . الاولى تكفير أهل الارض بمجرد تلقيات لا دليل عليها . والثانية الاجترار على سفك الدم المعصوم بلا حجة واقامة برهان . وتتبع هذه جزئيات وهي حقيرة تغتفر مع صلاح الاصل وصحته والله أعلم . وقد بنى الشيخ محمد المذكور طريقته على اتباع بن تيمية ، وابن القيم في زعمه وأخذ من اقوالها اطرافاً بحسب ما وقع له من الاطلاع والاشراف وقد أصاب في بعض ما نقله وأخطأ في البعض وساء فها وأخذ على غير القصد في بعض وقد أحييت دعوته بعضاً من الشريعة وأماتت كثيراً من الباطل في نجد والحجاز رحمه الله وتجاوز عنه فيما أخطأ فيه وجزاه أحسن ما عمل به انتهى ملخصاً

وكتب العلامة الشوكاني اليماني في البدر الطالع في ترجمة سعود بن العزيز مانصه « فوصل اليه الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب الداعي الى التوحيد المنكر

على المعتقدين في الاموات . وقال أيضا في ترجمة غالب بن ساعد شريف مكة في بيان اتباع صاحب نجد . وتبلغنا عنهم أحبار الله أعلم بصحتها . من ذلك أنه يستحل دم من استغاث بغير الله من نبي أو ولي أو غير ذلك ولا ريب ان كان ذلك عن اعتقاد تأيير المستغاث به كتأثير الله يصير به صاحبه مرتدًا كما يقع من كثير من هؤلاء المعتقدين للأموات الذين يسألونهم قضاء حوائجهم ويقولون عليهم زيادة على تعويلهم على الله سبحانه وتعالى ولا ينادون الله جل وعلا الا مقترنًا بأسمائهم ويخصونهم بالنداء منفردين عن الرب فهذا كفر لا شك فيه ولا شبهة وصاحبه اذا لم يتب كان حلال الدم والمال كسائل المرتدين . وقال وبعض الناس يزعم انه يعنى صاحب نجد يعتقد اعتقاد الخوارج وما أظن ذلك صحيحًا فان صاحب نجد وجميع اتباعه يعملون بما يعامونه من محمد بن عبد الوهاب وكان حنليًا ثم طلب الحديث بالمدينة المشرفة فعاد الى نجد وصار يعمل باجتهادات جماعة من متأخرى الحنابلة كابن تيمية وابن القيم وأضرا بهما وهم من أشد الناس على معتقدي الاموات « وقد رأيت كتابًا من صاحب نجد الذى هو الآن صاحب تلك الجهات أجاب على بعض أهل العلم وقد كاتبه وسأله بيان ما يعتقد فرأيت جوابه مشتملا على اعتقاد حسن موافق للكتاب والسنة والله أعلم بحقيقة الحال وبلغنا انه وصل الى مكة بعض علماء نجد لقصد المماظرة فناظر علماء مكة بحضرة الشريف في مسائل تدل على ثبات قدمه وقدم صاحبه في الدين وفي سنة ١٢١٥ وصل من صاحب نجد المذكور مجلدان لطيفان أرسل بهما الى حضرة مولانا الامام حفظه الله أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهاب كلها فى الارشاد الى اخلاص التوحيد والتنفير من الشرك الذى يفعله المعتقدون فى القبور وهى رسائل جيدة مشحونة بادلة الكتاب والسنة والمجلد الآخر يتضمن الرد على جماعة من الفقهاء المقصرين من فقهاء صنعاء وصعدة ذاكروه فى مسائل متعلقة باصول الدين وبجماعة من الصحابة فأجاب عليها جوابات محررة مقررة محققة تدل على أن المجيب من العلماء المحققين العارفين بالكتاب والسنة . وقد هدم عليهم جميع ما بنوه وأبطل جميع ما دونوه لانهم مقصرون

متعصبون فصار مافعلوه خزيا عليهم وعلى أهل صنعاء وصعدة وهكذا من تصدر ولم يعرف مقدار تمسه انتهى ملخصاً

وقال القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي في كتاب نفع العود في أيام الشريف حمود ومن كتب عبد العزيز بن سعود هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز ابن سعود الى من يراه من أهل المخلاف السليمانى خصوصاً أولاد الشريف حمود وناصر ويحيى وسائر اخوانهم وأولاد اخوانهم وكذلك أشرف بنى النعمى وكافة أشرف تهامة وفقنا الله واياهم الى سبيل الحق والهداية وجنبنا واياهم طريق الشرك والغواية . وأرشدنا واياهم الى اقتفاء آثار أهل العناية . أما بعد : فالموجب لهذه الرسالة ان الشريف أحمد بن حسين الفلتي قدم الينا فرأى ما نحن فيه وتحقق صحة ذلك لديه فبعد ذلك التمس منا ان نكتب لكم ما يزول به الاشتباه فتعرفوا دين الاسلام الذى لا يقبل من أحد سواه . فاعلموا رحمكم الله تعالى ان الله سبحانه أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل فهدى به الى الدين الكامل والشرع التام وأعظم ذلك وأكبره ووردته اخلاص العبادة لله لا شريك له والنهى عن الشرك وذلك هو الذى خلق الله تعالى الخلق لاجله ودل الكتاب على فضله كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . وقال تعالى : وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين واخلاص الدين هو صرف جميع العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وذلك أن لا يدعى الا الله ، ولا يستغاث الا بالله ، ولا يذبح الا له ، ولا يخشى ولا يرجى سواه ، ولا يهرب ولا يرغب الا فيما لديه . ولا يتوكل فى جميع الامور الا عليه ، وان كل ما هنالك لله تعالى لا يصلح شىء منه لملك مقرب ، ولا نبي مرسل ولا شىء غيرها . وهذا هو بعينه توحيد الالهية الذى أسس الاسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافر وهو معنى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله

فلما من الله تعالى علينا بمعرفة ذلك وعلمنا انه دين الرسل اتبعناه ودعونا الناس اليه والا فنحن قبل ذلك على ما عليه غالب الناس من الشرك بالله تعالى من عبادة أهل القبور والاستغاثة بهم ، والاستعانة منهم والتقرب بالذبح لهم ، وطلب

الحاجات منهم مع ما ينضم الى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات ، وارتكاب الامور المحرمات . وترك الصلاة وترك شعائر الاسلام حتى أظهر الله الحق بعد حفاائه ، وأحيا أثره بعد عفاائه ، على يد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب أحسن الله تعالى اليه في آخرته والمآب . فأبرز ما هو الحق والصواب من كتاب الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الخ ورسالة عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب . التي كتبها حين فتح الحرمين الشريفين شاهدة عدل على أنه برىء من تلك الافتراءات التي أفتروها على عقائده وعقائد أبيه وبنوا عليها تلك الزلازل والقتلاقل وان مذهبه عين مذهب الأئمة المحدثين والسلف الصالحين وتلك الرسالة منقولة في أنحاء النبلاء من شاء الاطلاع عليها فليرجع اليها . قال المستشرق سيد يللوا الفرساوى في كتابه خلاصة تاريخ العرب ما نصه « أخذت العرب من ابتداء القرن الثامن عشر في الاستقلال بالحكم لقوتها وضعف أعدائها ولم تنقص الا اتخاذ مركز تجمتع حوله جميع الاذهان وترجع اليه في تدبير الامور فهمت الوهابية سنة ١٧٤٩ ميلادية فأخذت منها عبد الوهاب مركزاً وهو من قبيلة تميم اشتغل في صغره بالعلوم المعتادة عند العرب خصوصاً الفقه وسافر الى بغداد والبصرة وبلاد الفرس ثم أخذ يتفكر فيما يشير الحمية في أبناء وطنه فوجده أحياء الشريعة نقية من جميع البدع كحالتها الاولية فالزمهم المواظبة على العمل بالقرآن ونهاهم عن العلو في تعظيم النبي (صلى الله عليه وسلم) وعن تقديس الاولياء الذين هدم قبورهم وعن تعاطي المسكر وأنكر على الاتراك بعض الاحوال وقال ان الشريعة تقضى أن يخرج كل انسان خمس أمواله (كذا) ركاة وتحرم الزينة وتلزم القصاة بتجري الصدق وأخذ يعظهم بخطب عظم تأثيرها لديهم بموافقتها القرآن ومقصوده من ذلك استمالتهم الى الامور الحريية ليحيوا ما كان لا يأتهم من العظمة . وقد كان فان أقوى جميع قبائل نجد وفدت عليه وانتظمت تحت لوائه فجعل محمد بن سعود من قبيلة مصالح قائد هؤلاء الوفود ورج سعود ابنته وقلده الحكم السياسى على الوهابية لمعرفته بالقوانين العسكرية وقال أحمد سعيد البغدادي في كتابه نديم الادب « أما حقيقة هذه الطائفة فانها حنبلية المذهب وجميع ما ذكر المؤرخون عنها من جهة الاعتقاد محرف وفيه

تناقض كل من اطلع عليه بتأمل لان غالب مؤرخي الشرقيين ينقلون عن الكتب
الافرنجية فان كان المؤرخ المنقول عنه صاحب دراية وصادق الرواية تجدان من
يترجم كتابه يجعل الترجمة على قدر اللفظ فيضيع مزينة الاصل . وان كان المؤرخ
غير صادق الرواية فمن باب أولى « الى أن قال « ومن أراد أن يعرف حليا اعتقاد
هذه الطائفة فليطالع كتب مذهب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فانه مذهبهم
أما بلاد نجد فقد وصفها محمد بن سليم الشهابي المدني في رسالته الرحلة الحجازية
« أنها أرض مسطحة سهلة يقل وجود الجبال فيها والمشهور فيها جبلان أجاء وسلمى
وانها حسنة الهواء كثيرة الامطار والسيول وفي سفح جبل أجاء مدينة تسمى
بندر حائل وهى مسورة ولها ثلاثة أبواب وبيوتها طبقة واحدة والقليل منها
طبقتان مرتفعة البناء وفيها محال للقهوة مزينة داخل البيوت على عادة العرب وفيها
قصر أميرها والامير ينفذ أحكام القاضى على موجب القرآن الشريف والاحاديث
النبوية والاقوال الصحيحة فيقتص من القاتل ويقطع يد السارق ويقوم حد الرجم
ولا يوجد في بلاد نجد شاهد زور البتة حتى لو سمع الامير لشاهد زور يجلبه من
أقصى نجد ويعزره وينميه . وفي أوقات الصلاة يطوف مأمور من قبل الامير في
الاسواق والشوارع فاذا وحد واحدا لم يحضر صلاة الجماعة يسلبه عمامته ويجره
الى المسجد وعند خروج الامير من الصلاة يعرضه عليه فيؤدبه الامير لترك الصلاة
مع الجماعة وترى جميع أهل البلد والنازلين فيه متبارين في صلواتهم مع الامام في
الجامع وهم في غاية الذكاء والكمال والفصاحة العربية وحديثهم بينهم بالاحسان
والتؤدة لاتسمع بينهم لغوا أبداً ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسفنها
فهي عندهم ولقد نزلت بين طهرانيهم على عهد المرحوم الامير متمب ثلاثة أشهر
ثم زرتهم مرتين فاكثر لما رأيت من اسانيبتهم فامعنت النظر في أحوالهم فلم أسمع
في حائل حاضرة الامير صوت طبل ولا غناء مزمار ما حلا طبل الحرب في وقته .
واذا مات أحدهم لاتسمع عويل أهله وعياله سوى حزن وبكاء ويدفنون موتاهم
حال وفاتهم ولو مات الميت في الليل وفيها بعض أشجاره ثمرة وبنواحيها في سفح
جبل اجاء قرية تدعى قناد ذات عين ثرة تسقى النخيل والزرع وحاضرة أمير حائل
تحيط بها من جهاتها الثلاث أرض سهلة ماعدا الجهة الرابعة حيث جبل اجاء الذي

يكثر فيه الربيع مسافة يومين وليلة وهي حمى جعله الامير لمخاضته ويربى فيها خيله وهجنه وابله ومواشيه . وفي محيط الحمى قرى رجال الامير وعلى بعد خمسة أيام من الحمى بلدة كبيرة تسمى عنيزة مسورة بسورين سور على نخيل يحيط بها وسور على البلدة وعلى مقربة منها مسيل ماء يجرى في الغالب وعلى أطرافه نخيل كثير وأكثر سكان البلدة تجار نجد وأعيانها . ويقابلها أيضاً بلدة كبيرة مسورة تسمى بريدة ولها قرى تابعة لها ونخيل كثير تدعى القصيم متصلة بالدرعية ومنها الى مدينة عظيمة تدعى العارض حيث مساكن حكام نجد وأمرائها آل سعود والامير في كل عام يأخذ من رعاياه الزكاة وفقاً للشرع من خيولهم وابلهم وأغنامهم ومواشيتهم ونخيلهم وزروعهم ولا يستثنى من ذلك الا الخيل المعدة للحرب والذي يجيبه من الزكاة على وفق الشرع يجمعه عنده فيفرق بعضه على المحاييج والفقراء ويصرف البقية في المآدب وعطايا قاصديه حتى لا يبقى على رأس السنة منها شيء هذا طرف مما عثرت عليه من تضاعيف كتب مطبوعه ومخطوطة لمؤلفين متبانين في المشارب متفرقين في المشارق والمغارب أثبتته على حاله ولم أمسخ من لفظه ولا ماله . ورأيت وسمعت كثيراً من مؤرchi الفرنجة وسياحهم تكلموا على هذا المذهب ومنهم المنصف والمجحف على ان المجحف منهم يفضل بصدقه أمثال أحمد جودت وعبد الرحمن شرف وأيوب صبرى وغيرهم من المؤرخين الا تراك الذين أطلقوا مباشرة الفاظ والتكفير والتضليل على أبناء هذا المذهب ورموا الكلام على عواهنه واتهموهم في أمانتهم . ولذا اقتضت على إيراد ما تقدم وتجاويت عن ترجمة أقوالهم لأنها أمليت بلسان التويه لا بلسان التاريخ . وعلى ما قيل في عباراتهم يتصرف ما كتبه أحمد زيني دحلان المكي بعبارات محزنة مخجلة وقد رد عليه علماء الوهابية زاعمين ان الاحاديث التي ساقها في كتابه موضوعة بعد ظهورهم مطالبين القائل بها ببيان الكتب المأخوذة منها من أسفار المحدثين المتقدمين والمتأخرين مطيلين اللسان على علماء ذلك العصر ناسبين لهم الافتراء على حضرة صاحب الرسالة عمداً وياليت هذا المكي بين ما أخذه ليخلص من الطعن فان المقام مقام جدال .

واختلفت الاقوال في عدد المنتحلين لهذا المذهب في نجد ويقول شمس

الدين سامي صاحب قاموس الاعلام ان عددهم قد يرقى الى ثلاثة ملايين نسمة في نجد أما مسافة هذه الكورة فيقطعها الراكب على متون المطايا في عشرين يوماً عرضاً وثلاثين يوماً طولاً وأخبرني أحد الثقات الاثبات ان دعوة الوهابية تنتشر في الهند خصوصاً في الاعوام الاخيرة

و يؤخذ مما ذكره حسين بن غمام الاحسائي^(١) في كتابه روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام ، أن الناس في نجد قبل قيام محمد بن عبد الوهاب كانوا الى الشرك الخفى والظاهر . وقد وصف المقامات التي نذروا لها والشيوخ الذين اعتقدوا فيهم وانتقل الى « بلدان مصر و صعيدتها وما فيها من الامور التي ينزه اللسان عن ذكرها وتعميدها خصوصاً عند قبور الصلحاء والعباد من ساداتها وعبيدها بها . »

وذكر ما يفعل من هذا القبيل في بلدان اليمن وقال ان حلب ودمشق وأقصى الشام والموصل وبلاد الاكراد والعراق و بغداد والبصرة وقرى السلط والقطف والبحرين وغيرها من بلاد العرب كلها واقعة في هذا . واستشهد بقصيدة للامير محمد بن اسماعيل الصنعاني وكان مشهوراً بالعلم والفهم قال واصفاً ما سرى من البدع :

ظفى الماء من بحر ابتداعا على الورى	فلم ينج منهم مركب وركاب
وطوفان نوح كان فى الفلك أهله	فنجاهم والغارقون ثياب
فأنى لنا فلك بنجى وليته	يطير بنا عما نراه غراب
وأين الى أين المطار وكلما	على ظهرها يأتيك منه عجاب
ترى الدين مثل الشاة قد وثبت له	ذآب وما عنه لهن ذهاب
لقد مزقته بعد كل ممزق	فلم يبق منه حثة وإهاب
وليس اغتراب الدين الا كما ترى	فهل بعد هذا الاغتراب اياب
فياغربة هل يرتجى منه أوبة	فيجر من هذا البعاد مصاب
فلم يبق للراجي سلامة دينه	سوى عزلة فيها المجلس كتاب

(١) من مقالة لنا نشرت في المجلد الثلاثين في مجلة المقتطف ١٩٠٥ — ١٣٢٢

واستشهد له بقصيدة أخرى قال فيها :

ويعمر أركان الشريعة هادماً مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله بغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة أهات لغير الله جهراً على عمد

* * *

علام جعلتم أيها الناس ديننا لأربعة لاشك في فضلهم عندي
هموا علماء الدين شرقاً ومغرباً ونور عيون الفضل والحق والزهد
ولكنهم كالناس ليس كلامهم دليلاً ولا تقليد لهم في غد يجدي
ولا زعموا حاشاهموا ان قولهم دليل فيستهدى به كل مستهدى
بل صرحوا انا تقابل قولهم اذا خالف المنصوص بالقدح والرد

وترجم المؤلف شيخ الاسلام ابن عبد الوهاب بما لم يخرج عما تقدم من ترجمته آنفاً ومما قاله انه كان أكثر لبثه لأخذ العلم بالبصرة وأخذ في بث الدعوة ثم سكن حريراً مع والده مثابراً على دعوته تاركاً ما سلكه علماء السوء فانتظم في سلكه عصابة اتخذوه جلبساً واتبعوا طريقته فقرأوا عليه كتب الحديث والفقه واشتهر في بلدان العارض من حريراً والعينية والدرعية والرياض ومنفوحه وانحاز لدعوته جم غفير وأقام في حريراً سنين واهتدى به أحد الامراء عثمان بن معمر في العينية فاقام بها وساعده الامير على الارشاد فبدأ يعظم أمره فمشا الدين في بلدان العارض فامر الشيخ الامير بهدم القباب والمساجد المبنية على قبور الصحابة وقطع الاشجار التي كان ينتابها الناس للتبرك وعدلت على السنن المشروعة فانكر عليه ذلك وحكموا بكفره واستحلال دمه وماله وتقول بعضهم عليه ووشوا به الى علماء الاحساء والبصرة والحرمين وافتوا الحكم بأنه أقبح الضلال والفساق وأشر الخوارج وحسبوا أنهم اذا حرشوا عليه الحكم يجدون في قتله فصنفوا المصنفات في تبديعه وتصليله وقالوا انه مغير السنة والاحكام يقصد تنفير الخواص والعوام ليشاقوا الولاية فيعصوهم . ولما تظاهر الشيخ بالدعوة والناس قد أشربت

محبة المعاصي قلوبهم لم يكفر أولئك العربان وتوقف تورعا حتى تألبوا عليه وكفروه وجماعته ولم يأمر اسفك دم أكثر أهل الاهواء حتى حكموا عليه وأصحابه بالقتل والتكفير . ومع ما كان ينقل اليه من الادي لم يكثر بهم وكان يتضرع الى مولاه أن يشرح للحق صدورهم ولم يعامل أحداً بالاساءة بمدال القدرة عليه ولما وفدوا عليه ومثلوا بين يديه لم يوبخ أحداً منهم وأسدى اليهم معروفه وتجاوز عما فعلوه . فعل به أعداؤه ذلك وأكثرهم معترف أن ما أتى به هو الحق والصواب ولكن خشوا ان تسلب رئاستهم ودنياهم . توفي صاحب الدعوة وله من العمر قريب من اثنين وتسعين سنة كان في خلالها مستمراً في تحصيل نافع الزاد وصنف مصنفات كثيرة منها (كتاب التوحيد) ورسالة عامة للمسلمين تسمى (كشف الشبهات) جواباً لشبههم التي أدلوا بها فيها خلاصة دعوته ، ولبات عامه وكتب رسائل كثيرة في حث مجاوريه على الاخذ بما ارتآه والرد على حصومه قال من جملة جواب له ان تعليق التأمم من الشرك وكتب الطلاسم في الحجب هي من السحر والسحر بكفر صاحبه وان من دعا نبياً أو صحابياً أو ولياً مثل أن يقول ياسيدي فلان النصرني وأغثنى كافر بالاجماع . وأنكر التذكير وقال انه من البدع وذكر السيوطي في الاوائل ان أول ما حدث التذكير يوم الجمعة ليتها الناس اتصالها بعد السبعائة في رمن الناصر بن قلاوون .

قال المؤرخ والسبب الذي دعا ابن عبد الوهاب الى الخروج من بلده العينية بعد ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان امرأة من أهل تلك البلدة عرفت بسوء فأقرت على نفسها وتكرر ذلك منها فأعرض الشيخ عنها ثم أقرت وعادت الى الاقرار مراراً فسأل عن عقلها فأخبر بتامه وصحته فأمرها أياماً رجاء ان ترجع عن الاقرار الى الانكار . فأقرت أربع مرات فأمر برجها فشدد عليها ثيابها لترجم بالحجارة على الوحه المشروع فخرج الامير عثمان وجماعة ورجوها حتى ماتت فلما طار هذا الخبر كثر لفظ أهل المدع وطارت قلوبهم شعاعاً فلما أعياهم رد مقاله من تلك المسائل عدلوا الى ردها بالمكر والحيلة فشكوه الى شيخهم فاغروه به فطلب الى الامير عثمان يأمره بقتله أو اجلائه عن وطنه فأمر هذا الامير الشيخ بالخروج فجاء الدرعية فلما سمع الامير محمد بن سعود بقدمه أسرع اليه مسلماً عليه فلطف

منه محله وأخبره بان يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وطلب الى الشيخ أن لا يرحل عن بلده وكان هذا الامير معروفاً في جاهليته بحسن السيرة فعاهده الشيخ على عدم الخروج وقام يدعو الناس الى التوحيد وآزره وزراء الامير وأعوانه واحوانه من أهل الدرعية وذلك في حدود سنة ١١٥٧ هـ وتوفي الشيخ سنتين بناصح الناس وهاجر الى الدرعية خاق كثير بينهم زمرة من أهل الميوتات وسنة ١٢٠٦ هـ توفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحاله من العبادة في الصلاة والصيام مشهورة يتلو القرآن أبداً ويحجى غالب الليل بالقيام والتأني في تنفيذ الاحكام من كتب الأئمة الاربعة المقلدة وكان يحجى اليه المال من جميع بلدان المسلمين فيتفرقه عليهم في طريقة من الزهد مرضية وكان متكففاً من ذلك المال لا يأكل منه الا بالمعروف وكان سرحاً كريماً لا يرد سائلاً ومات ولم يخلف ديناراً ولا درهما وكان عليه دين كثير وفي عنه .

وذكر ابن غنام في تاريخه أيضاً غزوات أتباع ابن عبد الوهاب مع من جاورهم من القبائل والبلدان وكلها دائرة على بث دعوة واحتياز مغنم ومقابلة شر بمثله أخبار متشابهة كان يجري مثلها في تلك الاصقاع . ويظهر للاعتأمل ان معظم تلك الحروب التي جرت على عهد ابن عبد الوهاب كانت للدين فلما مات عادت المطامع الى مجراها السابق . والغالب ان الامير النحدي وابنه الذين عملا بمشورة الشيخ طول حياته قاما ببث دعوته بين الامراء المجاورين اعد ان أشتدت شكيمتهما . ومن طالع هذا التاريخ وعرف حال الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يلبث أن يقع في ذهنه ان كل تاريخ هذه الطائفة قتل وقتال وقيل وقال . نعم ان الامر على ما بقول فقد ذكر لي أحد عقلاء النجديين يوماً ما معناه : يعاب على قومنا شيئان مهان أحدهما الفتن التي ما فتئت يثور نائرها بين أطهرنا والدماء التي تهراق من ربيعنا ووضعنا وان تكن غارات اليوم بين ابن سعود وابن الرشيد مثلاً ليست كفارات أمس (تفرد السلطان عبد العزيز بن سعود منذ اضع سنين بحكم نجد كلها) المذكورة في تاريخ ابن غنام فان تلك كانت لفن كلة التوحيد بين أولئك الاعراب الجفاة وهذه تدعو اليها المطامع — وثانيهما انقسام الناس في نجد الى قبيلين قبيل يقال له الخضيرية وآخر يقال له قبيلية أوشيوخ فالاول في

حل من تعاطى الصناعات كلها والثاني لا يجوز له تعاطيها لان ذلك يعد شيناً عليهم وعرة في وجوه انسابهم فيقتصرون على التجارة والفلاحة . واذا تعاطى أحد الشيوخ وبعبارة ثانية الاشراف صناعة ما ، وكان في الاصل شرفاً يسقط عندهم شرفه ويمسى معدوداً من الطبقة النازلة طبقة الصمغ والاحراء في الاده طبقة الخصيرية . واذا تزوج أحد الشيوخ من نبي حضير أى صاحب الشرف من فاقده وكان للشريف عصابة يستحلون قتله مدعين انه أسقط شرفهم . قلت له وأنا أعيب عليكم أمراً ثالثاً ولطالما ذا كرتكم به وهو جودكم على حالة واحدة في العلم وتحريركم مطالعة كتب لا تخلو مطالعتها من أنارة عقولكم ووقوفكم عند حد البحث في الدين دون الالتفات الى ما لا بد منه من علوم الدنيا . وما يخيل الى الا أن رجالكم الذين يأتون الامصار عارفون ما تمس اليه حاحة بني نخلهم من العلوم والصنائع وما ينقصهم من المتعمات التي لأثر لها في باديتكم . اما انقسام الناس في نجد الى فئتين فليس بالامر الجديد فان الرومان كانوا كذلك بل كان اشراف أسلافكم العرب الخالص يرون الصنائع مصيبة لشرفهم ويعتدون في الغزو والغارة شروهم الوحيد .

هذا ما لقفناه من تاريخ الاحسائي في أتباع محمد بن عبد الوهاب وهم الحماة اعينهم وما ابن عبد الوهاب الادعية هداهم من الضلال . وساقهم الى الدين السمح واذا بدت شدة من اعصمهم فهي ناشئة من نشأة البادية . وقلما رأينا شعباً من أهل الاسلام يغلب عليه التدين والصدق والاحلاص مثل هؤلاء القوم وقد احتبرنا عامتهم وخاصتهم سمين طويلاً فلم نرهم حادوا عن الاسلام قيد غلوة أما الغزوات التي يغزونها فهي سياسية محصنة ومذهبهم برىء منها وما يتهمهم به أعداؤهم زور لأصل له والله أعلم .

دولة الادب في حلب^(١)

على عهد سيف الدولة بن حمدان

لكل قرن من قرون العز في العرب نايغة أو نوابغ من الملوك والامراء ، ومثلهم من العلماء والادباء ، وقد امتار القرن الرابع في الشام — واذا قلنا الشام عنينا هذا القطر المحبوب الممتد من العريش الى الفرات ومن جبال طورس الى البادية على نحو ما كان يعرفه العرب — بقيام بنى حمدان فيه ، ورئيسهم سيف الدولة ابن حمدان استولى على القسم الشمالى منه ، والدولة العباسية قد أخذت تتناوشها ملوك الاطراف . وأمرؤها في العراق ومصر والشام والجزيرة ، وأخذت دولة الخلافة بالضعف اصنع بعض الخوارج ، ومنهم من كان ينازعها السلطة علناً ، ومنهم من كان يشاركها فيها وبخضع لها في الصورة الظاهرة ، وبنو حمدان كانوا من هذا النوع الاخير .

أصل بنى حمدان بطن من بنى تغلب بن وائل من العدنانية ، وهم بنو حمدان ابن حمدان كانوا ملوك الموصل والجزيرة وحلب في أيام المقتدى بالله العباسى ، وأول من ملك منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ، ثم أخوه ابراهيم بن حمدان . ثم أخوه سمعد ونصر ابناء حمدان ، ثم استولى على الشام وحلب معين الدولة على ابن أبى الهيجاء بن حمدان ، ثم لؤلؤ مولى سمعد الدولة بن حمدان ، ثم غلبه على ذلك صالح بن مرداس أمير بنى كلاب وانتزعه منه في سنة ٤٠٢ هـ

كان للقبائل سلطان في هذه الديار ، وأى سلطان ، لان البادية خلقوا رجال حرب وغزو أكثر من الحضرة ، لذلك كان العرب قبل الاسلام بخمسة أو ستة قرون يحكمون هذه الديار أو يغيرون على المعمور منها ، أو ينزلون في صقع معين منها فيبنون المصانع ويغتنون كما يغتنى أهل الحضرة ويعيشون عيشهم ، ومن هؤلاء العرب من كان لهم قبل الهجرة وبعدها مدنية رائعة مثل الببطين في الجنوب وهم

(١) محاضرة القاها في نادي الشهاب تحت يوم ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٢٣

عرب تعزى اليهم آثار البتراء أو وادي موسى وآثار جرش في عجلون ومثل الغسانيين في حوران والصفاء واللجاة ودمشق وحمص وغيرها ، ومثل التنوخيين في ارجاء حلب ومثل بنى لحم وجذام ، وكلب ، وكلاب ، وتميم وطى ، وسليم ، وعاملة ، والضجاعم وغيرها من قبائل العرب التي نزلت الشام فكانت عرضة كل حين لاستيلاء البادية عليها لان أهلها أشد مراساً وأجرأ على القتال يوم النزال ، ولان سلاح المدن والبوادي كان واحداً اذ ذاك ، وهذا ما حدا بدولة الرومان لما أضافت هذه الديار الى مملكتها ان تنشئ على سيف البادية محافر كثيرة ليأمن المعمور عبث البادية ، ومن جملة الدواعى الى استيلاء الحمدانيين على حلب طمع العرب فيها وغزوهم لها المرة بعد المرة ، ففي سنة ٢٩٢ هـ ولى المكتفى أبا الحسن ذكاً بن عبد الله الاعور حلب ودام بها الى سنة ٣٠٢ فعانت بنو تميم في أيامه في حلب وأفسدت فساداً عظيماً وحاصروا ذكاً بحلب فكتب المفتدر الى الحسين بن حمدان في انجاد ذكاً بحلب فأسرى من الرحبة حتى أنأخ عليهم بخصاصة وأسروا منهم جماعة ، وقامت على الحسين بن حمدان العرب من كلب واليمن والنمر وأسروا غيرهم فاجتمعوا بسواحي حلب فخرج للقائهم سنة ٢٩٤ هـ وهزموه حتى بلغوا باب حلب

تبعث الشام مصر في حكومتها سنة ٣٢٥ وأقام محمد لاخشيد والياً على حلب احمد بن سعيد الكلابي شيخ قبيلة بنى كلاب فكثرت الكلابيون اذا ذاك واقطع الخليفة العباسى الشام لمحمد بن رائق على ان يستخلصه من الاخشيدية الذين خلعوا طاعته فطرد ابن رائق وقاتل الاخشيدية وأستولى على دمشق

وفي سنة ٣٢٩ بعث محمد الاخشيد قائده كافورا الى الشام في جيش عظيم فهزم عامل ابن رائق واستولى على حلب ، وفي السنة التالية عقد الصلح بين محمد الاخشيد واستأثر هذا بولاية حلب ، والاخشيد محمد بن طفج صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية والاعمال الحجرية كانت له سياسة حسنة مع جميع رعاياه أى أنه كان بارعاً بما نسميه اليوم (سياسة العناصر) فقد كتب الى ارمانوس ملك الروم من كتاب : « وسياستنا لهذه الممالك قريبا واعيدها على عظمتها وسعتها بفصل الله علينا واحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقه ايانا كما كتبت الينا وضح عندك من حسن السيرة وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الاولياء والرعية ويجمعهم

على الطاعة واجتماع الكرامة ويوسمها الامن والدعة في المعيشة ويكسبها المودة والمحبة «
وفي سنة ٣٢٩ وصل الروم الى قرب حلب ونهبوا وخرّبوا البلاد وسبوا نحو
خمسة عشر ألف انسان ، وفي هذه السنة أيضاً قتل ابن رائق قتله ناصر الدولة بن
حمدان وكتب بالامر الى الخليفة المتقي لله فخل ذلك من نمسه محلا عظيما ولقبه ناصر
الدولة وجعله أمير الامراء وتقلد حاب وأعمالها ودانت له العرب ولقب شقيقه عليا
سيف الدولة وحام عليه وهذا هو موضوع كلامنا في هذه المحاضرة

* * *

سار سيف الدولة الى حلب سنة ٣٣٣ خكمها واستولى عليها وكان مع المتقي
الله بالركة ، ولما عاد المتقي الى بغداد وانصرف الاحشيد الى الشام لقي يأنس المؤسى
بجلب فقصدته سيف الدولة واما نار لها فارقها فأأس خكمها سيف الدولة وهزم الروم
لما قاربوها ودخل الاحشيد سمه ٣٣٤ حلب وافسد أصحابه في جميع المواحي فقطعت
الاشجار التي كانت في طاهر حلب وكانت عظيمة جدا (وقبل ان حاب كانت من
أعظم المدن شجراً وأشعار الصنوبرى تدل على ذلك) ونزل عساكر الاحشيد على
الناس بحلب وبالغوا في أذى السكان لملاهم الى سيف الدولة

مال الناس هنا الى سيف الدولة لما اشتهر عنه من الشجاعة والكرم ومال
أهل دمشق عنه فطردوه عن بلدهم لانهم رأوا منه ما أخافهم على أملاكهم . ودلت
أنه لما ملك دمشق اتفق - وهو مقيم بها - انه كان يسير هو والشريف العقيلي
بنواحي دمشق فقال سيف الدولة : « ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد »
فقال له العقيلي ، هي لا قوام كثيرة ، فقال سيف الدولة : « لئن أخذتها القوانين
السلطانية ليتبرؤا منها » فأعلم العقيلي أهل دمشق بذلك فكاتبوا كافوراً يستدعونه
من الاخشيدية فجاءهم وأخرجوا سيف الدولة عنهم وظل ملك الحمدانيين مقصوراً
في الشام على شماله ودحات فيه حماة ، حمص ، وسامية ، وجوسية ، وشيزر ،
وكفر طاب وأفامية ، ومعرة النعمان ، وحبل السماق ومعرة مصرين . والاثارب

* * *

رسحت بسيف الدولة اقدام بنى حمدان في هذه الديار واتخذ حلب عاصمته
وكانت مملكته عبارة عن جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية والجزرية

وديار مصر وديار بكر ، ولما تم له الامر مثل في بلاده الصورة التي كان يريد ان
يغلبها في دمشق وأبي أهلها عليه تمثيلها فاخذ يستصفي الاملاك ويصادر الاموال
ويبنى الدور والقصور ويظهر من الابه ما كان يعجز عنه الخوالف من العباسيين
في بغداد ، والامويين في الاندلس والفاطميين في مصر

* * *

لم تكن الجباية في تلك القرون على حالة مستقرة ، فما ورد عن الشارع وأصحابه
من قوا نيتها العادله السهلة التطبيق كان يجري العمل به في البلاد كلها ، وكاتب
صورة التنفيذ تختلف باختلاف نزاهة السلطان وعفته عن أموال الناس ، وسيف
الدوله كان على الأرجح من القائلين بان الغاية تبرر الوسطة
كان رحمه الله على ما أجمع عليه الثقات مثل ابن حوقل معاصره والازدي ،
وسبط ابن الجوزي ، يجوز اخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ،
ويسرف بجانب كبير يفصل به على الشعراء والادباء فيخرجه من أكياس الرعية
وحيويتهم لينفقه في وجوه المبرات والمطايا ، ولذلك أسس في هذه المدينة الجميلة
دولة في الادب لم يقم مثلها في الشام منذ نحو عشرين قرناً الى يوم الناس هذا
لبس العالم شر محض ، ولا خير محض . ولكل عاقل في الارض مزيه كما ان
له ما يمد عليه من الهبات ، وسيف الدولة من هذا القبيل لم تكن أعماله الى الخير
لمحض بمصادراته وإسرافه ، وكانت له مزيتان قل أن يكتبتا لغيره وهما : نهضة
الآداب في هذه البلاد ، ودفع عادية الروم عنها ولولاه لعاد اليها سلاطنتهم بعد أن
تقلص بالاسلام نيفاً وثلاثة قرون . وهذا الاجال كما ترون يحتاج الى تفصيل
كان هم سيف الدولة في سياسته الخارجية أن يضعف الروم في آسيا الصغرى
فكان كثيراً ما يغزوهم ويفتح حصونهم ويسبي من أبنائهم ويخرب في زرعهم
وقراهم ويستصفي أموالهم وعروضهم ، وقيل أنه غزاهم أربعين مرة كانت فيها
بعض الغزوات له وبعضها عليه وكان همه في سياسته الداخلية تنجيد القصور
وجمع الاموال والتجوز في أخذ الحلال والحرام منها ، واظهار أبهة الملك ، والافضال
على الشعراء وكانت عصبية من عرب الجزيرة مسقط رأسه ومنبع دولته .

ومن عرب الشام مثل بنى كلاب الذين أدناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم . قال في مسالك الاضار : وبنو كلاب هم عرب أطراف حلب والروم ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد . ولا تزال (أى فى القرن الثامن) تباع بنات الروم وأبناؤهم من سباياهم . ويتكلمون بالتركية ويركبون الاكاديش وهم عرب غزو . ورجال حروب وأبطال جيوش . وهم من أشد العرب بأساً وأكثريهم ناساً .

قل فى أيام سيف الدولة غزو الروم لمدينة حلب . وكانوا يغزونها السنة بعد الاخرى ويعيشون فى ارباضها وقراها ويحرقون ويخربون ويسبون دع غزوتهم لها سنة ٣٥١ أيام استولوا عليها دون قلعها ولم يعلم سيف الدولة بالخبر نخرج اليهم فيمن معه فقاتلهم فلم يكن له قوة الصبر لقله من معه فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد فانهم سيف الدولة فى نهر يسير وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب وتسمى الدارين فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدره (والبدره كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار من الدراهم ويبلغ مجموعه نحو مليونى دينار باصطلاحنا اليوم) وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح ما لا يحصى وأخذ الجميع وحرب الدار وملك الحاضر وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم فى السور ثلثة فقاتلهم أهل حلب عليها . فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها فلما جنهم الليل عمروها . فلما رأى الروم ذلك تأخروا الى جبل الجوش . ثم ان رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها فلحق الناس أموالهم لينعموها فخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعمهم أحد فدخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ولم يرفعوا الفتك حتى تعبوا وضجروا وكان فى حلب الف واربعمائة من الاسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبوا من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة . فلما لم يبق من الروم ما يحملون عليه الفنيمة أمر الدمستق باحراق الباقي واحراق المساجد . قال ابن الاثير ، وكان عدد عسكره مائتى الف رجل منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن (الدروع) وثلاثون ألفاً للهدم واصلاح الطرق من الثلج وأربعة آلاف بغل

يحمل الحديد . وكانت هذه الموقعة اسفح (بالقوسا) فاحرقوا جامعها
بيد ان هذه الواقعة و أمثالها لم تكن من همة سيف الدولة فظل على غزو الروم ليكف
عاديتهم عن هذه الديار ، وكانت له طرق غريبة في الرحمة من ذلك انه سار مرة
بالبطارقة الذين في أسره الى الفداء وكان في أسر الروم ابن عمه أبو فراس وجماعة
من أكابر الحلبيين والحمصيين فاخذ بالتمذاء ولما لم يبق معه من أسرى الروم أحد
اشترى الباقين كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتى بعد ما معه من المال فاشترى
الباقيين ورهن عليهم بدنته (درعه) الجوهر المعدومة المثل ، ثم لما لم يبق أحد
من أسرى المسلمين كاتب فقفور ملك الروم على الصلح ، قال ابن الوردي : وهذه
من محاسن سيف الدولة

ولقد امتازت دولة سيف الدولة بمزيتين الاولى سياسية اسلامية ، والثانية
علمية أدبية ، فزيتها السياسية انه كثيراً ما أغار على الروم وجعل ديدنه التخريب
في بلادهم ليردهم عن قصد بلاده لانهم كانوا يطمعون فيها منذ القديم ويذكرون
من تاريخها انهم حكموها طويلاً ، فكان يعمل سداً حاجزاً دون انبعاثهم الى هذه
البلاد فخدم بذلك الاسلام والعرب ، والمزية الثانية لدولته جعلها كحصرة بنى
العباس على ضيق رقعتها وذلك في الافضل على العلم والادب فكان يقصده أهل
هذا الشأن فينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويرهم بسلاته ، قال في دائرة
المعارف الاسلامية : « ان الفضل الذي احرزته سيف الدولة ابن حمدان بشهر
العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية »

ومما يؤخذ عليه تغالبه في الافصال على الشعراء والادباء ، على ان منهم كآبي
الطيب المتنبي مثلاً من فارقه بعد ان منعه الاقطاعات والانعامات الكثيرة
ليستجدي اكف كاهور في مصر . وقد اعطى سيف الدولة شاعره المتنبي ضبعة
بالمرة اسمها (صف) اقطاعاً له ، واقطع قرية (عين جارة) وهي من الضياع
الكبرى على ابن احمد بن البازيار نديمه عدا ما كان يناله من صلاته ، وذكروا ان
الناسىء الاحصى دخل على سيف الدولة فانشده قصيدة له فيه فاعتذر سيف الدولة
بضيق اليد يومئذ وقال له اعذر فما يتأخر حمل المال فاذا بلغك ذلك فاننا نضاعف
جائزتك ونحس اليك نخرج من عنده فوجد على باب سيف الدولة كلاباً تذبج

لها السخال وتطعم لحومها فعاد الى سيف الدولة فانشده هذه الايات :

رأيت بساب داركم كلابا تغذيها وتطعمها السخالا

فما في الارض ادبر من اديب يكون الكاب أحسن منه حالا

ثم اتفق ان حملت الى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاع منها بغل بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشئ الشاعر بالأحص فاخذ ما عليه من المال واطلقه ثم جاء حاب ودخل على سيف الدولة وانشده قصيدة يقول له فيها :

ومن طن ان الرزق يأتي بحيلة فقد كذبتة نفسه وهو آثم

يفوت الغنى من لا ينام عن السرى وآخر يأتي رزقه وهو نائم

فقال له سيف الدولة بحياتي وصل اليك المال الذي كان على البغل فقال نعم

فقال خذه بجائزتك مباركاك فيه

ان ما صدر عن سيف الدولة غاية في الكرم ولكنه لا يجوز في شرع العقل أن تحبى هذه الاموال من الفقراء والاغنياء لتصرف في مصالح الامة ثم يأخذها شاعر واحد ومعلوم ان العشرة آلاف دينار في القرن الرابع لا تقل قيمتها عن مئة ألف دينار في هذا القرن ولذلك قال ابن نباتة في مدح سيف الدولة وقد تبرم بكثرة ما ناله من عطائه :

قد جدت لي بالله حتى ضجرت بها وكدت من ضجر أثنى على البخل

ان كنت ترغب في بذل النوال لنا فاخلق لنا رغبة أو لا فلا تنل

لم يبق جودك لي شيئاً أو ملة تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

مثال آخر من اسراف الدولة : ذكر انه ضرب دنانير خاصة للصلوات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعاليه اسمه وصورته ، قال بعض المؤرخين في حوادث سنة ٣٥٤ فيها صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة فزوج ابنته أبا المكارم وأزوج أبا المعالي بابنة ناصر الدولة وأزوج أبا تغلب بابنته ست الناس ، وضرب دنانير في كل دينار ثلاثين ديناراً وعشرين وعشرة عليها مكتوب : محمد رسول الله ، أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، فاطمة الزهراء ، الحسن ، الحسين ، جبريل ، (وكان سيف الدولة يرى رأى الشيعة) وعلى الجانب الآخر : « أمير المؤمنين

المطيع لله الاميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة الاميران أبو تغلب وأبو المكارم ، وجاد بما لم يجد به أحد يقال أن المبلغ الذي جاد به سبعمائة ألف دينار . فما قولكم بمن يجود بهذا المبلغ في عرس وهو مبلغ جسيم لا تقل قيمته اذا قدرناه بسكة زماننا عن سبعة ملايين دينار ، ان هذا العمل ممقوت شرعاً وعقلاً لانه التبذير بعينه

ومما ذكره المؤرخون ان سيف الدولة كان مرة في بغداد فدخل على جماعة في مجلس أنسهم فرفعوا منزلته بدون أن يعرفوه وشاركهم في طربهم ، ولما تقوض المجلس طاب ورقة ودواة وكتب رقعة وتركها وانصرف ، فنظر أصحاب المجلس في رقعته فاذا هي سفتجة بالف دينار يؤديها وكيله في دار السلام فلما حملوا اليه خطه سألوه من عساه أن يكون الذي جاد بهذا المبلغ فقال لهم هو سيف الدولة بن حمدان . وكان كثيراً ما يفتقد رجال الدولة في بغداد ويتعهد بعض علمائها وشعرائها ولكن عطاياه للشعراء أحزل فقد كان يعطى المعلم الثاني أبا النصر الفارابي أربعة دراهم في اليوم أى القدر الذى يستطيع به فيلسوف الاسلام أن يعيش عيش الكفاف على حين كان يعطى ابن عمه أبا فراس ضيعة تغل الف دينار في السنة من قرى منبج جائزة عن بيت استجاده ، وأبو فراس هو الذى قال فيه الصاحب ابن عباد : « بدىء الشعر بملك — أى بامرئ القيس — وختم بملك أى دابى فراس »

وبهذا رأيتم أن المال لا قيمة له في نظر سيف الدولة . فقد ذكروا — وهو مما يعاب عليه — ان الخليفة المتقي العباسى لما استولى البريدى على بغداد استنجد ببني حمدان أمراء الموصل فطلب سيف الدولة من الخليفة مالا لينفقه في الحبش حتى يقويه ويمنع الاتراك من بغداد فاعطاه الخليفة أربعمائة الف دينار وفرقها سيف الدولة في أصحابه ثم هرب سيف الدولة ودخل « تورون » بغداد وملكها ومنها ان أما الحصين على بن عبد الملك الرقى ولى قضاء حلب وكان ظالماً فاذا مات انسان أخذ تركته لسيف الدولة وقال « كل من هلك فلسيف الدولة ما ملك » ولما مات هذا القاضى رفسه سيف الدولة برجله فيما قيل . وقال له قبحك الله كم

كنت تزين لى الظالم وذكر بن حوقل فى كلامه على بالس « مسكنة » : ان سيف الدولة بعد انصرافه عن لقائه صاحب مصر وقد هلك جميع جنده انفذ المعروف بابى الحصين القاضى فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر ولم يطلق لهم النمود فاخرجهم عن اجمال وأطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام فى دفتين بينهما شهر قلائل وأيام يسيرة ألف ألف دينار . وقال ابن حوقل أيضاً « أن نصيبين لم تزل منذ من أول الاسلام تضمن بمائة ألف دينار الى سنة ٣٦٠ فاكب عليها ابو حمدان بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى ان حمل ذلك بنى حبيب وهو بنو عم نى حمدان على ان خرجوا بذرارهم ومواسيهم وثقلهم فى اثنى عشر ألف فارس الى بلد الروم فتنصروا باجمعهم وأوثقوا ملك الروم من انفسهم بعد أن أحسن لهم المظر فى انزالهم على كرائم الصياع ونفائس المتاع فعادوا الى بلد الاسلام على بصيرة بمضاره . وعلم باسباب فسادهم : وقلوبهم تضطرم حقداً ملحق بهم كثير من الخلفين عنهم فشنوا الغارات على بلد الاسلام وافتتحوا بعض الحصون وألحقوا أسوار بعضها فى الارض وخربوا الضياع وتزايدت ثقة الروم بهم الى ان حملوا لهم الارزاق والاعطية وصاروا خاصة الملك وفتحوا له المضايق واطعموه فى أنطاكية والمصيصة وحلب وطرسوس :

هذا ما ذكره الجغرافى الرحالة بن حوقل فى أعمال سيف الدولة على انه قد وسم كتابه باسمه وقد سكت بعض المؤرخين عن ذكرها بتاتاً وأشار اليها بعضهم بصورة مختصرة قال ابن مسكويه « كان سيف الدولة معجباً بنفسه يجب أن يستبد برأيه كريماً شجاعاً محباً للفخر والبذخ . مفرطاً فى السخاء والكرم . شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بأرائه سعيداً مظفراً فى حروبه جائراً على رعيته اشتد بكاء الناس عليه ومنه .

ومن جملة بذخه أنه كان يقف على مائدته اذا أكل أربعة وعشرون طبيباً . وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم . ولقد قيل انه اجتمع لسيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع لغيره من الملوك كان خطيبه ابن نباتة الفارقى ومعلمه بن خالويه ومطر به الفارابى وطباخه كشاجم وحزان كتبه الخالديان (وهما يشبهان الاخوين الافرنسيين ليكونسكور)

والصنوبرى ومداحه المتنبي والسلامى والوأواء دمشقى والببغاء والنامى وابن
نباتة السعدى وغيرهم بل انه اجتمع ببابه ما لم يجتمع بباب أحد من الملوك بمد
الخلفاء من شيوخ الشعر ونجوم الدهر وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد
الاهتزاز بما يمدح به . ولقد أورد صاحب اليتيمة من شعراء سيف الدولة وعمن
كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدهم فى سوقه ما هو بهجة النفوس مدى
الايام ، وربما قل فى الملوك من مدح يمثل ما مدح به سيف الدولة حتى أن كلا
من أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبى الحسن على بن محمد السميساطى
قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت

وكل هذه الاجادة فى الشعراء وتخرج الرجال كانت مبعثة من وراء اعطاء
سيف الدولة للمال بدون حساب ، أجاد شعراء الشام لانهم رزقوا ملوكاً وأمراء
من آل حمدان وبنى ورقاء هم كما قال الثعالبي بقية العرب المشغوفون بالأدب
والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم . ومامنهم الا أديب
جواد ، يحب الشعر ومنتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، وبنى ورقاء
أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله أبناء ورقاء الشباني من رؤساء عرب الشام
وقوادها والمختصين بسيف الدولة ، وكان جعفر من بيت أمرة وتقدم وآداب
وكان المقتدر يجريه مجرى بنى حمدان ، وتقلد عدة ولايات وكان شاعراً كاتباً جيد
البدية والروية ، وكان يأخذ القلم ويكتب ما أراد من نثر ونظم كأنه عن حفظه
وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر مشهورة

وان بابا يقف فيه أمثال أبى الطيب المتنبي وأبى عبادة البحتري من الذين
انتهت اليهم الرئاسة فى هذه الصناعة ومثل النامي والببغاء وكشاجم والصنوبرى
وابن خالويه وابن جنى والباريار والصفيرى والناشئ والبمص والرقى وابن نباتة
والفارابى وابن كشكر اياوعيسى الرقى وغيرهم من العلماء والبلغاء والشعراء والندماء
أن باباً يقف فيه أمثال هؤلاء هو باب ولاشك عظيم . وفضل صاحبه على
الآداب جسيم

تجلت فى عهد سيف الدولة فى ديار الشام روح غريبة فى الادب العربى وظهر

بمظهر لم يسبق له عهد مثله . ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير لهم الا اذا كان على عهد الامويين . ولم تبلغنا أخبار شعرائه . وقد استفاد من هذه الحركة الأدبية القاصي والداني كان أبو بكر الخورزى في ريعان عمره قد دوخ بلاد الشام وحصل من حضرة سيف الدولة بحلب في جمع الرواة والشعراء . ومطرح الغرباء والفضلاء فاقام ما أقام بها على أبي عبد الله بن خالويه وأنى الحسن السميساطى وغيرهما من أئمة الادباء . وأبى الطيب المتنبي وابى العباسى النامى وغيرهما من فحول الشعراء بين علم يدرسه وأدب يقتبسه . ومحاسن ألفاظ يستفيدها وشوارد أشعار يصيدها . وهو أحد أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر وكان يقول : ما فتق قلبي . وصقل ذهني وأرهم حد لساني وبلغ هذا المبلغ في الاتك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت باجزاء نفسى

قام سيف الدولة بهذه النهضة الادبية وقد كاد القرن الثالث في الشام يخلو من الشعراء والادباء لانهم قصدوا بغداد عاصمة الملك وبقيت الشام بمعزل . ولم ينبغ في هذا العصر غير رجال في الحديث والمغازى والفقهاء . وضعف الادب حتى أخذ ابن حمدان بيده وأيدى المشتغلين به فكان القرنين السالفين كانا كالمقدمة للكتاب الكبير الذى صدر في القرن الرابع وشرحه نوابغ الادب العربى أحسن شرح وفيه قام أساطين الشعر أبو تمام وأبو الطيب وأبو عبادة . واليهم انتهت الزخامة في الاجادة

بلادنا بلاد الشعر . والشعر كان مبدأ دخول العرب في الحضارة . لم يحرصوا على شىء حرصهم على روايته ودرايته . وأشد ما يكثر الشعراء في أرض صح أقليمها . واعتدل نسيمها وطابت تربتها وأديمها . وصفت أمواها وسنح نيمها ، وكثرت ظلالها بأشجارها وغردت أطيارها في أسجارها وهذه الحالة على حصة موفورة في القطر الذى يتاخم جزيرة العرب من شمالها فكان شعراء الشام وما يقاربها أشعر من شعراء العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام والسبب في تبريزهم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريهم — كما قالوا — من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز . وبعدهم عن بلاد المعجم وسلامة سنتهم من الفساد العارض الا لسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومدخلتهم ايام

وإذا أضيفت الى هذه الاسباب الطبيعية أسباب أخرى من تشييط ملك
واعجاب أمة بعمل العالم أو الشاعر والكتاب تمتحت القرائح وتجلى نبوغ
الافراد في أجمل مظاهره ، كما جرى في أيام سيف الدولة الذي يشبه من كثير من
الوجوه لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، هذا مع اعتبار الفرق بين العصرين ، فان
ابن القرن التاسع لا يتأتى ان يكون مثل ابن القرن التاسع عشر وابن غربى آسيا
لا يصح بحال من الاحوال أن يشبه ابن غربى أوروبا ، ولكن الرجال قد يتشابهون
على كل حال ووجه الشبه ظاهر بين الملكين ، ولا سيما فيما يتعلق بالمعارف والآداب
ولكن عمل لويس الرابع عشر اتصل بعده وما زال في نمو وعلو ، وعمل سيف
الدولة زال — وبالأسف — بزواله ، وهذا أهم فرق بين هذا الشرق وذاك
الغرب ، هناك يتسلسل الفكر قرونًا ، وهنا ينقطع ويتحول ، هناك تتناول
الجماعات بعد الافراد فتحسنه وتزيد فيه ، وهنا يدفن مع صاحبه ولا يبقى غير
تذكاره ، فعاش الشرق بالفرد وعاش الغرب بالجماعة

لو أنهم سيف الدولة ان يقتصد قليلا من جوائز الشعراء فقط ، خل عنك
سائر اسرافاته ، ويعمل فيها عملا بكل أمره الى أبقاء الاجيال التي جاءت بعده ،
لاثر وحده في مدينة الشام أكثر من تأثير الرومان واليونان ، ولما نسى اسمه
« الا من دواوين الادب واسفار المحاضرات ومن قام أمره بالاستبداد ولم يحفل
بآراء أصحاب الرأي تضحل سلطته عند أول عارض داخلي أو خارجي
يعرض لها :

ان سيف الدولة مثل الاستبداد الممزوج بالعقل وحب الادب والشعر لانه
كان شاعراً مجيداً ، جيد الطبع . كريم النفس ، وكانت فائدته الشخصية أقل من
فائدة الآداب عامة على يده ، وجعل الشهباء مركز دائرته فأصبحت في سنين قليلة
عاصمة الآداب فاورثنا شعراء سيف الدولة وأورثوه مجداً لا يبلى على وجه
الدهر جديده اه

بين دمشق والقاهرة^(١)

سادتى الاخوان

بمعجز البيان عن توفية صداقتكم حقها ، ومقابلة عواطفكم الجميلة بمثلها ، فقد كسوتهم وطنيكم هذا حلة تقصر عنها قامته ، وظهر احساسكم الشريف في مظهر انساء ما لقيه من المشاق في سبيل الوصول الى حماكم ، فدمتم ودامت عوارفكم كهفأ يلجأ اليه في الملمات ، وعلم نور يستضاء به في الظلمات ، ولقد كنت بيت العزم منذ شهرين أن أزور مصركم في الشتاء المقبل لالتقى من خلفتهم فيها من خالص الاصدقاء مصريين وعثمانيين ، ولكن قضت الاقدار أن أهبط مصر في صيفها وأهلها يرحلون عنها على ان مصر حلوة في فصولها الاربعة لان السر في السكان لا في المكان كما كنت أود أن أشحص اليها من طريق البحر المطروق في ست وثلاثين ساعة موفوره لى أسباب الراحة لا أن أوافيها من طريق البر المهجور على مطية اقضى في السير والسرى من دمشق الى القاهرة أربعة عشر يوماً ، وألقى فيها من فقد الراحة ما يلقاه في العادة السفار في القفار

ان ما حملنى على انتيابكم في هذه الحال تعرفونه باجمعكم وليس ببدع ان ينال مثله كل من يتصدى لطلب الاصلاح وينشد الحق والعدل في بلاد حكمت قرونا بالاستبداد ولم تكتب لها السلامة منه ، ومن ابتلى بذلك يستطيب الاذى اذا انتج عمله نقماً لاخير العام

قصيت في الشهر الفائت ثلاثة وعشرين يوماً في زيارة مدينة الرسول وآثار وادى موسى أو المتراء المعروفة بالعربية الصخرية وبلاد ما ب أى الكرك وأرض الشراة التى كان يسكنها بنو العباس في أيام بنى مروان ومنها خرجوا بالدعوة لدولتهم وأرض البلقاء التى كانت مصايف لبنى أمية أيام حكومتهم في دمشق وغير ذلك من الاقاليم قى أقصى حدود بلاد الشام الجنوبية ومن هذه الاقاليم ما وصل اليه الخط الحجازى ومنها ما يقصد اليه على الدواب ، فلما عدت الى دمشق استريح

(١) وهي محاضرة القياها في رل ادن بالاس (قصر عدن بالقاهرة) على جمهور من السوريين والمصريين

من وعساء السفر فاجأتني الحكومة المحلية بما عودتنيهِ أيام الحكم المطلق والحكم المقيد ، من خرق قانون الحرية الشخصية والفكرية ، ومحاولة النيل مني بلاموجب سميت وطائفة من أصدقائي في سورية بعد انتشار القانون الاساسى ان يكون في بلادنا دستور حقيقى يستمتع به العثمانيون على اختلاف عناصرهم ونحلهم ، ولكن الفئة المتغلبة على الحكومة فى الاستتانة والمرسلة بصنائعها الى الولايات أبت وخصوصاً بعد سقوط وزارة رجل السياسة العثمانية كامل باشا الا ان يكون الدستور استبداداً في صورة حرية فكنا كلما طالبنا بمطلب من مطالب الاصلاح الطفيف أتهمونا أنواع التهم بل كنا معهم كما قال ابن أبى طالب « كراكب الصعبة ان أشنق لها خرم وان اسلس لها تقجم » فالحكومة بل الحاكم الذى كان يرهقنا زمن الاستمداد ويشردنا على اننا نأقون على حكومة الخلوغ حتى اصطررنا ان انقضى أربع سنين فى هذا القطر فراراً من الحيف عاد فى الدور الذى يدعونه بالحرية يرمينا بالارتجاج ثم بالدعوة لانكلا ثم بالدعوة لحكومة عربية الى غير ذلك مما يختلقون من ضروب الافتراء الذى لا يستنكف كل ضعيف فى حكومة هذا الشرق التمس من أن يلصقه بمن لا يقدر على حجاجه بالرهان اذا دله على عيوبه ليتقيها ونصح له بالاعتدال لتطول ايامه ولا تساوره اسقامه

فى مثل هذه الحالة يسارع مثلى الى الهرب من وجه الظلم اذا لا قانون هناك يأحد للضعيف من القوى وما القانون عندهم الا هوى النفوس ، ولا رواج الا لازور والنفاق ولا عجب فقد قال ابن خلدون ان الدول اذا تنزهت عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ، ولم تجر عن قصد السبيل ، تفق فى سوقها الابريز الخالص ، واللجين المصفى ، وان ذهبت مع الاغراض والحقود ، وماجت بسامسة البغى والباطل ، تفق البهريج والزائف

ولذا أرسلنا ساقينا للريح ساعة بلغنا ان الحكومة المحلية فى سورية تريد القبض علينا على نحو ما قبضت على شقيقنا احمد المدير المسئول لجريدة المقتبس غمرنا (يوم ١٧ نيسان (ابريل) ١٩١٢) بدون ريث بين حدائق صالحة دمشق حتى بلغنا الزاوية الغربية الشمالية منها فى المكان المعروف بقبة السيار ، ومنها قصدنا الى دمر من طريق الجبل مشياً على القدم ثم انصرفنا من دمر الى المزة بالتصعيد

في الجبل أيضاً وهناك اختبأنا في إحدى قرى وادى العجم أياماً حتى تهيأت لنا أسباب الهزيمة على حصان في صحابة صديق لنا قديم رافقنا من أقصى حدود وادى العجم فمررنا من طريق معوج اخترنا فيه أرض المزة وبلاس والاشرفيه وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب ثم دير المدس والحارة من قرى أقليم الجيدور المعروف عند الافرنج بايتورة حتى بلغنا النقرة من بلاد الجولان التي يسميها الفرنجة غولانيتيد فرقدنا بالقرب من نهر الرقاد وكنا هومنا في الليلة الفائتة على مقربة من نهر الاعوج المعروف في الكتب المقدسة باسم فرفر من عمل وادى العجم

وفي الجولان اتصلنا بجماعة من تجار الابل ذاهبين الى مصر فسأيرناهم وقطعنا سهول الجولان ومراعيه وبقنا في الليلة الثالثة دون عقبة فيق ومن الغد هبطنا العقبة وهي لا تقل عن ساعتين وأعد من أعظم عقاب بلاد الشام ومنها يشرف المرء على أراضي الغورغور بيسان وبحيرة طبرية ونهر الشريعة أي الاردن وليس على هذا النهر العظيم سوى جسر قديم متداع وجسر بنات يعقوب فقطعنا الاول سباحة على الدواب ثم توقلنا الجبل الى موقع الدلايكة وهو واد بين جبلين منفرحين متآزبين من عمل طبرية عاصمة الاردن القديمة بل عاصمة الجليل أصبح أكثره ملكاً للصهيونيين من مهاجرة الاسرائيليين الاوربيين يستنبتونه ويستثمرونه على طريقتهم المتعارفة في ديار الغرب حتى لقد تحس للحال بالمرق بين زراعة الوطنيين وزراعة المهاجرين فقريه بما ملكهم أرقى بزراعتها مرات من قرية كفرسبت وسكان هذه من مهاجرة الجزائر فبقنا تلك الليلة في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة وفي سفوح جبل الطور المشهور في التاريخ المسيحي

وفي اليوم الرابع اجتزنا غابة غيباء من شجر البطم فرأيناها آيلة للاخراب كما تقول الآن غابات الشام كلها اللهم الا ما كان من غابات لبنان التي تزيد ولا تنقص وقطعنا هذه الحراج في ساعة ونصف حتى بلغنا قرية دبورية وفي منقطع أرض هذه الدسكرة بيتدىء مرج بن عامر أو سهل يزرع عيل المذكور غير ما مرة في التوراة . قطعناه بالعرض في أربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ومنها دخلنا في وادى عارة من عمل نابلس وطوله ثلاث ساعات وهو ضيق النطاق متوارى الاضلاع.

حصب الرباع وفي آخره كان آخر عهدنا بجهال الشام اذ لم نعد نرى بعمده جبلا يذكر حتى بلغنا أرض مصر في جهات العريش وقطية فلمحننا عن بعد جبلا في الرمال يسمونه جبل الحلال وبتنا الليلة الخامسة في عيون الاساور على ساعتين من قيسارية^(١) وهي قرية يسكنها مهاجرون من الموشناق وكانت من المدن الكبرى العامرة في القديم . وفي اليوم السادس اجتزنا قرى بلاد نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة حتى بلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا وعنده حططنا رحالنا وطريق هذا اليوم والذي قبله عامر بالحبوب ويكثر الزيتون في بلاد نابلس احدى أمهات مدن السامرة من كور فلسطين^(٢) وتقل المياه حتى يضطر الاهلون أن يستقوا من أما كن بعيدة . وفي اليوم السابع اجترنا بقري الساحل أمثال جبنة ، سدود ، مجدل ، بربرة ، بئر هديهد ، غزة وقصينا الليل في دير الملح وفي اليوم الثامن بدأ سيرنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة وبعد أن سرنا ست ساعات دخلنا في رفح أول حدود مصر والشام وقد كانت تنتابني الهواجس تلك الليلة أحاذر أن أقع في يد عدو للحرية أو أن أجالس من يستدل بذكائه على انى لست من تجارة الابل في العير ولا في الفير أو لا ناقة لى في دالك القطيع ولا جل فما فتحت عيني قبيل الفسق الا وأنا أنشد بيت المتنبي

تدير ذى ححك يفكر في غد وهجوم غر لا يخاف عواقبا

فتفاءل خيراً بالنجاة وان كنت لأحب التفاؤل ولا التشاؤم ولا أبني
اعمالى على الاحلام والمرائى ، حتى اذا قيل لى ها أنت في رفح تدوس تربة مصر
قلت ما أحرأها أن تدعى فرحا لا رخاً ليكون لسكلى شىء من اسمه نصيب ،
ولا غرو فليس أحلى من النجاة على من كان يتوقع الخطر ، أو من الوصل على من
ظال به السهاد والسهر

(١) قيسارية بفتح أوله واسكان ثابيه بعد سين مهمله وألم وراء مهمله مكسورة ثابيه احت
الواو محممة غير مشدودة وهاء التأنيث من تغور الشام حاصرها معاوية سبع سنين الا شهرا وفتحها
وبعث بفتحها الى عمر فقام عمر رضي الله عنه فمادى الا ان قيسارية قد فتحت قسرا — قاله الكري
في معجم ما استمعجم (طبع المانيا) (٢) في زهرة المشتاق للشريف الادريسي . اما حدود فلسطين
وهي اول احواز الشام وحدودها مما يلي المغرب مقدار اربعة ايام وذلك من رفح الى اللجون وعرضه
من يافا الى ربحا مسيرة يومين وديار قوم لوط والبحيرة المنته ورغر الى بيسان والبرية تسمى الغور
لأها بقعة بين جبلين .

ومن عجيب ما لاحظته في أراضي فلسطين انى شهدت لحكومتها بعض أثر من عمل مثل انشائها بعض الجسور على الاودية في حين لم أر عملاً عمرانياً في ولايتي سورية وبيروت كأن مجاورة لواء القدس للأراضي المصرية عدت فلسطين أو القسم الاعظم منها من ارتقاء بلاد الفراعنة فصحت عزيمة حكومة القدس على ان تمد جسوراً على الاقل وتعمد الطرق بعض الشيء لا جرم ان العلى تعدى كما قال أبو تمام ، ولقد كنا كلما اقتربنا من غزة نحس بتغير المشاهد في بلاد أشبه بهوائها ورياعتها بالبلاد المصرية والناس يكادون يشبهون سكان الصعيد بالبستهم ولهجاتهم وهذا من عدوى الجوار وكثرة اختلاط المتجاورين من سكان القطرين فانك كما ترى جمهوراً كبيراً من جالية المصريين في يافا وغزة هكذا تجد الجيز والموز من أشجار البلاد الحارة شائعين في صقع غزة

دخلنا اليوم التاسع في رمال ولم يكن يتغير شكلها خمسة أيام متوالية الى أن قالت الامم اعيلية ها أنا ذه . وهذه الرمال كانت تعرف قديماً بالجفار جمع جفر وهي البئر القريبة القمر الواسعة لم تطو قال ياقوت وهي أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبي متصلة برمال تيه بنى اسرائيل والخشبي بينه وبين القسطنطينية ثلاث مراحل كما في معجم البلدان وبه خان وهو أول الجفار من ناحية مصر وآخرها من ناحية الشام قال أبو العز مطهر بن ابراهيم بن جماعة بن علي الضرير العيلاني معتذراً عن تأخره لتلقى الوزير الصاحب صفى الدين بن شكر وكان قد تلقى الى هذا الموضع

فالوا الى الخشبي سرنا على لهف نلقى الوزير جموعاً من ذوى الرتب

ولم تسر قلت والمولى ونعمته ما خفت من تعب ألقى ولا نصب

وانما النار في قلبي لغيبته نختف أجمع بين النار والخشبي

وكل الجفار رمال سائلة بيض في غربيها منعطف نحو الشمال بحر الشام وفي

شرقها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم وسميت الجفار لكثرة الجمار بارضها ولا

شرب لسكانها الا منها وكان فيها لعهد ياقوب نخل كثير ورطب جيد وهو ملك القوم

متفرقين في قرى مصر يأتونه أيام لقاحه فيلقحونه وأيام ادراكه فيجننونه وينزلون

بينه باهاليهم في بيوت من سمف النخل والحلفاء ، وفي الجادة السابلة الى مصر

عدة مواضع عامرة يسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل ، وهي رفح والقس والزعقا والعريش والورادة وقطية وفي كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين^(١) قال المهلبى واعيان مدن الجفار العريش ورفح والورادة والنخل في جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان (اما نحن فلم نر كرمًا ولا رمانًا ولا دكانًا ولا خانًا) وأهلها بادية متحضرين ولجميعهم في ظواهر مدنهم أجنة واملاك واخصاص فيها منهم كثير ويزرعون في الرمل زرعًا صعيقًا يؤدون فيه العشر وكذلك يؤخذ من ثمارهم ، ويقطع في وقت من السنة الى بلدهم من بحر الروم طير من السلوى يسمونه المرغ (والمرغ هو الطير بالفارسية) يصيدون فيه ما شاء الله يأكلونه طريًا ويقتنونه مملوحًا ويقطع أيضًا اليهم من بلد الروم على البحر في وقت من السنة جارح كثير فيصيدون منه الشواهين والصقور والبواشق وقل ما يقدرون على البازي وليس لصقورهم وشواهينهم من القراهة ما لبواشقهم وليس يحتاجون لكثرة أجنثهم الى الحراس لانه لا يقدر أحد منهم يعدو على أحد لان الرجل منهم اذا أنكر شيئًا من حال جنانه نظر الى الوطاء في الرمل ثم قفا ذلك الى مسيرة يوم ويومين حتى يلحق من سرقة ، وذكر بعضهم انهم يعرفون اسر وطاء الشاب من الشيخ والابيض من الاسود ، والمرأة من الرجل والعاتق من الثيب فان كان هذا حقًا فهو من أعجب العجائب

قلت وبعض ما قاله هذا المؤرخ من الاستدلال بالاقدام على الاشخاص صحيح والوطء يبقى أثره في الرمل اياما وليس من الصعب أن يتأثر المرء هنا من استباح جنته فانه اذا علا نشزا من هذه الرمال وهي عبارة عن تلمات ومنعرجات ومنعرجات وأحاديير لا يلبث أن يشاهد السائر من مسيرة ساعات . وفي اليوم العاشر اجتزنا بالعريش وهو من البحر الابيض على نصف ساعة فالمسعوديات على الساحل وفي الحادى عشر نمنا بالمزار وفي الثانى عشر بالجنادل وفي الثالث عشر بابى العفين وفي الرابع عشر مررنا بالقطية وبتنا بعراض ، وفي الخامس عشر بلغنا الاسماعيلية بالقاهرة .

(١) قال المقدسى فاما الجمار فقصبتهما الرما ومدنها البمارة الورادة العريش وأما الحوف فقصبتهما بابيس ومن مدنها مشتول جرجير فاقوس غيما دبقوقنة بريم القازم

هذا هو الطريق الذي كان يطرقه المصريون والشاميون منذ عرف التاريخ وكثيراً ما كان بعضهم يؤثرونه على ركوب المراكب والسفن الشراعية لما كان فيها من الاخطار أيام لم يكن المخار ، يسير مراكب البحار . قطعناه في أربعة عشر يوماً وكان أجدادنا يقطعونه في أربعة أيام على خيل البريد ، ومن هذا الطريق سار عمرو بن العاص سنة ١٩ للهجرة لفتح مصر فنزل العريش ثم أتى الفرما وبها على رواية البلاذري قوم مستعدون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم ومضى الى القسطنطينية ، والفرمى أو الفرما كان حصناً على ضفة البحر يحمل اليه ماء النيل في المراكب من تنيس ويخزن أهله ماء المطر في الجباب ، وكان بعض أهلها قبطاً وبعضهم من العرب وقد ورد ذكرها كثيراً في شعر أهل القرون الاولى وفي الفرما أرق الخليفة المأمون رضى الله عنه لما سار الى مصر فبات فيها وقد ذكر بغداد ونعيمها وقصورها فقال

لليلة كان بالميدان اقصر منه بالفرما

غريب في قري مصر يعانى الهم والسدما

والميدان من أحياء دار السلام والسدم الهم مع الندم والحزن ذكر المقرئى ان الدرب الذى يسلك فيه الى مصر في القرن التاسع للهجرة لم يحدث الا بعد الخمسمائة من سنى الهجرة عندما انقرضت الدولة الفاطمية . وفي المسالك والممالك أن الطريق من دمشق الى الكسوة اثنا عشر ميلاً (كذا والميل بحسب اصطلاحهم ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمى والذراع أربعة وعشرون أصبغاً والأصبع أربع شعيرات ظهر واحدة الى ظهر الاخرى والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل) ثم الى جامع بلد أبى تمام الطائى أربعة وعشرون ميلاً ثم الى فيق أربعة وعشرون ميلاً ثم الى طبرية مدينة الاردن ستة أميال ومن طبرية الى اللجون عشرون ميلاً ثم الى القلنسوة عشرون ميلاً ثم الى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلاً والطريق من الرملة الى أزدود (؟) اثنا عشر ميلاً ثم الى غزة عشرون ميلاً ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلاً فى رمل ثم الى الواردة ثمانية عشر ميلاً ثم الى أم العرب عشرون ميلاً ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلاً ثم الى جرير ثلاثون ميلاً ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلاً ثم الى مسجد قصاعة ثمانية عشر ميلاً ثم الى بلبس

أحد وعشرون ميلاً ثم إلى المسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً فهذه ثلثمائة وخمسة وستون ميلاً تبلغ نحو سبعمائة كيلو متر

وكان الدرب المسلوكة من مصر إلى دمشق من بلبس إلى الفرما في البلاد التي كانت تعرف ببلاد السباخ من الجوف ويسلك من الفرما إلى أم العرب وهي بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والواردة فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية في سنة تسعين وأربعمائة أغار بغدوين صاحب الشوبك على العريش وهو يومئذ عامر نزل السفر حينئذ من مصر إلى الشام وصار يسلك على طريق البر مع العرب مخافة الفرنج إلى أن استمقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدي الفرنج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فصار يسلك هذا الدرب على الرمل إلى أن ولي ملك مصر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فأشأ مدينة الصالحية في سنة أربع وأربعين وستمائة فلما ملك الظاهر بيبرس البندقداري رتب البريد في الطرقات حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام ويعود في مثلها فصارت أخبار الممالك ترد إليه في كل جمعة مرتين ويتحكم في ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة واتفق في ذلك مالا عظيماً حتى تم ترتيبه وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة

وما زال أمر البريد مستمراً فيما بين القاهرة ودمشق يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيل المعدة للركوب وتعرف بخيل البريد وعندها عدة سواس وللخيل رجال يعرفون بالسواقين واحدهم سواق يركب مع من رسم ركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني وتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهامه وتارة يركبه من يريد السفر من الاعيان بمرسوم سلطاني قال صاحب الخطط وكانت طريق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الامن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبي أهلها وحرقت أهلها سنة ثلاث وثمانمئة خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما

نزل بالبلاد من المحن عن اقامة البريد فاختل بانقطاعه طريق الشام خلا فاحشا
قالوا والبريد خيل تشتري بمال السلطان ويقال لها السواس والعلوفات وهى
مقررة علي عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر الى
كل مركز أصحاب النوبة بالخييل فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم وهم لهذا يسمون خيل
الشهارة وعلى الشهارة وال من قبل السلطان يستعرض فى رأس كل شهر خيل
أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالداغ السلطانى ، وقد أنشأ أمراء مصر وملوكها
مثل كريم الدين وكيل الخصاص الناصرى والملك الاشرف خليل ونغر الدين كاتب
الماليك وناصر الدين الدوادار التنكزى وطاجار الدوادار وكافل الشام الطنبغا
والظاهر بيبرس البندقدارى وغيرهم خانات ورباطات وفنادق ومساجد وآباراً
ودساكر لآبناء السبيل وكان الطريق فى بعض الادوار يتحول قليلا من أول
الكورة الى آخرها ولكنه لم يخرج قط فى كونه من مصر من الغرب الى الشرق
ثم يعرج فى بلاد الشام نحو الشمال قليلا حتى دمشق

وكان حمام الزاجل الذى هو بمثابة تلغراف أجدادنا يسير من القاهرة الى
بلبيس ومنها الى الصالحية ومن الصالحية الى قطية ومن قطية الى الواردة ومن
لواردة الى غزة ومن غزة الى القدس ومن غزة الى نابلس ومن غزة الى لد ومن
لد الى قاقون ومن قاقون الى جينين ومن جينين الى صفد ومن جينين الى بيسان
ومن بيسان الى اربد ومن اربد الى طقس ومن طقس الى الصنمين ومن الصنمين
الى دمشق

وكان الثلج ينقل على الهجين من بلاد الشام الى حضرة السلطان بقاعة الجبل
بالقاهرة وقد جاء زمن وهو لا يحمل الا فى البحر خاصة — كما جاء فى التعريف
بالمصلح الشريف — ومن الثغور الشامية بيروت وصيدا ويفرض على البقاع
وبعلبك ارفادها فى ذلك وكان يسيرا فكثروا وقرر منه على طرابلس مما استقر على
جبة بشرى والمنيطرة من عمل لبنان اليوم . والمركب تأتى دمياط فى البحر ثم
يخرج الثلج الى الشرايحانات الشريفة ويخزن فى صهريج أعد له وأصبح فى القرن
الثامن يحمل فى البر والبحر ومدة ترتيب حملة من حزيران (يونيو) الى آخر
تشرين الثانى (نوفمبر) وعدة نقلاته فى البر ٧١ نقلة متقاربة مدتها بينها . وقد

صار يزيد على ذلك ويجهز بكل نقلة بريدى يتداركه ويجهز معه ثلاث خبير بحمله ومداراته يحمل على فرس برید ثان ، والمرصد فى كل نقلة خمسة أحمال والمستقر فى كل مركز له ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان قال العمرى : ولا يصل الثلج متوفراً الا اذا أخذ الثلج المجلد وأجيد كبسه واحترز عليه من الهواء فانه أسرع اذابة له من الماء وكذلك كانت المناور مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار للاعلام بحركات العدو وقد أرصد فى كل منور الدياتب والنظارة لرؤية ما وراءهم رايراء ما امامهم وهى من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى ان المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم بها عشاء . وهذه المناور بدخانها ونيرانها أشبه بالهليوستاوالابجكتيف لعهدنا

هكذا كان طريق مصر الى القرن التاسع للهجرة وهذا أقصى ما بلغته مدنية القوم فى أسباب النقل والراحة وينزل اليوم فى هذه النفود أى الرمال المترامية كما يسميها العرب أناس من عرب مصر يرجعون فى أصولهم الى بطون وأنفاذ معروفة عندهم تعرفهم لسيماهم ضئال الاجسام صفر الوجوه على نحو ما وصفهم واصفوهم فى القرون الوسطى وهم شاوية بقومون على تربية الشاء ولهم جمال قليلة وزروعهم فى الأكثر الشعير فى الشتاء والبطيخ فى الصيف ولهم نخيل قليل فى بعض واحاتهم وبالقرب من سبخاتهم ولا حجر فى ديارهم يبنون به بيوتهم ، ومساكنهم حقيرة يصنعونها من الخوص فلاهم بادية بأوون الى الخيام ولاهم حضر كالعرب النازلين منذ القديم فى ريف مصر كالفيوم والشرقية وغيرها من مديريات القطر مثلاً ولهجاتهم أقرب الى لهجة سكان جنوبى الشام منها الى اللهجة المصرية ومن فلسطين يكتبون ، وفي فلسطين يقضون شطراً من السنة فى رعى أغنامهم وماعزهم ولم تعمل الحكومة المصرية شيئاً لارتقائهم سوى انها نشرت اعلام الأمن على ربوعهم ، ولذلك ترى تجار الابل يأتون بها من بلاد نجد والجزيرة والشام ولا يزالون يحاذرون اعتداء السراق عليها حتى يبلغوا رفق وعندها يوقنون بانه لا يضيع لهم فى تلك البادية عقاب بعير وكان عرب هذه النفود من قبل مثلاً سائراً فى الاعتداء على السابلة وهم اليوم معفون من الضرائب والخدمة العسكرية وغريب كيف لا يناهم قسط من مدنية مصر فخرموا كاحرموا

الاستمتاع بماء النيل العذب وتربة واديه الممرعة

هذه النفود هي الحد الطبيعي بين مصر والشام بل الحد الصناعي الذي اصطلحت عليه مؤخراً الحكومتان المصرية والعثمانية في رفح والعقبة بل الحد الفاصل بين قارتي آسيا وافريقية لم يحل في كل الازمان دون اختلاط أهل هذين القطرين الشقيقين ومن قرأ تواريخ الجبرتي وابن اياس والسخاوي وابن حجر والغزى وغيرهم يدرك ان هجرة السورى الى مصر ترد الى مئات من السنين ومن بحث في أنساب من تولوا أعمال الحكومة المصرية وشاركوا مصر في سعادتها ونحوسها من العلماء والتجار والصناع يجد فيهم كثيراً من الشاميين وكذلك الحال في المصريين ببلاد الشام فلا عجب اذا كان حظ مصر والشام واحداً في السراء والضراء ، وعلائقها الاقتصادية موفورة مستحكمة ، وليس اعلق بالقلوب من الصلات المالية . وانا لثرى الشام أمس واليوم وغداً تتأثر لاقل أزمة مالية في مصر كما ان هذه تتأذى من العوارض السماوية أو الارضية كلما اجتاحت الشام، فمصر والشام هما قطران بالاسم ولكنهما بالفعل قطر واحد جرى الاصطلاح على تسمية كل منهما باسم وكل منهما متمم لصاحبه حتى لقد سئل أحد عمال الدولة العثمانية في القرن الماضى عن رأيه في القطرين فقال مصر مزرعة حسنة والشام مصيف جميل

واذ قد عرفنا ان أجدادنا أحسنوا الانتفاع من مجاورة القطرين العزيزين ساع لنا ان نطالب في هذا العهد بزيادة أواخى الاخاء بينهما من طريق البر على نحو ما هي عليه من طريق البحر فيسمى العقلاء من الممالين الى نيل امتياز يربط عاصمة الشام بعاصمة مصر بخط حديدي عريض حتى يأتى الراكب في أربع عشرة ساعة بدلا من أربعة عشر يوماً واذا أحب القائمون بالامر الاكتفاء بوصول السكة الجديدة مع أقرب الطرق الى مصر فما عليهم الا ان يكتفوا الآن بإيصاله الى القدس وهذه ستتصل هذا العام بخط حيفا مبدئاً السكة الحجازية من محطة العفولة والمسافة بينهما لا تقل عن مئة كيلومتر تمد على نفقة ادارة الخط الحجازي ، ومعلوم ان حيفا مرتبطة بدرعا ودمشق وعندها يسهل على ابن مصر الاصطياف في جبال

الشام وتبعث هذه بحبونها وثمارها وترسل مصر الى الشام بشيء من مدنيتهما وعلومها وانتظامها ويخلص كل من يريد أن يخلص الى مصر من هذه الرمال الموحشة المرعشة والمفازة المدهشة المعطشة التي تعوذ منها كل من اجتازها وقاسى الامرين من مائها البشع المر المهوع المتروح ولولا انى تسليت عن الماء كل والمشرب في الايام الخمسة التي قضيتها في اجتياز هذه المفاز بما سمعته من أحاديث رفاقي العرب في الابل حتى صرت كأنى بعض رعاتها اطلال على أمرها ولكنى حملت النفس على انه تتعلم الصبر من تلك الجمال وطبقت فيها بالعمل ما قرأته بالنظر أيام الطلب من مصطلحات العرب في ابلهم وحدائهم فصار مذهبي ولا نخر جماليا بعد ان كان جماليا ، وعلمى بالاباعر عمليا وكان من قبل نظريا

وكان رحلتى في الشهر الماضى الى الحجاز وجنوبى الشام ونزولى على أهل البادية من أهل المدر والوركات مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مواكلة الاعراب في صحفة واحدة والتخلى عن الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والاكل من أطعمتهم وهى الثمن أرز العراق والبرغل جريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة أو على الصاج يسجر ببيعر الاباعر ، والادام في هذه الايام يخالطه رمل وهذا يدخل في كل مأكول ومشروب تسفوه الرياح طوعا أو كرهاً ولقد صدق الواصفون منذ القديم لهذه الجفار بان « الخبز اذا أكل يوجد الرمل في مضغه فلا يكاد يبالغ فيه »

وانى أحمد الله اليكم على انى قضيت أيام هذه الرحلة ولياليها برمتها لم أطالع فيها جريدة ولا مجلة ولا كتاباً ولا وقعت عينى على ورقة ، ولا مسكت قلماً ولا كتبت محاضرة ولا مقالة ولا نكتة ولا قيدت شاردة ولم أسمع غير حذاء الابل وغناء الاعراب ولم يصل فكرى الى أبعد من عمل القهوة البدوية وأكل التمر ولم يبلغ أذنى غير أحاديث الابل فاصبحت والله المنة استعذب ترداها استعذابى لترديد أخبار المدينه . ومن نعم المولى على انى رأيت صورة مصغرة من عيش أهل جزيرة العرب تمشى بين بلاد الشام ومصر ، ودرست نموذجاً صالحاً من أخلاق العرب بالاختلاط بتجار الجمال ورعاتها ممن كانوا يختلفون الينا ونختلف اليهم كل مساء وصباح فلم أسمع كلمة هجر وبذاء وتجديف قط ، وما تبينت في أخلاقهم الا

الجد الذي ليس وراءه جد ، والعزيمة التي تخور أمامها العزائم ، والبحث على الدوام فيما هم بسبيله من التجارة والعناية برعية ابلهم والقيام على صحتها فكان وجود السبط والارطة والقطف والحط من العريش الى قطية فالاسماعيلية وغير ذلك من الاشواك والاعشاب كالشيخ والتم التي تستطيبها انعامهم أهم لديهم من كل حديث ، واشهى لقلوبهم من كل نعمة ، وافعل في نفوسهم من كل نعمة من نعم الجمال والكمال

قضيت ويا لسعادتي أسبوعين كاملين في عالم الابعار والبعران ، والابل والحوار والبطين والبطنان والكثيب والكثبان وشين وزين وترد وتصدر وندلج ونسرى ونشد ونمرخ ونضحى ونعشى وغير ذلك من فصيح العربية الباقية على أسلات ألسن أولئك العرب الاميين ولو أردت أن استوفى ما سمعته من هذا القبيل لاستغرق مجلداً برأسه وما أحلى ما سمعته من أحدهم وهو يقول لصاحبه يافلان خذ من فلان كذا جنيهاً وأنت الفالج أى الرابع من الفلج وهو الظفر وكيف لا أؤخذ بما وعيت ورأيت وأنا طول هذه الفترة لم أسمع نغمة ولا غيبة ولا شهدت كذباً ولا منكرأً وكان أولئك الاعراب باجمعهم مواظبين على صلواتهم بدون تكلف يتيممون يوم يقل مأوهم ، ولا يسرفون فيه اذا وجد . أخلاق طاهرة متينة ما كنت أظنها باقية في البادية وأرجو أن لا تفقد بتاتاً من أهل الحضر ولو تهاً لسكان اليمن ونجد خاصة شيء من المدنية الصحيحة لفاقوا ولا جرم الانكلير السكسونيين باخلاقهم وأناتهم ورويتهم ، وانى لما خبرت القوم أيقنت بفساد القضية التي وضعها أحد الباحثين في أصول الشعوب من أن الطيش والرعونة والفسق تغلب على سكان البلاد الحارة ومع ان بلاد هؤلاء الاعراب من الاقاليم الحارة جعلت منهم التربية الدينية المعتدلة أهل اعتدال وكمال ورجال مال وأعمال هذا وقد أطلت حواركم حتى خفت عليكم التبرم بحديثي وانى حامد شاكر لكل ماتم على لا يقانى يان الحوادث أكبر معلم ولولا الحادثة الاخيرة في دمشق لما تيسر أن أبلغ مصر من شرقها وان أستمتع بلقياكم الآن وأرجو أن يدوم لى هذا الاستمتاع ولكن على شرط أن يقيض الله للبلاد العثمانية من يغار على مصلحتها وينقذها من سقطتها . واسأل قاهر الجبابرة والسلاطين أن يمن علينا بنعمة الراحة أجمعين

مدن العرب^(١)

يظن بعض الجاهلين أو المتجاهلين لحسنات المدنية الاسلامية أن العرب إبان عزمهم لم يأتوا شيئاً يذكر في أعمال العمران ، وان قصاراهم ان تلقفوا بعض المدنية الفارسية واليونانية وتمتعوا بها بضعة قرون ثم نقلوها الى من بعدهم من أمم المدنية الحديثة في الغرب . ويقول بعضهم انهم كانوا في فن البناء دون الرومان ، وان قصورهم الباقية لا تشهد بتفنن عجيب في الهندسة على ان الباقي من آثارهم الى اليوم في الاندلس ومصر والشام والعراق وفارس والهند شاهد ابد الدهر بابطال دعوى المدعين وما يحيك في صدورهم من الالهواء

ولقد رأينا بعضهم يتوكأون في الحظ من اقدار العرب في العمران على الفصل الذي عقده ابن خلدون في مقدمته في « ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان أسرع اليها الخراب » الذي قال في آخره : « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فالبن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار ، وعمران العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ، وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتمائيل البناء وشواهد القرى والمدامر »

هذا ما يحتجون به ولو علموا ان مقصد ابن خلدون بالعرب هنا البدو أو البادية أو العربان الرحل كما نسميهم لعهدنا لارتفع كل اشكال والا فان المدن التي مدنها العرب أيام عزمهم ، والامصار التي مصروها ، والقرى التي عمروها ، لا تدخل تحت حصر في كل قطر دخلوه ولو أياماً مما لم يتيسر لغيرهم من الامم كالترك مثلاً الذين حكموا الاقطار الواسعة العامرة بطبيعتها ستمائة سنة ولا تكاد تعرف لهم

مدينة أسسوها ، ولا مواتاً أخصبوه ، ولا ماء أسالوه ، وشغلهم الشاغل حروب وغزوات . هكذا مضوا أيام القوة وهكذا الحال زمن الضعف

ومن قرأ كتب وصف البلاد تجلى له مقدار عناية العرب ببناء مدنهم ، خذ لك على سبيل المثال ما رواه الاقدمون في كيفية بناء سامرا أو سر من رأى احدى المدن العباسية التي أشتت على دجلة على مسافة ثلاثين فرسخاً من بغداد فقد قالوا ان السفاح أراد أن يبني سامرا فبنى مدينة الانبار بحدائقها وأراد المنصور بعد ما أسس بغداد بنائها فابتدأ بالبناء في البردان ثم بدا له وبني بغداد وأراد الرشيد أيضاً بنائها فبنى بحدائقها قصرأ وهو بازاء أثر عظيم قديم كان للاكاسرة ثم بناها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١ وكان الرشيد حفر نهرأ عندها سماه القاطول وأتى الجند وبني عنده قصرأ ثم بنى المعتصم أيضاً هناك قصرأ ووهبه لمولاه اشناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبني عنده سر من رأى ، بنى دارأ وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله وبني بها مسجداً جامعاً في طرف الاسواق وانزل اشناس بمن ضم اليه من القواد كرخ سامرا . وهو كرخ فيروز وأقام ابنه الواثق لسامرا حتى مات بها ثم ولي المتوكل فاقام بالهاروني وبني به أبنية كثيرة واقطع الناس في ظهر سر من رأى في الحيز الذي كان احتجره المعتصم ، واتسع الناس بذلك وبني مسجداً جامعاً فاعظم النفقة عليه وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر اليها من فراسخ فجمعوا الناس فيه وتركوا المسجد الاول واشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرا واشتق نهرأ آخر وقدره للدخول الى الحيز فمات قبل أن يتمم وحاول المنتصر تميمه فلقصر أيامه لم يتمم ثم اختلف الامر بعده فبطل وكان المتوكل انفق عليه سبعمائة الف دينار

ولم بين أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل فن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم والقصر المختار خمسة آلاف ألف درهم والوحيد ألف ألف درهم والجعفرى المحدث عشرة آلاف ألف درهم والغريب عشرة آلاف ألف درهم والشيدان عشرة آلاف ألف

درهم والبرج عشرة آلاف ألف درهم والصبح خمسة آلاف ألف درهم والملح
خمس آلاف ألف درهم وقصر بستان الألتاخية عشرة آلاف ألف درهم والتل
علوه وسفله خمسة آلاف ألف درهم والجوسق في ميدان الصخر خمسمائة ألف
درهم والمسجد الجامع خمس عشر ألف ألف درهم وبركوان للمعز عشرين ألف
ألف درهم والقلائد خمسين ألف دينار وجعل فيها أبنية بمائة الف دينار والغرد
في دجلة ألف ألف درهم والقصر بالمتوكلية وهو الذي يقال له الماحوزة خمسين
ألف ألف درهم والبهو خمسة وعشرين ألف ألف درهم واللوثة خمسة آلاف
ألف درهم فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم
وكان المعتصم والوائق والمتوكل اذا بنى أحدهم قصرأ أو غيره أمر الشعراء
أن يعملوا فيه شعراً فن ذلك قول علي بن الجهم في الجعفرى الذى للمتوكل :

وما زلت أسمع أن الملو ك تبني على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا ل تقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الاما م رأينا الخلافة في دارها
بدائم لم ترها فارس ولا الروم في طول اعمارها
وللروم ما شيدا الاولون وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة فطامنت نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسلمين على ملحدتها وكفارها
صحون تسافر فيها العيون اذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجو م تضىء اليها بأسرارها
نظمنا الفسافس نظم الحلى لعون النساء وأبكارها
لوان سليمان أدت له شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بنى هاشم تقدمها فضل أخطارها

وقال الحسين بن الضحاك:

سر من رأس من بغداد فله عن بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرح لها ليس يخلو أبداً من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزم . علمنا محه الأبداد

واذكر المشرف المطل من الت
واذا روح الرءاء فلا تذ
وله فيها وبفضلها على بغداد :

على سر من راء المصيف تحية
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعة
محلان لقي الله خير عباده
وقولا لبغداد اذ ما تنسمت
أفي كل يوم شف عيني بالقذا
مجللة من مغرم بهواها
تقرب من ظليهما وذراها
عزيمة رشد فيهما فاصطفاها
على أهل بغداد جعلت فداها
حرورك حتى رابني ناظراها

قال ياقوت ولم تزل كل يوم سر من رأى فى صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام
المعتصم والواثق الى آخر أيام المنتصر بن المتوكل فلما ولى المستعين وقويت شوكة
الأتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل وانفسدت دولة بنى العباس لم تزل سر
من رأى فى تناقص للاختلاف الواقع فى الدولة بسبب العصبية التى كانت بيد
أمرء الأتراك الى أن كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر
من رأى بالسكينة المعتضد بالله أمير المؤمنين كما ذكرناه فى التاج وخربت حتى لم
يبقى منها إلا موضع المشهد الذى تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ومحلة
أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرا وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر
إليها بعد ان لم يكن فى الارض كلها أحسن منها ولا أجل ولا أعظم ولا آانس
ولا أوسع ملكا منها فسبحان من لا يزول ولا يحول

وذكر الحسن بن احمد المهلبى فى كتابه المسمى بالعزى قال وأنا اجتزت بسر
من رأى منذ صلاة الصبح فى شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد
رفعت عنها للوقت لم تعدم الا الابواب والسقوف فاما حيطانها فكالجدد فما
زلنا نسير الى بعد الظهر حتى انتهينا الى العمارة فيها وهى مقدار قرية يسيرة فى
وسطها ثم سرنا الى الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء الى نحو
الظهر ولا شك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ

وكان ابن المعتز مجتازاً بسامرا متأسفاً عليها وله كلام منشور ومنظوم فى
وصفها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها الى بغداد ويعمر بها

فقال ابن المعتز :

قد أقفرت سر من رأى وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

وكتب على وجه حائط من حيطان سامرا الخراب :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائي على الأمم
فكل ما فيه مبدول لطارقه ولا ذمام به الا على الحرم

وكتب عبد الله بن المعتز الى بعض اخوانه يصف سر من رأى ويذكر خرابها
ويذم بغداد وأهلها ويفضل سامرا : كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها
وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر فكان عمرانها
يطوى وكان خرابها ينشر وقد وكلت الى الهجر نواحيها واستحث باقيها الى
فانيها وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن منها ممحو الاثر
والمقيم بها على طرف سقر نهاره ارجاف وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل
ولا مرعى فيرتع فخالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا بعد ما كانت
بالمرأى القريب جنة الارض وقرارة الملك تفيض بالجنود أقطارها عليهم أردية
السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول من
خيل تأكل الارض بجوافرها . وتمد بالمقع سائرها . قد نشرت في وجوهها
غزراً كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل كأسورة اللجين ونوطت عذراً
كالشئوف في جيش يتلقف الاعداء أوائله ولم ينهض أو اخره وقد صب عليه وقار
الصبر وهبت له روائح النصر يصرفه ملك يملأ العين جمالا والقلوب جلالا لا
تخلف مخيلته ولا تنقض مريته ولا يخطيء بسهم الرأى غرض الصواب ولا يقطع
بمطايا اللهو سفر الشباب قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا يفتشر حبله ولا
يتشظى عصاه ولا تطفأ جمرته في سن شباب لم يجن مأتماً وشيب لم يراهق هرماً
قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته راجماً بالعواقب الظنون لا يطيش عن
قلب فاضل الحزم بعد العزم شاعياً على الحق يعمل به طارفاً بالله يقصد اليه مقراً
للحلم ويبيذه قادراً على العقاب ويعدل فيه اذ الناس في دهر غافل قد اطمانت بهم

سيرة لينة الحواشي خشنة المرام تطير بها أجنحة السرور ويهب فيها نسيم الجبور
فالأطراف على مسرة والنظر الى مبرة قبل أن تحث مطايا الغير وتسفر وجوه الحذر
وما زال الدهر ملياً بالنوائب طارفاً بالعجائب يؤمن بومه ويفدر غده على انها
وان جفت معشوقة السكني وحببية المثنوى كوكبها يقظان وجوها عريان وحصاها
جوهر ونسيمها معطر وتراها مسك أذفر ويومها غداة وليلها سحر وطعامها هنيء
وشراها مريء وتاجرها مالك وفقيرها فاتك لا كبغداد كم الوسخة الومدة الهواء
جوها نار وأرضها خبار وماؤها حميم وتراها سرجين وحيطانها نزوز وتشرينها
تموز فكم من شمسها من محترق وفي ظلها من غرق ضيقة الدارقاسية الجوار ساطعة
الدخان قليلة الضيفان أهلها ذئاب وكلامهم سباب وسائلهم محروم ومالهم مكتوم
لا يجوز انفاقه ولا يحل خناقه حشوشهم مسابل وطرقهم مزابل وحيطانهم أخصاص
وبيوتهم أقفاص ولكل مكروه أجل وللبقاع دول والدهر يسير بالمقيم ويمزج
البؤس بالنعيم وبعدها لاجاجة انتهاء والهم الى فرجة ولكل سائلة قرار وباللله أستعين
وهو محمود على كل حال

غدت سر من را في العناء فياها قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلها شبيهاً بهاها لما نسجتها من جنوب وشمال
إذا ما مروء منهم شكا سوء حاله يقولون لا تهلك أسي وتجمل

ويطول بنا المقال اذا أردنا استقصاء أسماء المدن العربية كلها من شواطئ بحر
الظلمات في الغرب الى شواطئ المحيط الهندي في الشرق قال البلخي : ومن يحصى
بناة المدن وواضعي القرى ومن يعلم مبادئ انشائها الا الله عز وجل وهبنا
أخبرنا بمدن فارس على نحو ما نجد في كتبهم والمدن التي أحدثت في الاسلام
لقرب العهد وجدة التاريخ فمن لنا بمدن الهند والصين والروم والترك وليس كل
مدينة أو قرية مبنية منسوبة الى بانيتها لانه قد تسمى المدينة باسم الباني أو باسم
لها قبل حدودها أو باسم ماء أو شجر أو شيء ما وقد يجوز أن يجتمع قوم بموضع
من المواضع فيصير ذلك مدينة فهذا يبين لك أن كل مدينة لا يوجب بانياً لها
قاصداً اليها الى أن قال والكوفة مصرها سمد بن أبي وقاص وكان بها رمل
فسميت به ويقال لها الكوفان والبصرة مصرها عتبة بن غزوان وسمها بحجارة

بيض كانت في موضعها وواسط بناها الحجاج ويقال لذلك واسط القصب ويقال بل توسطت البصرة والكوفة وبغداد سميت باسم موضع كان قبلها ويقال لها الزرواء ويقال بغ اسم صنم وسمتها الخلفاء مدينة السلام وأول من بناها جعفر المنصور بناها قصر الخلد بناها في الجانب الغربي من دجلة وجعل حوالها قطائع لحشمه ومواليه واتباعه كقطيعة الربيع والحربية وغيرها ثم عمرت وتزايدت فلما ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمى عسكر المهدي وتزايدت بالباس والبناء .

قال البلخي : فاعلم ان المدن تبنى على ثلاثة أشياء على الماء والكلأ والخطب فاذا فقدت واحدة من هذه الثلاثة لم تبق . قال بعض الجغرافيين : مصرت البصرة على يد عتبة بن غزوان سنة اربعة عشرة وعظم أمرها حتى سميت قبة الاسلام ولها نخيل متصلة من عبداس الى عبدان نيف وخمسون فرسخاً ثم بنى بعد ذلك واسط بناها الحجاج بن يوسف سنة ثمان وسبعين وهي جانبان بينهما جسر على دجلة طوله ستمائة وثمانون ذراعاً وفي الجانبين جامعان ثم لما استخلف الله من بنى العباس السفاح بنى مدينة قريبة من الكوفة وسمها الهاشمية ثم رحل عنها الى الانبار فعمرها وسكنها ولم يزل بها الى ان مات فلما ملك أخوه المنصور بنى على دجلة بغداد ويقال ان اسمها بك دار معناه دار العدل بالتركية كأنهم قالوا الحاكم العادل وسميت مدينة السلام لانها يسلم فيها على الخلفاء ولأنها على دجلة نهر السلام وفي تسميتها بغداد وبغداد وبغداد وكان ابتداء بنائها في سنة خمس وأربعين ومائة وتم بناؤها في سنة تسع وأربعين ثم ضاقت بالجند والرعية فبنى المهدي ولد المنصور مدينة تجاها سماها الرصافة سنة احدى وخمسين ولبغداد

من المدن والبلاد صرصر وقصر ابن هبيرة مدينة بناها يزيد بن عمر بن هبيرة واليك الآن شذرة قليلة مما عثرنا عليه بالعرض من مدن العرب وأمصارهم فنها شيراز وهي مدينة اسلامية بناها محمد بن أبي القاسم الثقفي على أثر بناء قديم ومدينة قم كورها الرشيد وجعل لها اثنين وعشرين رستاقاً بنيت زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين وكان مكانها تسع قرى فجمعت وصارت محالاً وكان اسم احدى القرى كميدان فاسقطوا بعض الحروف للأيجاز والاختصار وابدلوا الكاف قافاً

والمنصورية في الهند مدينة بنيت في صدر الاسلام وتسمى بالهندية تاميران كان موضعها غيضة يحيط بها خليج من نهر مهران . والحلة في العراق بناها سيد الدولة صدقة بن ديبس سنة خمس واربعين واربع مائة وتسمى الكوفة الصغرى لكثرة ما فيها من التشيع وأردويل وتسمى أردبيل في بلاد اذربيجان مصرت أيام الرشيد وانما سميت باسم اردبيل بن ارميني وصرافة بناها محمد بن مروان بن الحكم وكانت قبل مراغة لدوابه فسميت بذلك وصرند بناها الافشين على أثر بناء قديم ومزيد بناها مراد بن الضحاك ومن بلاد أرمينية مدينة شمكور وكانت مدينة قديمة آخرتها الصناوردية ثم جدها بغا سنة أربعين ومائتين وسمهاها المتوكاية . ومن مدن الجزيرة مدينة أذرمة بناها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي وبنى المنصور الى جانب مدينة الرقة قسبة ديار مضر مدينة وسمهاها الرافقة سنة خمس وسبعين نخرت الاولى وبقي الاسمان واقعين على مدينة واحدة ومن مدن حضرموت في اليمن مدينة الشحرو لم تكن بمدينة وكان الناس ينزلون منه في اخصاص فبنى الملك المظفر صاحب اليمن مدينة به حصينة بعد سنة سبعين وتسعمائة . وكذلك بلاد مهرة ومصرها ظفار بناها احمد بن محمد وسمهاها الاحمدية في سنة عشرين وسمائة .

وجدد قتيبة بن مسلم سمرقند وأحاط بها سوراً دوره سبعون الف ذراع وذلك سبعة عشر ميلاً ونصف ميل هو بالفرسخ نحو ستة فراسخ ومدن بخارى كرمينية وبيكند والطواويس بناها قتيبة بن مسلم أيضاً . ومن مدن خراسان الجبلية ذوات الكور العريضة والاعمال الفسيحة سرخس وبوزجان وسامان وبيورد مدينة وزوزن وكومن بناها عبد الله بن طاهر . كما بنى مدينة شهرستان من أعمال خراسان وبنى في اقليم مازندران دهسيان ثغراً على طرف مغارة كما بنى يزيد بن المهلب سنة ثمان وتسعين مدينة بكر اباد في ذاك الصقع نفسه

وبنى عمرو بن العاص الفسطاط (مصر) وبنى احمد بن طولون القطايع ولما ملك العبيديون مصر بنى جوهر مولى المعز مدينة فوق القطايع وسمهاها القاهرة . وفي افريقية مدينة المهدي بناها المهدي العبيدي سنة ست وثلاثمائة ومدينة بونة بنيت بعد الحسين واربعائة ومدينة بجادته وهي مدينة حسنة البناء طيبة

الفناء بناها الناصر بن علناس احد بنى حماد سنة سبع وخمسين وأربع مائة .
ومدينة وهران بنيت سنة تسعين ومائتين . ورباط الفتح في سلا من أعمال طنجة
بناها عبد المؤمن وقصر الفرج بناه المنصور من بنى عبد المؤمن . والسوس
الاقصى يقال ان اول من عمره وأجرى فيه الانهار عبد الرحمن بن مروان بن
الحكم وفيه مدن كثيرة وقصبتها تاملت مدينة سهلية جبلية مسورة من بناء
عبد الله بن ادريس . ومن بلاد السوس مدينة ايغلى بانيها عبد الله بن ادريس أيضاً
ومراكش بناها يوسف بن تاشفين الصنهاجى سنة ٤٩٠ ويلى مراكش فاس وهي
مدينتان إحداهما عدوة الاندلس بنيت سنة ٢٩٢ والاخرى عدوة القرويين بنيت
سنة ثلاث وتسعين ومائة . وسوق حمزة بناها حمزة بن سليمان العلوى وأشير
بناها زيرى والمسيلة بناها محمد بن عبيد الله المهدي المنعوت بالقائم وسماها المحمدية
وقلعة بنى حماد بناها حماد بن ريرى والقيروان اختطها عقبة بن نافع ومدينة
بظليوس بالاندلس بناها عبد الرحمن بن مروان ومدنة تطيلة بنيت أيام الحكم بن
هشام والهارونية من أعمال الفاكية بناها هارون الرشيد

وسامية بالشام على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلى بن عبد الله بن
عباس وطرابلس المستجدة بعد طرابلس الشام بحيش المسلمين في مملكة الملك
المنصور وسيف الدين قلاوون الضالحي بنيت في سمح ذبل من أذيال جبل لبنان
بكورة من أكوار طرابلس بعدها عن طرابلس القديمة الخربة نحو من خمسة
أميال على شاطئ نهر يجرى الى البحر وهي المدينة المعروفة اليوم البعيدة عن
الميناء المعروفة بميناء طرابلس الشام والمصر لمدينة انطرسوس معاوية بن أبي
سفيان في أيام عثمان بن عفان حين غزا قبرص ومدينة عكا بناها عبد الملك بن
مروان ومرعش من بناء خالد بن الوليد وجددها مروان بن الحكم ثم المنصور
بعده وسميت الثغور لان المطوعين من أهل الحوزة كانوا يربطون فيها ويفزون
مدن الروم . واذنة (اطنة) بناها الرشيد على نهر سيجان .

وطرسوس بنيت في أيام هارون الرشيد والمصيصة بناها المنصور وعسكر
مكرم نزلها مكرم بن مطرف اللخمي فصارت مدينة ونسبت اليه .
ومدينة الاقلام بافريقية مدينة احدثها آل ادريس وسيله مدينة احدثها علي ابن

الاندلسى أحد خدم القائم بحانه وهى المرية من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابتنى الحمامات والخوانات والقصور والمتنزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وأمر مناديه بالنداء الا من أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمئة درهم فتسارع الناس الى العماره فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذا ما التقطناه فى هذه العجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون فى هذا الموضوع فى رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما أقامه العرب من الامصار والقرى وأعمال العمران كالطرق والجسور والانهار والترع وغير ذلك مما يفيد فى تصور المدنية العربية ويدعو الاخلاف الى التطريس على آثار الاسلاف

سماع الالخان^(١)

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج فى درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الامم . ولقد كان له شأن وأى شأن عند الامم الراقية فى القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التى وجدت فى النواويس المصرية والنقوش البارزة فى قصور نمرود وخراساباد حيث مثلوا الموسيقيين^(٢) والمغنين وأدوات الطرب كالشبابة والبوق والصنج والجنك والعود وغيرها . ومزامير داود مشهورة مذكورة .

(١) نشرت بالمجلد الثامن من مجلة المقتبس

(٢) فى لفظ الموسيقى كما فى سفينة الملك لمحمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين افتان احدهما موسيقى بمشتين تحتيتين بينهما قاف مكسورة والآخرى موسيقى بحذف الياء الاولى وعلى كل من اللغتين هو بضم الميم وسكون الواو وكسر السين المهملة كلمة يونانية معناها علم النغمات والالخان وكان هذا هو الاصل فيه ثم صار علماً على هذا العلم فى سائر اللغات الا انه قد اعتراه تحريف فى لغة الامرنج حيث قالوا موزيكا بابدال السين زايماً والقاف كاهماً وفتحوا الكاف نظراً الى ما سمعوه من عوام الناس اذ هم يمربون عنه بموسيقا بفتح القاف فان قلت ان خواص علماء هذا الفن يمربون عن هذا اللفظ بعبارات مختلفة أيضاً قلت نعم غير انها اختلفت لاختلاف معانيها فانهم يمربون تارة بموسيقى

اجمعت الامم من جميع الطبقات (الموسيقى الشرقي) على حب الالحان حسب عاداتهم واصطلاح بلادهم ولكل أمة ألحان ونغمات يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم الا بتعود سماعها أو بمعرفة مواقع الطرب في أى لحن كان. ومن الدليل البين على ان لها تأثيراً في النفوس كون الناس يستعملونها تارة عند الفرح واللذة والاعراس والولائم وأخرى عند الحزن والنغم والمصائب والمآتم وطوراً في بيوت العبادات والاعیاد وآونة في الاسواق والمنازل وفي الاسفار والحضر وعند الراحة والتعب وفي مجالس الملوك ومنازل السوقه ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهلاء والصناع والتجار وجميع طبقات الناس

قال ابن ساعد : ومنفعة الموسيقى بسط الارواح وتعديلها وتقويتها وقبضها أيضاً لانه يحركها اما عن مبدئها فيحدث السرور واللذة ويظهر الكرم والشجاعة ونحوها واما الى مبدئها فيحدث الفكر في العواقب والاهتمام ونحوها ولذلك يستعمل في الافراح والحروب وعلاج المرضى تارة ويستعمل في المآتم وبيوت العبادات أخرى قال افلاطون : من حزن فليستمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خمد منها نورها فاذا سمعت ما يطربها اشتعل منها ما خمد . وقال ان هذا العلم لم تضعه الحكماء للتسلية واللهو بل للمنافع الذاتية ولذة الروح الروحانية وبسط النفس وترويق الدم أما من ليس له دراية في ذلك فيعتقد انه ما وضع الا للهو واللعب والترغيب في لذة شهوات الدنيا والغرور بامانيها .

قال الغزالي في الاحياء : لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً فمن الاصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الاعضاء حركات على وزنها باليد

أو موسقى على ما تقدم ويعنون علم العم سسه وتارة بموسيقار ويمون الشحص المتصف به وتارة بموسقيري ويمنون الآلة التي يصور بها كالعود ونحوه من سائر الآلات حسبها يظهر من تنبهم كلامهم حيث قالوا كل صناعة متعلقة باليد موضوعها الجسم الطبيعي الا الموسقيري موضوعها الصوت المشتمل على الالحان المحصورة ولا يحق عليك ان تعلق الصناعة باليد انما يجري في الآلة فقط اه

والرجل والرأس ولا ينبغي أن يظن ان ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في الاوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء اليه . والجمال مع بلادة طبيعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الاحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولفه فترى الجمال اذا طالت عليها البوادي واعتراها الاعياء والكلال تحت المحامل والاحمال اذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى الى الحادى ناصبة آذانها وتسرع في سيرها حتى تنزع عليها أحمالها ومحاملها وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقى رضى الله عنه قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فاضافنى رجل منهم وأدخلنى خبائه فرأيت فى الخباء عبداً اسود مقيداً بقيد ورأيت جمالا قد ماتت بين يدي البيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه فقال لى الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفع فى الى مولاي فانه مكرم لصيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر فعساه يحل القيد عنى . قال : فلما احضروا الطعام امتنعت وقلت : لا آكل ما لم اشفع فى هذا العبد . فقال : ان هذا العبد قد افقرنى وأهلك جميع مالى . فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : ان له صوتاً طيباً وانى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالا ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة ا من طيب نعمته فلما حطت أحمالها ماتت كلها الا هذا الجمل الواحد ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك قال : فاحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهى فما أظن انى سمعت قط صوتاً أطيّب منه .

قال الفزالى بعد ايراد ما تقدم : فاذا تأثير السماع فى القاب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص ، مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع وكشافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فان جميعها تتأثر بالنغمات

الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ،
ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً باباحه
ولا تحريم بل يختلف ذلك بالاحوال والاشخاص واختلاف طرق النغمات في حكمه
حكم ما في القلب

قال حجة الاسلام : ان الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها
ثم عن مجموعها فان فيه سماع صوت طيب موزون ، مفهوم المعنى ، محرك للقلب ،
فالوصف الاعم انه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره ، والموزون
ينقسم الى المفهوم ، كالأشعار والى غير المفهوم ، كاصوات الجمادات ، وسائر
الحيوانات ، أما سماع الصوت الطيب من حيث انه طيب فلا ينبغي أن يحرم
بل هو حلال بالنص والقياس . أما القياس فهو انه يرجع الى تليذ حاسة السمع
بادراك ما هو مخصوص به وللانسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة ادراك
وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء
الجارى والوجه الحسن وبالجملة سائر الالوان الجميلة وهي في مقابلة ما يكره من
الالوان الكدرية القبيحة وللشم الروائح الطيبة وهي في مقابلة الانتان المستكرهة
وللذوق الطعوم اللذيذة كالسومة والحلاوة والحموضة وهي في مقابلة المرارة
المستبشعة والمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهي في مقابلة الخشونة والضراسة
وللعقل لذة العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الاصوات
المدركة بالسمع تنقسم الى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ومسكرة كنهيق
الحمير وغيرها فما اظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها .

ونقل الغزالي أيضاً عن أبي طالب المكي اباحة السماع عن جماعة فقال : سمع
من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية
 وغيرهم . وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي باحسان وقال
لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الايام
المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كايام التشريق ولم يزل أهل المدينة
مواظبين كاهل مكة على السماع الى زماننا هذا فادركنا أبا مروان القاضي وله
جوار يسمعون الناس التلحين قد أعدهن للصوفية . قال : وكان لعطاء جاريتان

يلحنان فكان اخوانه يستمعون اليهما قال : وقيل لابي الحسن بن سالم كيف تنكر
السمع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون فقال : وكيف انكر
السمع وقد اجاره وسمعه من هو خير منى فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار
يسمع وأنا أنكر اللهو واللعب في السماع

هذا ما قاله الغزالي ونقله في السماع وفوائده والمحرم منه في الاسلام ما كان
ماتماً عن العمل والعبادة محرراً للشهوات البهيمية كما ان آلات الطرب يكون حكمها
حكم السماع والتلحين وفي هذه المسألة مرادات واختلافات بين العلماء في القديم
والحديث ولكن العقلاء منهم اختاروا التوسط والتوسط محمود في كل حال
فانهم لم يقبلوا أن يخرجوا بالناس عن الطبع والطبيعة لانهم اذا منعوا ما هو
ضروري من ضرورات الحياة لا يعود الناس يبالون ويسرون بلا وازع وعلى كل
فان الاعتدال هو غاية الغايات حتى في العبادة

نحن في عصر أصبح فيه الغناء من الفنون ذات القواعد والروابط والاصول
ولذلك ترى المنشدين والمغنين والموسيقيين يختارون من الالخان ما يناسب
الظرف الذي هم فيه وتراعى به حالة المستمعين وقد ادعى بعضهم أن من النغمات
ما يطيب في يوم ولا يطيب في آخر وبعض الالخان قد يكون لها من التأثير ما لا
يكون لغيرها ولا شك ان للحالة النفسية التي يكون عليها المغنى والمغنى له دخلا
كبيراً في الطرب فقد وقع لنا أن طربنا صرات بشباب الراعى في الجبال أكثر من
سماع الناي والقيثارة وأن راقنا الغناء الطبيعي أكثر من المصنع الموقع على
الالخان وكثيراً ما يسمع المرء أمهر الموسيقارين المنشدين فلا يرتاح كما يرتاح
لسماع بدوى في البادية يحدو ويتغنى كأن النفس لا تميل الا الى الطبيعي من
الاشياء الخالي من الطلاء الصناعي .

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي : الغناء على ثلاثة أوجه النصب والسناد
والهزج فاما النصب فغناء الركبان والقينات وأما السناد فالثقل والترجيع الكثير
النغمات وأما الهزج فالخفيف كله وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم وانما كاذ
أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهي المدينة
والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع

أسواق العرب وكانت العرب تسمى القينة السكرنية والعود الكران والمزهر أيضاً هو العود وهو البراط وكان أول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق طوبس وهو علم ابن سريج والدلال وثومة الضح . وقالوا غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً وكانوا يقولون الغناء على ثلاثة أضرب فضرب منه مطرب محرك ويستخف وضرب ثان له شجى ورقة وضرب ثالث حكمة واتقان صنعة

الغناء مؤثر في البهائم فكيف لا يؤثر في الانسان ، هو يؤثر في الطيور والهوام ، ولطالما شوهد العصفور والشحرور يرفرفان أمام مغن مطرب وآلة موسيقية شجية ، وقد أخذهما الطرب فاقتربا يستمعان للاغاني ورنات المثلث والمثاني كما يقترب الطروب من الاناسي ، وشوهد أن الافاعي خرجت من أوكارها تستمع لنغمة شاد أو ضربة موسيقار ، بل شوهد ان من الغناء ما تهتز له جوانب القصور وترتج رفوفها وحيطاتها ولعل ما قيل من ان صوت فلان يطرب الجماد له من الواقع أو الواقائع ما يؤيده

الالخان تصفى الارواح ، وتبعث النشاط في النفوس ، فيها قد يجسر الجبان في ساحة الوغى ، ويكرم الشحيح ، وبرق الكفيف ، ويلين القاسى ، ويقوى الضعيف ، ويعدل الظالم . ونعطف اللئيم . وخير الاغاني والاناشيد ما كانت ملحنة بالخان تناسبها معرفة الالفاظ جيدة المعاني وما قيل من انه ليس على المطرب أن يعرب ليس صحيحاً من أكثر وحوه فان لجودة اللفظ والمعنى تأثيراً لا ينكره الا مريض الذوق بعيد عن مناحى الآداب سقيم الفهم .

كان الناس في القديم لا يعرفون غير العود^(١) والقانون والمزامير والشبابات والصلاصل والطارات والتغيير والكوبة من آلات الطرب واليوم أتى الافرنج بالارغن والبيانو وغيرهما من أدوات الطرب ولكن جل الاعتماد على البيانو لا يكاد يخلو منه بيت ذى اهمة في الغرب يضرب به أولاده وزوجه وضيوفه ويوقعون

(١) في الاعلى ان ابن سريج وهو أحد المغنين الاربعة المشاهير والثلاثة هم ابن محرز والعريس ومعد هو أول من ضرب العود على الغناء العربي بحكمة وكان عوده على صفة عبيدان الارس وآد مع المعجم الدين قدم بهم ابن الربيع لبناء الكعبة فاعجب أهل مكة غناؤهم فقال ابن سريج انا اضرب به على غنائهم فصر به فكان أحدق الناس

عليه أنواع الاغاني والاناشيد وتعلمه فيما نحسب أسهل من تعلم العود المؤلف في هذا الشرق الاقرب . والتغيير هو الغناء بالطقطقة بالقضيب وانما سمي تغييراً لان محدثيه يسمون المغيرة . والكوبة طبل طويل ضيق الوسط ذو رأسين وهو المعروف بالدربة في بلاد الشام .

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذكر عنده البربط ليت شعري ما هو فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنا اخبرك ما هو هو محدودب الظهر أرسح البطن له أربعة أوتار اذا حركت لم يسمعها أحد الا حرك أعطافه وهز رأسه

وقد ورد في الكتاب والسنة وسيرة أعظم سلف الامة اشارة الى الغناء والى تجوزهم في سماعه وهم ولاشك أحسن قدوة في هذا الباب . قال القرطبي ومن الاستدلال بالكتاب من ذلك أى على الغناء قوله تعالى « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة هو الغناء وقوله تعالى « واستفز من استطعت منهم بصوتك » قال مجاهد انه الغناء والمزامير « وأنتم سامدون » قال ابن عباس : هو الغناء . ومن السنة ما حرجه الترمذى ان النبي صلى الله عليه وسلم رجع من بعض مغاربه جاءته جارية سوداء فقالت : يا رسول الله انى كنت نذرت ان ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى فقال لها : أن كنت نذرت فاضربى فدخل أبو بكر وهى تضرب ثم دخل على وهى تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الشيطان ليخاف منك يا عمر . وفي حديث عائشة أن امرأة زفت الى رجل من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة أما كان معهم لهو فان الانصار يعجبهم اللهو . واللهو هو الغناء . وحكى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فصعد النساء على السطوح يضربن بالدفوف ويقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا مادما لله داع

روى ابن عبد ربه في العقد الفريد قال بعض أهل التفسير في قول الله

« يزيد في الخلق ما يشاء » هو الصوت الحسن . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري لما أعجبه صوته : لقد أوتيت مزمراً من مزامير آل داود كان أبو يوسف القاضي ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر به نعيم الآخرة . وقال أحمد بن أبي دؤاد ان كنت لأسمع الغناء من مخارق عند المعتصم فيقع على البكاء حتى ان البهائم لتحن الى الصوت الحسن وتعرف فضله .

وكان صاحب الفلاجات يقول بان النحل أطرب الحيوان كله الى الغناء وأن أفراخها تستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن . قال في العقد وأردف النبي صلى الله عليه وسلم الرشيد فاستنشده من شعر أمية فأنشده مائة قافية وهو يقول : هيه استحسناناً لها فلما أعياهم القدح في الشعر والقول فيه قالوا الشعر حسن ولا نرى أن يؤخذ بلحن حسن وأجازوا ذلك في القرآن وفي الاذان فان كانت الالحان مكروهة فالقرآن والاذان أحق بالتنزيه عنها وان كانت غير مكروهة فالشعر أحوج اليها لاقامة الوزن واخراجه عن حد الخبر وما الفرق بين أن ينشد الرجل « أتعرف رسماً كأطراد المدنب » مرسلأ أو ليرفع بها صوته مرتجلاً وانما جعلت العرب الشعر موزوناً لمسد الصوت فيه والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور

واحتجوا في اباحة الغناء واستحسنانه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة أهديتم الفتاة الى بعلها قالت نعم قال فبعثتم معها من يغنى قالت : لا قال : أو ما علمت أن الانصار قوم يعجبهم الغزل ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم
خيوناً نحيبكم
ولولا الحبة السمرا
لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أويس ابن عم مالك وكان من أفضل رجال الزهري قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بجارية بظل قارع وهي تغنى :

هل على ويحكم
ان لهوت من حرج

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا حرج ان شاء الله

حدث عباس بن المفضل قاضي المدينة قال حدثني الزبير بن بكار قاضي مكة عن

مصعب بن عبد الله قال : دخل الشعبي على مروان وهو والى العراق
لاخيه عبد الملك بن مروان وعنده جارية فى حجرها عود فلما دخل الشعبي أمرها
فوضعت العود فقال له الشعبي : لا ينبغي للأمير أن يستحى من عبده قال : صدقم
ثم قال للجارية هات ما عندك فاخذت العود وغنت :

ومما شجاني أنها يوم ودعت تولت وماء العين فى الجفن حائر
فلما أمادت من بعيد بنظرة الى التفاتاً أسلمته المحاجر

فقال الشعبي : الصغير ا كيسهما يريد الزير ثم قال . ياهذه أرخى من بمك
وشدى من زيرك فقال له بشر : وما علمك قال : أظن العمل فيهما قال : صدقت
ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه .

أرق معاوية ذات ليلة فقال لخادمه خديج : اذهب فانظر من عند عبد الله
(بن جعفر وكان ضيفه أنزله فى دار عياله بالشام) وأخبره بخروجى اليه فذهب
فاخبره فاقام كل من كان عنده ثم جاء معاوية فلم ير فى المجلس غير عبد الله فقال
مجلس من هذا قال مجلس فلان قال معاوية : مره يرجع الى مجلسه ثم قال مجلس من هذا
قال : مجلس فلان قال مره يرجع الى مجلسه . حتى لم يبق الا مجلس رجل فقال
مجلس من هذا قال مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين قال له معاوية
فان أذنى عليلة فره فليرجع الى موضعه وكان موضع بديح المغنى فامر به ابن جعفر
فرجع الى موضعه فقال له معاوية داو أذنى من علمها فتناول العود ثم غنى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثل

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه فقال معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر
قال : اريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لاقيت عندها لا بلت ولئن سئلت عندها
لأعطيت وكان معاوية قد خضب فقال ابن جعفر لبديح هات غير هذا وكانت
عند معاوية جارية أعز جواريه عنده كانت متولية خضابه فغناه بديح :

وليس عندك شكر للى جعلت ما ابيض من قدمات الشعر كالحم
وجدت منك ما قد كان أخلقه صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله فقال ابن جعفر يا أمير المؤمنين
سألنى عن تحريك رأسى فأخبرتكم وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال معاوية

كل كريم طروب ثم قام وقال : لا يبرح أحد منكم حتى يأتيه اذنى فبعث الى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاص ثيابه والى كل رجل منهم بالف دينار وعشرة أثواب

روى المبرد فى الكامل قال حدثت ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه فلما أصبح قال ليزيد : من كان ملهيك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر قال : اذا فاختر له من العطاء . وحدثت ان معاوية قال لعمرى : امض بنا الى هذا الذى قد تشاغل باللهو وسعى فى هدم مروءته حتى ننمى عليه أى نعيب عليه فعله يريد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فدخلا اليه وعنده سائب خاثر وهو يلقي على جوار لعبدالله فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فاجلسه الى جانبه ثم قال لعبد الله . أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسى فألقيت وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديار التى كادت ونحن على منى تحل بنا لولا نجاء الركائب
ومثلك قد أصيبت ليست بكنة ولا جارة ولا حليلة صاحب

وردد الجوارى عليه حرك معاوية يديه وتحرك فى مجلسه ثم مد رجله فجعل يضرب بهما وحده السرير فقال له عمرو : اتئد يا أمير المؤمنين فان الذى جئت لتلجأه أحسن منك حالا وأقل حركة فقال معاوية : اشكت لا أبالك فان كل كريم طروب .

وذكر ابن عميرة الضبي^(١) فى ترجمة محمد بن اسحاق بن السليم قاضى الجماعة بقرطبة انه كان من العدول المرضيين والفقهاء المشهورين وله عند أهل بلاده حالة مذكورة ومنزلة فى العلم والفضل معروفة وكان مع هيئته ورياسته حسن العشرة والانس كريم النفس مات سنة ٣٦٧ حدث القاضى أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث عرف بابن الصفار ان رجلا من أهل المشرق يعرف بالشيبانى دخل الأندلس فسكن بقرطبة على شاطىء الوادى بالعيون نخرج قاضى الجماعة

(١) بنية المتمس فى تاريخ رجال الأندلس لاجدس يحيى عميرة الضبي طبع فى مدينة مجربط

ابن السليم يوماً لحاجة فأصابه مطر اضطره الى ان دخل بدايته في دهليز الشيباني فوافق فيه فرحب بالقاضى وسأله النزول فنزل وأدخله الى منزله وتفاوضا في الحديث فقال له : اصلح الله القاضى عندي جارية مدنية لم يسمع بأطيب من صوتها فان أذنت أسمعك عشراً من كتاب الله عز وجل وأبياتاً فقال له : افعل فأمر الجارية فقرأت ثم أنشدت فاستحسن ذلك القاضى وعجب منه وكان على كفه دنانير فأخرجها وجعلها تحت الفرش الذى جلس عليه ولم يعلم بذلك صاحب المنزل فلما ارتفع المطر ركب القاضى وودعه الشيباني فدعا القاضى له ولجاريته

ولا بأس هنا ان نختتم هذا الفصل بأبيات فى صنعة الغناء نقلها الشريف المرتضى فى أماليه قال : أخبرنا المرزبانى قال : حدثنا على بن هارون قال : حدثنى أبى قال : من بارع شعر إشار قوله يصف جارية مغنية قال على : وما فى الدنيا شىء لقديم ولا محدث من منشور ولا منظوم فى صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات :

ورائحة للعين فيها مخيلة	إذا أبرقت لم تسق لطن صعيد
من المستهلات الهموم على الفتى	خفا برقها فى عصفر وعقود
حسدت عليها كل شىء يمسه	وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته	على صوت صفراء الترائب رود
كأن أميراً جالساً فى ثيابها	تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثلة	سواما ولم ترفع حداج قعود
تميت به ألبابنا وقلوبنا	مراراً وتحيين بعد همود
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى	صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذلك الديدن اليوم كله	كأننا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس الا أننا عند أهلنا	شهود وما ألبابنا بشهود

شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويتضع بشرف القائمين به ووضاعتهم ، وكل علم يشرف ويتضع على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه ، وغاية تكون وراءه . وصناعة الموسيقى هي من امارات الظرف تعد عند الأمم الحديثة المتحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعهدا العرب إبان حضارتهم من الكماليات

قال ابن خلدون : والغناء يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضرورى الى الحاجى ثم الى الكمالى وتفنونوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجياته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب الملوذات ، وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى لقد كان ملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم ، وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويغنون فيها

قال : وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية لم يزل هذا شأنهم في بداوتهم وجاهليتهم . فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وطاروا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من المداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدة في ترك أحوال الفراغ وما ليس نافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك كثيراً ولم يكن الملوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلوا الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة

الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدي و ابراهيم وابنه اسحق وابنه حماد .

قال : وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصلين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ في تكريمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحلّه من دولته وندمائه بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف . وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدو بافريقية والمغرب . وانقسم على أمصارها وحبها الآن منها صباية على تراجع عمرانها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه .

قال ابن خلدون أيضاً : ولقد عدلت يوماً بعض الامراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالآوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي : أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له : يا سبحان الله وهلا تأسيت بابيه وأخيه وما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم ؟ فصم عن عدلي وأعرض

هذه زبدة تاريخ الغناء أو الموسيقى في العرب وطرف مما كان من عناية ملوك الاسلام بها أيام الحصار . ولقد انتشرت بعد حتى صار يتعلمها بعض أهل العلم من غير نكير وشرفت باقبال الكبراء عليها بحيث لم تكن في شرفها دون غيرها من العلوم فقد ذكر ابن أبي اصيبعة ان الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها الى غايتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ويذكر انه صنع آلة غريبة يسمع عنها الخائناً بديعة يحرك بها الانفعالات وله كتاب الموسيقى الكبير الفه للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وكتاب في احصاء الايقاع وكلام له في النقلة مضافا الى الايقاع كلام في الموسيقى . ويحكى ان القانون الذي يضرب

عليه للطرب هو من وضعه وانه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم .

وألف يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب في الموسيقى فكتب رسالة في ترتيب النغم الدالة على طبائع الاشخاص العالية وتشابه التأليف ورسالة في المدخل الى صناعة الموسيقى ورسالة في الايقاع ورسالة في الاخبار عن صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى في تأليف النغم وصناعة العود ألفه لاحمد بن المعتصم ورسالة في أجزاء جبرية الموسيقى .

وألف احمد بن الطيب السرخسى العالم الحكيم كتاب الموسيقى الكبير ولم يعمل مثله كما ألف كتاب نزهة النفوس ولم يخرج باسمه وكتاب اللؤلؤ والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وأنواع الاخبار والملح صنفه للخليفة

وألف ثابت بن قررة كتاباً في الموسيقى ورسالة الى علي بن يحيى المنجم فيما أمر باثباته من أبواب علم الموسيقى ورسالة الى بعض اخوانه في جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقى . وكان أبو بكر محمد بن طفيل من فلاسفة المسلمين في الاندلس يأخذ روايت كثيرة مع الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد وغيرهم ويقول لو تفق عليهم علم الموسيقى لا تفقته عندهم .

وكان ابن باجة الفيلسوف الاندلسي على جلالة قدره متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قال ابن سعيد : ان ابن باجة في الموسيقى بالمغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق واليه تنسب الالحان المطربة بالاندلس التي عليها الاعتماد . وكان ابن يونس المنجم المشهور يضرب بالعود على جهة التأديب . وكان أبو المجد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويحيد الغناء والايقاع والتمر وسائر الآلات وعمل ارغناً وبالغ في اتقانه . وكان أبو زكريا يحيى البياسي من أفاضل العلماء جيد اللعب بالعود وعمل الارغن أيضاً وحاول اللعب به وكان يقرأ عليه علم الموسيقى . وكان أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسي العالم الرياضي الطبيب متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود . وكان الحرث بن كلدة الثقفى أحد أطباء العرب يضرب بالعود تعلم ذلك

بفارس واليمن . وكان قسطا بن لوقا البعلبكي العالم الفيلسوف بارعاً في علم الموسيقى وكان أمين الدولة بن التلميذ يحب صناعة الموسيقى وله ميل الى أهلها . وكان صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر العالم المقتن عالماً بالموسيقى . وكان نجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العاملة لان أمه كانت طالمة بدمشق وتعرف ببنت دهن اللوز فاضلا في الادب والطب وله معرفة بالضرب بالعود استوزره الملك مسعود صاحب آمد وحظى عنده . وكان نجر الدين بن الساعاتي الفلكي الفيلسوف الطبيب خدم نبي أيوب وتوزر للملك العادل والملك المعظم وكان ينادم هذا ويلعب بالعود . وكان رشيد الدين بن خليفة الطبيب العالم أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى انه شوهد من تأثير الانفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابي فكثير اعجاب الملك المعظم به جداً وبعد ذلك أخذه اليه واستمر في خدمته . وذكر ابن خلكان ان أبا بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور كان في شببته يضرب بالعود ويغنى فلما التحى وجهه قال: كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف فنزع عن ذلك واقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة .

وكان أبو الحسين علي بن الحمارة آخر فلاسفة الاندلس آخر من برع في الالحان وعلمها وهو من أهل غرناطة قال في نصح الطبيب واشتهر عنه انه كان يعمد الى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغنى به فيطرب سامعيه . وكان الفاضل أبو الحسين بن الوزير أبي جعفر الوقشي آية في الظرف والموسيقى والتهذيب وشيخه في هذا الفن أبو الحسين بن الحسن بن الحاسب كان ذا ذوق فيها مع صوت بديع أشهى من الكاس للخليج قال أبو عمران بن سعيد ما سمعته الا تذكرت قول الرصافي :

ومطارح مما تجس بئائه * لحناً أفاض عليه ماء وقاره

يشنى الحمام فلا يروح لو كره * طرباً ورزق بنديه في منقاره

وكان محمد بن احمد بن أبي بكر القرموطي المرسي من أعرف أهل الاندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعود والموسيقى والطب فيلسوفاً طبيباً ماهراً يقرىء الامم بالسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها ولما تغلب الافرنج على

مرسية عرف له حقه فبنى مدرسة يقريء فيها المسلمين والنصارى واليهود قاله في النفع .

وعلى الجملة لم تكن صناعة الموسيقى بالمنزلة التي يصورها أهل جيلنا من الغضاضة والضعة بل عرف بها أناس من أهل الصيانة والعلم وما كان كل من تعاطى صناعة الغناء عارياً من سائر العلوم فقد كان اسحق بن ابراهيم الموصلى نديم الخلفاء وشيخ الغناء ومع هذا كان من العلماء باللغة والشعر وأخبار الناس وله يد طولى فى الحديث والفقہ والكلام وكان الماءون يقول لولامسبق لاسحق على ألسنه الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء فانه أولى وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع انه أصغرها عنده .

ومثل هذا ما وقع لقاضى اشبيلية أبى بكر بن القاضى أبى الحسن الزهرى فانه كان كثير اللعب بالشطرنج لم يكن من يلعب به مثله فى بلده قال : فكانوا يقولون أبو بكر الزهرى الشطرنجى فكان اذا بلغنى ذلك أغتاض ويصعب على فقلت فى نفسى لا بد أن اشتغل عن هذا بشىء غيره من العلم لانت به وبزول عني وصف الشطرنج وعلمت ان الفقه وسائر الادب ولو اشتغلت به عمرى كله لم يخلصنى منه وصف أنت به فعدت الى أبى مروان عبد الملك بن رهر واشتغلت عليه بصناعة الطب وكنت اجلس عنده وأكسب لمن جاء مستوصفاً من المرضى الرقاع واشتهرت بعد ذلك بالطب وزال عني ما كنت أكره الوصف به . وهذا هو السبب والله اعلم فى اخفاء كثير من أهل الوقار والعلم انهم على جانب من علم الموسيقى والضرب على العود وغيره من أنواع المذوذ ولولا التقية لانتهى اليها أسماء كثير ممن لم تبلغنا عنهم سوى أخبار العلوم المتعارفة على ان الشرف كله اعتبارى ولا مانع من الغناء والتلحين اذا لم يتبعه التلطيخ بحماة السفاهة والرديلة .

أما الملوك والامراء الذين عنوا بالموسيقى قديماً فاكثروا من أن يحصوا منهم يزيد بن عبد الملك ومسامة بن عبد الملك وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادى و ابراهيم بن عيسى بن جعفر المنصور ومحمد بن جعفر المقتدر

والمتوكل والمهدى والمؤيد وطلحة الموفق والطائع والمقتدر وابن المعز وغيرهم من الملوك المتأخرين والله أعلم .

الاستشفاء بالموسيقى^(١)

قال افلاطون : لم يبعث الأرباب فن الموسيقى لادخال السرور على البشر واللذة على حواسهم بل لتسكين اضطرابات نفوسهم وتهدئة تلك الحركات المشوشة التي لا مندوحة لجسد مليء بالنقص عن الشعور بها . وقد جعل الاطباء قديماً وحديثاً هذه الكلمات نصب أعينهم . عرف ذلك من ثباتهم على المحاولة في شفاء مرضاهم بالانغام فاستعملوا الموسيقى لشفاء أو تخفيف الصرع والسويداء والاب (النزاع الى الوطن) والخليل وضيق الصدر والهوس والجنون والبلادة والسير والتكلم في حال النوم والخذر والنقطة والهستيريا والسكته والقالج والسرسام وداء الاعصاب والحميات والنقرس وعرق النسا والرثية والطاعون والحميراء والكلب وغيرها كما استعملوها لشفاء الجروح والقرصات السامة ولتقوية الهضم والتنفس وترشيع الاحلاط فللموسيقى شأن في الطب وتستخدم للتمريض وكانت تتم في القديم معرفة فنون الشعر والموسيقى والطب لشخص واحد .

يقول الين (الكاتب اليوناني من أهل القرن الثالث) ان ترباندر وتاليت وترتي كانوا أطباء موسيقيين وأوصى كسينوكرات وابقراط واسكليبيادس وكالين وارتي وسليوس اورليانوس وتيوفراست باستخدام الموسيقى في عدة أمراض عند ما تنقطع الحياة من العلاج في بعض الادواء ، وكان الاحياء والاموات يسمعون أدوات الطرب ، قال مونارك ان القدماء كانوا يسمعون المحتضرين بعض الالحان وربما أسمعوها من قضاوا نحبهم لعلهم تعود الحياة اليهم . وقال سليوس اورليانوس ان فيثاغورس كان أول من استعمل الموسيقى في شفاء الامراض وانه جرب ذلك في بلاد اليونان وقال بورهان (١٦٦٨ — ١٧٣٨) لا بأس

(١) لخصناها عن المجلة الباريزية الافرنسية ونشرت في السنة الاولى من مجلة المقتبس

بنسبة جميع الخوارق التي رويت عن الرقيات والاشعار في شفاء الامراض الى الموسيقى التي كان قدماء الاطباء يجيدونها .

استعملت الموسيقى في عصرنا لمعالجة عامة الامراض فأصدر بونابرت أمره الى أجواق موسيقى كتائب جيش الشرق أن تصدح كل يوم تحت نوافذ المستشفيات ولا تزال أجواق الموسيقى العسكرية الى اليوم في كثير من الحاميات في الولايات تذهب مرة أو مرتين في الاسبوع لتنغم بأبواقها أمام مرضى الجند ولقد عازمت احدى جمعيات الاحسان في انكلترا على تحقيق تأثير الموسيقى في تسكين الآلام الطبيعية والادوية في كثير من الاسقام فألفت من مرضى الموسيقين عصابة تقوم في مكان خاص بها تتناوب العمل فيه ليل نهار لنقل الانعام الموسيقية بواسطة أسلاك الهاتف (التلفون) الى قاعات مخصوصة من كل مستشفى كبير في لندرا . فاسفر ما جرى من التجارب في هذا الشأن حتى الآن عن نتائج مهمة . داخل ما نجم من الفوائد ان أخذ المضطربون من المرضى ينامون ملء جفونهم واستراحوا من التشويش والتبليل وتألفت في سها لنبورغ جمعية من النساء المريضات لتصدح كل يوم بالقرب ممن أجريت لهم العمليات بالانغام الموسيقية صوتية كانت أو آلية فثبت ان درجة حرارتهم كانت تنزل وان آلامهم تخف . ومثل ذلك جرب في مستشفى بلتون بانكلترا .

والكنجة هي الآلة المستعملة في الاكثر وأحسن الآلات استعمالا في حال الأرق علبة موسيقية بسيطة تدور بحركة ساعة دقاقة أو بمحرك كهربائي . بيد أن تأثير الموسيقى في المرضى يحتاج الى درس طويل اذا أخذ بمجموعه لا على التعمين .

نشر أحد اطباء الالمان كراسة في فعل الموسيقى في النفوس فقال : انها اذا أضعفت الاصحاء فهي تسكن حواس المرضى وانها لتنفع في أوجاع الرأس والدوار والاعضاء واستشهد على ذلك بامرأة كان صوت الارغن يضيع رشدها فيعروها جذب وكانت تلك الآلة بعينها تحدث نفس التأثير في فني طلياني كان مصاباً بالدودة الوحيدة وذكر روسو الفيلسوف أن كاهناً كان اذا سمع صوت الارغن يتأثر حتى ليضطرب

الى مغادرة الهيكل وعلى العكس في رجل من قومه كان يستولى عليه وهو في حالة السماع ضحك عصبى يستلزم اخراجه من الكنيسة ولاحظ الطبيب المشار اليه أن الموسيقى تعدل سير الدم وتحسن حالة النفس فاذا كانت الانغام الموسيقية حادة بهجة تبرق العين وتزيد حمرة الوجه ويسرع ضرب النبض وتعو حرارة الجسد ويضرب القلب ويسهل الهضم واذا كانت الانغام الموسيقية كئيبة وبطيئة تحدث للعين غشاوة ويصفر الوجه وتقل رطوبة الجلد ويزداد تواتر الدم الى القلب ويضعف ضرب النبض ويقل التنفس ويطول

قال وتعمل الموسيقى في المجموع العضلي فيها يتحمل الجنود الشدائد والمتاعب فتتضاعف قوتهم عند ما يباشرون القتال وتؤثر أيضاً في التهييج العضلي فانك ترى أناساً يرقصون من الليل ويطيلون الرقص وما كانوا ليقوموا بهذه الرياضة لولا سماع الانغام . فالمرأة مهما بلغ من لطف مزاجها وتأثرها من أقل تعب يناها يهون عليها الرقص ساعات على صوت آلات الطرب . ثم ان الملاح والمعدن والبحرى يتغنون عند ما يقومون بأعمالهم الصعبة

يجب صاحب المزاج الدموى من الموسيقى ما أفرح وجاز على السمع وكان طبيعياً في الوضع . ويفضل السوداوى من الموسيقى الشديد القاسى العالى . ولا يحب البلغمى شيئاً من أنواع الموسيقى . أما أهل الدعة والسكون والعلماء فلا يجيدون الشعر ولا يحسنون صنعة الغناء . على ان في هذا القول نظراً لان القول بأن المزاج الفلانى لا يقبل النغم الفلانى هو ناشىء لا من المزاج فقط بل من الوراثة والمحيط والتربية .

قال الذى أخذناه عنه هذه الافكار ونقلناها الى لغتنا :

ولقد عرفت علماء لا يرتاحون للموسيقى ورأيت من لا يفضلون شيئاً عليها وشهدت من يتوفرون عليها ويعتدلون في سماعها

وضع الطبيب المنوه به ست قواعد لاستعمال الموسيقى في شفاء الامراض :
أولها انه كلما كانت الموسيقى طبيعية وأعربت عن اللغة الطبيعية في الفكر تؤثر في النفوس كثيراً ولا سيما في نفوس من لم يتعلموا التعليم الكاوى . ثانيها لما كان لكل بلاد أنغامها الخاصة بها فان الموسيقى تؤثر في الروح كما يتأقربت من هذه

الانغام . ثالثها ينبغي أن تكون الموسيقى متناسبة مع درجة تأثير الموضوع .
رابعها ينبغي أن يحدث تأثير الموسيقى ببطء فيبدأ مع السوداوين باستعمال ألحان
يتدرج فيها من الخفيف الى القوي ويستعمل من الألحان الشديد أمام أصحاب
النفوس الغضبية . خامسها اختيار الآلات المستعملة للغاية التي تطلب . فصاحب
المزاج السوداوى يرتاح لسماع الطبل والبوق ذى الانبوتين Trombon وكذلك
المزمار والعود يناسبان مزاجه . سادسها تطرب الموسيقى الطبقات العالية أكثر
مما تؤثر في الطبقات النازلة

ومن رأى هذا الطبيب ان الموسيقى تشفى صاحب السويداء كما تزول بها
الكآبة والحزن وتبعد الخوف . ولقد أجمع الفلاسفة على ان شيتين اذا عادلا
ثالثاً يكونان متعادلين فاذا كانت الموسيقى نافعة في ازالة الكدر والسويداء
فالكدر والسويداء هما في الحقيقة شيء واحد . فان ابقراط حدد السويداء بأنها
الكدر والحزن . وهنا أورد صاحب المقالة حوادث من التاريخ في أوربا ولا
سيما في فرنسا تدل على ما نفع من الانغام في مداواة بعض الاسقام ولا سيما
الجنون والاختلال وداء النقطة

ثم قال ان الاسلام انتفع من تأثير الموسيقى لتحريض أشياع الحسين الشهيد
على الجذب والتهيج وذلك بقرع الطبول المتواتر على إيقاع متساوق سريع فيردد
الشيعة على نغم الطنبور الحاناً مقفاة حتى ينتهي الحضور بان لا يعودوا يتأثرون
للضرب ولا للجرح . وكذلك الحال في دراويش الهند فانهم يستعملون كلمة
واحدة ويكثرون من ترديدها فتؤدي بهم الى الجذب مصحوباً بقلة التأثير .

وبعد أن أفاض في إيراد حوادث القدماء وأخبار عنايتهم بالموسيقى في شفاء
بعض الامراض قال ان مراد الرابع (١٦٢٣) أثرت فيه الموسيقى فعقد النية على
أن يبقى على اخوته الذين كان ينوى إهراق دمهم وأن فرنسيس الاول بعث الى
سليمان الثانى بجوق من الموسيقى فلاحظ هذا أن شراسة خلقه لطفت بسماع
ألحانهم فأسف من جراء ذلك كثيراً ولم يلبث أن طرد للحال جميع الموسيقيين من
حضرتة . وجملة القول أن الموسيقى تؤثر في الدورة الدموية في الانسان والحيوان
ويزيد بها حفظ الدم وينقص وتتبع هذه التقلبات تأثير تهيج الاعصاب السمعية

وان آلات الطرب والصفير ليظهر فعلها بتحسن في تشنج القلب خاصة .
وتغيير الدم الناتج من تأثير الموسيقى يناسب تحول التنفس وان كان يتجلى ذلك
مستقلاً عن تحول التنفس . يزيد الستركنين في تأثير التهييج السمعي في الدورة
الدموية والكلورال على العكس يضعفه والالكحول والافيون يضعفان أيضاً
تأثير التهييج السمعي في الدورة الدموية وتغيير الدورة الدموية تابع لارتفاع
الصوت وشدته بل لارتفاع الجرس ونزوله. ولتغيير الدورة الدموية دخل كبير
في ذاتية الحيوان والانسان ولاسيما في جنسية الانسان وتابعيته
وعلى من أراد الوقوف على تأثير الموسيقى في أحد أعضاء الجسم سليماً كان
أوسقياً أن يفرق بين العناصر التي ينبعث منها ذلك التأثير . فالهزج واللحن .
والايقاع تؤثر تأثيرات مختلفة بحسب تركيبها وتلحينها
وفي الختام نقول ان الاستشفاء بالموسيقى قديم العهد وقد ظل محتفظاً
بمكانته العلية والعملية على حالة واحدة رغم اختلاف العصور .

الموسيقى الغربية

مدعاة السرور ، مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب مهونة
الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة الفواعل
النفسية أصدق عامل على التحمس والتحمس ، أقوى دافع الى النهوض ، معلمة
أتقع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعلمه الضعف ، دافعة عن
مزلق الشباب وطيش الحلوم ، فيها يتجلى العقل البشرى الفعال بأشارات وأى
إشارات ، تعمل عملها في الافئدة والوجدانات

هذه هي الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ، ولذلك تجد لها في كل
صقع من أصقاعهم نفمة ورنة ، وفي كل مملكة من ممالكهم وتراً خاصاً ، بل
أوتاراً تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوى الضعيف ، وتجبر الكسير ، وتهيب
بالمستمع الى ميدان المضاء ، وتمكن فيه أواخي الحزم والعزم ، وتطرد عنه الوسوس

والهواجس . وتجعله في الذروة تشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها في سره ، ويهيم ويتعلم ، ويطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم في معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا مجتمع دينياً كان أو مدنياً ، ولا ملهى ولا مسرح ولا ملعب ولا مرقص ، ولا مطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى في الغالب دخل كبير فيها يتعلمونها صغاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مفروسة في الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولاً ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتمعا ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الأسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والفتى والفتاة ، والسيد والمسود ، والموسر والمعسر ، والعامل والماهن ، والغلمانى والكاهن ، والكبير والصغير ، والقائد والجندي ، تساووا في حبها ، وأجمعت كلمتهم على عموم نفعها ، والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل في ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليها هو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دي ستايل انك لا تجد في سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحراثين من لا يعرف الموسيقى في ألمانيا ففي أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ما تسمع ذلك في ايطاليا الا قليلا ، والاولاد والطلبة يطوفون يوم الاحد في الشوارع يمجدون الله وينشدون الاناشيد الحماسية

آلات الموسيقى متحدة في الغرب ، ولكن الصور التي تخرجها مختلفة وان أسمعوك في بلد ما هو من صنع غيرهم ، فتسمع في كل أمة ألحان رجال الفن في أمة أخرى وأمم الغرب مها تباعدت في المقاصد وتباينت في المصالح لا تجدها الا متفقة في تمجيد المفاين من الموسيقيين يضربون أوتارهم من غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التناز مداه في صدورهم ، فليس لهم شيء أجمعوا على تقديسه مثل نغمة تصدر في يد صناع ، ولحن يلحنه نفس نفيس

الشرقى أمام الموسيقى الغربية كالمتقلد بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره . يطول به العهد حتى يطرب لها طرب أهلها بها ، لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيم ، ولانه ألف نغمات أخرى . فهو وان لم يفهمها ولكنها قريبة

من مصطلح قومه ، مؤتلفة مع مناخه ومحيطه ، ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربي يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والالف . والفارسي يحب الموسيقى العربية لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويت الروابط بين الامم وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم ، والمبعدات بين القلوب ، زاد طرب الجار من نعمة جاره .

سمعت الموسيقى في أكثر بلاد الغرب في ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولندا والبلجيك واسبانيا فكان طربي بالموسيقى الاسبانية أكثر من غيرها لانها تترشح من الانغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لانها تترشح من موسيقاته . وقد أتت قرون والعرب والترک متلاحون في البلاد ، مشتدة روابطهم ، متحدة كلمتهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربي من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربي بالموسيقى المصرية لانها أرقاها ، وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنعمة فارسي كان ينشدني قصيدة من اظمه في الحرية ، وتأثرت مرة من فتاة صربية في قطار كانت ترنم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معاني الفارسي ولا الصربية . ولكن ماذهبت اليه النفس من التذكارات ، فعل فيها فعلة فأخرجها عن كشافتها ، وسمعت مؤخراً مغنية اسبانية في مسرح الاولمبيا في باريز تتغنى بالاسبانيولية ، وتبديع بنفسجاً ترشقه على الحضور ، فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجل ما رأته العين في الغرب ، وطربت به حقيقة ، وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كان لنا في بر الشام موسيقى راقية ، فكادت تندثر لزهة الناس في هذا الفن لانه دليل ارتقاء الامة ، والامة كانت مشتغلة بنفسها ترجع القهقري ، وكان المشتغلون بهذا الفن مرذولين ممتهين ، فبينما نجد الموسيقى في الامم الاخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منعها مرفهاً اذا مات مشى في جنازته العطاء — كما فعل الفرنسيين بجنازتي سان ساينس وفوريه الموسيقيين وعدوها

من المفضلين على أمتهم ومجدوها وقد سوها ، ترى مثيلهما في أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخذ بنفسه عاش فقيراً ، ومات خاملاً حقيراً ، وكم من نابغة في الموسيقى عندنا تخلى عن هباته خشية أن يلحق به العار ، وزهد نفسه طوعاً أو كرهاً بما يجبه وكان في مستطاعه أن يبرز فيه لعلمه بضيق العيش من هذا الباب ، ولأن صاحبه لا يعد في الطبقة التي هو حري ان يعد فيها

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غنى بالاجرة^(١) ويتساحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه ، وكانوا يعدونه فنا يفقر صاحبه ، ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم ، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بأدبه ، ويرزق عشرات الالوف منه فاذا مات مات عن ثروة طائلة ، وخلف لاهله مجداً وغنى

ولو لم نر من نهضة الموسيقى آخراً وتشريف قدرها في مصر اليوم لسجلنا بأن هذه الأمة العربية جمعاء منحطة وأى انحطاط عن أمم الحضارة الحاضرة ولقلنا انها أمة مات شعورها في كل معنى وهي والأمم المتوحشة سواء في أوضاعها وعاداتها وأسباب هنائها وراحتها

الاستقلال والاتكال^(٢)

يطالع المستفيد مئات من كتب الفلسفة والادب وعلوم العمران فلا يعتم ان يستقل منها ما يأخذ مأخذه من العقول ، ويحدث أثراً في النفوس ، ولا عجب فقد تنصرف وجهة الألوفا الى خدمة العلم ، وبث الملكات الصحيحة فاذا فوضل بينهم ووضعت أعمالهم في ميزان النصفة ، وعلى محك الاستبصار يكثر الشائل ، ويقبل الراجح . والمؤثرون في الافكار ، في كل الاعصار والامصار ، اندر من الغراب الاعصم والكبريت الأحمر ، على ان كل من بذر بذوراً طيبة لا ينفك مثلوجا فؤاده مهما تأخر نباتها وإيتاؤها ، لعلمه بأنها ستؤتي أكلها عاجلاً أو آجلاً

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

(٢) نشرت في مجلة المنار ١٦ رجب سنة ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م

إذا لاءمتها طبيعة المنبت ، وأحسنت تعهدا أيدي القائمين عليها
وقد وقع شيء من هذا ان صح حدسي للكتاب الذي ألفه المسيو ادمون
ديولان الفرنساوى وعربه أحمد فتحى بك زغلول المصرى المسمى « مر تقدم
الانكليز السكسونيين » فانه أثر فى الفرنسيس أثراً حسناً وسرى قول مؤلفه
فى بلاد الافرنج منذ نحو خمس سنين فترجم الى لغاتهم وتناولته ألسن الناقدين
والمسلمين ، وعاد بعض المنشئين يرون رأى صاحبه وينطقون بلسانه ، ويكتبون
بقلمه ، ودل كثير من أهل العلم على مواقع الفساد من تربيتهم ، ونقص الاستعداد
من عاداتهم ، وأشاروا الى تخلفهم فى حلبة تنازع البقاء عن جيرانهم الألمان
والانكليز والاميركان تخلفاً يخشى معه أن يتعلمهم الجنس السكسونى فيكون
مستقبل العالم له دون سواه

هكذا يقولون . وغير منكر ان الفرنسيس نفعوا الانسانية نفعاً لا تنكره
وكفاهم مفاداتهم بأبنائهم مراراً تخفيفاً من سلطة الملوك ورفعاً لغشاوة جهالة
ظلت مسدولة على أوربا قرونًا ، جعلتها وراء شعوب الارض ، نخلعت ربة
الاستعباد ، وقررت حقوق الانسان ، وقواعد الحرية والاخاء والمساواة. ونشرت
المعارف فى الاطراف حتى ابتذلت ، واشترك فى الاخذ من بحرها المحيط عامة
الطبقات فأصبح الحراث الفرنساوى يقرأ ويكتب ويفهم أكثر من بعض من
ندعوهم بالمنورين فى بلادنا . وما يأخذه الآن بعض علماء الفرنسيس على أممهم
ان هو الا من باب الاستزادة من المضيلة ، والدعوة الى الكمال ، والسبق فى
ميدان التغلب والسيادة . نعم انه ليستنشق من غالب المكتوب رائحة الغرض ويعترض
على بعضهم مبالغتهم فى وصف أعراض الصعف حتى أوشكت الفائدة أن تضيع
وينسب كل ما يخطونه الى التشيع والتعزب ويؤيد ذلك ان ما يكتب صادر من
بلاد تأصل فيها الانشقاق الداخلى ، وراجت بضاعة الاحزاب ، وساد فيها تباين
الآراء فلا يكتب الملكى أو الكهنوتى الا ويرمى ببصره الى القديم بمجده ،
والتليد بيبكيه وينشده ، ولا يجهر الجمهورى الا ويفاخر بما تم على يديه من ارتقاء
ونماء ، ولا ينبرى الفوضوى أو العدمى أو الاشتراكى الا ويستدعى الامثلة
ويستجيش البراهين اعلاناً بدعوته ، واستتماماً لرغبته ، ولكن فرنسا ما زالت

بفضل أساسها القديم أم المدنية ورعاية الحضارة وان تقهقرت في سياستها وأخلاقها فلم ترتبها الميزة على سائر الشعوب الأوروبية خلا السكسونيين ولكن صحة الوطنية التي عرف بها مساعير أبطالها ومشاهير رجالها جعلتهم اليوم يفرطون في النصح والقدح

« استقلالهم »

وبعد فان الامم من حيث كيانها قسمان: استقلالية واتكالية فالامة الاستقلالية هي التي طبعت على حب الانفراد يعتمد كل فرد منها على نفسه لا على حكومة ولا جمعية ولا حزب ولا عشيرة ولا أسرة

وانما رجل الدنيا وواحدھا من لا يعمل في الدنيا على رجل ومثالها الشعوب الانكليزية السكسونية . والامم الاتكالية هي التي يعتمد أفرادها على مجموعها من الامة أو الدولة فيتوكأ كل فرد على غيره وأعظم مثال لها الامم الشرقية حاشا سيدتها الامة اليابانية العظيمة فان التربية الاستقلالية عندها على ما يبلغنا قاعة على أعظم هياكلها وأبنائها أبعاد المشاركة عن النشأة الاتكالية

وبديهي ان العلم وحده لا يكفي في سعادة الشعوب ما لم يقترن بالعمل ، وفرنسا وقعت مع من وقع في مثل ذلك من أمم الخليفة فزاد فيها التكالب على المصالح الهينة ، والوظائف اللينة ، فكثرت فيها الموظفون والمحامون والاطباء والمهندسون وأهل الصحافة والادب ، بحيث تعذر قبول من تخرجهم المدارس العالية باسمها فسدت في وجوه الناشئة أبواب الرزق لان معظمهم يرى السعادة أن يعيش في باريس ونحوها من المدن الخافلة ليستمتع برفاهها وأنسها ولو عاش في قل . وزهدوا في الاشتغال بالصنائع الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة وذلك غير معهود عند من كان دمه سكسونياً اذ لا يرى حطة عليه أن يحترف أية حرفة كانت مهما كان علمه واستعداده ليضمن لنفسه وذويه مرتزقا فسيحاً وعيشاً استقلالياً لباباً ، فان لم يجد ما يعمل في بلاده يغادرها ليستعمر مكاناً آخر من الكرة ، ويستوى عنده العيش بلندن أو برلين ، والعيش في زيلنده الجديدة

أو مستعمرة الرأس أو زنجبار ، وان شئت فقل في أقاصى صحارى أفريقية حيث
الوحوش ضارية ، والسموم لافح ، والعيش مر المذاق
وتأييداً لذلك انقل هنا ما صرح به أحد علماء الاخلاق من الفرنسيين بهذا
الشأن قال : « يزعمون ان شهادة العالمية عندنا باب يدخل منه الى كل سبيل ،
وتسلك بماملها في كل مسلك ، وهى على التحقيق لا تفتح الا ثقباً كبيراً هجم عليه
أصحاب الرغبات من كل صوب ، فاستغرقت الحرف الشريفة ووظائف الحكومة
جملة ، بحيث وجب على الامة أن لا تساعد على شر ما برح يتفاقم أمره منذسبعة
قرون، حتى صار جرحاً نغاراً ، وضربة مبرحة . وأعنى بذلك الشرءاء الاستخدام
والتوظيف

« لا جرم ان الحركة التى بدأت طلائعها في فرنسا زمن فيليب الجميل ازعج
أمرها على عهد لويس الرابع عشر ، فزاد الحال اشكالا على أثر عودة الملكية الى
فرنسا ، واستيلاء أسرة بوربون على منصة الحكم وصار على عهد الجمهورية الثالثة
الحالية أدهى وأمر . فاذا نشأ الابناء على آسال آبائهم ولم يصلح حالهم يضيعون
مجد أسلافهم ويخربون مملكة قويت على الحوادث على حين تعدهم عدتها في
شدتها ، ويبيدهم انقاذها واسقاطها

« فالجيل الفرنساوى الحاضر موء حاله ومآله ، وهو الى الكسل والجبين أميل
منه الى العمل والنصب ، حتى يصح أن يقال ان البلاد به أضاعت من فتاتها ،
وأمست تسير الى فلاة فئاتها ، ومن الاسف ان فرنسا التى كانت على مر العصور
في مقدمة من يحسن الاعمال وأول مثيرة لكل نجاح هى اليوم من حيث تهذيب
أبنائها متقهقرة عدة قرون الى الوراء . وكأن تعاليمها الآن هى عينها فى القرون
المتوسطة التى تركت ألمانيا وشأنها الى أن علا صوت جهورى من الشاعر كيتى^(١)
يبين للالمان مراقع الضعف ، ومزالق المقاتل ، ومداحض المخاطر ، ويقود الافكار
الى الحملة على كسر القيود ، ونزع ربق الرق وتجديد جدة الشباب . ينادى يا قوم
هؤلاء الانكيز امعنوا فى حالهم ، وانسجوا على منوالهم ، فانكم واياهم سواء
فى القيم ، فما ضركم لو بار يتموهم فى الهمم ؛ عملكم قليل ولا تحسنونه ، وقلما

تنهضون باعبائه ، وليس لكم نصيب مما أوتوا من مميزات الواجب الشخصي والكفاءة الشخصية ، وهما دعامة القوى التي تشتد بها سواعد الملل . ولما كان كيتي يصرح بهذه الافكار كانت ألمانيا بعيدة عن معاناة التجارة مقطورة في مؤخر الشعوب ولم تمض على ذلك مئة سنة حتى استولى انصار ذلك الشاعر الكبير والمتعظون باقواله على محور التجارة فهاج نشاطهم قلق الامة التي حذوا حذوها . وان الانكليز لينظرون اليوم نظر المرتجف الى انبساط ظل النفوذ الالماني بهذه السرعة والقوة ويزعمون انه لا بد من أن تخلف طواع البرد الجرمانية الطوابع الانكليزية قريباً .

« كل هذا نتيجة تغير التربية وانتشار المعارف بين الافراد وكثرة الكفاءات في كل فروع العمل . فمن العقل والحالة هذه ان يتدرع الفرنسيين بسلاح من العمل مفيد ، ويعتاضوا من الركوب على متن عمياء بالجرى في طريق جديد من اتقان المبادئ الصحيحة والاخلاق الفاضلة .

« من رقاعة الفرنسيين أن يعتقدوا علو كعبهم في كل منحنى ومنزع . ولو ذهب أحدهم الى ألمانيا ودرس أحوالها عن أمم ، لرأى شعباً كان يشكو مما يشكو منه ، داء أصيب به زمناً فشفى نفسه من أوصابه . يرى السكسونية مجسمة بأبهي مظاهرها فيقدس « كارلايل »^(١) ظهيرها ونصيرها ، ويقيس حاله بالانكليز على أنهم سباق غايات وأصحاب آيات بينات . ثم اذا قضى من تينك المملكتين لبانته ، وعرف بالنسبة اليها حالته ، يركب البحر المحيط الاطلانتيكي ليتبصر فيما تورته جدد الفضائل في هذا القرن الحديث وينجلي له الفرق بين رغائبه ورغائب الاميركان .

« لفرنسا نظارة للمعارف العمومية ، ولا ميركا مدرسة للتربية ، فالاولى تعلم والثانية تربي . الاولى تلقن أبناءها كلمات يحفظونها ، والثانية تعلم مبادئ يسرون عليها . تعد فرنسا أدمغة لحفظ قانون وتبهيء أميركا أذرعاً للعمل ، الاميركان رجال عمل ، والفرنسيين ليسوا كذلك . يغرس الاميركان في نفوس ناشئتهم شهامة الارادة التي لا تجدى أجل الهبات الخلقية بدونها ، ولا يكون العلم نفسه الا

عظلا من النفع مع فقدتها ، وهذا هو القانون الذي سنه لهم فيلسوفهم اميرسون^(١) تلميذ هيكل الالماني^(٢) القائل في فلسفته : ان الحياة ليست شغلا عقلياً ، ولا مناقشة ومهاوشة ، بل الحياة انما هي العمل . واقد علق في أعلى باب كل مدرسة بأميركا شعار معناه : ان تهذيب الخلق أسمى غاية للمدرسة ، وعلى الشبان أن يحسنوا معرفة الحياة بارادة ثابتة . «

ثم توسع الكاتب في بيان نقص تربية أبناء وطنه وعاد يقول :
« يلزمنا رجال مهذبون لا رجال متعلمون ، وفي فرنسا طبقتان من المدارس أولاهما للصغار وثانيتها للكبار ، وبعبارة أحلى مدارس الصنائع ومدارس المفكرين ، أما حسن التربية الانكليزية السكسونية ورجحانها على التربية الفرنسية . فهي قائمة فيما أوتيه بعضهم من الصفات الشخصية مثل المرورة وحسن الخلق والحصافة والبداهة والجرأة والاقدام على المشروعات والاكتشاف والافتتاح والمخاطر . فبدلاً من أن تنمى فرنسا في نفوس أبنائها هذه الصفات تفرس فيهم ملكات حب التآلف والاجتماع . تبث فيهم النأثر بدل المرورة . وتبث فيهم الخشية من أقوال الناس فيشاكل المرء الجمهور بأقواله وأفعاله بدل تنشئتهم على خلق يبقى فيه الانسان مستقلاً بنفسه . وبدل الحصافة التي يتأتى بها المرء ايجاد الاشياء بذاته تقوى فيه ملكة الذاكرة التي تعيد عليه ذكر الاشياء التي يحفظها مما عثر عليها غيره بالتجارب ، وعوضاً عن البداهة التي يتمكن بها المرء من تطبيق ما أوجده بنفسه تبث فيه الثقة فيصبح عرضة لاغراض حكامه . وبدل الجرأة تبث فيه الحذر وبدل الاقدام على المشروعات والفتوح والاستنفاض (فتح البلاد) تبث فيه ملكة الاقتصاد والسلم وحب السكن . وبدلاً من اقتحام المخاطر تحسن له الرضى بالاستخدام . «

ثم أجمل الكلام هنا على الفلاحين والصنائع والتجار والعملة من مجموع الامة الفرنسية وانتقل الى الخيار من قومه وعنهم العلماء والفلاسفة وأهل البصر فقال مستنداً الى أقوال العلماء :

(١) اميرسون Emerson فيلسوف أميركي مات سنة ١٨٨٢

(٢) هيكل Hegel فيلسوف ألماني مات سنة ١٨٣٥

« ان دماغ الجنس السكسونى متمدن ومحدود، وذكاءه تحليلى وجنسه جنس العمل والكد وعلى عكسه دماغ الجنس الفرنساوى فانه موسع وذكائه تأليفى وهو خيالى يعشق التصورات وبالجملة يعنى الجنس الاول ابدأ بالحقائق على حين يفضل الثانى الافكار والخواطر، يجيد السكسونى فى الغالب القيام على الاعمال المادبة وبعض الفرنسيس يحرزون قصب السبق فى ميادين الذكاء المتسعة الاطراف » ألا وان قيمة الجنس السكسونى بمجموعه وقيمة الجنس الفرنساوى بخياره فالفرنسى المتوسط لا يساوى الانكليزى المتوسط والفرنسى العالى يساوى أكثر من انكليزى عال ولكن الخيار من الفرنسيس لا يشغلون المكاة التى يستحقونها لانهم مغلوبون للاخلاق الحالية لم يستوفوا شروط النفع ولا أتموا أدوات التهذيب

وأنجح طريقة يجب على فرنسا سلوكها تحسين تربية خيارها وتربية أفرادها ومزج الخاصتين السكسونية والفرنسية وتطبيق تربية جمهور الانكليز على تربية خيار الفرنسيس لياتى الغد وفرنسا من وراء هذه التربية شعب صغير كالشعب الآتىنى يهب لها فاتحين ذوى أفهام، ورجالا صحاح الاحلام، يساوون الجيوش، ويوازنون كل عدد وعدة، ويخدمون أمتهم خدمة ارخميدس^(١) وينقذون وطنهم انقاذ تيمستوكس^(٢). «

« اتكالنا »

يمثل هذا اللسان يخاطب الكاتب الفرنساوى أمته ويقرعها تقرعاً أمر من الصاب والملقم، لتستفيق من غشية تخشى مغبتها وتفلت من الوقوع فى مخالب أسود السكسون لئلا يكون حظها فى الوجود حظ الامم البائدة كالرومان واليونان والفرس والعرب. وما القصد من ايراد كلامه بنصه الا ليحصل التمثيل بيننا وبين أمة نشابها فى الاعراض وان كانت أعلى منا جوهرأ.

(١) ارخميدس Archimede أحد مشاهير المهندسين القدماء ولد فى سيراكوس احدى مدائن صقايه حوالى سنة ٢٨٧ ق م ومات سنة ٢١٢ وحاصر الرومان وطنه مدافع عنه ثلاث سنين بقوة بنايات حيلية أو ميكانيكية

(٢) تيمستوكس Themistocle قائد أثينى شهير ٥٣٥ - ٤١٠ ق م

ولعله يخيل لبعض سكان هذه الديار ان الفرنسيين مثلهم في الانحطاط ، وأن لهم بهم قدوة حسنة وأعظم سلوى ، ولكن شتان بين حالنا وحالهم ، ورجالنا ورجالهم ، وحضارتنا وحضارتهم . أمة تشخص الداء وتفكر في وصف الدواء أو تشعر بنقصها وتسعى الى كمالها . وأمة موقنة بأن داءها عين الصحة لا بأس عليها ولا خشية من ناحية حياتها ، يرضيها نقصها فلا تريد استبدال غيره به وكل من محضها النصيح رمته بانحلال عقدة الوطنية ، والمروق من عهد الحمية وصدق التامية

لا جرم ان الرجل الفرنسي الراغب في الاستخدام ، لا يشبه الرجل المصري أو السوري أو العراقي مثلاً فان الاول يستعد ليحسن الاضطلاع بما يوسد اليه من أمر أمته ومعظم هؤلاء على نقص في المدارك والمحطاط في الفضيلة يطمحون الى السعادة والسيادة بلا سابق معرفة سوى أو اصر القربى أو التقرب ، أو أو اخی المؤاخاة والتزلف أو وشائج الدرهم والدينار

ولقد أصبح من الرأي المقرر بين الناس أن كل من ليس له علاقة بالحكام كعضو أصيب بالآكلة لاحيلة فيه الا بالبر أو الموت ، بيد انه لا تثير على الفقير اذا رشح ابنه لأي خدمة كانت ليرتفع بها من الدنيا ، مادامت البلاد صفراً من أصناف المعاش الذي يزعج صاحبه عن العيش الاتسالي ويورده موارد الاستقلال ، بل اللوم كل اللوم على رجل يعد من نواصي أهل وطنه وعليتهم وله من العقار والقري ما يسد عوره وعوز مئآت معه وهو على ماله من الاعتبارين جيله وقبيله يسف الى الاستخدام في وظيفة ليتباهى بها أمام العدو والصدیق

أعرف رجلاً في إحدى مدن الشام الحافلة له عراقة في محتده ، وأصالة بين قومه وسعة من دنياه ، وتراه مع هذا يصرف نهاره وليله في نيل الزلبي من الامراء كبتاً لخصومه ، فيبذل كل عام في هذا السبيل من الصفراء والبيضاء ، ما يكفي لاعالة ألف نسمة من أصحاب البأساء ، وكلما طعن في السن يزداد غلواً في مبادئه وأصراراً على نكايته أعاديه ، وهو دائماً أجول من قطرب واشغل من ذات النحيين ، ومساعيه أبداً مخفقة ، وآماله مخيبة . وهكذا حال خصمه اللدود له مال وبنون ومقام بين أهل حيه كريم ولكن لا يهدأ له بال الا بالجلوس على

أرائك الحكم ، ومقاعد التصدر ، يتلمس لبنيه اذناً بملازمة الدواوين . مزاحمة
لاولاد الفقراء ليستأثروا بعد بالرواتب دونهم ، وينالوا المعالي بنفوذ والدهم
عفواً صنفوا

ولو عقلاً لاستعاض عن التلهى بهذه السفاسف بأدارة شؤون مزارعها الواسعة
وتحسين طرقها وتنمية غلاتها وثمراتها ولكن هو حب الرئاسة يستلب الالباب
وفي الامثال « يا حبيذا الامارة ولو على الحجارة »

ولطالما سمعنا أن فلانا غادر سكنه ومسكنه ، تاركا دخلا يكفيه وعياله لأن
يعيش عيش الاستقلال فيوكل به من يسرق نصفه لينتظم في سلك الموظفين
ويأخذ من استخدامه ما يوازي المصف الذي فقده بغيابه ويفتدى من دماء
الامه سحتاً بحتاً وحراماً محضاً ليقال عنه انه من الموظفين ويخاطب بالفضيلة
والسعادة ثم اذا كثر سواد أقرانه يقضى حياته قلق الضمير ، وربما أتفق كل ما
يملكه من تراث آباءه ليرتقى الى وظيفة أعلى من وظيفته ، ويسبق من سبقوه
أو هم لاحقوه . وما الموظفون في الحكومات الاستبدادية براغبين أن يعدوا
من ممثليها ليحموا ما يملكونه من اعتداء الممتدى وتمسف الظالم كما هي دعواهم
بل ليكونوا جلادين في تلك الدولة ويسوغ لهم أتيان كل منكر ارادوه بلا وازع
ولا رادع .

ألا وان الامثال لكثيرة على من آثروا العيش الاتكالي ورضوا بالاسفاف
الى الدنيا كما صاحب الاوقاف ممن يرضون بالكفاف من العيش ويقنعون بدريهمات
تأتيهم من وراء أجدادهم ، أضيف الى مررتهم من حبسوا أنفسهم في الصوامع
والجوامع مثل المدرس والمؤذن والخطيب ممن يكتفون بالزر من المشاهرات
يقبضونها ببذل ماء الحيا ، ويصرفون لاجلها من الاوقات ما لو صرفوه في بيع
الثرى لا يثروا به ، ثم يرقبون ما يأتيهم من أجور الطلاق والمناكحات ويتلمظون
بطعام الولا ثم والوضائم ويقنعون بتقبيل الايدي ومصافحة المريرين . وكذلك
حال الرهبان والقسيسين وسائر من يتصرف باسم الدين ، وهم فائضون عن الحاجة
فكلهم يتقربون بالفاقة الى مولاهم ويستوكفون أكف الصدقات ، وينتظرون
قيم الصلوات والدعوات ، وهذا الخلق مستحکم من المسلمين بحكم التربية أكثر
منه بغيرهم من الطوائف

اليك شرح الاتكال المجسم الذي شكاه منه كبار الفرنسيين ، وهو عند
في أرقى درجاته ولا نشكو ولا نتبرم ، وأما شكواهم من كثرة المرشحيين
للحرف الأدبية فيقابلة شكوانا من قلمهم اذا لم نقل من فقدهم — يعوزنا الصحفي
العلامة ، والطابع الماهر ، والطبيب النطاسي ، والمحامي الحاذق ، والاقتصادي
المدرّب ، والرياضي المنجذ ، والطبيعي المتعقل ، والمهندس الفطن ، والسائح
الثابت ، والممثل الفاضل ، ممن تبرم بكثرتهم في فرنسا صاحب سرتقدم الانكليز
السكسونيين ، ولكننا نحن في غنية عن هذا العدد الدثر من الحاجب والسكاتب
والمصاحب ، والجاسوس والمسجل ، والرئيس والمرعوس ، بل وألوف مؤلفة من
اصحاب الرواتب بلا عمل الذين يأكلون مال الأمة بالباطل ، ويعيشون على
حائتها حملا ثقيلًا ، فلامهم بوجودهم ينفعونها ، ولا هم عن مفرمها غافلون
أين حال الأغنياء والأعيان المتهافتين على المناصب في بلادنا من أهل تلك
الطبقة في انكثرا مثلا حيث الحكومة تخطبهم ، والشعب يطلبهم ، وشتان بين
خاطب ومخطوب

كتب أحد سراق بريطانيا الى صديق له يقول : دع الناس يطلبون الارزاق
من الدولة فانا لا أنحو منحاهم لاني أقدر أن أكون غنياً بتسامي عن الدنيا ،
ولا أرتضى أن أشين خدمتي لوطني بفوائد ذاتية فاني أعمل في إستاني بيدي
وأجتزىء بالقليل من النفقة عن الكثير

وهو كما رأيت كلام من يوقن ان الامارة ليست بذهب طبيعي للمعاش بل
كلام من ارتقى وتهذب وعلم علم اليقين أن الحكومات ليست الا خادمة للأمم
وأن الشعب في غنية عنها ولا غنى لها عنه ، فتي يكون مثل هذا القول لسان حال
أعيان بلادنا حتى لا يكونوا على أمتهم أضر من العث في الصوف والدودة
في الكرمة ، ولكن المشاركة انغمسوا في مضال الجمالة منذ قرون حتى أصبحوا
يقدمون حكاهم ومن انتسب اليهم وغالوا في تعظيمهم الى أن بلغوا بهم منازل
الالوهية ، وأنشأوا يستحلون لهم المحارم ، ويطلقون عليهم ألقاب الربوبية
وما برح الناس يبحثون عن داء المجتمع الانساني ، ويصفون له الأدوية وهو
لا يزداد الا تفشيا ، وقد أعضل ما يسميه الغربيون بالمسألة الاجتماعية حتى حار

في طها رجال العلم والسياسة وأصبحت شغلا شاعرا لاهل المدارك السامية .
ولذا قال صاحب سر تقدم الانكليز السكسون : لبست المسألة الاجتماعية عبارة
عن مساعدة الافراد كما أن مسألة الحياة لا تقوم بكثرة تناول الأدوية والعقاقير
اذ ليست المساعدة أو العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا
ما أدت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة الاجتماعية
الا جعل الافراد بحيث يستطيع كل فرد منهم أن يقوم بأمر نفسه ، وأن يرتقى
بجده وعمله لان سلامة الاجتماع كالسلامة الأخروية تقوم بكل واحد على حدته
وعلى كل واحد أن يسعى اليها ، وقولي هذا لا يروق في أعين الذين اتخذوا
السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا ررقيهم من انحطاط الامة ، وضعف مدارك
الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم في بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيها
القاصرين حتى يتبسر لهم أن يكونوا عليهم أوصياء .

ونحن لو استشهدنا التاريخ لرأينا اجدادنا كانوا في منازع حياتهم أشبه
بالجنس السكسوني لا يعرفون مع بسطة الجاه واتساع الثروة والملك الا النشأة
الاستقلالية لعيدين في كل أطوارهم عن السرف والترف فقد اشتهر من سيرة
الصديق الاكبر رضى الله عنه انه كان يمدو كل يوم الى السوق فيبيع ويبتاع
وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها وربما رعت له وكان
يحب للحى أغنامهم . فله ابويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحب امامناح (١)
دارنا فسمعها فقال : بلى لعمرى لاحلنها لكم وانى لارجو أن لا نغير بى
ما دخلت فيه . فكان يحاب لهم . ثم قال ما يصلح أمور الناس مع التجارة وما
يصلح الا التفرع لهم والنظر في شأنهم فترك التجارة وقيل أراد الصحابة على
تركها وانفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم فكان الذى فرصوا له
في كل سنة ستة آلاف درهم وقيل فرضوا له ما يكفيه ولما حضرته الوفاة أوصى
أن تباع أرض له ويصرف ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين .

ولما فرض عمر بن الخطاب رضى الله عنه العطاء قال للمسلمين انى كنت امرأ

(١) منحه الباقية جعل له وبرها ولبها وولدها وهي المنحة والمنيحة

تاجرأ يغنى الله عيالى بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم هذا فما ترون انه يحل لي في هذا المال ، وعلى ساكت فاكثر القوم فقال: ماتقول يا على ؛ فقال ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره فأخذ عمر قوته . وان لنا في غير هذين الامامين من رجال سلفنا الصالح الاسوة الحسنة في فضيلة الاستقلال وترك الاتكال ولنا الاسوة في الامم الحية لعهدنا التي نرى آثارها باهتين شاخصين ، فالعبر بين أيدينا ومن ورائنا وعن أيماننا وشمائلنا ولكننا لا نعتبر

الهجرة

أربعة أحوال تعمل في نكثير سواد الامم : الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات وبقيضها تقفر البلاد وتقل الامم . ومحور الهجرة يدور في الاكثر على تحصيل القوت والفرار من ظلم خصوصاً أيام كانت المجاعات في القروزالاولى والوسطى من أكبر العوامل المهددة للشعوب وكانت تغذبة الجماعات الكبرى مساطة بمحصول السنة حتى كان تأخر وصول الحبوب المشحونة في البر والبحر يحدث مخاوف هائلة ويشير مناوشات وثورات وكانت الفوضى والحروب تجعل المواصلات صعبة أو متعذرة ويهلك سكان المدن جوعاً . وتحتكر المدن الحبوب في أماكن خاصة وتدخرها لحين الحاجة أما سكان القرى والارياف فكانوا يقاسون الامرين ولا يجدون غير الهجرة باباً لمجاتهم بارواحهم وأرواح ذراريتهم وهذا مادعا الى اقفار كثير من الاصقاع في الشرق والغرب لان من ولد من الاسر المهاجرة لم يواز عدد من فقدتهم البلاد هجرتهم لها^(١)

جاءت ازمان على البشر كان الشرق أو أفريقيا وآسيا أعمر من الغرب وكانت آسيا تقدم كثيراً من أبنائها ليكونوا جنداً في الجيش الروماني ورومية كانت حاكمة على معظم أصقاع أوربا وجزء كبير جدا من آسيا وأفريقية وسلطانها فوق

(١) كتاب الشعوب والاحلاق تأليف هري سكريتان

كل ساطان وماملوك تلك الايام الا اقبال ينخضعون لصولحان رومية وقد كنت ترى أناساً من بلاد الشام في كل مكان كما تراهم الا وكان منهم في جيش جرمانكوس القائد الروماني عدة كتائب عند ما حمل حملته على الرين .

قال سكريتان : ان القرون الوسطى ناقطاعها وما كان فيها من الخصوصية والاخلاق الوحشية وقلة المواصلات والحياة الزراعية والصناعية الاهلية وتنوع اللهجات وحكومة الجماعات Polyarchie والاشتمزاز من الحياة والتشتت السياسى الذى هو من خصائص تلك القرون كل ذلك مما يتمثل لعينى بقلة الرحال وطول اقفار البلاد فاقفر العالم الروماني وظل الشعب رماً على لسق واحد ثم راد بانشاء المدن وتوطيد دعائم المركزية السياسية التى تسهات أسبابها بنمو الموارد الاقتصادية والايدي العاملة التى أنشأتها . ومن المدن تنبعث أبداً حركة تنظيم القوة العامة . فصاحب الاملاك يعبر بما تدر عليه املاكه على حين تضطر المدن أن تطلب ذلك من التجارة وأن تضمن حقوقها في البلاد القاصية بتأمين السبل والنجارة .

كان وما المصانع العظمى الى قامت في القرن الثالث عشر للميلاد وما تلك البيع والمعابد الا ابر من آثار زيادة السكان في أوروبا وان الناس أصبحوا مهتمون لامور أخرى غير حفظ حياتهم مباشرة والسكان من العوامل الضرورية في التمدلات السياسية . وعندنا ان الشعب هو أرض التاريخ الذى تنبت فيه الأوضاع والامكار . ولما تمت النموس منذ القرن الحادى عشر في حى أسوار المدن والمقاطعات المنظمة ظهرت قوة جديدة أمام الاقطاعات وانتهى التماسك السياسى بقيام المدنية الحديثة وأدى نمو السكان نمواً عاماً بقاعده الانتخاب الطبيعى أي الافضل والاحسن الى شكل حديد في الحياة وتحسين الاخلاق وتدميتها وكثرة السكان شرط في قيام المدنيات العليا وفي تأسيس الاملاك العظمى وهى التى تزيد حياة البشر حركة وغنى وبهجة .

بعم كثرة السكان شرط في الحضارة ولكنها اذا بلغت درجة تؤدى الى قلة سريعة في المواليد ربما كان فيها الخطر على المدنية . والمدنيات لا تقوم الا في بعض أدوار التاريخ على ان الرفاهية العامة والامن اللذين هما من أهم العوامل في المدنيات

الكبرى قد يكون منها قلة عدد المواليد وهذه القاعدة تحرى في كل مكان اليوم في المانيا وايطاليا وانكترا وقد كانت فرنسا أول من وصلت الى هذا المعدل فتعدت وفيانها مع ولاداتها مع أن فرنسا كان عدد سكانها في أواسط القرن الثامن عشر عشرين مليوناً وانكترا ثمانية ملايين واسبانيا ثمانية وايطاليا عشرة و المانيا كلها مع النمسا وتوابعها اثنين وعشرين مليوناً وروسيا في أوروبا اثني عشر مليوناً وقد زادت كلها على كثرة من هاجر منها الى أميركا في القرون الثلاثة الاخيرة ومع هذا زادت كل مملكة ولكن زياده بلاد الانكليز والجرمانيين كانت أهم وأعظم فبلغت بريطانيا العظمى اليوم نحو خمسة وأربعين مليوناً وفرنسا نحو أربعين مليوناً والمانيا خمسة وستين مليوناً والنمسا والمجر خمسة وخمسين مليوناً وايطاليا خمسة وثلاثين مليوناً واسبانيا ثمانية عشر مليوناً فمنها ما تضاعف ثلاث مرات ومنها مرة ومنها مرتين .

وقد نفي سكريتان أن تكون قلة السكان ناشئة من فساد الآداب وقال : ان الروس باقرارهم أنفسهم من أعظم الموغلين في المناسد والموبقات ومع هذا يزيد سكان الارياض عندهم . والسبب في قلة المواليد هو في الحقيقة ارادة الرفاهية . الولادة لا تشكو من الفقر ولا من حرية الفكر ولا من حرية الاخلاق وما خرابها آت الا من كثرة الحذر الذي هو ابن الطمع .

عرف السوري منذ القديم بحب الهجرة للكسب واحراز المجد والفينيقيون أو سكان الساحل الاوسط من هذا القطر كانوا رواد الحصاره وربابنة البحار في سواحل البحر المتوسط حتى بلغوا شطوط الجزر البريطانية في أقصى شمالي أوروبا وانشئوا المكاتب التجارية في جنوبي القارة الاوربية وشمالي افريقية وكان من أحلاقهم ما يشبه هذه الاعمال والهجرات ولا سيما على عهد الحكومة الرومانية حتى اذا جاء الاسلام كانت منهم جيوش وقواد وقضاة تسافر الى القاصية ورجال الشام كانوا في مقدمة الفاتحين للاندلس في الغرب وهم الذين فتحوا الفتوح في الشرق وأوغلوا فيها حتى وصلوا الى بكين عاصمة الصين وضربوا الجزية على صاحبها . وبعد فان فتن التتار والصليبيين أضعفت حال البلاد وقلت سكانها خصوصاً

على عهد حكومات الاقطاعات الظالمة فقلت الولادات وكثرت الوفيات والامة المظلومة في الغالب يضعف تناسلها ويكثر الموتان في اولادها بل تندر النضرة في وجوه أهلها ولم تقصر الحوادث السماوية في انتياب هذه البلاد فكانت الزلازل والابوثة تحصد أهلها بالالوف وما بقي منهم يهلكه الظلم . وقلة العلم .

حتى اذا جاء القرن الماضي وبشر حط كلخانة ووضعت المنظمات الخيرية ودخلت البلاد العثمانية في طور أحبب فيه احتداء مثال الغربيين في ادارتها وضعفت ساطة العمال بعض الشيء وقوى ارتباطهم بالمركز خصوصاً بعد انشاء الاسلاك البرقية التي سهلت وصول الشكاوى الى العاصمة بعض التسهيل وأخذ الفلاح يأمن على ررعه وضرعه بالنسبة لهاضى والتاجر في المدن قد تنجو من البوائق متاخره وكثر بعد حوادث سنة ١٨٦٠ احتلاط أهل هذا القطر بالغربيين وأنشأت الجمعيات الدينية مدارسها الراقية في المدن والقرى . بعد كل هذا عادت النفوس بسمو خصوصاً في لبنان بعد نظامه الجديد وارتفاع أعلام الامن في ربوعه وأصبح من الندرة الاغتيال والاقتتال فيه فكثرت نهوسه .

واذا كانت زراعة لبنان ضعيفة بعد بين الزراعات في الدرجة الثالثة أو الرابعة لم يقم بمعاش سكانه فاحدوا يهاجرون أولاً الى البلاد القريبة منهم ولما تنوفات الانباء عن نجاح جماعة من تجار بيت لحم في أميركا سميت الهمة بمعصمهم الى السير على آثار من سبقوهم وساعد على ذلك اتصال آسيا بأفريقية وأوروبا وأميركا بالبوأخر هوفق بعض من هاجروا من لبنان الى جمع حانب من المال فاشتهر بين قومهم بجاحهم وأخذ تبعهم في خطتهم الاقرب فالاقرب من سكان البلاد وكان أهل الجبال وهم معتادون القلة وشظف العيش في الجملة هم الناهصون لهجرة بلادهم ولم تمض بضع سنين حتى سرى داء الهجرة الى الاصقاع المنحسبة من أرض الساء مثل وادى الاردن ووادى العاصى وسهل المقاع وسهل حوران جارها جبال لبنان وجبل عامل وحبل حرمون وجبال عكاء وجبال الاكام وجبال الخليا واشترك السهل والوعر في الهجرة ونال من آثارها دمشق وبيروت وحلب والقده كما نال أحقر قرية

واشتهر في الاكثر من ارتاشوا واغتنوا وآبوا الى بلادهم فعمروا لهم دور

على الطرق الغربية واقتنوا الاملاك وأقاموا العقارات وأخذوا بحظ من الرفاهية ونسى الناس أو لم يذكروا من هلكوا وتشتتوا فما عتمنا وقد حسبنا الراحل عنا والراحم الينا الا وقد أصبح المهاجرون زهاء أربعمائة ألف رجل على أقل تقدير من السكان مها بالغا في تقديرهم وعددنا في جملتهم بعض البوادي لا يبلغون أكثر من أربعة ملايين وقدر بعض الصحافيين عدد المهاجرين من السوريين بخمسمائة وسبعين ألفاً وغالى بعضهم وقدرهم بزهاء مليون ويمكن أن يجاب عن هذا التقدير الكبير بالاثر الحادث عنه أى باضافة عدد من الاولاد الذين كانوا يولدون لهذا القدر من المهاجرة لو بقوا في بلادهم من أرواجهم أو تزوج العزب منهم في السن المعينة للزواج في هذه البلاد

خسرت البلاد من وجهين في الجملة وربحت من وجهين خسرت البلاد من عمل هؤلاء الشبان المتغيبين سنين عن أوطانهم وعن تعطلهم عن التماسل وربحت مما حملوه الى الشام من النقود والتهديب الغربي ولكن الخسارة أعظم بدليل أن الثروة هي العمل لا النقود كما يقول علماء الاقتصاد وأن التهديب الذي حملوه ناقص لانه علمهم أموراً رفعت من شأنهم فلم يعد يستطيع المهاجر أن يقيم في قرينه اذا آب اليها بعد تغييبه عنها اضع سنين اذ يرى المرق محسوساً بين ما شاهد في بلاد غيره وعهد في بلاده وبتأدب من عمله الصغير في الزراعة أو الصناعات الصغيرة فلا المبت أن يعود أدراجه الى أميركا ويخمار الموت هناك على النقاء في أرض دلة وقلة .

ولذا لا تعجب اذا رأيت مئات من الدور المخرمة التي عمرت بدراهم أميركا في هذه الديار خالية من سكانها ياعب فيها الحرد والفار ولا من يقطنها لان بنتهم عادوا فرحلوا اما طلباً للثروة غير التي نالوها وصرفوها كلها في الشاء دورهم واما لضيق صدر ناهم من سوء ادارة وفساد نظام وهذا قليل .

قال قنصل فرنسا في تقريره الاخير على بلاد الجليل : ان هؤلاء المهاجرين ينفعون بالاجور التي يؤدونها لشركات الملاحة ولكنهم يضررون البلاد في ارتقاءها الاقتصادي اذ يجرمونها من الايدي العاملة وقد نجحوا بأن أسسوا في البلاد التي هاجروا اليها (أميركا الشمالية والجنوبية وأستراليا وأفريقية الجنوبية أو مصر)

مستعمرات مهمة للغاية وكثير ممن غادروا بلادهم حفاة لا يملكون أجرة المركب الذى يقلهم وهم فى الدرجة الرابعة قد عادوا اليها يحملون الدنانير فى جيوبهم أو الاوراق المالية . وقد اقتبسوا الاذواق والعادات الغربية وأنشأوا يستخدمونها فى بيوتهم وهم يتعاونون الاراضى وينشئون الزراعات الكبرى وأكثر العائدين منهم على ما أظن هم اللبنانيون والبقاعيون .

قال : وأما سبب الهجرة فلارتفاع وصاية الحكومة عليهم ولعدم قوانين لحماية الزراعة ولندرة معاهد المعاونة والاحسان ولارهاق العشارين والمرابين ولكسل لا تنفض غباره الا بالاقلاع عن البلاد وحباً بالارباح السهلة واقتداء بمواطنيهم المغننين ولحذب البلاد الجديدة لهم . ويبدأ نرى الوطنيين ولا سيما من سورية يهاجرون نرى الاجاب يهاجرون اليها ولا سيما فى فلسطين (أى الصهيونيين) اه .

واعد فقد كانت الهجرة مقصورة نادىء بداء على المسيحيين فأخذوا منهم المسلمون يقتفون آثارهم وكثر المهاجرون من جميع الطوائف فى السنين الاربع الاحيرة عند ما طبق الحكومة قانون الحندية على عامة شبان هذا الوطن فكان الوالد يسفر ولده فى العشرين والخامسة والعشرين فأشأ يرحله اليوم فى الخامسة عشرة بل وفى الثمانية عشرة لينحو من الخدمة العسكرية أو ليجمع بدله القدى قبل أن تسببه القرعه وبعداً أن تفاقم شر الهجرة فى الابد الاخير أرادت الحكومة أن تمنع الشبان من السفر وكان ذلك مورد عبس جديد لارتشاء بعض الولاة والمتصرفين والقائم مقامين ورجال الشرطة وكثرت سماسرة المهاجرة حتى لم يتركوا مزرعة الا ولجوها وأخرجوا منها أعزة أهلها وسلبوا لهم سبل الهجرة ووجد حتى العقير المعدم من يقرضه على أن يوهيه من عمله فى ديار المهجر وزادت المنافسة بين شركات الملاحة فاصبح السفر ميسوراً من بيروت الى نيويورك بعشر ليرات وزاد الصادر وقل الوارد . وكلما أمل المؤمنون أن تهدأ أحوال البلاد تعقدت مشا كلها الداخلية والخارجية وانتشرت عن البلاد أخبار السوء فتأخر عن العودة اليها أبناؤها الذين هجروها .

هذا والحكومة لم تتذرع بأدنى سبب لنزع هذا الخلل فى حياة البلاد من

أصوله بل ان النوائب الاخيرة التي صادف وقوعها في عهد الدستور لم تزد البلاد الا فقراً اذا اضطرت الحكومة أن تزيد الضرائب والعشور والرسوم فضعفت الزراعة وأكثر من ثلاثة أرباع هذه الامة تعيش من أرضها وارتقت أجره العامل الى أعلى من مفسوبها فاصبح في بعض الاصقاع الزراعية من المتعذر القيام باعمال الزراعة على ما ينبغي لصاحب ملك ومزرعة لأنه اذا أعطى العامل في اليوم ثلاثة أرباع الريال أو الريال لا يبقى له في آخر السنة ما يوارى نصف أبحار أرضه ولولا أن بعض البلاد التي أعوزتها اليد العاملة مثل البقاع استعاضت عنها بما حلبته من الآلات الزراعية الحديثة كالخصادة والدراسة والحراثة والذراية والطحانة لأمست رراعتها باثرة ولوجرى أهل هذا القطر على سنة أهل أطمه (أذنة) في قلبقية من آسيا الصغرى وأكثروا من الادوات الحديثة لهم الغنى وعوضوا ما فاتهم من عمل العاملين ولعاد حديبها خصيباً ونالوا من أسباب الثروة حظاً عجبياً .

اذا قدرنا ثروة السوريين في مصر والسودان وأميركا وكندا وأستراليا والترانسفال ومدغسكر والسنيغال بمئة مليون جنيه (١) وهو أقل تعديل لان نصف هذا المبلغ يملكه السوريون في مصر فقط وفرضنا أن نصف المهاجرين أحبوا العودة الى أصقاعهم يحملون خمسين مليون جنيه من المقود وما ركوه وتعلموه من أساليب الصناعة والزراعة والتجارة تفتح نالطبع موارد اقتصادية جديدة في البلاد اذا صحت قبل كل شيء نية الحكومة على توطيد دعائم الامن واحقاق الحق وذلك باختيار طبقة راقية من العمال والضرب على أيدي الجاهلين والمرتشين منهم .

نعم اذا قامت الحكومة بواجبها الادارى تستميل المهاجرين الى العودة وتحبب اليهم بلادهم التي يؤثر أن يكون لهم في ربوعها من المغنم نصف ما يتمتعون به في ديار المهجر فتقوم سورية وحدها بعد اضع سنين بسد العجز من ميزانية الدولة العامة مها كان مقدارها .

* * *

(١) لا تقل في الحقيقة ثروة المهاجرين من الشاميين عن ثلثمائة مليون ليرة ذهب

وبعد فيكاد يكون في درجة الثبوت ان البشر نما عددهم منذ عرف التاريخ على الرغم مما نالهم من الطوارئ التي ذكرها التاريخ من مثل الحروب والأوبئة أو الاسباب الاخرى التي تمقر النمو وتقلل التناسل . ومع هذا فقد كان النسل كثيراً في أوربا منذ بضعة قرون وان كان يكثر موت الاولاد في الطفولية أكثر من اليوم وتلهم الاديار جانباً من الرجال والنساء تتعطلون عن التناسل وليس ترك الارياف والقرى ونزول الحواضر والمدن مقصوراً على بلد خاص أو صقع معين بل هو ظاهر في كل مكان في البلاد الاوربية القدمة مثل سويسرا والمانيا وفرنسا واسبانيا ونروج والبلجيك وهو لاندرة ظهوره في البلاد التي أحد سكانها بالنمو مثل الولايات المتحدة وكندا واوستراليا فترك الارياف عام يشترك فيه جميع الاجناس : السلتيون كاللاتين . والسلافون كالروس والبلغاريين . والسكسونيون كالانكليز ولا يظهر أدللاوضاع السياسية والاجتماعية دحلا فيه وما من حكومة من الحكومات خالية منه حتى ان طريقة تقسيم الاملاك لا تمسك الانسان في الحقوق وليس في قوانين الموارد ما يظهر انه أسمى من غيره فقد خضعت لسلطان الهجرة حتى البلاد المتناسكة الاجزاء مثل فرنسا واسبانيا والمجر وروسيا والولايات المتحدة واوستراليا والارجنتين فان أصفاءاً كبيرة اسعمرت منذ زمن طويل في الولايات المتحدة ولاسيا ولايات اديكتررا الجديدة قد خصصت لهذا النظام فترك أهلها قراهم لينزلوا الحواضر يسكنونها فتمت بذلك المدن عواً هائلا بالنسبة لمجموع البلاد فقد بلغ سكان مدينة بونس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية مايوناً وثلثمائة الف في حين بلغ سكان جميع هذه البلاد ستة ملايين نسمة تدخل فيها العاصمة ومساحة أراضي الارجنتين خمسة أضعاف مساحة فرنسا وهكذا تجد النمو بادياً في مدن الولايات المتحدة كنيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وسان لوى وساسيناتي وبوسطن وسان فرانسيسكو وستل وأورلبان الجديدة كما هو باد في ملبورن وسدني من عواصم أوستراليا

هذا ما قاله أحد الاقنصادين في جريدة الافتصاد وعقب عليه بقوله تحمل رؤوس أموال كثيرة من العالم القديم أي من أوربا تستثمر في العالم الجديد فالمليون من الفرنكات يستثمر في أرض فرنسا فيعود بربح سنوي يختلف بين ثلثمائة

أو مائتي ألف فرنك اذا حسبنا جميع الايدي التي تتناولها فنخرج منه على حين لو جرت تنمية هذا المليون في البلاد الاجنبية لا تعود من الفائدة بأكثر من ٤٠ الى ٤٥ ألف فرنك .

ان من يهاجر الى القاصية كمن يتركون قراهم ليستوطنوا المدن المجاورة يبحثون عن رفاهية أسمى مما تتمتعوا به ويظنون بأنهم يحققون أمانهم في النجاح بانتهالهم الى محيط يصفون فيه قواهم بما يعود عليهم بالنفع أكثر ومعنى ذلك يدور على البحث عن أجرة أكثر وهذا هو الباعث الاول على هذه النقلة بل الباعث الوحيد فالاحور هي العامل الوحيد الذي يدعو الناس الى التنقل في عصرنا أما حب الهواء الجيد والحياة الاجتماعية ولطف الاخلاق وسلاسة العمل فلبس لها محل من الاعراب في جملة هذه الحال

ترى العامل في الولايات المتحدة وأستراليا يتنقل من المدن الى القرى وبالعكس لان الاجور واحدة في الزراعة والصناعة وكلها راحة والقاعدة العامة في ذلك اذ المدن والقرى تمسك السكان متى كانت أحورهم مضمونة وحالهم مأمونة فقد فل المهاجرون من المانيا منذ كثرت صناعيتها ونمت بحريتها وتجارتها ويقل المهاجرون من المجر وروسيا وايطاليا متى حسنت حالة الزراعة فيها وانتظمت أسباب التملك وجودت الاسباب الاقتصادية أي الاحور فادا كانت البلاد الجديدة تستميل اليها المهاجرين بمئات الالوف بل بالملايين فذلك لانها توزع أجوراً عالية وأوربا وانكلترا وفرنسا واسبانيا وايطاليا وروسيا والمجر تبقى اليد العاملة في الحقول اذا ارتفع سعر الاجور الزراعية وذلك لا يكون الا بتبويض الزراعة وتكثير المحاصيل والمواشي وتكثير الايراد ولو قلت أسعار الحاصلات

ان هولاندة التي نعتت مجموعها أرحاً فقيرة لان في استثمارها صعوبة قدكثر سكانها اليوم كثرة زائدة بفضل عملهم بحيث حق على الهولانديين ما قاله فرنكلين « بالقرب من رغيف الخبز بولد رجل » والمرء كلما دفعته الحاجة يحسن الاحتمال على المعاش وأميركا وأستراليا الى اليوم لم تستثمر من أرضها خيراتها كلها بل ان خصبها هو المساعد فقط على العكس في غربي أوربا فان العمل هو الذي يستثمرها وبعد فان المجتمعات لا تتحرك بالنظريات بل بالعمليات وكل نظرية تخالف المصالح

الحاصلة المبنية على العدل لا يتأتى أن تجرى في العمل الا اذا جعلت هذه المصالح قيد النظر

الهجرة الى مصر^(١)

اذا كان أصلي من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربي
دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها
ويسيطروا على المخلوقات كلها ، فالارض هي المرل العام يجاس أهله في أى ناحيه
منه أحبوها وراقتهم ويتنفلون في بقاعها وأصقاعها ، ووهادها ونجادها ، وسهلها
وحزنها ، وبحرها وبرها . على حسب ما تقضى أحوال الصحه . وطبائع الاجسام ،
وخواص النفوس .

فقد هاجر المينيقيون قديماً وأقاموا قرطجة ، عمروها وغيرها من شواطئ
البحر الرومى . وهاجر الفوط من حرمانيا الى حموبى أورنا وداهموا المملكة
الرومانية . وهاجر الروم من بلادهم الى شواطئ البحر المتوسط وحزره وشواطئ
البحر الاسود وبلادهم وعمروها . وكثير من الامم أمثالهم غادروا مساقط
رؤوسهم ، واتخذوا لهم بلاداً ثابته استعمروها .

وهاجرت في العهد الحديث أمم كثيرة ، وأهم هجرة وقعت هجرة الاوربيين
الى أميركا . عمروها بجسدهم الابيض بعد أن كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك
هجرة الهولاندين الى جنوبى أفريقية وهجرة الروس الى سيبيريا ، وهجرة القافقاسيين
والجرا كسة الى البلاد العثمانية . وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا ، وهجرة
المسلمين الروسين الى أميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والنقل فى الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة
من طبيعة جريتهم يعمدون اليها طلباً للكلا والمراعى . أو للتجار بنتائج واشيهم
وحاصلاتها ، وأول هجرة فى الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة وأربع نسوة
وقيل أكثر أمرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلًا:

(١) نشرت فى المجلد الثانى من مجلة المقتبس (١٣٢٥ — ١٩٠٧)

لو خرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه فخرجوا ثم عادوا بعد سنين ، وهكذا هاجرت العرب الى فارس ومصر والشام وأفريقية والاندلس والسند وكشغر لما فتحت . ولولا إقدامهم على الهجرة ما رأينا الاسلام منتشراً في قلب آسيا وأفريقية

ولا تزال الى اليوم تشهد أثراً من آثار حب العرب للهجرة وقد زادها اليوم قرب المواصلات وسهولة السفر . نرى أهل حضرموت في جنوب الجزيرة يهاجرون الى حيدر آباد الدكن الهندية فيكون معظم حيش البلاد منهم . ونراهم يهاجرون الى جاوة فيكثر فيها سوادهم ويعتنى بعض أفرادهم ، ونرى النجديين يهاجرون الى الهند في التجارة ثم يستوطنونها ويصبحون فيها أصحاب كلمة وثقافة . واشهد السوريين يهاجرون الى أميركا وأفريقية فيرتاشون ويتألون .

وانهيبال السوري على هذا القطر (المصري) خاصة قديم جداً يصعب تعيين رمنه لانصالة ببلاد الشام براً وبحراً ، ولم تكن القوافل في الاسلام تنقطع في البر كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر في البحر ، ولم تبرح بلاد الشام مصيف مصر واحداها مكلمة لعمران جارتها . وقد وصف ابن فضل الله العمري في التعريف بالمصطلح الشريف طريق القوافل بين القطرين كما عقد القلقشندي في صبح الاعشى فصلاً في مراكب الثلج الواصل من البلاد الشامية الى الملوك بالديار المصرية . ومصر ما برحت كما وصفها ابن خلدون في القرن الثامن (استان العالم . ومحشر الامم ، ومدرج الدر من البشر) .

بعم هي محشر الامم ولا سيما الامم المجاورة لها من البر أو المناوحة لها من سيف البحر . وذلك لان عمراتها طبيعية مستمرة في معظم أدوارها ، فلا عجب اذا كانت مهاجر الامم من عرب وعجم ، قبل أن تكون نقطة الاتصال بين قارات أوروبا وأفريقية وآسيا بفتح ترعة السويس ، فما بالك بعد أن تم لها ذلك ، فمصر والحالة هذه مقصودة من أقطار الارض أكثر مما يقصد أهلها سائر الاقطار ، والامة التي تكثر في الغالب خيرات بلادها لا يهون عليها مغادرتها ، وطلب الحاجيات هو الباعث الاقوى على المهاجرة ، فاذا كفيها المرء يصاب بالوفاء وضعف العزائم .

وما فتىء السوريون والروم والترك والمغاربة مذ كانت حكوماتهم تتغلب على مصر ينزلون بلاد النيل ، فالروم حكموها زمناً طويلاً وكذلك الترك والعرب والجرانسة ، فكان من هذه العناصر أن زلتها بكثرة وأصبح أكثرهم فيها عمالاً وحكاماً وقضاة ، ورؤساء جند وعلماء ، وأرباب صنائع وتجارة ، ولم تكثر هجرة الاوربيين اليها الا عقيب الاحتلال الفرنسي عند ما بدأ الفرنسيون والاطليان والمجر وغيرهم من أمم الغرب يهبطون اليها ، وقد كثر سوادهم على عهد الخديوى اسماعيل لانه فتح أمامهم طرق الهجرة ، وأحسن معاملتهم ووفر لهم المغام وطرق الكسب .

ولما قبض رجال الاحتلال من الانكليز على أزمة الاعمال أخذ الناس يفدون على مصر من كل فج عميق ، حتى انك لتجد فيها الآن من جميع الشعوب واللغات أناساً أسسوا فيها الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية ، وكثير منهم اغتنوا من خيراتها بفضل كدهم ، وقد قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه أى بعشر ثروة القطر وهكذا سائر الامم ولا سيما الروم والاطليان والفرنسيين فان فيها من هذه الاجناس ألوفاً اغتنوا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم ووطناً ثانياً لهم ، وحال مصر اليوم مع المهاجرين اليها يختلف عن حالها مع أمثالهم فى القرن الماضى لان ثقة الامم تزداد بها الحين بعد الآخر ولان الاساس الذى قامت عليه حصارتها اليوم اساس مالى زراعى . خصوصاً وقد طهرت الآن نتائج ما تعب القابضون على أزمة سياستها سنين فى تأسيسه ، واشتهر ذلك عند الخاص والعام فى الاقطار النائية بما يتصل بهم من أخبارها وأخبار من يفتنون من المهاجرين اليها ممن توفرت لديهم رؤوس أموال أو كانوا من أرباب العقل والعمل فكانت مصر ميداناً لظهور آثارها ، وربما لا يذكر الناس الا من نجحوا وقلما يذكرون من أخفقوا . عادة فى البشر ولعابها من موجبات أقواءهم على الكسب والكسب فى هذه الدار .

ولقد ساعد على كثرة الهجرة اليها حال بعض البلاد المجاورة لها من حيث اجتماعها ومادتها . فترى سكان جنوبي ايطاليا القاحلة يهاجرون اليها أكثر من القاطنين فى الشمال منها لان شمالي ايطاليا مخصب وأهلها مكتفون بما تجود به عليهم

أرضهم وسماؤهم ، وكذلك تكثر اليها هجرة سكان جزائر البحر الرومى ولاسيما بلاد اليونان الجديمة وأهل سواحل الشام وجبالها .

هذه مصر من حيث مهاجر الامم فهى دولية كما يقول الساسة أو مشتركة بين أجناس وأديان شتى ، والتاريخ يشهد انها كانت رحبة الصدر بالوافدين عليها فى كل العصور . ثابن عريكة أهلها ، ولم يحدث هذا التمييز بين سكانها الا عندما أراد مهاجرو الاورنجة أن يستطيخوا على أهلها فحدثوا لهم ما يقال له « الامتيازات الاجنبية » التى تخولهم من الحقوق ما ليس للوطنى مثله ثم كثر توارد الاخلاط عايتها ولم يكن الوافدون اليها على غرار واحد بل كان منهم المنورون العالمون وهم أفراد ، ومنهم المتعلمون المهذبون وهم أكثر ، ومنهم العامة الاميون وهم السواد الاعظم ، ومعظمهم طلاب رزق وسوقة نازعوا ابن البلاد وربما غلبوه لان من جاء فى طاب غرض يحوط الى الوصول اليه ، والغريب فى الغالب يكون احراً وانشط من الاصيل لان الغرة فى ذاتها امارة من امارات النشاط

وطول مقام المرء فى الحى مخلف لدباحته فاغترب تتجدد

والامثلة كثيرة فى هذا الباب . من القديم والحديث فليس لاوafd ما للقاعد من الجول والاتكال ويكفى ان فى لندنرا لهذا العهد وهى مهد الصناعات والارتقاء رهاء مائتى ألف رجل من رجال الالمان اسنولوا على أعمالها المالية واستأنروا بها دون ابن البلاد المتعلم المنور الذى لا يقل عنه فى مواهبه . هداى عاصمة انكلترا فما الحال بمصر وأكثر الوافدين اليها هم من الشعوب القوية ومن أهل البلاد الباردة التى تبعث النشاط فى قلوب أبنائها وأجسامهم وعقولهم فيتخذون عدتهم استعدادهم . وكدهم رأس مالهم . وعتادهم وذخرم قصدهم واقتصادهم . على حين قد أتت على الوطنى أرمان من الفوضى ضعفت بها قواها فصيح لا يقوى على العمل الا اذا عوده زمناً ولفنه بالتعليم والتربية ، وقد نجأتة الثروة والحرية مفاجأة بهرته وحيرته ثم ان ابن البلاد فى الغالب لا يسف الى المكاسب التى يتنازل اليها الغريب فالاول يدل بأرومته أو يعتر بأمته ، والثانى يدل فى سد حاجته ، ونيل بغيته .

والأولى الحكمة المرسلة على يد العارفة البالغة أذالها بكاديف

في الدخيل سنت لا نحة صعبت فيها على النازل في مصر أسباب الحصول على حقوق
الوطني الا بعد مقامه خمس عشرة سنة واشعاره الحكومة بعزمه على تغيير
جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين . فكانت هذه الأئحة غريبة في
بابها منعت بعض الطراء على القطر من ولوج باب الاستخدام في دواوين الحكومة
وحظرت عليهم تعاطي الاعمال الادارية والسياسية الا انها صرفت وجهتهم الى
اتخاذ الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعمالية الحرة ، فافلحوا أكثر مما لو
كانوا حصروا كدهم في الوظائف الاسكالية ولم تحقق عليهم كلمة « مصر للمصريين »
ومن هنا نشأ بغض كثير من المصريين للغرباء . كان السبب في ذلك أولاً منافسة
هؤلاء لأبناء البلاد في اختيار الوظائف ، وساعد عليها ما ألقته بعض الجرائد
المسموعة الكلمة من عبارات التفارقة ، وهناك أسباب أخرى قواها أرباب
الاهواء والغايات فانتقلت بالتقليد الى العامة ومن نحا منحاهم من الخاصة .

وليست الشكوى التي شكوها بعض الوطنيين من الوافدين في محلها كلها
لان من اغتنى بكده أو بطرق غير شريفة فاعما غنمه له وغرمه عليه . ولو نسي
لابن البلاد أن يعمل عمله ما تأخر ، وباليات خاصة هذه البلاد يسعون الى نزع
هذه الاوهام من عقول العامة حتى لا يبغيصوا غيرهم بسبب وبلا سبب ويمتدح
بعضهم مع بعض لتحيل بوثقة مصر ذلك الدخيل الى المعدن الذي تريد أن يكونوا
كلهم عليه فقد ثبت أن هذه البوثقة المصرية أعانتها مما مضى التركي والالباني
والجركسي والكردي والحجاري والبياني والمراقي والشامي والمغربي والسوداني
والرومي والمارسي فأتى منهم بعد مقامهم فيلا في هذا لوادي مصر بون يغارون
على مصلحة مصر وكثير منهم يعموها وحدها بعقولهم وأيديهم أكثر من
خدمة أبنائها لها تحت أسم مصريين . وما كان قط بقعة من الارض معلومة
الحدود والمساحة وقما على جس خاص من البشر لا يبارعها فيه مبارع اسرح
وتمرح فيها ما شاءت ، فالارض أرض الله ، والناس عباد الله ، وما أحلى بيت
البحثري في هذا المعنى .

ولا تقل أعم شتى ولا فرق فالارض من نربة والناس من رجل
وكل من بطر في نهوض الامم لا يعتم أن يرى بأن كل أمة ربيب على كرم

غيرها وتجاقت عن الاحتلاط به وحسن الانتفاع منه تخنى من الخسارة أكثر من الربح ولقد كانت بغداد من أكبر أمثلة التسامح في البلاد الإسلامية رفعت مقام الغرب وأحسنتم الاستمادة منه فكان يعد بغدادياً كل من دخل بغداد ، تساوى في ذلك عجميها وديلميها وعربيها وتركيبها ، ولسطوريها وروميها ومجوسيها ومساهيها ، جُمع العدل من شملهم ، وآخت الراحة بينهم ، وعد سواء في النسبة اليها من نزلها اليوم ومن نزلها منذ قرن ، وقد أطن على تكوين هذا المزيج انتقاء الحسنة في الاسلام ، ورفق المسلمي بأهل ذمتهم ، ولولا ذلك ما قامت تلك الحاضرة التي نسبت للمسلمين العرب مع أن أثرهم فيها كأثر غيرهم من الاجناس والأديان ، ولكن العمل مشترك وهو منسوب لصاحب البيت ، كالجنود يشقون في الحرب ثم ينسب النصر لقائدهم .

وانا لانزال نقول ان من حظ مصر أن تكون البلاد المجاورة لها محتاجة اليها حتى أشبهت فاس في القرون الوسطى لما تواتر عيث الاعراب على القيروان واضطربت قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت محمد بن أبي عامر وابنه ، فرحل من قرطبة ومن القيروان من كان فيها من العلماء والفصلاء من كل طبقة فنزل أكثرهم مدينة فاس . قال صاحب المعجب ، في الثلث الاول من المئة السابعة : ان فاس اليوم على غاية الحصار . وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الاقليم ، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك وقال : ان القيروان كانت بمد الفتح الى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب اليها نسب أكبر علمائه واليها كانت رحلة أهله في طلب العلم فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها في كل وجه فمنهم من قصد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس .

قصدوا فاس كما قصد الاندلسيون بلاد مراکش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام لما أذن الله بانقراض دولتهم فعدوا من أهلها بل كما رحل الايطالي والالمانى والاسباني والانكليزي والفرنسوي الى أميركا لما صاقت سبل الرق في وحوهم فعدوا أميركيين وأنشأوا يخدمون أميركا أكثر من خدمتهم لبلادهم

حتى اذا تناسلوا فيها جاء أولادهم أميركيين صرفا . وكلما ارتقت الامم تتطال الى ادماج غيرها في مجموعها ، والامم الافرنجية اليوم أكثر تسامحا في هذا المعنى من الامم الشرقية كما يظهر بالاستقراء .

قال ابن حزم الاندلسي : ان جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين دون محاشاة أحد بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكانها الى أن مات فان ذكروا الكوفيين من الصحابة رضى الله عنهم صدروا بعلى وابن مسعود وحذيفة رضى الله عنهم وانما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهرأ (قال ابن حجر صوابه أربعة أعوام) وقد بقى ٥٨ عاما وأشهرأ بمكة والمدينة شرفها الله تعالى ، وكذلك أيضا أكثر أعمار من ذكرنا وان ذكروا البصريين بدأوا بمران ابن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكره وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف وجمهرة أعمارهم خلت هنالك وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عبيدة ابن الجراح ومعاذ ومعاوية والامر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم وكذلك في المصريين سمرو بن العاص وخارجة بن حذافة المدوى وفي المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن فصصنا فيمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وحلافه محرم اقتراه ، ومن هاجر منا الى غيرنا ملاحظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به .

التفاضل بالبلاذ

ألف الناس التمجيد بالبلاذ والآباء والأجداد والمال والبنين عادة في البشر تكثر فيهم بكثرة الجهل ، وتقل بانتشار العلم . ولقد كان لأهل هذه البلاد من هذا التمجيد الباطل قسط وافر ساعد على انماؤه في النفوس جهل بعض ولاية

الأمر السالفين واتخاذ هذه الأضاليل حجة على من يريدون مناوأة وارجاعه إلى الطاعة . لطالما خطب الحجاج في أهل العراق ووصفهم بقوله أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق وأطلق عليهم من قبله ومن بعده من أمراء ذاك القطر مثل تلك الصفات . وما كانت هذه المعاملة لأهل العراق الاسياسية ولو كانت أخلاقهم كذلك وكان فيمن ولى رقابهم علم وشفقة لسمى السعى الحثيث إلى نزعها منهم بحكم العادة والاسوة والقدوة ، ولعل هذه الدعوة كانت جملة فلسفة أولئك الحكام وبيت قصيد حملهم على رقاب الناس ، وكان من أهل الشام أن ومهم أعداؤهم بكل كبيرة وألصقوا فيهم باطل التهمات . وهكذا الحال بين الشام والحجاز والشام والعراق .

فإن معظم المؤرخين والمؤلفين نبغوا في العراق فأكثروا في مصنفاتهم من الاحاديث الموضوعية على أهل الشام لقلّة من كتب من هؤلاء ودافع عنهم . ومثل ذلك قل في المغرب مع مصر ومصر مع الشام وفارس مع الهند وكلها في الحقيقة سفاسف لا تساوى درهما عند المحققين . وما البلاد في أمر الافضلية إلا سواء لا يفضل شرق عن غرب ولا جنوب عن شمال الا بالعلم النافع والأدب الرافع وال عمران والسعادة . ولذا ضل رأى من وضعوا من المتأخرين كتباً خاصة في فضائل بلد أوقطر . وأضل منهم من وضعوا أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم في تفصيل مدينة أو بلد كما ضل من وضعوا الموضوعات طعنًا على فئة خالمت ما هم عليه .

وبعد فالأرض كلها سواء في هوائها ومائها ، دحاها الله ليعيش فيها البشر ويتنقلوا في أقطارها وقد لا تخلف الاقطار المتناحية في قوة الانبات الا قليلا فليس من العقل أن تمدح بلد لجبل فيها ، أو سهل فسيح حواليتها ، أو نهر كبير يمر في وسطها ، ولا أن تدم أحرى لحرارتها ، أو لضيق حرارتها وجاداتها .

وكانت مصر ولا تزال مثلا منذ ألوف من السنين طريدة من الأرض عرفت بخصبها وغناها الطبيعي . وكانت الشام ولا تزال منذ ألوف من الأعوام مشهورة باختلاف أهويتها ، ورقة نسيمها ، وتنوع جمالها وأوديتها فاعد ذلك فضيلة للأولى على الثانية ولا للثانية على الأولى . بل حسب لهما خاصية يمتاز بها كلا

القطرين بعضهما عن بعض . وقد أنصفهما في الوصف أحد عمال الدولة وقد سئل عنهما فقال : مصر مزرعة ممرعة والشام مصيف بهيج

ان كان ماتفاخر به البلاد بعضها بمضاهاذا اذا سوغنا التفاخر فبالعلم والتربية وغلبة الفصيلة والخير على طبقات الناس كلها ، لا بالماء والهواء والواحات والجبال والاوودية والاشجار والأثمار وكل ما وزعته الطبيعة بين بلدان العالم فنال كل منها بحسب حالته . دخل أبو الحكم المغربي الاندلسي الحكيم المرسي مدينة دمشق فلما حل ظاهرها سير غلاماً له يبتاع لها ماياً كلانه في يومهما وأصحابه نزرأ يكفى رجلين فعاد الغلام ومعه شواء ، وفاكهة وحلواء ، وفقاع وثلج ، فنظر أبو الحكم إلى ما جاء به وقال له عند استكثاره أوجدت أحداً من معارفنا فقال لا : وانما ابتعت هذا بما كان معي وبقيت منه هذه البقية فقال أبو الحكم هذا بلد لا يحل لذي عقل أن يتعداه ودخل وارتاد منزلاً وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به ويطب وأقام على ذلك إلى أن وافاه أجله

ومثل ذلك ما وقع للملك المعظم شمس الدين توران شاه أخو السلطان صلاح الدين يوسف لما تمهدت له بلاد اليمن واستقامت أمورها مل المقام بها وحن إلى الشام وفيها نشأ واشتاق إلى خيراتها والتمتع بثمراتها اذ أن اليمن محرومة ذلك . قال ابن حلكان وكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقبل منها ويسأله الاذن له في العود إلى الشام ويشكو حاله وما تقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج اليها فأرسل صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه في الاقامة وانها كثيرة الاموال ومملكة كبيرة . فلما سمع الرسالة قال لمتولى خزائنه : احضر لنا ألف دينار فأحضرها فقال لاستاذ داره والرسول حاضر عنده : ارسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج .

فقال أستاذ الدار : يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج ؟ فقال : دعهم يشترون بها طبق مشمس لورى . فقال : أين يوجد هذا النوع ههنا ؟ فجعل يعد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر تعجبه من كلامه وكلمها قال له عن نوع بقول له : يامولانا من اين يوجد هذا ههنا؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول : ليت شعري ماذا اصنع بهذه الاموال ادا لم انتفع بها

في ملذاتي وشهواتي فان المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه انه يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه .

ولعمري هل يصح أن تجعل أمثال هذه القصص حجة في أفضلية دمشق على غيرها من أمهات المدن حيث المعيشة غالية وهل هذا الرخص مما ينبغي أن يفاخر به وأهل الاقتصاد في عصرنا يجعلونه اذا استحكمت من بلد شؤماً عليه ويعدون البلد كل البلد الذي غلت فيه أسعار الحاجيات والكاليات وارتفعت الاجور والارتفاقات على نسبتها . والامثلة على ذلك كثيرة فانه يبلغنا لهذا العهد عن بلاد الاناضول وهبوط أسعار الماء كولات فيها لقلة ما يصدر عنها مالا يكاد يصدق لولا تواتره على ألسن الطارئین على ذلك الصقع فهل تفضل السكنى فيه على الروم أبل المرتفعة أسعار الارزاق فيه . وبعد فان كان لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى فلا فضل لبلد على آخر إلا بالعلم والعمل والسعادة الحقيقية .

النزلاء المسلمون^(١)

قضى الله على هذا القطر أن يكون منذ القديم مهاجراً لأمم الارض ولاسيما من الاولى قبض لهم الحكم عليه من روم وفرس وترك وجرس وكرد أو كانوا مجاورين له من شماله وجنوبه وشرقه وغربه فيأتيه بعضهم متاجراً وآخر موظفاً وفريق غازيا ، وغيره مسالماً . وتربة مصر الجيدة تبتلع من تبتلع من تلك العناصر وتحياهم بوتقة النيل مصريين . ومنهم من يعود من حيث أتى بعد أن يقضى في ربوعها زمناً ، وقد استفادوا منها مادياً أو معنوياً .

وكان بعض تلك الاجناس اذا نزلوا العاصمة وقواعد المدن في القطر يجتمعون في بقعة واحدة ويؤلفون جماعة أو حزباً ويتخذون لهم حارات خاصة بهم يسكنونها ، ومحال تجمعهم وعادات يحرصون على الاحتفاظ بها والجنسية علة الضم ، أو كما قال امرؤ القيس « وكل غريب للغريب نسيب »

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٦ م

أما اذا نزلوا الارياف فقلما كنت ترى لهم كلمة ، فيبقون في غمار السكان في الغالب ويمترجون باهلها ، فيجعل ذلك لهم فقد لغاتهم أن يكونوا لا يتكلمون العربية ، أو فقد جنسياتهم ان كانوا عربا ، وما هي الا بضعة سنين حتى يصبحوا مصريين صرفاً .

والغالب أن كل فاتح يستعين بالغرباء على قيام أمره ويعتمد في الاكثر على أناس من بنى جنسه . هكذا فعل الرومي والفارسي قبل الاسلام ، وهكذا فعل التركي والجركسي والكردي والارناؤدي بعده . وان كان الاسلام قد منع من القول بالجنسية والعصبية ، ولكن الدول تراعى في هذا الشأن حالة الزمان والمكان . ثم ان الغالب يرى من الواجب عليه أن يقرب اليه الاقرب والاقرب ، والاقربون أولى بالمعروف .

هذا اجمال من تاريخ نزول الدين هبطوا مصري في الادوار السالفة وانا لثرى منه اليوم مثالا مجسما من المحتلمين ، وتوسيدهم الوظائف الكبرى الراجعة الى أبناء جلدتهم ، فاذا لم يجدوا منهم من يرتضونه ، يختارون أن يوسدوها ان أمكن لرجل أوربي بدل المصري أو العثماني ، كما يختارون توسيدها للمسيحي أو غيره من غير أهل الاسلام

يمثل هذه الحال السياسية يحدث الخلف بين الوطني والنزلي ، ويلتف كل فريق على فريقه ، والحكام من وراء ذلك يسرون بهذه الفرقة بين الاجناس والعناصر ما دامت القاعدة التي سارت عليها الحكومات هي « فرق تسد » ولذلك كان يزداد هذا التنافر بين الدخيل والاصيل كلما نفخ الحاكم في ضرامه ، ويخمد كلما انقطعت عنه مادة التفريق ، وهذا ما دعا الى أن تكون لكل عنصر من النزلاء جمياتهم الخاصة بهم ومدارسهم وكنائسهم وحاتهم ومحالهم وأنديتهم .

لا يكاد يمضي شهر الا ويحيئني كتاب من جماعة يطلبون الى أن أشاركهم في جمعية سورية يريدون تأسيسها لغرض اجتماعي أو أدبي أو خيري وأن أساعدهم مساعدة أدبية بالقلم ، ان لم تتيسر لي مساعدتهم بالدينار والدرهم فاعتذر اليهم فمنهم من يقبل العذر ، ومنهم من لا يقنعه قولي ويحمله على ما يقع في نفسه من الظنون . ومعظم هؤلاء الداعين جماعة من المسيحيين يريدون أن يكثروا بالمسلمين

سوادهم ويستعينوا بهم على غرض يرون فائدته لا بناء بلادهم .
المسلمون العثمانيون أو السوريون في مصر أفراد قلائل بالنسبة لسائر العناصر
ولذلك لم ير اللورد كرومر في كتابه «مصر الحديثة» أن يخصص بكلمة لقلة سوادهم
وبعبارة أخرى ان أكثرهم من التجار أو من السوقه لا يدخلون في مسائل
البلاد العمومية ولا يتأتى للاحتلال أن يعتمد عليهم لان الدين يمنهم من خدمة
أفكاره وهم يرون المصريين اخوانهم في الدين والتابعة واللغة والجوار ، وهل
أعظم من ذلك رابطة ؟

وما راغنى أمس الا كتاب من أحد المسلمين السوريين من تجار هذه العاصمة
يقول لى انه ساع مع بعض أصحابه في تأسيس جمعية خيرية اسلامية سورية بالقطر
المصرى تساعد الفقراء السوريين المسلمين ممن لا ناصر لهم ولا ملجأ يلجأون اليه
عند الشدائد وذلك لان القاء حبلهم على غاربهم مما يشين سمعتنا الادبية بين
الخاص والعام ولا فرق في ذلك بين الدمشقي والحلبى والبيروتى والطرابلسى وغيرهم
لانهم كلهم أبناء طائفة واحدة وتظلمهم راة واحدة . ويدور محور أعمال هذه
الجمعية على مواساة الفقراء وتربية الايتام على الطرق الحديثة وادرار الارزاق
على الارامل والمرضى ، وتجهيز الموتى وتسفير الفقراء وتتولى الجمعية غير ذلك
من أعمال الخير وستكون قيمة الاشتراك في الشهر عشرة قروش صحيحة وادا
تبرع بعض الاغنياء بأكثر من ذلك فيكون لهم الفصل الح

هذه خلاصة الكتاب وفيه من الحث على مساعدة الجمعية ما هو طبيعى
ولكن حسن ظن القوم بى لا يمنعنى من النصيح لهم بأن يجعلوها جمعية خيرية
مطلقاً بدون وضع اسم «السورى» عليها وأرجو أن لا يحمل ذلك على ضعف فى
الوطنية بل أن يندبر القائمون بالامر فيما أقول .

المسلم السورى هنا لا يعتبر كما يعتبر غيره خصوصاً وهو كما قلنا لم يدخل فى
معتك السياسة المصرية ، ولذلك ينظر اليه المصرى بأنه أخوه ووطنيه يعامله كما
يعامل ابن النيل ويبوح اليه ببثه وحزنه ويصاهره ويماشره ويرتبط به ولذلك
تدعو الحكمة أن يقوم السورى هنا — ان كان لا يرى مندوحة له عن أن يسمى
نفسه بهذا الاسم — فى جميع أعماله تبعاً لأخيه المصرى

ليعمل السوري الخير ولكن لا على أنه سوري بل على أنه مسلم أو مصري،
لان الادب يقضى عليه أن يندمج في جسم أخيه المصري لينتفع كلاهما بصاحبه.
وما جزاء من يجب الا أن يحب . ومن أدب الغريب أن لا يجهر بان مصلحته تخالف
مصلحة من ينزل عليه

المسلمون من أهل البلاد المجاورة لمصر ما زالوا منذ القديم يهبطون هذا
القطر كسائر الامم ، ولكنهم يندمجون في سلك أهله ولا يلبثون أن تكون لهم
نفس حقوقهم وذلك لما وقر في النفوس من انتفاء الجنسية في الاسلام . ولان من
مصلحة النزول أن يكون تبعاً للزميل لا يقاومه في رغباته بل يخدم الغرض الذي
يرمى اليه ما دام الغرض لا ينعدي طور العقل فيوجد النزول من ابن البلاد كرم
الوفادة بما لا يعذر به ابن البلاد نفسها . والغريب بالمظر لنشاطه اذا لزم الادب
مع من ينزل عليه يربح أكثر من حرصه على الاسماء

وما سورية ومصر الا بلدان متجوران والسوري الذي ينفع مصر مصرى
والمصري الذي ينفع سورية سوري . والحمد لله ان حلقنا في زمان سقطت معه دولة
التحزب للجنسيات ، فلم بعد ذلك كما كانوا في الارمان السالفة يعادى بعضهم بعضاً
في القطر الواحد بل في البلد الواحد بل في الحارة الواحدة على أسماء ما أنزل الله
بها من سلطان اللهم الا عدم المعرفة بطبيعة الكون ، وطبيعة تنقل الناس في
هذه الارض منذ القديم

الحمد لله أن جئنا في زمن نسمع فيه ان البشر يهكرون في اختيار لغة واحدة
تجمعهم ليتعارفوا بها . وأن زيلوا الحدود من تخوم الممالك حتى لا يكون بين أمة
وأمة ما يصدحهم عن الاختلاط وحلب الممايع ودرء المصار

وان كل عاقل لبوقن بأن المغمة التي ضرب على وترها بعض السوريين في
هذا القطر على عهد انتشار حرية الاقلام لم تكن الا من باب « حالف تعرف »
أراد بها أربابها المدرع الى نيل الشهرة أو أغراضاً مادية أخرى . ولذلك أخشى
أن تكون تلك المغمة التي سكمت نأمتها الآن هي التي بقيت بقاياها في أذهان
بعض المسلمين من السوريين فقاموا اليوم يريدون أن يخرجوا عن الجماعة
ويؤسسوا لأنفسهم بأنفسهم جمعية تضم شتاتهم ولو فعلوا لكان شرها أكثر
من خيرها وعلى الله قصد السبيل

غوطتني عشق^(١)

ايه غوطة الفيحاء ، مجلى الطبيعة ومغنى الانس ، وروضة الطيبات ، ومهبط
التجليات . سلام زكى كتربتك المسكية ، جميل جمال بسطك السندسية ، عطر
كانوار أدواحك الجنية . وتحية طيبة تتساقط على عمرانك ، تساقط الوابل والطل
على جذاتك الغناء ، وحراجك الغلباء ، وأشجارك الميلاء ، وغلاتك الكثيرة الاتاء
سلام عليك يا مستقر النعماء ، وقرارة الهناء والرخاء ، وخير خلوة يفرح الى
ارجائها الناسكون والعالمون ، ويتقلب في أجوائها عشاق الطرب وأرباب المجون .
فيك تتجسم عظمة خالق السموات اذا بالغ في الافضال على الارضين ، وتبدو
همة الخلق اذا صحت عزائمهم أن يكونوا عاملين لا خاملين ، فليس في الاقاليم
ما يفوقك باعتدال المواسم ، وافترار المباسم ، وتلون المظاهر ، وتنوع الثمرات
والازاهر ، وتلوى الجداول والانهار ، وتجلى الطبيعة في العشايا والاسجار
سلام على وادى دمشق انه آية الحسن والاحسان ، فيه تتحدد الحياة كل حين
لانه بمنزلة الربيع من الزمان ، ويحلو العيش في ظل افيائه على سذاجته مهما كان
مرأ ، وتطمئن النفس الى التنقل في رباعه برداً أو حرأ . ايه غوطة جلق لم
يؤثر عنك أن أمسكت خيراتك عامأ عن أبنائك ، فلا تفتأين على الدهر تخرجين
لساكنيك أفلاذ أ كبادك ، على تعاقب الامم والدول ، وتصديقين الود لكل من
يطلب قربك ، فيعيش معك في رخاء وصفاء

سلام على سكونك في الليالى الظاماء والقمرء ، ربيعاً كان أو صيفاً أو
خريفاً أو شتاء ، وهنيئاً مريئاً لمن يستمتعون بالنظر اليك من الصباح الى المساء ،
ويتعهدونك بالحرث والكرث والتقليم والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم
حمارة القيظ وصبارة القر ، وظلمة الليل وشمس النهار . سلام عليهم انهم مثال
النشاط في المزارعين ، لا يرضنون على أرضهم بأوقاتهم واتعابهم ، وهى تجودهم

(١) نشرت هذه المقالة والمقالتان بهما في جريدة المقتبس سنة ١٣٣٣ (١٩١٥) وأسلوبها
أسلوب الشعر المنثور المعروف عند الافرنج

ضروب الخير والمير كلما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات ، كلما عوها
فأحسنوارعائتها ، وهم مهما صهرت جسومهم حرارتها ، وصفرت سحناتهم رطوبتها
بيض الوجوه شم الانوف ، لان رزقهم مناط أيديهم العاملة ، لا يعتمدون في
تحصيل قوتهم ، على غير قوتهم ، ولا يتكلمون الا على من ينزل الغيث ، ويمرع
الزرع ، ويدر الضرع ، ولو حسن فيها نزع الفضول ، من العقول ، وأنيرت
بأنوار علوم المدنية على الاصول ، فتمهد أبنائها بالتربية كما تربى عندهم الرياض
والحقول ، وتوقى مما يؤذى الزروع والثمار والمقول ، لسكانت خير بقعة يسكنها
ساكن في الحياة ، ولصح عليها قول من قال : طوبى لمن كان له في أرضها مريض شاة
سلام غوطة دمشق كلما غردت أطيارك فلك على المشاعر سجع الحمام واليام ،
وهديل العندليب والهزار ، وتعريد العصفور والشحور ، كيف لا تستهوين
النفس ، ونعيق الغربان ونقيق الضافدع ، اذا ردهما الصدى في لياليك ، يفسرها
القلب بعمان لا تفهم منها في الكور الاخرى ، كما يفسر في النهار ثغاء الماعز
والجملان ، وجؤار البقر وخوار الثيران

فسلام وألف سلام عليك يا كريمة الطبع ، وبديعة الصنع ، وعريقة المجد ،
ونبيلة الجد والجد ، وزكية العرق ، وهينة الرزق ، وطيبة النجار . والمحسنة
لالهـل والجار ، ففى مغانيك تصفو النفس من كدروات هذه الحضارة الملائقة
وتنجو من سماع فظائع الانسانية المعذبة ، وتقليلك — وان كان قليلك لا يقال
له قليل — يغتبط الانسان ، ولا يتكالم على حطام الدنيا تكالم الضارى من
الحيوان ، ويطلع الزهرة ربة الجمال من منافذ أفقك توحى الى الخيال روحاً من
عندها ، فتفيض القرائح وترق العواطف ، وفي منبسط صعيدك الطيب ، يسلو
الخطر همومه ، وتطرب الحواس ، من دون ما كاس ، ولا نعمة أوتار وأجراس
فى هذا الريف العجيب تقرأ سور العدل الالهى فى تقسيم الارزاق فلا فقر
مدقع ، ولا غنى مفرط ، ويعيش القائمون على تعهده عيشاً متشابهاً الا قليلاً ،
يغتنى أفراد منهم بذكائهم واقتصادهم ، فلا ترى فى فقرائهم سلاطة الجياع أرباب
الزهم ولا فى أغنيائهم قسوة قلوب أهل الرفاهية والنعم ، فسبحان من وفر للغوطة
قسطها من الغنى والغناء ، وضاعف لها حظها من الجمال والاعتدال ، وأجزل لها

عناصرها الحيوية فزادها كالجديدين نماء الى نماء .

شبه جزيرة كليبولي

الى هذه البقعة الطيبة بمنظرها وغاباتها وسهولها وجبالها يهوى اليوم ويحق له أن يهوى فؤاد كل عثمانى يحب هذا الوطن المحبوب ويتفاني في التبرك بتربته ويخاف عليها من عوادي المعتدين ويكره لها ظل المستعمرين من الغربيين جزيرة مستطيلة كهذه يبلغ عرضها فيما أذكر من ستة كيلومترات الى ثلاثين وطولها ٨٥ كيلومتراً تتقدفها القنبل والقذائف والدمرات والمنفجرات وطائرات السماء ودوارع الماء منذ زهاء سبعة أشهر وهي لاتزال صابرة على الاذى باسمه الوجه للقاء العدى

في هذه الشبه الجزيرة تجلى العقل العثماني وتم آخر ما وصات اليه مدارك أبناء هذا الوطن في استكمال أسباب الدفاع والاخذ بحظ أوفر من أساليب الكر والفر والتعبئة والمصاف ولولا هذه العناية والاستهانة بكل عزيز في سبيل الذود عن حمى هذه الشبه الجزيرة لتبدت وجه الحرب الاوربية ، وانالنا من الاضطهاد ما لا يكاد يخطر لنا على بال

هذه الارض المحاطة بالبحر من أكثر أطرافها عرفت دول الاتفاق المربع أن هناك قوة أسمى من قوة البشر وهي القوة الالهية التي استند اليها العثمانيون قبل كل شيء ودونها قوى الاساطيل والغواصات والطائرات والمقذوفات والمفرقات يضاف اليها يقين مرج الافئدة والارواح من ثقة الانتصار وكراهة ليس بعدها غاية لحكم الاجنبي ، والتشبيح بمعاني الوطنية والجنسية

وقفت على جبهات الحرب في مواقع (اري بروني) و (انافورطه) و (جناق قلعه) وأشرفت على انحاء (سد البحر) وهي المواقع الاربعة التي دار ويدور عليها القتال واشتد فيها الطعن والنزال فمعظم في عيني غناء جيشنا ، وفاخرت نفسى بقوادنا وضباطنا وجندنا ، وأيقنت اننا اذا ضممتنا شملنا في كل نازلة وكل شأن ، وتذرنا بعامة الاسباب التي يتذرع بها البشر الممدن ، نضاهى أعظم الدول منعة ومضاء ، وها قد قضينا باعتمادنا بحبل الله على مطامع الطامعين وهم ما هم بقواهم البرة والبحرية

سبعة أشهر مضت على دفاع جناق قلعة والعدو يحخر العباب بدوارعه
وطراداته وورعاداته ومدمراته ، ويخرج الى البر الكتائب أثر الكتائب ، ويستحباب
السلاح ويتذرع بأقصى ما وصل اليه طوق الانسان من التفنن في إرهاب الخضم
واقترحام السبل ، فلم يستطع التقدم شبراً عن المكان الذي نزله أول يوم ، ولا
يزال جيشه تحت حماية أساطيله لا ذرى له ولا أكتات وحيشنا يطل عليه اطلالا
يذيقه كل يوم مرارة الهزائم ألواناً وأشكالا ويفحش القتل في رجاله حتى قدر
الهالك منه بنحو مائة الف فقدما وفقد معها جابياً من أسطوله . وانفق عشرات
الملايين من الدينار وهو في مكانه لم ينل ولن ينال بحول الله ما تطمع به نفسه
من استباحة حمانا

هذا المضيق هو في الحقيقة مفتاح دار الخلافة وكان المتفقون على مثل اليقين بأن
عمله سهل يحتاج الى بضعة أسابيع ولكن حيب المولى ظنونهم وبعى عليهم اعتدادهم
بقوتهم وألقى عليهم أمثلة مما ينال الظلمة من سوء المغيبة . وان التمويه للعبث
اعقول الناس لحكمهم كما تحكم البهائم ان حاز يوماً فلا يجوز على الامم في آخر ،
وأن الله لا يصيب عمل عامل

ان دفاعنا في حمانا في جناق قلعة قطع آحر عرق من الآمال للمتفقين وتخصى
على مظالمهم وينا أبد الدهر ان شاء الله ومن رأى ما رأينا هنا من ابداعنا في
طرق القتال وشاهد اسعدادنا في حصومنا وطرقنا وسلاحنا ومدافعنا ونظام
جيشنا وما ينبغي له من المؤنة والذخيرة والتعمير . يجهر بصوته قائلاً هذا عمل
لا يتهيأ إلا لأمة تحب أن تبقى ، ولا تيسر ذلك إلا لمن كسبت له السعادة

غابات شبه جزيرة كليبولى ونجادةا ووهادها وسواحلها وسهولها . لقد طلت
في ربوعك دماء زكية من دماء العثمانيين ولكنها ستبقى على جبين الايام مسكية
الاريج عطرة بالثناء تتم عن معرفة من استشهدوا في سبيل الفرض الوطنى . وذاقوا
معنى الوطن والوطنية . ان الدم الطاهر الذى أربق على تربتك جعل لها ريحاً من
ريح الجمة وسيكون لمن فادوا بها من الذكر الجميل ما كان لا يبطال المسلمين في وقائع
الصليبيين وشعار ذلك : هذا عمل أفراد قتلوا ليحيوا أمة . وفادوا بنفوسهم في
سبيل الله ليدموا ذمار الخلافة المعظمة ، ويربأوا بهذا الوطن عن أن يستباح

جماه ويحافظوا بارواحهم على آخر دولة اسلامية مستقلة جمعت شمل الاسلام
والمسلمين وحمت حمى الحرمين الشريفين .

كلما هبت الصبا والشمال على أرجاء شبه جزيرة كليبولى ، وطلعت عليها الشمس
وغربت ، وأقمرت السماء وأظلمت وأمطرت وأثلجت ، وأرعدت وأبرقت ، يردد
لسان الحال فيها هذه ثمرة التضامن بين أعضاء البيت الواحد . هنا قضى العربى
والتركى والكردى واللازى وغيرهم لأعلاء كلمة الحق واتقاء عادية الدخيل
الثقيل . هنا نظم العثمانيون أرقى جيش انتظم لهم منذ عهد الماتح وسليم وسليمان
وتشبع أهله بروح الوطنية ، وغنم غزاتهم أحياء وأمواتاً سعادة الدارين

أرض شبه جزيرة كليبولى ، ستبقى مقدسة فى نظر كل مسلم كما فدى الله
الارض المقدسة ، وستذكر كرك الاجيال عقيب الاجيال ، والدهور أثر الدهور ،
بالاعظام والاحترام ، كما تذكر هذه الحرب العامة بالهول والاستغراب . أنت
كدبت البشرى فى ادعائهم أن (كل محصور مأخوذ) وأكدت لهم عكس القضية
فى أن (كل محصور محفوظ) . فسلام عليك محاربة ومسالمة ، وألف ألف رحمة
ورضى على عظام شهداء صممتها تربتك الطيبة ، ومروحك السندسية
وتلماتك الزمردية

جبال طوروس

هدا مصيف يسمونه اليوم (كولاك بوغارى) ومعناه مصيف الكيلة كيلة
الحبوب . كانت العرب تسميه الدرب أو الدروب ، ذكره امرؤ القيس ملك الشعر
فى الجاهلية فى شعره لما توجه الى قيصر الروم وكان مشى معه صاحب يقال له عمرو
ابن قيئة الشاعر فلما رأى عمرو الدرب وهو الحاحز بين بلاد العرب وبلاد العجم
بكى حزوا لمراقه بلاد العرب ودحوله بلاد العجم فبنى ذلك قال امرؤ القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأبقر أن لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

أمانح فابتهجت أنفسنا وأيم الله واطمأنت لما احتزنا الدرب وعلمنا اننا
نركب بعده القطار ولم يبق اننا الا ساعات معدودة لنبلغ دار السلطنة بهجة الدنيا
وقرارة الدعة ومدينة المنعة ومعهد الظرف واللطف وبلد الشعر والخيال . أن

الدرب أو مصيق (كولك بوغازى) واد تتخلله الانهار والجداول ، ويكسو شجر الارز نجاده ووهاده ، على صورة تظنها من هندسة أعظم مهندسى الزراعة لمهدنا وما هو فى الحقيقة الا مما نبت واستطال بنفسه . أنت لا تنفك منذ أظاً عتبة جبال طوروس ، تشم أريج شجرها ورندها وعرارها . ولا تسأم من مناظرها لانها متنوعة فى تقاطيعها وجمال هندستها . بحيث لا تمل العين النظر ، ولا الأنف الشم ولا الأذن السماع . لحفيف أشجاره ، وتمايل أغصانه ، وثغاء حملانه ، وخرير مياهه ، وأصوات عندليه وهزاره

أن من يسمع من بعد وصف (كولك بوغازى) يقول فى نفسه : ماداعسى يكون فى هذا المصيق ، وجبال الدنيا كثيرة متشابهة ، صخور وتلعات : واكبات ولطون ومفرجات ، وشيخ وقيصوم ، وسنديان وران . ولكن جبلا هذا لا يشبه الا جبل بحال ، لأن مدير الاكوان خلقه على غير مثال من الجبال ، ولون صخوره وأحسن قطعها فمنها الكبير الهائل ، ومنها الصغير الحقيق ، وترتبه حمراء وسوداء وبيضاء ترى تارة فى الهضاب طريقاً معبدة من الصم الصلاب ، أو مرصوفة بالتربة الذكية . غرست فيها يد القدرة أشجار الارز غرساً يتخلل الهواء بيننا . ولا تنبو العين عنها لعدم نظامها ، واختلال هندستها ، وترامى امامها . وهناك الاشكال الهندسيه برمتها . فمن تلة مستطيلة . الى أخرى هرمية ، وبجانبها ذروة ذات شكل بيصوى ، وآخر محدوب أو مربع ، أو قائم الزوايا ومفرجها جعل بعضها الى جانب بعض ومساحتها السطحية متقاربة . وكلها مزينة بالاشجار . أنت هنا تجتار واديا ولا كالاودية . بحيث أعطى الحق لمن قال فى القدم « ماء ولا كصداء » و« مرعى ولا كالسعدان » و« قى ولا كمالك » ولورأى القائل الدرب لقال : مصيق ولا كهذا وجبال ولا كطوروس

هذه العظمة فى الخلق التى تراها ماثلة على أتمها فى جبال طوروس التى أعجزت الفاتحين من الاقدمين والمحدثين . فكانت كالحاجز الطبيعى الذى لا يرام بين الثغور وبين بلاد الروم . عامرة بطبيعتها ، هندستها الفاطر . وجمعها بانواع البهجة والزينة ، بحيث لا تعلمها نفس مهما اکتأبت ، وتود لو تقضى فيها شطراً من العمر ، بعيدة عن ضجة العالم وأوهام الخلق . وترهات المتمدين والمتبريرين

جبال طوروس البديعة ، لقد أعجزت الفاتحين عن اجتياز مضايك ، كما
أعجزت الشعراء والمصورين عن رسم بدائعك وخصائصك . فها هذا الابداع
الذي عز نظيره في الاصقاع والبقاع . إيه يا منطقة الحكم بالشعر ، ومعجزة المتكلمين
في ذكرى فصائلك وفواضلك

ان جبال الالب التي استتبت الالباب بدائعها ، وجبال الكاربات التي اشتهرت
بصياصيتها الطبيعية ، وجبال حملايا المعروفة بسموها ، هي دونك في جمع كل هذه
المعاني . ولو هيء لك ما تهيأ لتلك من يد صناع ، تحسن حواشيك . وتهذب من
أطرافك ، وتتعهد أزهارك وأشجارك ، بآخر ما اهتدى اليه العقل البشري من
ضروب الصناعة ، لكنت لعمر الحق معهد اجتماع المصطافين والمرتبين ، ومسرح
أس طلاب اللذائد الطبيعية والصناعية ، وخزانة ثروة لا هلك لا ينضب معينها
وتنضب مياه الرافدين دجلة والفرات . ولكنه تعالى لا يمنح بلداً كل ما يحتاجه
ولا يجمع في شخص كل الصفات والمزايا . فسبحان من قسم الخصائص بين البلاد
كما قسم الحظوظ بين الجماعات والافراد

على قبر أبي الفدا في حماة^(١)

حنانيك اسمعيل أحبني فدتك نفوس الملوك يا عالمهم وعادلهم وسيدهم ، كنت
في عصرك مثال العمل الصالح ، وها أنت لمن بعدك عبرة لمن يعتبر .
زرت قبرك الشريف وذكرت سيرتك المثلى ، فبكيت على الاسلام والعرب ،
وقابلت بما قرأته على ضريحك بين السذاجة الغالبة عليك ، وحنفظة الالقاب بعدك
قرأت : « هذا ضريح العبد الفقير الى رحمة ربه الكريم اسماعيل بن علي بن
محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب عمر في شهر سنة سبع وعشرين
وسبعمائة » جملة لا يجوز نقشها اليوم على قبر أحد العامة ، فابن أنت منها يا أبا الفدا
في مفاخرك وسؤددك ، ومجدك التالذ والطارف
حمايك اسماعيل كنت في حياتك قدوة الملوك العادلين ، تعلم الناس حب

(١) كتبت هذا العصل سنة ١٣٢٩ — ١٩١١ وبشر في المجلد السادس من المقتبس

الخير ، وتعلم العلماء فيما توفروا عليه ، والفتاحين ما يفاخرون بمعرفته ، والحكماء ما هو ثمالة امجادهم ، وها أنت الآن رهين حفرة قد كاد ينسى بين قومك ذكرك فلا تبدي ولا تعيد ، وقومك لسوا دينهم ودنياهم فكيف لا يدسون رجالهم
نشأت أيها السلطان العادل من بيت عز وملك ، فلم تأخذ الزخارف بلبك ، بل تخرجت في العلم ، وربيت على أدب النفس وأدب الدرس ، حتى جاء منك عالم بل معلم للعلماء بسيرته وتقننه .

نشأت نشأة طالية في القرون الوسطى وغيرك من الملوك نشأوا ولا سيما بعدك نشأة جاهلية : على الحجر والزمر والقمر ، لا يعرفون غير القصور ، والولدان والخور ، وغاية مفاخرهم انهم يبطشون ولا يبالون ، يقتلون ولا يتألمون ، يتعاضمون ولا يتواضعون ، يقضون فلا يراجعون ، يأمرون ولا يعدلون
أضحت أحكام بعض الملوك بعدك ذوقية ، وأعمالهم على الاكثر استبدادية ، اتخذوا الاسلام ديناً وهو منهم برىء ، وعشوا بالرخص والعزائم ليس لهم وازع من أنفسهم ، ولا رادع من أممهم . أضحوا حبايرة لا ملوكا ، وشياطين لا انساء ، وأنعاماً لا يعرفون الا ما فيه راحتهم . وتوفير قسطهم من اللذائذ والبذخ والنعيم كنت أنا الفدا ملكا بالاسم . وما كما نامل ، كنت شريفاً عاصيك وحاضرك ، وها أنت الى يوم الناس هذا والى غد وما بعد غد تتريف في عامة أحوالك .

لم نعهد لك كما عهدنا للملوك قبلك وبعدك أن عددت الرعية كالساعة التي تملك فبتصرف مالك ، ابدرها ووبرها وولدها ولحمها . وبعمل مطلقاً في الاستمتاع بها لا ينازعه منارع . بلى عهدناك تؤاسي الضعيف . ولا تحور على الفقير ، وتحسن للعلماء . ونفضل على المقهء والادباء والشعراء ، وتصرف فصل أوقاتك في التأليف والتصنيف ، يا ثاني المأمون بعلمك وعقلك ، وثاني صلاح الدين بعدك وجهادك .

أبا الفدا ان قومك أغفلوك وسرتك . بل آمنوا درك . ولو ذكروك لساروا ولو قليلا على سنتك المحمودة . فعلم الملوك من بعدك سيرتك الطاهرة كما كنت في عصرك خير معلم للملوك العادلين والعلماء العامين

أبا الفدا ان الملوك بعد عصرك جمعوا كثيراً وأضاعوا كثيراً ، جمعوا فكان ملكك بجانب ما ملكوا جزءاً صغيراً جداً ، وما خلفوا الا ما تحمر وجوههم خجلاً منه . ويأتون في الآخرة وقد شهدت عليهم لا لهم أعمالهم ، وأنت سعدت بمن ولبت عليهم وسعدوا بك ، فأبقيت ذكراً لا تحجوه الايام أنت علمت الخلق بان القليل مع العقل يستفاد منه أكثر من الجزيل بدونه ، وان وفرة المال والعقار لا تكون من السعادة في شيء اذا لم تسبقها نفس مهذبة بالآداب والفضيلة ، وعقل يحسن التصرف بما يملك .

من لى بنظرة منك لترى ما حل بالعرب اليوم من التمزيق والتفريق ، والفساد في المعاش والمعاد ، والجهل المطبق ، وضعف العقول . رُمّ اخلاف من حكمت للمذلة ، وخنعوا للاستبداد ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، فرثي لهم الصديق ، وشمت بهم العدو ، وخانهم الدهر فاستخذوا ، وكل ذلك بما فعله سفهاء الاحلام من أمرائهم وعلماهم انهم كانوا ظالمين .

قم وانظر فقد بدلت الارض غير الارض بعد عصرك : اخترع الافرنج في زماننا البحار والكهرباء ، ووفروا مرافق الحياة ، وقربوا الابعاد ، وحسنوا العيش ، أما قومك فليس لهم من مدنية القرون الاخيرة الا النظر ، وزادوا على جهلهم فساداً في أخلاقهم ، بحيث لم يبق لهم من المجد الا أن يعودوا الى صحيفة أجدادهم ويفاخروا بما تم على أيدي أمثالك . كالقرعاء تفخر بشعر أمها ، أو المعجوز الشوهاء لا تفتأ تذكر ماضى شبابها .

قالوا ان نظام الحكومات بعد أيامك ارتقى ، وانكم كنتم في عصر تزل فيه القوانين الوضعية ، وكان أكثر العمل بالقوانين السماوية فمن لنا بعصرك فان القوانين الوضعية ارتقت ولكن عمد غيرنا من أهل الغرب ، والقوانين السماوية أعرضنا عنها الا قليلاً فلم نحسن تقليد المقننين المحدثين ، ولا احتفظنا بترات الاقدمين ، فكنا كالعقيق أراد أن يمشى كالحجل فنسى مشيته ولم يمش مثله ، بل كنا من الاخسرين أعمالاً

ألا عظمة من نظراتك الرشيدة أيها الكريم تنظر أمتك الآن الى الانقراض أقرب منها الى البقاء : كل يوم تصغر رقعة بلادها . ويتحيفها الخراب وينقصها

من أطرافها تحاول تقليد الراقيين من الامم ، فلا تراها تستطيع الا تقليدها في الموبقات والشرور ، لا في مقومات الحضارة وأساليب النهوض .
رحمك أبا الفدا ان أمثالك أنفقوا أموالهم وأموال الامة في شهواتهم على المغنين والمغنيات ، والكواعب الغانيات ، وأنت أنفقتها على العلم والعلماء ، انهم اذا كانوا جهلة أغبياء فقد كنت العالم المؤرخ الجغرافي الطبيب الحكيم الفلكي ، ومصنفاتك شاهدة لك على غابر الدهر ، بأنك عالم الملوك وملك العلماء ، خلد اضرابك بسيرتهم صيت بطش وفتك ، وقطع وقت في العبث وأنت أقمت نصاب العدل على من وليت أمرهم ، فكانت أيامك رياض الازمنة وبهجة العصور ، فجزاك الله عن أمتك أجزل ما يجازى ملكا صالحاً عن رعيته ، وعالماً عاملاً يخدم الناس بعلمه وفضيلته اه

نحن والمسكرات^(١)

صرنا الى زمان لو قلنا لحكومتنا ان الطريقة الفلانية في الحكم أو منهج كذا في القضاء والادارة لا توافق بلادنا ولا تنطق مع عاداتنا وشرعنا هزت رأسها وأعرضت عما إعرضاً . وصرنا الى زمان لو قلت لاكثر أهل الطبقة العليا والوسطى من قومنا قال الله وقال الرسول رأيتهم يناون عنك ويصدون صدوداً فلعل الحاكم والمحكوم عليه اذا أنيتهما بكلام جديد قاله غيرنا يلقيان اليك بالاسماع وتلين لمقالك القلوب والطماع . قال بنتام المتشرع الانكليزي (١٧٤٨ - ١٨٣٢) في كتابه أصول الشرائع : « الخمر في الاقاليم الشمالية يجعل المرء كالابله وفي الاقاليم الجنوبية يصبح به كاللججون . ففي الاولى يكتفى بالمعاقبة على السكر لانه عمل فظيع وفي الثانية يجب منعه بطرق أشد لانه أشبه « بالتشرب » ولقد حرمت ديانة محمد (صلى الله عليه وسلم) جميع المشروبات الروحية وهذا التحريم من محاسنها »

(١) نشرت في جريدة المؤيد سنة ١٣٢٤ (١٩٠٧)

نعم حرم الاسلام الخمر ولكن أمتنا عز عليها الا أن تزهد في كل ما أتى به شرعها من المحاسن وأن تقلد غيرها فيما هم منه يشكون ويثنون . ولو كنا أخذنا عن الغربيين النافع كما تلقمنا الضار لكان الامر وسامنا من النقد بعض السلامة ولكننا أجدنا التقليد في المضار ولم نحسن الجرى على مثالهم في المنافع .

قضى الله أن تمنى هذه البلاد بحكومة ليست منها ولا مزاجها مما يلتئم مع مزاج من تحكم عليهم . فكان من الغرب انه أخذ مند عشرات من السنين يحارب المسكرات بكل قوته ونحن نفتتح لها السبل ونهيبء الاسباب . الغرب يضرب عليها المكوس الفادحة ونحن باسم الحرية التجارية وبفضل تهاون الحكومة تقبل من ضروبها ما نعرف جوهر دوما لا نعرفه . يقوم قادة الافكار في الغرب فيبينون مصار الخمر ويعمون على شاربها ويضيقون المسالك في وجوه عاصريها وبائعها وأغلب قادة الافكار منا يشربونها بلا حرج ولا تكير بل يسخرون ممن لا يشاركونهم في اثمهم ويريدونهم على أن يتشبهوا بهم ليعدوا من المتمدنين العصريين فالذنب اذن ليس على الحكومة وحدها بل عليها وعلى الاهالي أيضاً . بيد ان هؤلاء يعدرون بعض الشيء لان الحكومة لم تعلمهم التعليم الصحيح حتى يتبين لهم الضار من النافع . ومادام السواد الاعظم جهالا وخيرة الناس ليس لهم من الامر شيء فاللوم يرجع على الحكومة في الاكثر

والغالب أن عميد الاحتلال أدرك ما تتوقع البلاد من الشرور اذا هي ظلت مسترسلة في الخمر فقال في تقريره ان الحكومة وحيث النفقات خاصة الى مسألة المسكرات لانها من المسائل المهمة وانها رفضت عام ٩٠٥ — ٣٧٠ عريضة طلب أربابها رخصاً ببيع المسكرات وانها لم تعط رخصة الا بعد أن ظهر من البحث الدقيق أن معظم الاوروبيين المقيمين في جوار الحانة لا يستغنون عنها وانه نقص ٢٧٨ من الاماكن ذات الرخصة وغيرها منها ١٧٨ محلا ليست ذات رخصة .

قال وقد تم الاتفاق مع سكة الحديد على اقبال الحوانيت التي تفتح تحت اسم « بوفيه » في جميع المحطات ما عدا الكبيرة فكلما انتهت رخصة واحدة منها لا تجدد لها مالم تكن المحطة مهمة وان القانون الحاضر لا يسرى على بيع المسكر

في زجاجات أو براميل ولذلك لم تراقب دكا كين البقالين وغيرهم من الذين يبيعون
المسكرات

قال ويظهر أن العمال في الارياف قلما يتعاطون المسكرات ! وقل أن يرى
ساكنو الارياف رجلا سكران ! أما البنادر فالسكر فيها أكثر انتشاراً ولكنه
ليس كثيراً لحسن الحظ ، وقال المستر متشل من أعظم عيوب نظام الامتيازات
الاجنبية اننا نسعى جهداً في منع بيع المسكر بالمفرق ولا نستطيع منع عمله
وبيعه براميل

هذا كلام رعيم الاحتلال وهو كما تراه لو انصفت لا يخلو من جمجمة فقد
تلطف في قوله ان أهل الارياف قلما يرون ثملاً وأن السكر شائع في البنادر وأن
الحكومة لا تعطى رخصاً ببيع المسكرات الا في المحال التي لا يستغنى عنها الغريبيون
النازلون في جوارها

كل من طاف الأرياف وخبر حال البنادر والدساكر يتضح له أن الخانات في
القرى تزداد سنة عن سنة بل شهراً عن شهر فيحسب الرومي يفتح دكان « نقالة »
ويسع رطباً من الكحول فما هو الا أن تمضي سنة حتى يقتل كثيرين بما يسقيهم
من السم الزعاف وبروح المغانم فيكون له الغنم وعلى غيره الغرم ويستوى في
ذلك القرى التي فيها أوربيون لا يستغنون عن الخانات فمفتوح من أجاهم والقرى
التي لا يكثر في جوارها الغريبيون .

كلما نادى المنادون في التماس تعديل الادارة الحاضرة قالت لهم الحكومة
كنت أفعل لولا ما هناك من الامتيازات الاجنبية فأنها تعوقني عن مباشرة أى
عمل وتغل مني اليد والساعد ولكن حصون الامتيازات ليست بالذي يصد في
الحقيقة من عمل ينتفع به الاجانب كما ينتفع به الوطنيون

تسمح الحكومة للمأموري الادارة في بعض المسائل كضبط الاشخاص المشتبه
فيهم من الاجانب بدون أن يتداخل القناصل فهلا سمحت بمثل ذلك لرجال الادارة
في المسكر فتعهد اليهم أن يفتشوا المحال المشتبه في انها تبيع المسكرات بلا رخصة
أو تبيعها من الاجناس الرديئة ولا يتوقف ذلك على أخذ الشراب المشتبه به
وانتظار شهرين ريثما يحلل التحليل الكيماوى فان شوهد انه رديء فيكون

صاحبه قد صرف ما كان عنده منه وان ثبت انه جيد يحق للبقال أو الخمار أن يرفع قضية على رجال الادارة والصحة وربما ربح القضية خصوصاً اذا كان من غير رعايا الحكومة المحلية .

نعم كيف يسوغ لرجال النيابة أن يفتشوا أى مكان يرتابون أن فيه أمراً محظوراً وعملاً يخل بالراحة فاذا لم يجدوا فيه شيئاً يعفون من العقاب ولا تقام عليهم القضايا وكيف تقام القضايا على رجال الادارة اذا فتشوا محلاً عمومياً ولم يجدوا فيه شيئاً من المسكرات وغيرها فكما عهد للمأمورى الادارة أن ينظروا فى المسائل البسيطة مباشرة بدون توسط القضاة وحسنت نتيجة ذلك فقد كان الاخرى أن يعهد اليهم النظر فى مسائل المسكرات لمطاردتها وتخفيف وبلاتها عن البلاد

اذا أطلقت يد رجال الصحة والشرطة للبحث فى الحانات وعين مثلاً يوم للكشف على المشروبات ورأى البوليس شبهة قوية فى فساد الفاسد منها وأسأغت له الحكومة أن يحجزها كلها حتى تتضح نتيجة التحليل الكيماوى وجوزت الحكومة للبوليس اذا اشتبه فى أى زجاجة كانت أن يفتحها فى الحال ويعمل بما يراه طبيب الصحة بدون تسويق ولا امهال — اذا أسأغت الحكومة ذلك فقل ان هذه المسألة سارت الخطوة الاولى نحو الاصلاح

كل هذه الملاحظات سهلة الاجراء ولا يظن ان الامتيازات الاجنبية تحول دون تحقيقها بل ان اللوائح والقوانين الموجودة لو جرى العمل بها ولم تكن كعلم جابر — اقرأ تقرح جرب تحزن — توقف تيار المسكرات عن جريه بعض الشيء

تقرأ فى القانون المصرى الجديد أنه يعاقب السكران ولو لم يعربد وكان القانون القديم مثل القانون الفرنساوى لا يعاقبه الا اذا عربد . فكم سكران يعربد كل يوم وليلة ياترى وكم سكران يقبض عليه ليعاقب فيكون عبرة لغيره ؟ وكذلك ترى فى لائحة المحال العمومية انه لا يجوز فتحها قبل الساعة ٦ صباحاً من ١٥ اكتوبر الى ١٤ ابريل وقبل الساعة ٥ صباحاً من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر وان ميعاد اقفال هذه المحال يكون فى نصف الليل ابتداء من ١٥ اكتوبر الى

١٤ ابريل وفي الساعة الواحدة بعد نصف الليل من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر .
وفي المادة السابعة عشرة من هذه اللائحة لايجوز لاصحاب المحال العمومية أو
لمستخدميها أو للخدمة فيها قبول أشخاص في حالة السكر أو بقاؤهم فيها ولا
صرف المشروبات لهم . ولكن متى نفذت هذه اللائحة ؟ واذا لم تنفذها الحكومة
حتى الآن فمتى يكون تنفيذها ؟ أو انها من جملة اللوائح التي هي حبر على ورق
طول بلا طول ولا طائل

وياليتنا نعرف على وجه الصحة كم يدخل الموانئ المصرية كل سنة من الخمر
المغشوشة وغيرها وكيف تكثر سنة عن سنة وياليت الحكومة تضرب على
واردات الخمر ضرائب فاحشة كالتى ضربتها حكومة السودان ليصعب تناولها على
الفقير ويوكل كما قلنا أمر المشروبات التي تصنع في القطر لرجال الادارة والصحة
ينظرون فيها ويضيقون على شاربيها وبائعها تضيقاً فعلياً لا اسمياً . فقد ثبت
لاهل النظر أن الخمر المصنوعة في معامل الغرب الكبرى هي أجود ما يعمل
من نوعها في المعامل الصغرى وكذلك ما يصنع في هذه لاسية بينه وبين ما
يصنع منه في القطر

وليت شعري لم لاتجرى عليه حكومة مصر في مسألة المسكر على نحو ما تجرى
حكومة السودان ولو فعلت ذلك لما أتى بضع سنين حتى يخف شاربه ويقل
بائمه بيننا . ولكن حكومة تلك الجهات تريد هناك رجالا يعملون وهم صحاة
لاسكارى وفي مصر لا يهتمها سكر القوم أم عربدوا ، نعم ان انكلترا نفسها في
بعض الاقاليم من أفريقية منعت المسكرات بتاتا ولكن حكومتنا المباركة
عندنا لم تتسامح بالكحول بل أضافت اليه الحشيش فتأمل حالة أمة ينخر سوس
فساد هذه المواد القتالة عظمها ويعبث في دمها ولحمها .

* * *

ماذا عرفنا من مصاد الخمر ؟ عرفنا انها تحدث نشوة في النفس وطرباً في
الفؤاد ونفماً في الصحة ونشاطاً في الجسم ونضرة في الوجه وعرف الغرب منذ
أوائل القرن التاسع عشر مصادها في أزهاق الارواح وتشويه الخلقة الطبيعية
وتأثيرها في النسل والعقل وانها يزيد بها عدد المعتوهين بل كاد بعضهم لا يرى

استعمالها حتى في الادوية. يكثر السكر في الاصقاع الباردة مثل روسيا والسويد
وشمالى فرنسا ونور منديا وانكلترا ولكن يكثر مناهضوه وتفكر حكوماته في
الخلاص منه فأين هي مجتمعاتنا التي نخطب فيها بمضاره وأين حكومتنا من مناهضته؟
بلى انك ترى زعيم الاحتلال في تقريره مغتبطاً بأن الخمر التي دخلت السودان
في العام الماضي « كانت والله الحمد » من النوع الجيد أى الذى لا يضر بصحة
المأمورين والموظفين من الانكليز والوطنيين .

آه متى يكون شأن الشرق في السعى وراء الممافع سعى الغرب فيها ؟ الغرب
لم يكتف سألطف المجتمعات لمقاومة المسكرات والمعنى على شاربها والتفكير منها
بالقدوة والتعليم والارشاد بل عمد الى سن القوانين فاستعان بها لا تقاذا أبناء
الجيل الحاضر والجيل الآتى من مضار الالكحول وكانت أبداً قوانينه تابعة
للمن سائرة بحسب سنة التكامل

هذه بلاد السويد وهي من البلاد التي يقرص فيها البرد الى التي لا فوقها ومع
هذا رهاها كما وصفها مكاتب الطان هذه الايام بعد أن كان يسبب التمرد فيها سنة
١٨٣٠ - ٤٠ ليتر من المسكرات أصبح لا يصيبه أكثر من ٦ ليترات سنة
١٨٩٥ انفصل ما قام به قادة الافكار وناهتهم عليه حكومتهم . أى أنه نزل معدل
مقتضوية كل فرد في السنة من المسكر الى سدس ما كان عليه قبل ٦٥ سنة

بدأ الافراط في تعاطى المسكرات بلاد السويد منذ أواخر القرن الثامن عشر
لما احكرت الحكومة الالكحول ناسترسل أهل البلاد في تعاطيها حتى كاد
سيلاً يحرف كل ما وقف في سبيله ولم يسكر الا بسكر منيع أقامته وثمة من أهل
الخير وفي مقدمتهم رجل اسمه بطرس ونزل كران عميد مدينة غوتنبورغ . جاهد
هذا الرجل ثلاثين سنة حتى وفق عام ١٨٥٥ الى وضع حد لهذا السم القاتل وبدأ
دور الإصلاح وكان ما عرضه من الافكار أساساً لوضع القوانين الحاضرة في
هذا السائل وكلها ترمى الى معاملة بائعى المسكرات وصانعيها بالقسوة الزائدة

ضربت الحكومة السويدية على صانعى المسكرات ضرائب فاحشة وأخذت
تزيدها الحين بعد الآخر حتى بلغت سنة ١٨٨٨ - ١٣٨ ونكا على كل هكتولتر
أى مائة لتر فعمزت المعامل الصغيرة عن صنع المسكرات اذ قضى على كل معمل

إما أن يخرج أربعة هكتولترات في اليوم من الالكحول الخالصة أو يغلق أبوابه ولم تسمح الحكومة بتنزيل هذا المعدل الى هكتولترين ونصف الا سنة ١٨٧١ وحظرت أيضاً صنع الالكحول الا في شهرين من السنة فقط ثم تساحت ورخصت على توالى السنين بأن تصنع سبعة أشهر في السنة .

وكان من نتائج هذه الذرائع الشديدة أن قل في البلاد عاصرو الخمر . فبعد أن كان سنة ١٨٢٩ - ١٢٤ ر ١٧٢ معملا في السويد نزل سنة ١٨٩٨ الى ١٢٨ معملا وجمعت تلك الحكومة بيع المسكرات حرأ في الجملة الا انها جعلت معدل ما يباع منه بالجملة ٢٥٠ لتراً وأن لا يباع بالمفرق أقل من لتر واحد ليأخذها المبيع معه ولا يشربها في المحل الذي يشتري منه . وعاملت الخانات بالشدة الزائدة وكذلك محال بيع المسكرات وأمرت أهلها أن غلقوا محالهم الساعة الثامنة مساء في القرى والساعة العاشرة في المدن ولم تسمح لبائع أن يتقاضى مالا من رجل ثمن خمر باعه اياه بالنسيئة .

وجعلت السويد ٤٢ فردا صربية على كل هكتولتر من الالكحول الصافي وهي ضريبة فاحسة . وممنعت كل مديرية من بيع الخمر في دائرة اختصاصها . فادى ذلك الى الغاء معظم المحال التي تبيع بالمفرق بحيث لا ترى في قرى بلاد السويد - وسكانها نحو خمسة ملايين - سوى ١٢٣ محلا لبيع المسكرات بل انك ترى في أربع ولايات ولا تجد محلا واحداً لبيعها .

وابتدعت مدينة غوتنبورغ طريقة لقيمت اليها الانظار في جميع الاقطار الا وهو ان تعهد بتجارة العرق في كل مقاطعة الى جمعية تصنع منها رأس المال . ولكنها لا تأخذ من الارباح الا الفائدة المعتدلة المتعارفة وتترك ما زاد عن ذلك يصرف في أعمال نافعة تنتج من ذلك ان كل جمعية من هذه الجمعيات لم تر من مصلحتها أن تطلب المرند في توسيع أعمالها وبلغت الحال بكثير من أمثال هذه الجمعيات انها لم تعط حانئاً نظيما من الرخص التي يحق لها اعطاؤها . واذ كانت كل حانة تقدم طعاما أصبح صاحبها لا يربح من الشراب بقدر ما يربح من الطعام ولذلك كان من مصلحته أن لا يكثر من بيع الالكحول .

وأشأت هذه الجمعية في مدينة غوتنبورغ مثلا مطاعم حسنة لا تقدم فيها

للمستطعمين غير نوع من المشروبات فقطرات انه يعين على اشتهاه الطعام وأنشأت في أنحاء كثيرة من المدينة غرفاً للمطالعة يدخلها في السنة نحو ثلاثمائة الف مطالع. وبهذه الطريقة نزل معدل تناول المسكرات في العشرين سنة الاخيرة الى ٤٠ في المائة بمدينة استوكهلم والى ٤٥ في مدينة غوتنبورغ وسنت السويد عام ١٨٩٢ قانوناً اجبارياً يقضى فيه على جميع المدارس أن تلتقى دروساً في طبيعة المشروبات الروحية وتأثيراتها المضرة .

هذا ما قامت به حكومة السويد التي لا يحظر دينها تعاطى المشروبات وهي البلاد المشهورة ببردها وزمهريرها فما الذي قامت به الحكومة المصرية التي تحظر شربتها كل مسكر وحرارة اقليمها لا تعذرها في الاستهتار والاسترسال في كرع كل ما يخترعه المخترعون من أنواعها وما يصنعه الصانعون في أرضها ليبيعوا من فقيرها الكأس بلميم فيورده موارد الهلاك في دار الجحيم . فليت أهل شمالى أفريقية يعملونهم وحكومتهم ببعض ما عملت به حكومة السويد في شمالى أوربا فان قالوا في الاحصاء الاخير ان في نيويورك وسكانها ثلاثة ملايين ونصف ١٠٨٢٠ محلاً لبيع المسكرات بالمفرق وفي باريز وسكانها مليونان ونصف ٣٠٠٠٠٠ وفي لندرة وسكانها أربعة ملايين ونصف ٥٨٦٠ محلاً فاناً أقول ان في هذه العاصمة الاسيفة أكثر من هذا العدد يبيع لاهلها الصبوح والغبوق من فاسد الالكحول فيفسد الاجسام والعقول

المآكب والاسراف^(١)

في الشريعة السمحة آداب اجتماعية عالية لو عمل بها المسلمون لما لحقت غبارهم أمة في مكارم الاخلاق وتهذيب النفوس . فلو عمل المسلم بشريعته فاخرج الزكاة مثلاً لما رأيت اليوم فقيراً ولا جائعاً ولا عرياناً ، ولوتجانف الكذب والتزوير وأكل المال بغير حق لما اشتغل القضاة طول النهار بفض الخصومات بين الناس

(١) نشرت في جريدة الشرق يوم ٦ ربيع الآخر ١٣٣٦

البشر الآن في صائقة لم ينلهم بعضها من عهد حفظ التاريخ . أمن المروعة أن ينعم بعض افراده ويسرفوا على حين تكفي فضلات طعامهم والزوائد من رفاهيتهم ومظاهرهم لان تعول كثيرين من المحاويج ، وأغرب طرق الاسراف أن يفضل المتوسط الذي هو أقرب الى الفقر من الغنى على الاغنياء والمنتعمين ليقال عنه انه كريم وهو يرى في أهل محلته والمحتفين به مئات يطوون الليالى على الطوى ولا راحم لانيهم

كثير من أوضاعنا وعاداتنا يحتاج الى أن يعالج بالاصلاح لنعود به الى هدى الاسلام ، أو الى أساليب المدنية الحديثة . فقد أصبحنا في معظم حالاتنا لا الى القديم ننسب ولا بالحديث نعرف أو نعرف ، فغدا مجتمعنا وفيه كثير من الغث والرت وضروب من سخييف العادات والمراسم .

دعا منذ أيام أحد المنتسبين للمعارف مئة وثلاثة أشخاص من أهل بلده الى حضور مأدبة لهم أقامها في داره وأطعمهم أجود الطعام وضروب الخلواء والمعجنات ولولا لطف المولى لا صيبوا بالتخمة وسوء الهضم ! وقد كان المدعوون أشتاتاً لا تجمع بين كثير منهم الا جامعة السكنى في بقعة وادة ومن العادة أن يجتمع في المآدب الخاصة عند المتمدين أهل طبقة معينة من الناس حتى يأنس المدعوون . يتساوون في الجلوس الى الخوان بحيث يكلمهم صاحب الدعوة ويكلمونه . ولكن هذه الدعوة كانت كما هي معظم الدعوات في هذه الديار مجرد املاء بطون المدعوين ، كأنهم في مطعم اجتمعوا بالعرض ، ولا جامعة بينهم الا جامعة الاكل .

فتأمل أمشاجاً من الناس يشتركون على طعام وهو ساعة مؤانسة ومباشطة هل يجدون حديثاً يلذهم على السواء وينفض عقد اجتماعهم على لا شيء اللهم الا قشور من حديث معاد وأمور لا كتبها الا لسن فلا تنفع في دين ولا دنيا قد يضطر بعض أرباب المروآت الى عشرة المتخالفين في الاذواق والمشارب ، وتدعوه الحال الى مباشرتهم والانس معهم أحياناً ، فاذا أراد أن يجمعهم كلهم في صعيد واحد في يوم واحد ، يكون قد أساء اليهم في الحقيقة أكثر مما أحسن . خصوصاً من علت عاداتهم عن مستوى العادات العامة التي لا ترجع الى أصل من الاصول المتعارفة ، فقد قال حجة الاسلام في باب آداب المآدب من احياء العلوم:

وينبغي للداعي أن لا يدعو من يعلم انه يشق عليه الاجابة واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الاسباب . والغربي اليوم اذا دعا في الغالب انساناً يقول له او يكتب ان مادبته يكون عليها معه فلان وفلان، فالمدعو اذا لم يرقه الاجتماع باحدهما يكتب قبل ميعاد الدعوة بالاعتذار عن الحضور .

وليمة فيها زهاء مئة مدعو لو أدت في أرقى عواصم الارض لما حوت الا احلاط الزمر ، فعلى من اضطر الى دعوة هذا العدد اللذر أو السرية الكاملة ان يقسمها الى خمس مآدب وتقسم الاطعمة وما يتبعها والنفقات وما يتشعب منها على تلك الدسبة وهناك تحصل المائدة من الاجتماع ويعرف كل مدعو انه حضر واستأنس حقيقة ، واذا كان صاحب الدعوة يريد مظهراً فظهر الخمسة أكبر من مظهر الواحد على كل حال

أقبح ما تقبح من أحوالنا أن نسرف في موطن نحتاج فيه كل الحاجة الى الاقتصاد ونسرف المال في سبيله المشروعة . نطعم أرباب المظاهر ونسرف في الماء كل والمشرب والمذس . ثم لشاهد عباد الله يتضورون جوعاً ولا تأخذنا بهم رحمة . وقد قال صلى الله عليه وسلم . « شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليها الاغنياء دون الفقراء » .

التمهيدن الانثوى^(١)

أرى فئمة كالعانيات تدللا	تميل مع الالهواء كل مميل
تخال الفتى منهم على طاعة الدهى	لألوان ثوبيه سماء أصيل
منول كما شاء الهوى واقتداؤه	بمن حوله من حلة وخلييل
وما وجد الاعمال يوما وانما	ليستحسنوا فيه دلال ملول
وظن الفتى أن الخدذ (انثوى)	فتناع فيه كل ذات حليل
تماجن في أشكالها من مصمغ	الى كل مجلو وكل صقييل
الى اللفظ حتى مات كادشماهه	تبين بلفظ منه غير نحيل

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ٢٧ صبر ١٣٢٦ (١٩٠٨)

الى اللحظ حتى ما تكاد جفونه تطارح لحظاً منه غير عليل
دلال جميل بالجمال مهناً فأه عليه من دلال جميل
أولئك هم شباننا لو عرفتم وهم كل من في مصر غير قليل
مظاهر نبل نافقوا في اصطنائها ألا قبحت من صنعة لبيل

هدا ما وصف به الرافعي شباننا وكلامه يصدق على بعض من يتأثقون في
الزينة فيصفون شعورهم ويحففون حدودهم ويفتلون سبلاتهم وينغمون
بأصواتهم ووعا مزجوا كلامهم ببعض الالفاظ الافرنجية . ويختارون من الالبسة
أحررى من صدره ملونة مخزمة ، صنعت من القטיפه المزركشة ، وسترة
مشقوقة وسراويل ضيقة . وخاتم ماس في اليد وعصا عقابتها من الذهب ،
وحذاء ملوناً ملهماً ، وطربوشاً مقرباً مكروباً ، وبالجملة كل ما فيه ظاهر مموه .
عن تراهم اذا جمعك بهم الاتماق وقد عمق منهم رائحة الطيوب والعطور . وقد
حرصوا على الارياء . حرصهم على أعز الاشياء

المطيب والزين والتجمل بالله اس الجيد الجديد حسن في ذاته مباح عقلاً وشرعاً ،
أحل لنا كما أحلت الطمات . ولكن اذا جاور صاحبه فيه الحد كان أحدر ربان
الرجال منه الرجال لانه مسئلة عن ارتياد الفسائل والسعي في سبيل الكمال
الحقيقي وناهيك بأن من شباننا من يصرفون ساعين كل يوم في البرج «التوالت»
كانهن بعض النساء يتربس لبعولهن

وهذا مما يسجل علينا ضعف النظر في كل ما اقتبسناه من عادات الغربيين
وقد اقتدينا اسرف المسرفين منهم ولم نهتد بهدى أهل القصد والاقتصاد ،
وجاريناهم في التبرج والتربس بعد أن كانا غير معهودين في الشرق الا لامخمشين ،
وشا عناهم على لعاطى المسكر والميسر فأضما آدابنا وديننا طمعاً في إحرار هذا
التمان الذي لا يقوم رعمنا الا بلا اسلاح من وطنيتنا وعاداتنا المستحسنة واقتباس
كل عادة نأتيها من طريق الافرنج

أخذنا عاداتهم بل عادات السفلة والشعوب المارلة منهم بانما ، وليتنا لما أخذنا
ما أخذنا ميراثنا بين الصحيح والزيوف والضعيف والمصعوف ، والشريف
والمشروف

عميت علينا السبل فلم نقتد بامثل من جعلناهم قدوتنا في حياتنا بل مددنا اليد الى ما وجدناه عرضاً فلم نسقط الا على الملوث القذر من العادات والاخلاق أكثرنا من الاسراف في الملبس مثلاً حتى نسينا كل نسبة بين الدخل والخرج فامبراطورة المانيا في أوروبا وهي من جلال المسكنة ما هي لاتستنكف أن تدير ألبسة كبار أولادها لصغارهم عند ما تضيق عنهم حتى لاتطرح شيئاً جزافاً وهو مما يحسن الانتفاع به والرجل منا قد يصرف على لباسه ربع دخله فيستلف ويمطل ويهون عليه ما يأتى ولو باع الطين ورهن العقار ليلبس كل اسبوع بل كل يوم بذلة جديدة كأنه من نساء الاغنياء في نيويورك لا يهدأ له بال الا أن يظهر غناه ليصدق عليه قولهم في الامثال « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها »

ماذا يقول الكاتب عن مغالاة بعض شباننا في الزينة واغراقهم في السرف والترف وما تجلسوا به من عادات لا تلام الشرق وفقره ودينه ، والغرب يشكو من بقائها بين ظهرائى أبنائه الى اليوم ، ويتمنى لو نزعنا آخر جرثومة منها عنده لتكون له مدنية تامة كاملة ، وحضارة رجولية لا سائية هم يفكرون ويكتبون ويمصحون ، ونحن تركنا حبل آدابنا على غواربنا . ولا نبالى بما يدخل علينا من غرائبها وسخائفها ، ولكن القوم في أوروبا على ما بلغوه من أسباب التقدم مما نغبطهم على أكثره لم يفتؤوا يحاربون نقصهم ويسعون الى كمالهم ونحن نحارب كمالنا ونسعى الى نقصنا .

أكتب هذا وأمامى ممحّث جليل لاحد علماء التربية في فرنسا نشره بمناسبة قيام اثنى عشرة ألف معاملة مؤخراً في نيويورك يطالبن حكومتها بأن تنصفهن في الرواتب كما تنصف المعلمين لانهن يقمن بمثل الاعمال التى يقوم بها الرجال في التربية والتعايم ، فاضطرت الحكومة الى اجابتهن الى مطالبهن ، ورادت ميزانيتها ثلاثة ملايين دولار عن مدينة نيويورك وحدها

قال : ان تسليم مقاليد التربية للنساء دون الرجال مما يؤخر لان حب التجمل ينغرس في الصبيان كما لاحظت ذلك اللجنة المؤلفة من مئات من أساتذة الانكليز الذين انتدبهم المستر موسى أحد أغنيائهم منذ بضع سنين للبحث عن طريقة التربية في الولايات المتحدة ، فكتبوا في ذلك تقريراً قالوا فيه ان من تأثير تربية

المعلمات قلة أخلاق الرجولية في الامة الاميركانية . ولم تكن ملاحظة هذه اللجنة الاولى من نوعها بل ان غير الاميركيين كثيراً ما كانوا يدهشون مما يبدو لانظارهم من هذا القبيل في أميركا ، ولكن القول بغلو على قدر قائله ومكانة لجنة ولسلى عن تألفت منهم

قال : وكيف لا تحكم هذه اللجنة على الاميركان ورجالهم يعنون من وراء الغاية في المحافظة على الست والثلاثين الف قاعدة في مصطلحات التمدن (الاتيكييت) فيبالغون في التأنق بلباسهم مبالغه مفرطة ، ويدققون كل التدقيق في القيام بأقل ما تقتضيه سنة الازياء ، ويرققون ألفاظهم ترقيقاً يقربها أبداً من التكلف ، ولا ينسب ذلك الا لتسليم مقاليد التربية للمرأة . ولو استطاع المرء أن يكون تاماً في هذا المعنى لما كان في ذلك بأس بل قد يحدث كثيراً أن المبالغة في التزيي والمنافسة في الحصول على صفات الظرف الذي لم يجعله الطبيعة من خصائصه تعبت بمروءته . قال : ومن سوء أثر هذه التربية في الاميركان ان الرجل يرى نفسه أخط من المرأة مهما تصنع لها ويرى من كرمها أنها تعطف عليه وهكذا حتى أصبح المجتمع الاميركي انثويا فيه من ضروب التكلف والغرابه أشكال وألوان اه

هذا ما قاله كبير من كبار علماء التربية في الحكم على التربية الاميركية فاذا جاء فوصف تربيتنا أى حكم يصدر علينا يا ترى؟ تلك التربية الملفقة التي ورثناها من مربية رومية أو فتاة طليانية أو جارية زنجية أو كرجية أو بربرى ذى ربيبة أو ماجن ذى أطوار غريبة

ان قالت لجنة ولسلى بأن التمدن الاميركى أصبح انثويا فماذا تقول لو رحلت الينا وحكمت علينا بدون مشايمة لغرض سياسى ولا بدافع هوى نفسى . لا جرم انها تقول ما قاله شاعرنا الرافعى :

وظن الفتى ان التمدن انثوى فتابع فيه كل ذات حليل

تكريم النزاهة^(١)

توفي منذ أيام رجلا ن عظيمان من عمال الحكومة أحدهما كامل بك والى سيواس
الاسبق والثانى كامل بك الصلح رئيس محكمة استئناف سورية سابقاً . واحد
خدم فى أرقى مناصب الادارة فى الولايات وطاف بمنها وحجازها و طرابلس غربها
وأناضولها . والآخر بلغ أرقى مناصب القضاء فى الولايات وتقاب فى اعطافها شرقاً
وغرباً . نخدم كل منهما الحكومة زهاء خمس وأربعين سنة ورائده أمانته وصدقه .
وتفانيه فى مسلك النزاهة والعفة

ولد هذان الموظفان الكاملان فى مدينة صيدا (الشام) وماتان فى يوم واحد فى هذه
المدينة (دمشق) وشبا وشابا فى حسن الخدمة . وتشابهان فى أكثر الوجوه ، وماتا
ولم يخلفا وراءهما من حطام الدنيا الا ما لا يكاد يرضى به من كان فى عمله بعدهما
بعشر درجات من الكد والحساب ولكن الكاملين حلما نروة لا تنصب على
الايام معينها . ونعنى بها كسر استقامتهما وعزة نفسيهما فعفا عن كل ما يقال له
الرشاوى والهدايا والصلوات من أموال الامة ، وخدمها خدمة صادقة رائدها
الاخلاص وسداها ولحمها العلم والعمل الحقيقى .

كثير من الناس من يتولون من المناصب أرقاها ، ويجمعون من المال أوقاها .
وينالون من مراقى العزمتها ، ولكنهم يذهبون بقبح الاحدوثة وسوء القالة ،
وتلعنهم القلوب اذا لم تلعنهم اللسان ، وهم عند ظمهم قد عاشوا بنعمة ، والحال
أنهم عاشوا أشقياء مرذولين ، وقصوا كذلك فنالوا الخزي فى هذه الدار وفى
الدار الاخرى .

لا تقاس فى نظر التاريخ احترام الرجال بقدر ما ملكت ايمانهم ، وضمت
خزائهم . بل بقدر ما انتحت عقولهم وشرفت أعمالهم ، وأعظم سلوى يرتضيها
المستقيم فى عمله وبؤثرها على كل فاقة ، ويستعين فى سبيلها بكل صعب هو انه
يحيا غير معذب الوجدان ، مستقل الفكر ، ويموت قرير العين . لبعده عن الخيانة
والعبث بدماء الناس والعبث فى أموالهم وحقوقهم .

يتهمنا بعض أرباب لاغراض من الجاهلين بأنه يقل فينا معاشر العثمانيين المستقيم العفيف من رجال الجيش والادارة والقضاء ، وانه اذا وجد العامل الكامل بيننا يعيش مضطهداً ، ويؤخر عن قصد في سلاسل الترقى ، والحال ان في هذا الامر نظراً لانه لا يعقل أن تخلو الامة من كلمة ، ومتى غلب فاسدوها على صالحها فهناك الخراب المحتم . اما ان النزبه يصطهد ولا يرقى فان في ماضى هذه الدولة وحاضرها مئات من الامثلة على خلاف ذلك ولو كانت الحال على ما يدعون ما ارتقى فقيدانا العربيان في الولايات هذا الارتقاء ، فثبت ان للاستقامة أناساً يقدرونها قدرها ، وان النزبه العفيف من العمال يحترمه ويخافه حتى الذى هو أرقى منه في سلسلة المراتب وتقدم الميلاذ

ما اجتمعت بعامل مرئش مها كانت درجته الا ووحده خائماً ذليلاً صغيراً في نفسه يصانع ويوافق ، وما اجتمعت بعامل من أهل الصنف الآخر الا وقرأت عزة النفس في وجهه والشمم والرفعة الحقيقية في أطواره والجد غالباً عليه في أقواله وأعماله .

ومن الغريب ان كل من جمعوا المال وبالغوا في اصابة حقوق الناس ليغتنوا بزعمهم ، أصابهم الفقر قبل موتهم ونقيت أنسألم معدبة ولم تنل حظاً من التربة وهى الى الدنور والعفاء أقرب منها الى الحياة والملاء . أما الدين ثبتوا على عفة أيديهم فلم يتناولوا المال الا من طريقه الذى شرع لهم وهو روايتهم ومخصصاتهم ونفقات تنقلهم ، فقد رأيناهم عاشوا سعداء منعمين . موسعاً عليهم وتركوا لاولادهم تربية سليمة هى أئمن من كل ثمين

مظاهر الحياة كثيرة ، والعمال أقرب الى الغرور من غيرهم لان بأيديهم قوى لا يمنعمهم عن اساءة استعمالها وازع غير الوازع النفسى ، فن غلبت شقوته سعادته ، كان من المغرورين بمظهرهم ، وعبت بالامانة التى اوئمن عليها وأى أمانة أعظم من مصالح الناس وحقوقهم ودمائهم ، ومن كانت سعادته غالبية شقوته ارتضى باحقاق الحق وارهاق الماظل وعامل الرعية وهى وديعة الله بين يديه معاملة الاب المشفق الرحيم ، وهذا هو الذى يقدهه الناس ويرحمونه ويدعون له حياً وميتاً في ظاهرهم وباطنهم والله لا يضيع عمل عامل

الحاج مصطفى حولاً^(١)

ربما يستغرب القارئ ايراد هذا الاسم في هذا المكان ولكن متى ظهر السبب بطل العجب . هو يستغربه لان صاحبه ليس ذا مظهر ديني ولا دنيوي ولم يحرز لقب باشا ولا بك ولا افندى ولا شيخ ولا سيد لان الظاهر من حاله انه رجل من عامة المسلمين

نعم هو مسلم هدته الفطرة الى آداب الاسلام بدون أن يدرس في مدرسة دينية أو دنيوية ولا تشبع بمدنية الغرب ولا الشرق وما كان أبوه رب عقار ومزارع ، ولا خلف له أو أحد أقاربه أموالا اكتسبت من غير حلها من مثل وقف أو رشوة أو ظلم أو سرقة بل هو عصامي عاش من تجارته المشروعة وأملأه القليلة

يعرف الرجال أيام المحن ولو لم تنشب الحرب ما كان رجل كهذا عاش في ساحل من سواحل البحر الابيض يقل الواردون اليه يصبح موضوع الحديث ومحل تجلة الاقلام ويتناقل خبر احسانه الخاص والعام . وكم خمل في الحرب رجال ونبه رجال

عادة مستحكمة في كثير من الناس أن يولوا الجميل ليقال عنهم ويروى ، ويمدوا أيديهم بالعطاء لان السخاء خلق محمود يجب صاحبه الى القلوب وتطيب نفوس أرباب الغرائز السليمة لسماع أخباره ، بيد ان الرجل الذي ننوه به هنا انبسط يده بالعطاء مدفوعاً الى ذلك بعامل الدين والانسانية لا طلباً لشهرة ولا ايثاراً لمظهر ولا توقعاً لدنيا مريضة يحاول نيلها

من كان يظن ان تاجراً متوسطاً من تجار ميناء طراباس الشام يأخذ على نفسه بسائق حميته الوطنية وغيرته الدينية أن يطعم منذ أعلن النفير العام مئتي انسان كل يوم يطعمهم الماء كل الطيبة ويفرح قلوبهم بالحلواء أحياناً وقد اتفق في هذا السبيل ارباحه زمن الحرب وجانباً من رأس ماله . وعاهد الله في باطنه أن ينفق

على هاتين السريتين من جنده الفقراء حتى آخر درهم من عقاره ، أفلا يجب على كل انسان أن ينادي ببارك الله بهذا الانسان .

ثلاث سنين ونصف مضت على الحرب العامة ونفس الحاج مصطفى الكاملة لم ينضب معين قوتها في تعهد البائسين . وثلاث سنين ونصف على الحرب العامة ونفوس أرباب الاحتكار من التجار والمتمولين من أرباب المزارع والعقارات في مدن الشام لم تشبع من جمع المال ولو بايذاء البلاد وساكنيها ، أفلا تقدر الاول ونحتقر الآخرين

عرفت في دمشق وبيروت وحيما خصوصاً أناساً ليسوا في الطبقة العليا بعناهم يطعمون الفقراء ويلبسونهم ويؤونهم ، ومنهم أناس من أرباب المظاهر الدينية وآخرون من أشرف التجار والموسرين ، ولكنني لم يبلغني ان رجلاً من مثل طبقة هذا فادي بماله ووقته في سبيل الله وحاول أن يسد من الفقير جوعته ، ويطفىء في قلب البائس لوعته ، على صورة منظمة لم يهتد اليها العالم النحرير ، ولا الغنى الشهير ، ولا الزعيم والامير .

صاحبنا لا يتوقع الا وجه الخالق وبر الخلق بما يسدى . جعل نفسه خادماً للفقراء بالعمل ، واستأذ العطاء وتخفيف البلاء ، استأذ تلك الطبقة التي غلظت أكبادها ، فلا ترى المصلحة الا بالجمع والمنع ، حتى يخلفوا الاموال لاعقابهم يفسقون بها ويفجرون فلا هم بها مستمتعون ، ولا الناس بها منتفعون .

يوصى الاغنياء والمتوسطون على الغالب بوصايا مختلفة بعد موتهم كأن ينشئ الموصى جامعاً أو مدرسة أو تكية أو يجرى ماء أو يعبد طريقاً ، أو يتعهد طبقة مخصوصة من الناس بشيء من الدراهم يرضخ لهم بها ، أو يطعم أناساً يعينهم أو قراء فقراء يذكروهم ، أو يتامى واياهم يبرهم ، وذلك بعد أن يكون نقض يده من الحياة ، وفارق الدنيا اضطراراً لا اختياراً ، فلا يسخو بماله على الاغاب الا يوم يتجرد منه بدافع طبيعي ، ولكن الحاج مصطفى حولاً يسخو بماله في حياته يخلص به من الموت أهل البؤس والشقاء ، غير مشفق على نفسه ولا على عياله لا جرم ان مدبر الاكوان ، وخالق الانسان ، والمدل في الخليقة من آياته ،

سيعيد له بتيسيره القرش الذي انفقه في البقاء على حياة كثيرين الفأ ويصطفيه ويرحمه . ويبدد ثمن تلك الاموال التي اکتسبها اربابها من طرق دنيئة في الاكثر ولا رحوا بجزء ضئيل منها أهل حبيهم وعشيرتهم في زمن يموت فيه العاحزون جوعا وعريا

المستشرقون ومؤثرهم^(١)

الاستشراق أو علم المشرقيات هو كما عرفه لاروس علم من العلوم الحديثة ودائرته الحالية واسعة فاذا نظرنا الى الالفاظ من حيث مفهومها نرى ان التعبير عن اللغات الشرقية لا يتناول غير اللهجات التي يتكلم بها في شرق أوروبا أي في آسيا وفي جزء من افريقية المتصل بآسيا ولكن لفظ الاستشراق يطلق اليوم بتجاوز على لغات أميركا وأفريقية الجنوبية والبلاد الشمالية وآدابها وأخلاق سكانها . فترى اللغة اليونانية الحديثة واللغة الرومانية والروسية تدرس في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس كما تدرس لغات الشرق أي العربية والفارسية والتركية والصينية واليابانية والهندستانية والعبرانية والسريانية والحبشية والقبطية والامحرية . بل ان اللغة المجرية نفسها بالنظر لعلاقتها باللغة التركية والمغولية تدرس هناك كما تدرس اللغات الشرقية .

لم يدخل علم المشرقيات في أسلوب علمي الا في القرن التاسع عشر . وقد كان اليونان واللاتينيون يدعون اللغات الشرقية التي كانوا يعرفونها (كالفارسية والعينية وغيرهما) لغة البربر ولذا يهتمون دراستها . وشاعت في القرون الوسطى لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهما اللغة العبرية التي كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التي كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا ولذلك الشيء في باريس منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية

ثم ان المذهب البرتستانى توخى البحث عن النص الاصلى للتوراة فحمل
أشباعه على درس العبرية والسكندانية والسريانية. وأنشأ بعد ذلك البانا غريغوريوس
الثالث عشر وأوربانوس الثامن دروساً لتعلم اللهجات الشرقية بالعمل ليستفيد
منها المبشرون بالنصرانية وفي سنة ١٦٢٧، أُنشئت مدرسة انتشار الايمان ووظف
المبشرون منذ ذلك العهد يأتون بالآثار النبسة لخدمة الدروس الشرقية. ونشر
اليسوعيون في القرن الثامن عشر في العالم الغربى مدينة الصين واليابان ولغتهما.
وأنشأ الورير كولير في فرنسا مدرسة الشان لتعليم اللغات فاصداً بها نخرج تراجم
تستخدمهم حكومتهم في الشرق وأنشأوا يدرسون اللغة المارسية والتركية
وانتشرت القصص والحكايات الشرقية أمثال قصة ألف ليلة وليلة والرسائل
الفارسية وغيرها ثم ان فتح فرنسا وانكلترا للهند قد دعا الى اكتشاف اللغة
السنسكريتية

وبعد نحو عشر سنين تأسست طريقة نحو المقابلة فدخل درس اللغات في
طور جديد حسن الاساليب وفي الجزء الاخير من القرن الثامن عشر اكتشف
انكتيل دوپرون اللغة الزندية والبهلوية وكان من حملة بوناپرت على مصر «١٧٩٨ -
١٧٩٩» أن بدأ بها دور السياحات العلمية الكبرى الى اشتهر بها القرن التاسع
عشر وجرى الى أوربا من مدينة رشيد في مصر بالحجر المشهور وكان حل خطه
مبدأ درس الآثار المصرية والنحات لغات دثرت بمد ألوف من السنين كاللغة
الاشورية. وشرعت الحكومات تنتق على البعثات العامة وتؤسس دروساً لتعلم
تلك الابحاث واللغات فترى فرنسا تعلم اللغات الشرقية الحية في مدرسة خاصة
لذلك كما ان للغات الشرقية القديمة دروساً في كوليج دى فرانس «مدرسة
فرنسا» وكذلك في مدرسة الدروس العليا في السكليات. ومن أعظم العلماء الذين
ساعدوا على الاستشراق في القرن التاسع عشر شامبوليون «في الآثار المصرية»
واوبرت ولفورمان وراولنسون وهنكس «في الآثار الاشورية» وبورتوف
وحامس دار مستتر ومولر ولاسن «في الآثار الهندية» وسانيلاس جولين
«في الآثار الصينية»

وكانت رغبة الاوربيين أولاً في تعلم اللغات الشرقية عن باعث دينى فقد

قضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م « المقتبس م ٧ ص ٦٩٥ » وكان برئاسة اكلنتس الخامس أن تؤسس في باريز واكسفورد وبولون وصلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية لتخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود وأنشأ الفرنسيون والدومينيكانيون من الرهبنة الكبرى في أديارهم دروساً في هذه اللغات فأصبحت ايطاليا مهد حركة نجحت في المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعلم في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين يأخذون العبرية عن أعلم العلماء الربانيين والعربية عن أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة أمثال بنى السمعانى ومن مدارس ايطاليا نشأ العلماء الاول في اللغات القبطية والحبشية والامهرية ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة في شبه جزيرة ايطاليا فكان ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية كالبنديقية وجنوة ونابل ويزا وظلت اللغة العربية مألوفة في عدة أماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك تلك الاصقاع لغة العلم العالى والشعر والادب كانت رومية أول مدينة في العالم طبع فيها كتاب عربى عقيب اختراع الطباعة وهو قانون ابن سينا وظلت حركة المشرقيات تختلف ضعفاً وقوة في بلاد الطليان بحسب الحكومات وهمم الافراد والمقصد الاصلى دينى والعلميات بالعرض. وكان لأسرة ميديسيس فضل على الآداب العربية كما لها فضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

وفي أواسط القرن الثامن عشر لما أخذت أوروبا تتحفز لاستعمار الشرق أخذ علماءها يبحثون في تأليف جمعيات لهذه الغاية فانشئت جمعية العلوم والفنون في جاوة (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية في بومباى (١٨٠٥) وانشئت منذ ذلك العهد في أوروبا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين وأقدمها عهداً الجمعية الآسياوية في باريز التي أسست سنة ١٨٢٢ بمعرفة شيخ المستشرقين من الفرنسيين سلفسترودى ساسى وهو أعظم من خدم اللغة العربية من الاوربيين والفرنسيين خاصة وربما كان أعظم مستشرق نفع ونفع (راجع كتابنا غرائب الغرب) فانشأت هذه الجمعية المجلة الآسياوية وهى خاصة

بلغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره تصدر مرة كل شهرين فيتألف منها مجلدان كل سنة ومن حواها فكانت حوى أعظم مكتبة في هذه الابحاث الجليلة تخرج في مدرسة اللغات الحية في باريز كثير من مستشرقى الفرنسيس والالمان والاطليان والسويسريين وأنشأت معظم عواصم أوروبا مدارس على مثالها وان سبقت هولاندة فكانت أول من أسس جمعية شرقية في باتافيا كما تقدم سنة ١٧٧٨ وكانت مطبعة ليدن الشرقية أقدم مطبعة طبعت الامهات من كتب المشاركة والعرب منهم خاصة وذلك منذ زهاء ثلثمائة سنة

أبشأ المستشرقون عدة جمعيات في أوروبا وأسسوا عدة مطابع شرقية وطبعوا بها ألوفاً من كتب الشرق ولا سيما اللغة العربية فان ما طبع من أمهاتها عندهم هو القسم المهم من كتبنا العلمية والتاريخية والادبية وما زالت الكتب التي طبعتها مطابع باريز واكسفورد ولندن وليدن وغوتنغن وليبسيك ورومية ومجريط وغيرها من حواضر العلم والمدنية في أوروبا باللغات العربية هي المفخر الذي يحق لمدينة القرن التاسع عشر والعشرين في ديار الغرب أن تباهى به الاعصار والامصار

وما برحت أسماء دي ساسى ووستنفيلد وفلوغل وريسك وبوركهار وكارليل وكاترمير ودى سلان وغوليوس وشولتنس واربنويس وهيتسما وشيد ودى بومباى ونيوهر وزوزاريو وكولنبرك وجنستون وستوتن وفين وهوغن وهامس ورازموسن وفلمت وبيبر ودى روسى وايفلد وغابلنتس وروديغر وسيدليو وكوسان دى برسفال وجوبرت وروزنغولر وكلابروت وهابخت وبولس وفراهن ومهرن وهماكر وفرينل ودى لاغرانج ودى فرجه ورينو ومونك وبرنيه وكباريل وپرون وموله وكازميرسكى ووفريتاغ وكسفارتن ووابك وبرنستين وارنلد ووتستشتين وفترز وفولف وهاربوكر وپورغستال وجوينبول وروردا وفايرس وكورتون وتاسوليس وحوافس وغوتوالد وكولسون وكريستيانوفتش وخانيكوف وكاينكوس وكودرا وموهل وبلن ودى تاسى وسواسى وايفلد وديمانج وشرموا وبوتجانوف وبولديراف وسيانكوفسكى وساهيلياف وغريغوريف وبافسكى ونفروتسكى ورازن وسبنرجر وتورنبرغ وخانيكوف ودوزى

وورينخت — ما برحت أسماء هؤلاء الرجال تذكر بالحمد ويطلب لها ثواب عملها
هؤلاء بعض أئمة المستشرقين في القرن التاسع عشر من الالمانيين والنمساويين
والهولانديين والفرنسويين والايطاليين والروسيين والانكليز والاسبانيين
والدانيمركيين والاسوجيين والبولونيين والبلجيكيين والاميركيين^(١) ولو جئنا
نعدد مشاهيرهم في هذا الربع الاول من القرن العشرين لطلال بنا المطال ومن
مشاهير شيوخهم بروكلمان وولهاوزن وغويدي وغولدصهير وهوار وبراون
ومرجليوث وفيرى وهوتسا وباسه وزترستين وسكيا پارللي ونالينو وهوداس
ودرا برغ ونيكسون وموسل وسيبولد وهور وفيتز ويكر وهرتمن ودي دو
وموتلسكي ولتمان ولامنس ومسنيون وهرغروني ودي كوي وآماري
وكار كسماريك وفولرس وشادوبوير وارنولدورسكاو دامس وجيزو بار تولدومورتان
ولشاتليه وبوفا وكاباتون وكور وهاليني وماسبرو وشيفر ومكدوبل ودوفال
ودي منار وبارن وسينار وليفي وكازانوفا وروزن وشوفين وشافان ودوسو
ومونقيه وسبيرو وشيل وماهفي ودلبروك وكولنيون ودي غوبرناتيس وبزبرجر
ودا عيديدس وهوبت وكوهن وكايتاني ولامبرور ونافيل واولدنبرع هؤلاء بعض
من اشتهروا بأثارهم من علماء المشرقيات واتوا على الخاطر ساعة كتابة هذه
المقالة وهناك مئات منهم المشهور وآخر الخامل وما منهم ومن سبقوهم من الاعلام
الا الذي اشر الآثار النافعة بالعربية أو منقولة من العربية أو عن احدى اللغات
الشرفية وفيهم من نشر عشرات من المصنفات كانت بصحتها وفارسها مادة الآداب
العربية وخدم بها بلاده أولاً وهذه اللغة الشريفة ثانياً ومنهم من ينشر الكتاب
لقدماء مؤلفي العرب بنصه ويعلق عليه حواشي باللاتينية لغة العلماء أو يترجمه الى
اللاتينة وينشره بهذه اللغة فقط ومنهم من يعلق عليه أو يترجمه بلغته كالهولاندية
والالمانية والانكليزية والافرنسية والايطالية والاسبانية والروسية والسريديّة
ولمستشقي كل أمة كبرى عدة جمعيات مهمة راقية واقدماها جمعية باريس وتلقها
جمعيات المانيا والاستشراق أرقى ما يكون في بلاد الجرمان الآن والى علماء المشرقيات

(١) جاء الاميركيون متأخرين في الدروس الشرقية ومع هذا فان فيهم مستشرقين نشروا كتباً

منهم ومن الهولانديين يعزى الفضل الاكبر في نشرهم كتب اجدادنا في العلم والتاريخ والجغرافيا والادب واللغة والدين . والجرمانيون والهولانديون اقدر الاوربيين على النطق بالعربية وبالنظر لاختصاصهم أو اخصائهم جاء منهم أئمة قل نبوغ أمثالهم في الامم الاخرى ومجلة المستشرقين الالمانية راقية جدا وتتألف منها مكتبة مهمة بحثت كالمجلة الآسيوية الافرنسية في علوم الشرق وآدابه ولغاته ولم تترك شاردة الا احصتها ولا مبحثا الا محصته ونجى بعدها مجلة المستشرقين النمساويين ومجلة المستشرقين الانكاز والاطليان وغيرهم من أمم الحضارة والولوع بالمشرقيات

وقد اعتاد المشتغلون بالمشرقيات منذ سنة ١٨٧٣ أن يعقدوا مؤتمراتهم يحضره حلة منهم ويكون مقره في احدى العواصم المشهورة وتنتدب الحكومات من يمثلها في تلك المؤتمرات فتمتلى فيها الخطب المفيدة والمحاضرات التي تم عن فضل بحث ودرس في لغات الشرق وعالومه وتاريخه واجتماعه ويتنافس أئمة هذا الشأن في هذا السبيل المحمود وكانت الحكومة العثمانية والحكومة المصرية تنتدب أناساً يمثلونها في المؤتمرات التي عقدت حتى الآن وكان بعضهم من العلماء والادباء وقد عقد المؤتمر الاول سنة ١٨٧٣ في باريز والثاني سنة ١٨٧٦ في لندن والثالث سنة ١٨٧٧ في طرسبرج والرابع سنة ١٨٧٨ في فلورنسة والخامس سنة ١٨٨١ في برلين والسادس سنة ١٨٨٣ في ليدين والسابع سنة ١٨٨٦ في فينا والثامن سنة ١٨٨٩ في استوكهلم والتاسع سنة ١٨٩٢ في لندرا والعاشر سنة ١٨٩٤ في حنيف والحادي عشر سنة ١٨٩٧ في باريز والثاني عشر سنة ١٨٩٩ في رومية والثالث عشر سنة ١٩٠٢ في هامبورغ والرابع عشر سنة ١٩٠٥ في الجزائر والخامس عشر سنة ١٩٠٩ في كوبنهاغ والسادس عشر سنة ١٩١٢ في آئينة ويعقد السابع عشر سنة ١٩١٥ في أكسفورد

وسيكون هذا المؤتمر برئاسة رئيس كلية أكسفورد وعهد برئاسة اللجنة المنظمة الى الاستاذ مكدونلد واللجنة العامة مؤلفة من أساتذة اللغات الشرقية أو من مدارس الدروس الشرقية في كليات ابردين وريستول وكبرديج ودوبلين وأديمبرغ وغلاسكو ولينغربول ولندرا ومنشستر ووسانت اندري وبلاد الغال في بريطانيا العظمى ومن لجان الجمعيات العلمية الانكليزية مثل الجمعية الافريقية

والجمعية التوراتية الأثرية والجمعية البوذية وجمعية آسيا الوسطى والجمعية الصينية وجمعية آثار مصر والجمعية اليابانية وجمعية الابحاث الفلسطينية والجمعية الفارسية والجمعية الاسياوية الملكية وغيرها وستبدأ مداورات المؤتمر يوم ١٣ ايلول ١٩١٥ وتنتهى ١٨ منه وستكون ابجائه فى علم تعريف الانسان والآثار وفى علم الآثار الاشورية وفى آثار آسيا الوسطى والشرق الاقصى ومصر وأفريقية والهند واللغات والآداب الاسلامية وفى اللغات السامية والآداب السامية وفى آسيا الغربية وإيران وتكون اللغة التى يجوز استخدامها الانكليزية أو الافرنسية أو الالمانية أو الايطالية ومن أراد أن يتكلم بلغة غير هذه وجب عليه أن يطلب الترخيص له بذلك من رئيس اللجنة التى هو أحد أعضائها أو يريد التكلم فيها هذا ما نشرناه فى المجلد الثامن من مجلة المقتبس بيد أن الحرب العالمية نشأت ولم يعقد المؤتمر فيما نظن وعقد علماء المشرقيات من الالمان ومن والا هم من النمساويين والهولنديين والسكانديناويين مؤتمرهم بعد الهدنة فى مدينة ليبسيك لم تحضره أعضاء الخلفاء من الانكليز والفرنسيين وغيرهم وكانت السياسة مانعة من اجتماع العلماء فقبحت السياسة .

اللقاب العلمية^(١)

ليس فى الايدى مستند يركن اليه فى تاريخ حدوث الالقاب العلمية فى الملة الاسلامية والظاهر انها حدثت فى النصف الاخير من عهد بنى العباس وشاعت وتأصلت زمن ملوك الطوائف ثم على عهد الدولتين الجركسية والعثمانية فى هذه الديار أيام أصبح العلم عبارة عن رسوم ، والعلماء هم الذين يقر بهم الملوك والحكام ولو كانوا أجهل من قاضى جبل ، بل أصبح أمر الالقاب أقرب الى الهزل منه الى الجد فصارت جملة « اعلم العلماء المحققين » تطلق على كل صعلوك نال منصبه فى القضاء أو الافتاء أو التدريس بالشفاعة أو القرابة أو الأثر لان العلم فى الثلاثة

(١) نشرت فى المجلد السابع من مجلة المقتبس

القرون الاخيرة أصبح يورث كما يورث الماعون والخزنى ، والعقار والمزرعة
نعم غدت الالقاب العلمية التي لم تطلق على ابي حامد الغزالي وأبي عمرو الجاحظ
وأبي الوليد بن رشد وأبي النصر الفارابي الا بشق الانفس تطلق على من
يحتاجون أن يرجعوا الى الكتاب بل على عامة ليس لهم من أدوات العلم الا انهم
اعتموا بالبياض ولبسوا الجبة على الزى المتعارف لهم

وان الفاظ العالم والعلامة والامام والرباني (١) والخبر (٢) التي لم تطلق على
اكثر حملة الشريعة والعلم أيام نضارة الدين أصبحت تطلق على الجهلاء
لمهدنا بعد ان كانت هذه الالفاظ تجعل لافراد في الامة امتاروا ميزة ظاهرة
بعقولهم وعلومهم ، وقد تستعرض القطر بل الاقطار بل المصرو الاعصار ولا تجد
واحدا استحق هذه الالقاب وصرت اذا دخلت في عهدنا الى مدينة صغيرة كطرا بلس
الشام تظن نفسك وجميع من لهم شئ من الذكر قليل أو تولوا منصباً ولو حقيراً
في خدمة الحكومة يعطون لقب « العالم الفاضل » و « العلامة الفاضل » و « الامام
المحدث » بدون تكبير

كان يقال لجبير بن زهير الحضرمي « عالم أهل الشام » وللخليل بن احمد
« علامة البصرة » ولمالك بن أنس « امام دار الهجرة » ولعبد الله بن عباس
« رباني هذه الامة » أما اليوم فان الفاظ عالم وعلامة وامام تطلق على المجرقين
والمتنطعين الذين لم ينفعوا الامة بشئ ، فقد كان يلقب بالعلامة الاول قطب
الدين الشيرازي ، كما يطلق لقب العلامة الثاني على سعد الدين التفتازاني على نحو
ما أطلق على ارسطو لقب المعلم الاول وعلى الفارابي لقب المعلم الثاني

تشدد القوم في اطلاق القاب التفضيم حتى على العلماء صيانة لالقابهم من
الابتذال فرأينا العصام في حاشيته على الجامي لا يوافق الجامي باطلاقه على ابن
الحاجب لفظ « العلامة المشتهر في المشارق والمغرب » فقال ان في وصف ابن

(١) الرباني العالم المعلم الذي يفتدو الناس بصغار العلوم قبل كبارها وقال محمد بن علي بن الحنيفة لما
مات عبد الله بن عباس اليوم مات رباني هذه الامة وروى عن علي انه قال الناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم
على سبيل السجاء وهمج رعاع أو أتباع كل ناعق والرباني العالم والراسخ في العلم والدين أو العالم العامل
أو العالي الدرجة في العلم وقيل الرباني المتأله العارف بالله تعالى (٢) قال ابن سيدة في المحصن : اس
السكيت الخبر والخبر (بكسر الحاء وفتحها) العالم وقال صاحب العين هو العالم من علماء الديانة مسلماً
كان أو ذمياً بعد ان يكون كتابياً والجمع أخبار

الحاجب بالعلامة نظراً لأن هذا اللفظ إنما يناسب فيما بين العلماء من جمع جميع أقسام العلوم كما هو حقه من العلوم العقلية والنقلية وليس ابن الحاجب الامن العلماء في العلوم النقلية . ولذا خص من بين العلماء قطب الملة والدين الشيرازى بالعلامة حيث سبق العلماء كلهم في جميع أقسام العلوم

هكذا كان أدب سلفنا أما اليوم فقد استرسل عماد المظاهر في هذا الشأن فسموا الى تلك الالقاب الشريفة التي لم يجوزوا اطلاقها على مثل ابن الحاجب الامام المحقق في فنه وبلغت الحال ببعضهم ان صاروا يكتبونها بأيديهم عن أنفسهم كأن العلامة والعالمية والامامية لا تمت في الاذهان الا بمثل هذا العمل . وعندنا ان الاحرى بمن تدور معارفه على الفقه وحده أن يسمى فقيها ان كان ممن برزوا حقيقة في أصوله وفروعه ، ومن اقتصر على الاصول وحده أن يسمى أصولياً ومن غلب عليه علم الحديث أن يقال عنه حديثياً والافان كلمة عالم لا يقال الا لمن يعمل بما يعلم كما قال بعضهم وان شئت فقل لمن يظهر فيه أثره ويمتاز باجزاء نفسه أى امتزاج قال ابن حنى : لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المراولة له وطول الملابس صار كأنه غريزة ولم يكن على أول دخوله فيه ولو كان كذلك لكان متعلماً لا عالماً

جرت على هذه القاعدة الامم الراقية قديماً وأمم المدنية الحديثة لعهدنا فلم يطلق على سقراط وأفلاطون وأرسطو افلاسفة القاب العلماء في بلاد اليونان الا بعد ان قضى كل منهم سنين في التعلم وسنين في التعليم وهكذا رأينا الامم الحديثة لم تطلق على نيوتن وهكسلى وكونت وكانت وكيلى اسم عالم الا بعد ان درسوا الدروس النظامية كلها وبرروا على رجال عصرهم بفنون مخصوصة أبرزوا فيها آثار علمهم وأثروا في محيطهم

ومن عجيب الاخلاق ان من ينتسبون لشيء من علوم الدين في عهدنا يعز عليهم الا أن تبقى الفاظ العالم والمحقق والعلامة محصورة باهل طبقتهم كأن من يعلم الهندسة أو الطب أو الحقوق أو الصحافة أو السياسة لا يستحق أن يعد في العالمين ولو أيدت علمه أمثلة كثيرة يريدون أن تبقى هذه الالفاظ لهم وكذلك بعض المشتغلين بهذه العلوم الدنيوية يعز عليهم أن يطبقوا الالقاب العلمية على من لا يعلمون علومهم في حين رأينا صاحب ارشاد القاصد وصاحب كشف الظنون عدا العلوم كلها دينية

ودنيوية وسميهاها كلها علوماً حتى السحر والطلسمات والشعوذة فذكر الاول من أنواعها مئة نوع والثاني مئة وخمسين نوعاً

وغريب كيف أخرج بعضهم في القديم اسحق بن ابراهيم الموصلى من سلك الفقهاء وكان أحرى أن يعد بينهم لانه يلحن الانغام ويخترع ضروب الغناء ويشغل بآلات الطرب مع انه ليس دون علماء عصره بعلومهم ولكن غلب عليه الغناء فعدوه في الندماء كما غلب الشعر على بعضهم فعدوه في الشعراء أمثال أبي نواس وما هو في الحقيقة الا من كبار علماء العربية

• وانا اذا استقرينا التاريخ على اختلاف العصور نجد أن المنصفين من المؤرخين يذكرون العالمين بغير العلوم الدينية كما يذكرون علماء الدين لانهم كلهم أعضاء نافعون في المجتمع فقد كان خالد بن يزيد الاموي من أهل القرن الاول عالم فريش بالكيمياء والطب بصيراً مهذبن العلمين وكان أبو الفصل الحارثي من أهل القرن الخامس عالماً بالهندسة والملك والحساب والتقسيمات والهيئة ونقش الرحام وضرب الخيط والطب ومحمد القاسماني من أهل القرن الخامس أيضاً عالماً بالمساحة والميقات والفلك ورضوان الخراساني من أهله أيضاً عالماً بالرياضيات وأبو المجد ابن أبي الحكم من أهل السادس عالماً بالطب والهندسة والنجوم والموسيقى والعدد والغناء والايقاع والامر وسائر الآلات عمل ارغماً وبالغ في اتقانه وكان ابن الصلاح من أهل السادس عالماً بالحكمة متميزاً بالطب وموفق الدين بن المطران من السادس عالماً بالطب والفلسفة وابن المؤيد العرضي ورفيع الدين الجيلي وعز الدين الاربلي من أهل السابع علماء بالفلسفة والرياضيات

وهكذا لو استقصينا كتب التراجم لعثرنا من أسماء المشغولين بغير العلوم الدينية على سلسلة طويلة وكلهم أطلق عليهم اسم العالم والمحقق والامام والعلامة على رغم أنوف المكابرين وذكرتهم الاعصار بآثارهم أكثر ممن جعلوا مناصب الدين والقابه سبباً الى الدنيا ونيل الحظوة من العامة والزلفى من السلاطين والامراء وقد رأينا بعض المشغولين بعلوم الشريعة لعهدنا يتخلصون من اطلاق لفظ عالم وعلامة على من لم يتزى بزيتهم الخاص بأن يطلقوا عليه اسم الكاتب على ان لفظه كاتب التي يحتقرونها قل في المعدودين من يستحقها قال ضياء الدين بن الاثير

في المثل السائر ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقال فلان النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن اهـ

وهذا التحكم البارد في الخط ممن اخصوا في بعض الفنون التي يجهلها أكثر المتعممين ولا يعدونها علما في نظرهم تخرج كثيراً من الأئمة من عداد العلماء بحسب عرفهم ممن لم تكن الكتابة الا من جملة ما يعلمون أمثال الجاحظ فإنه بحسب عرفهم كاتب فقط لانه مجيد في الانشاء للغاية وكذلك القاضي الفاضل وابن خلدون وابن فضل الله وأبو الفدا وغيرهم من مشاهير العلماء الذين كانوا أئمة في الانشاء هذا لان أولئك الاعلام لم يؤلفوا ولم يريدوا أن يؤلفوا في الفقه والاصول والكلام والحديث على حين ورد في الكتاب العزيز « يعلمه علماء بني اسرائيل » فاطلق تعالى عليهم لفظ علماء وجاء فيه « والذين أوتوا العلم درجات » قال الراغب ان هذا تنبيه منه تعالى على تفاوت منازل العلوم وتفاوت أربابها

ولقد شاهدنا ما يضحك من تحكم بعض أرباب الصحف السيارة في الالقاب العلمية حتى آل الامر ببعض الفضلاء أن يستنكفوا من ذكر أسمائهم بين أناس لا يلحقون غبارهم بحال لان منشيء كل صحيفة يعطى من الالقاب لمن يحبه ما يستحي العاقل من اطلاقه على أفضل أهل العصر ويمنع ذلك عن المستحق يريد بذلك اسقاطه حتى قال بعضهم : من العلامة أن لا تكون للمرء علامة ، فما دامت لفظة علامة تطلق على المغفلين من الطلبة فأجدر بمن يستحقون هذه اللفظة أن يزهدوا فيها وهكذا لفظ « الاستاذ » و « المعلم » و « الفاضل » وهذه اللفظة اليوم تطلق على تسعة أعشار من يقرأون ويكتبون .

وبعد فان سلسلة الارتقاء وسلسلة الانحطاط نمط واحد يتبع بعضها بعضاً في كل أمة ، والتغالى في الالقاب من جملة تعلق الامة بل من يطلق عليهم الخاصة منها بالقشور دون اللباب . وما أجدر أرباب الصحف والمجلات أن يتخلوا عن هذه الألقاب التي لا ميزان لها ولا مقياس وأن يذكروا الاسماء مجردة كما هو اصطلاح الامم الراقية كالانكليز والاميركان والفرنسيس والالمان بل كما كان

اصطلاح أجدادنا العرب صدر الاسلام والجديرون بالوصف تم أوصافهم عنهم من مثل التعليم زمنياً وتخريج طلبية راقين أو الاجادة في التأليف وغير ذلك من سمات الفضل والعلم قال المقدسي أن مراتب السادات مثل جليل وفاضل رسم الرسائل لارسم التصانيف . والجرائد والمجلات كالكتب لا تخرج عن حد التأليف في صورة أخرى ولذا وجب ان تعرى من ألفاظ التمجيد ولا سيما إطلاق الالقاب العلمية على من تذكرهم لان في ذلك تضليلاً للعقول واستهزاء بمقادير أهل الاقدار

التمييز في الالبسة^(١)

ليس أغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختلاف في الافكار كما تراه في الاديان بل تراه في اختلاف الهواء والماء . وقد وفق الغرب الى توحيد البسة أهله في القرون الاخيرة أما الشرق فلم يزل يتخالفه في ذلك على نحو ما كان عليه في القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية

اختلاف المشاركة في البستهم قديم فقد كان للقضاة وللجناد وللعلماء والعامّة ألبسة خاصة بهم بل كان اللباس تابعاً للأقاليم فابن الحجاز يلبس ما لا يلبسه ابن الشام وهكذا تجد لو طفت الاقاليم ودرست المدنيات .

وكان لاهل الذمة في الاسلام لباس خاص بهم وهو من التحكيمات السياسية التي دعا اليها العرف لا الدين وليس في الدين ما يدل على تمييز المسلمين بلباس خاص فقد اشترط الخليفة الثاني في كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمة أن يؤخذوا بلبس الغيار وهو علامة لهم كالزناز ونحوه ولما تبسط الفاتحون في مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما في نهاية الرتبة في الحسبة أن يأخذ الذميين بلبسهم فان كان يهودياً عمل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر وان كان نصرانياً عمل في وسطه زناراً أو علق في حلقه صليباً وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر اسود واذا عبر الذمي الى الحمام ينبغي أن يكون

(١) نشرت في المجلد الرابع من مجلة المقتبس .

في حاقه صليب أو طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليختر عن غيره
وفي كتاب الخراج لابي يوسف أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في
لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات
مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلانسهم
مصرية قال وان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الدمة بهذا الزي أي
أن تكون قلانسهم طوالاً مضرية وروى عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى
عامل له فلا لبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذكر لي أن كثيراً
من قبلك من المصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم
وأخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك
ان ذلك بك لصعب وعجز ومضاعة

وفيا اطلعنا عليه من الكتاب إشارات طهيمه لاختلاف أرياء الذميين في
المسور الاسلاميه وما هذا الاختلاف في الحقيقة ناتج الا من التحكم البارد
سالمًا . قال ابن الاثير في حوادث سنة ٢٣٥ ان المتوكل أمر أهل الدمة بلبس
الطيالسة العسليه وشد الزنائر وركوب السروج بالرك الخشب وعمل كرتين
في مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس ممالئهم بخانمين لون الثوب كل واحد
منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ومن خرج من
لباسهم تلبس إزارا عسلياً ومنهم من لبس المناطق وأمرهم بهدم بعضهم المحدثه
وبأخذ العشر من مزارهم وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب
ونهى أن يستعان بهم في أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم وأن يظهروا في شعائهم
صليباً وأن يستعملوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الارض وكتب في
ذلك الى الآفاق .

وقال الذهبي في حوادث ٣٩٨ وفيها هدم الحاكم كنيسة القمامة بالقدس وكانت
فيها أموال وجواهر ما لا يوصف والزم النصراني بتعليق صلبان كبار على صدورهم
واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلا بالدمشق من
خشب ومثال رأس العجل كالمدقة ورنها رطل ونصف وأن يشدوا الاجراس في
رقابهم عند دخول الحمامات قال والرم الحاكم صاحب المغرب والحجار ومصر

والشام أهل الذمة بالصلبان في أعناقهم واللبس اليهود العمام السود تكاية واهنة
لبنى العباس قال ابن حلكان وفي سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم المصاري واليهود
الا الخيابرة يلبس العمام السود وان يحمل المصاري في أعناقهم الصلبان ما يكون
طوله ذراعاً وورنه خمسة أرتال وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامى الخشب على
ورن صلبان المصاري وأن يكون في أعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان
وفي أعناق اليهود الجلاحل ليتميروا عن المسامس . فلما وكان في الحاكم لوثة وجبة
يأمر اليوم بأمر يبهى عنه في الغد على ما قال المؤرخون .

وذكر الذهبي في حوادث سنة ستمائة ان المصاري واليهود اللبس بمصر
والشام العمام الزرق والصفرة واسم ذلك سنة ٧٣٤ الهـ المصاري واليهود
ببغداد بالغيار ثم نقضت كمناسهم ودياراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير
منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود . وروى لسان الدين بن الخطيب ان اسماعيل
ابن فرج الخزرجي من ملوك الاندلس اشتهر في اقامة الحدود واراقة المسكرات
وحظر تجلي القينات للرجال في الولايم وقصر دارهم على أحناسهم من الناس
وأخذ لليهود الذمة بالنزاهة تميزهم واشارة لشهرهم ولبوا في حقهم من المعاملة
التي أمر بها الشرع في الخطاب والطارق وهو شواس (جمع شاشيه) أصفر .
وذكر صاحب المعجب في سيرة أبي يوسف اعفوب بن يوسف بن عبد المؤمن انه
أمر في آخر أيامه أن يتميز اليهود الدين بالمغرب بلبان يختصون به دوز غيرهم
وذلك ثياب كحلبية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قرب من أقدامهم وبدلاً من
العمام كلونات ملى أسمع صورة كأنها البراديع نماغ الى نحت آذانهم فشاغ هذا
الزى في جميع يهود المغرب ولم يزلوا كذلك بقيه ابامه وصدرأ من أيام ابه أبي
عبد الله الى ان غره أبو عبد الله بعد أن توسلوا اليه بكل وسيلة واستسندوا
بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم وأمرهم أبو عبد الله بلبان ثياب صفرة وعمام
صفرة فهم على هذا الزى الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ واما حمل أما يوسف على
صمعه من أفرادهم بهذا الزى وتمييزه ايام به شكه في اسلامهم وكان يقول لو صح
عندي اسلامهم اتركهم بختلطون بالمسلمين في أسكتهم وسائر أمورهم ولو صح
عندي كفرهم لقتل رجاهم وسببت ذراريتهم وجمعت أموالهم فيئا للمسلمين

ولكنى متردد فى أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرن الاسلام ويصلون فى المساجد ويقرءون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكنه صدرهم وتحويه بيوتهم اه

وقال ابن أبى أصيبعة : حدثنى الشيخ موفق الدين بن البورى الكاتب النصرانى قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكرك أتى الى دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصرانى وهو شاب على رأسه كوفيه وتخفيفة صغيرة وهو لا يس جوخة ملوطة زرقاء زى أطباء الفرنج وقصد الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يخدمه ويتردد اليه لعله ينفعه فقال له : هذا الزى الذى أنت عليه ما يمشى لك به حال فى الطب فى هذه الدولة بين المسلمين وانما المصلحة أن تغير زيك وتلبس عادة الاطباء فى بلادنا ثم أخرج له جبة واسعة عنايية وبقياراً مكحلاً وأمره أن يلبسها . وكان والد المهذب المعروف بالخطير مرتباً على ديوان الاقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم أسد الدين شيركوه فى بدء أمره بمصر انه نصرانى وانه يتصرف فى (عمله) بلا غيار نهاه وأمره بغير النصارى ورفع الذؤابة وشد الزنار وصرفه عن الديوان فبادر هو وأولاده فاسلموا على يده فاقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه فقال فيه ابن الدروى

لم يسلم الشيخ الخطير لرغبة فى دين احمد

بل ظن ان محاله يبتقى له الديوان سرمد

والآن قد صرفوه عنه فدينه فالعود احمد

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغبار وأن يعمموا بغير عذبة قال عمارة الجنى

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غياراً شد أوساطنا فما الذى يوجب كشف القفا

هذا ما كان عليه الاختلاف فى الازياء بين أهل الوطن الواحد وأ كثره كما

ترى ناشيء من ملوك أو فقهاء متعصبين تعصباً ظاهراً مثل المتوكل والحاكم بأمر الله ولم يسمع بأن رجال الجد فى الاسلام مثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين ونور الدين تحكوا هذه التحكات والله أعلم اه

السلطان (١)

رحم الله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ما كان أعقله في الملوك وأبصره
بعواقب الامور فقد كان أول العارفين بأن مزج الدين بالدنيا من أضر ما ينهك
قوى الامم فتفقد الصفقتين ولا تفوز بالحسنين . ولذلك كان لا يعتمد في تدبير
ملكه وقاتل عدوه الا على أهل الرأي من الساسة في زمنه ممن استخلصهم في
تدبير ملكه كالقاضي الفاضل ومن كان على شاكلته

ولطالما أرادته فقهاء عصره على أن يعمل بمشوراتهم في زحزحة الصليبيين
عن البلاد ولو وجدوا منه مصغياً لأقوالهم لالتوى عليه القصد ولما وفق الى
ما لم يوفق اليه سلطان قبله ولا بعده من دفع صائل تلك الجيوش الجرارة التي
انكفأت على الشرق الاذنى واستباحته واستصفته أو كادت . والله أعلم ماذا
كان مصير الحرمين الشريفين وبيت المقدس الآن لو كانت دخلت أصابع السياسة
الخرقاء في طرد أهل الصليب عن مصر والشام

كان صلاح الدين صلاحاً للدين والدنيا يعرف من يعمل بأرائهم من رجاله
ولذلك ترك الجامدين من أدعياء العلم جانباً يفتقد عليهم من مكارمه ما يقطع به
السفهم ويريحهم من عناء الطلب والنصب . وادا رفعوا رؤوسهم وأشاروا اليه
بأنه نبذ مشوراتهم ظهرياً أشار اليهم بلسان الحال بأن السياسة ليست من شأنهم
وأنه يكفهم أن يحسنوا الاضطلاع بشؤونهم الخاصة وما يفرض عليهم المجتمع
العمل به وهم اذا جودوه وأحسنوه يحسنون للامة كل الاحسان

هكذا كان السلطان صلاح الدين في القرون الوسطى يعرف من أين تؤكل
الكفتف في فصل السلطتين الدينية عن الدنيوية . وسلطان المغرب الاقصى
الحالي وهو في هذا العصر وناهيك به يقيم على أبواب أوروبا وتؤثر فيه عوامل
أرباب السلطة الدنية من اضراب ماء العينين ومن لف لقه من مشايخ الطرق

وزطانفة المتفقهة وغوغاء الممخرقين ممن يدعون الكشف والسحر والطلسمات
ما نظن أن غلو مولاي عبد العزيز في الافضال على أولئك الجامدين وتقريبهم
منه والعمل بمشوراتهم ناتج عن تدين حقيقي فالله أعلم بما هنالك . ولكن تلك
الفئة توصلت بدهائها على توالي العصور أن تجعل لها موقعا من نفوس سلاطين
المغرب فأثرت فيهم بما تريد وصرفتهم على أمرها في تدبير ذلك الملك الضخم وفض
شؤونه الداخلية والخارجية

يشهد أولئك الجامدون لسلاطين المغرب بامارة المؤمنين ، ويقر هؤلاء
لأولئك بأنهم ورثة الانبياء والمرسلين ، وهكذا فالنفع متبادل والمصلحة مشتركة
فهم على حد المثل السائر « أضيء لي أقدم لك »

جاء عهد على المملكة العثمانية في التاريخ كادت تمنى بما منيت به مملكة المغرب
الاقصى من دخول رجال الدين في السياسة والعبث بضعف عقولهم في شؤون
الامة وعقد سلمها وحرثها والهيمنة على عمراتها والاشراف على خصوصياتها
وعمومياتها ولكن بعض سلاطينها وزرائها أدركوا طاقبة تأثير رجال التكايا
في عقول أهل السياسة والرأي ومد ذلك العهد وأظنه كان على زمن السلطان
سليمان القانوني دخلت الدولة في طور الحكومات المدنية .

ولو ظلت العناية بساكنى التكايا والاخذ بأرائهم في المملكة العثمانية لما
كنا اليوم نلبس الطربوش ولا السراويل والسترات الافرنجية بل ولا نطبع
الكتب والمصاحف لان الفقهاء في الاستانة حرموا كل ذلك عندما أراد السلاطين
إدخاله في بلادهم !

نعم لو ظل العمل بتلك الآراء الغربية لما كانت الدولة العثمانية بجنديتها وتنظيم
شؤون ادارتها بأرقى من حكومة الافغان الآن وما العهد ببعيد بتحريم أهل
الجمود على أميرها في العهد الاخير اجتماعه بحاكم الهند أيام رحلته مؤخرا اليها
وتناول طعام الافرنج ولبس لباسهم ومعاشرتهم بالمعروف . ولو لم يكن للامير
جيش يستमित في الدفاع عنه اذا طرأ طارئ لكنا سمعنا بان ذلك الدهماء من
الاغبياء تمكن من التغلب على أميرهم ووسدوا الحكم الى من ترضيهم سياسته
وحالته وشايعهم على أفكارهم وهي لو صححت مرة لكذبت مرات وأفسدت على
الناس أمرهم

من لنا بمن يلتقى على مسامع مولاي عبد العزيز هذه النصيحة ليتخذ له لطانة من أهل الرأي الرجيح حتى ولو بجلهم من مملكة أخرى للاستعانة بهم على تدبير مملكته . ليت من يقرأ له هذه الكلمات القليلة ولو ينقلها في قطعة من الورق لان قراءة الجرائد محرمة عند السلطان بفتوى من علمه أنه لما الحال فيما تخوض فيه من الافكار

حرية الامم^(١)

البشر سائرون في طريق النظام والحرية آخذون نحو الكمال ينشؤون في حياتهم القومية ، على غير نشأة الجاهلية ، ويرون السعادة الابدية في احترام الحقوق الشخصية وللمعمومية ، والقيام على أسباب الحياة المادية والمعنوية . ما أتى على الناس دهر مثل هذا ، دخات فيه مصالحهم تحت قوانين مقررة ، وأصول محررة ، وما عهدت للعلم سلطة عمت البحر والبر ، والفاجر والبر ، والابيض والاسود ، بل والنبات والجماد ، مثل هذا القرن الغريب في شأنه ، الغريب في سلطانه ، فكأن روح الارتقاء كالسهم تسرى في الهواء والماء وتنزل احشاء الكبير ، كما تحل في صدر الصغير ، ولكنها نسمات محيية لا مميتة ، وجرائم زفعة لا صارة

العلم نور يصعب بعد الآن أن يعم فريقاً دون آخر ، وينير بلد أو يغفل آخر ، وبتأثيره لن يقوى الظالمون على أتيان ما كانوا يأتونه من هضم حق المستضعفين والمفلولين

هذا النور يتقبله أفراد من عليية كل أمة ممن رجحت أحلامهم وسلمت أبصارهم وبصائرهم فيوليههم ارتقاء يتقلب في أدواره كالجين ، حتى تضعه أمه ثم تربيته وتغذيه الى أن يكون منه رجل تام الادوات أو ناقصها بحسب محيطه وبيئته ما ارتقت أمة بصعاليكها ارتقاءها بأعظمتها ، ما فنيت أمة في واحد الاضعف

أمرها واستبيح حماها ، وما وكلت شأنها لاهل العقول الكبيرة الا قويت .
وما سعادة الامة الا بقدر ما لديها من هذه العقول المثقفة التي تفكر وتمخض ،
وتدبر وتدرّب ، وعلى نسبة غنائهم ومضاهم ، يكون ارتقاء أمتهم .
كل أمة نام خيرة أبنائها عن الطلب بحقوقها يصعبها مرور الزمن . وكل
شعب استسلم وسالم تفقد منه غريزة الشجاعة اللارمة في عراقك هذا العالم فيدل
ويخزي . بل كل أمة لا يتولى أهل الرأي منها أمرها ، تضعف وتصير في مؤخرة
السفينة ، البشرية مقطورة غيرها مستعبدة له .

فالامة التي لا تسعى الى تكثير سواد أرباب الرأي وتأخذ بأيديهم ، ليتم
لهم ما هو أرقى ما تنصرف اليه اطاعهم من حياتهم ، من تحسين حال المحتفين بهم ،
هي أمة مية شريرة ظالمة ، عاملة على دمارها

ولو جئت تستفتي التاريخ في هذا الشأن لقرأت فيه مئات الامثلة مما فيه عبرة
لمعتبر ، وزاجر لمزدجر ، وما لنا والا يغال فيه الى القديم ففي التاريخ الحديث
أمثلة كثيرة . فقد نالت الولايات المتحدة ما نالت من الاستقلال بفضل فئة
من رجالها تعلموا على الامة الانكليزية وهم خيرة أبنائها فبزوها وتخلصوا منها ،
وكذلك كان من جمهوريات الجنوب فانها نزع ربقها من حكم اسبانيا والبرتغال
لما ارتقت عقول أبنائها وتولى زعامتها عقلاؤها

ولو تقصبت تاريخ كل أمة صغيرة كانت أو كبيرة شرقية أو غربية نالت
حظها من نور العلم والسعادة الحقيقية لا تجده نشأ الا بفضل أهل الرأي منها من
تجردوا عن سفاسف الامور ، وتنزهوا عن الاهواء النفسية

وتاريخ انكلترا والمانيا وايطاليا وفرنسا واليابان شاهد عدل أبد الدهر بأن
العقل هو الذي دبر ما دبر ، وان ما نراه ونعجب به من آثار اجتماعهم ونظامهم ،
هو من عمل السنين ونتيجة الانكماش والتوفر وحسن التدبير . ولقد نرى العقلاء
يصرفون الامر بوسع حكمتهم . ويدبرون أمور قومهم تدبير من طب لمن حب
الامم تقتبس بعصها عن بعض ، فان كانوا قادة حركتها عقلاء تأخذ عنهم النافع ،
وان كانوا جهلاء يختلط عليها الامر ، وتتناول الفت والسمين بلا تمييز . فقد كان
من نتائج الثورة الفرنسية سنة ١٨٤٨ أن انعكست صورة منها على المانيا وكانت

العقول قد تخمرت . والنفوس قد استعدت ، فحدث فيها انقلاب عام ، وقام العامة بتدريب الخاصة يطالبون الحكومة بالاصلاح ، فاستسلمت لمطالبهم لانها رأت الحركة عامة . ومن عادة الحكومات أن لا تحرك ساكناً اذا رأت السواد الاعظم عليها متألمين

قال صاحب كتاب المانيا الحديثة ونشورها^(١) : «نحاف الامراء وطأطؤا رؤسهم من عاقبة هذا الانتفاض ، وخف ملك ورتمبرغ وكبار دوقات بادوهيس ومجلس الشيوخ في فرنكفورت فأصدروا أمراً باطلاق حرية الصحافة . وأصاب مجلس الامة في فرنكفورت دوار عظيم ، فعزم على اعادة النظر في صك الوحدة الوطنية وجمع شتات الامة الالمانية ، ودعا الحكومات الالمانية لارسال مندوبين عنها ليتفاوضوا في هذا الشأن .

ونشأت اضطرابات في مونيخ أدت الى تنازل الملك لويز الاول عن الملك وارتقاء ماكسيمليان الثانى الى العرش وتأليف ورارة حرة ، وتعدى الحال الى فيينا فدمشأت فيها ثورة قضت على طريقة مترنيح في الحكم ، ونهضت كل من المجر وايطاليا الى مثل هذا الغرض . ونشبت الفتنة في برلين وأصبح الملك والعاصمة تحت أمر الثائرين ، وادكت معالم الحكم المطلق

وكان في رأس تلك الاعمال جماعة من أهل الطبقة الوسطى المهديبة من الاساتذة والكتاب والمحامين والاطباء والتجار وأرباب المعامل كلهم يطالبون باتحاد كلمة الامارات الالمانية واحلال الحرية محل العبودية ، وتدور أهم مطالبهم على دعوة دار ندوة وطنية واطلاق حرية الصحافة وانشاء مجلس محكمين ، والاستعاضة عن جيوش دائمة بتسليح الامة

وكان بين تلك الصفوف من الحزب الحر فريق عظيم يرى الاعتدال خيراً من التطرف وأن يعتمد الى مخاطبة الملوك والامراء في تحقيق مطالب الاصلاح وفريق يرى الغاء سيطرة الاشراف والملك وانشاء نظام جمهورى ووراء تينك الطبقتين سواد عظيم من السكان ، يطالبون ما عدا الاصلاحات السياسية باصلاحات اجتماعية ، تكون فيها السعادة العامة ، ويراد بها مساواة الجميع والغاء امتيازات كبار المزارعين

في القرى واصلاح القانون الصناعى فى المدن ، وحماية أرباب الصنائع من مناسفة
المعامل ، وحماية رجل المعمل من مديره

كل هذه الحركة الثورية أدت الى اجتماع دار الندوة فى فرنكفورت وقد
طلب الشعب تنظيمها واجتماعها بنفسه وبواسطة أهل الثقة والرأى منه ولم يسع
الحكومة الا أن تدير هذه الحركة ولكنهم طلبوا اجتماع دار الندوة ورخصوا
بالانتخاب ورضوا بأن يجتمع النواب الذين ينتخبون بالانتخاب العام ليجتمعوا
وبتفاوضوا فى مصالح البلاد العامة ويساعدوا الامراء وصار القول الفصل للاحرار
ومن ذلك نشأت الوحدة الالمانية التى بهرت آثارها

هذا ما جرى فى المانيا فى سبيل التحرير من رق العبودية ، وغريب فى أمر
الالمان و لانكايذ فانهم نالوا حريتهم من ملوكهم بالتدريج ولم يريقوا فيها دماء
على العكس فى الفرنسيس فانهم نالوا ما نالوا بعد أن بذلوا مهجاتهم ، فليت كل
أمة قضى عليها بالاسنعباد تمال حريتها على أيدي عقلائها بدون فتنة كما نالتها
المانيا وانكايذ فلا خير فى الفن مهما كانت النتائج ولا خير فى أمة لا يتولى
عقلاؤها شؤونها

صلاح الدين

ومدونو سيرته

لو كان تاريخ العرب يدرس فى مدارسنا على أصوله لوجب أن تدرس سيرة
السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والجزيرة
كما تدرس سيرة الخلفاء الراشدين فقد مضت القرون بعد الخليفة المأمون العباسى
ولم ينشأ للعرب ملك كصلاح الدين بعقله وعدله وحلمه وحسن بلائه . وقد دونت
سيرته فى عهده فكان عند المشاركة والمغاربة انموذج الملك الحازم العاقل وأحق
ما يرجع اليه فى سيرته رحمه الله من الكتب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية لبهاء الدين بن شداد من قضاة الملك الناصر وكتاب الفتح القسى فى

الفتح القدسي لعلماد الدين الكاتب أحد كتاب ديوانه ثم يؤخذ ضمن كان في عصره أو قريباً منه أمثال ابن الاثير صاحب الكامل وأبي الفدا صاحب حمة أو عن صاحب تاريخ الروصتين في أخبار الدواتين لابي شامة وذيله له أما كتاب النوادر فهو على أسلوب المؤرخ كتب بعبارة مرسلة لا تكلف فيها، صيغ فيه اللفظ على قدر المعنى بخلاف الفتح القسي فانه راعي فيه السجع من أوله الى آخره حتى يكاد يعمل قارئه وتشغله الالفاظ والجناسات والترصيع وعويص اللغة عن تدبر المعنى ودخوله الآذان بلا استئذان على انه من سجمه في الاحيان ما يجيىء عفو القربحة فيكون المعجب المطرب مثل فصل « ذكر حال نساء الفرج » فانه أندع فيه كل الابداع وان كان على ما يظهر ركب مركب الغلو في تمثيل حالهن .

ولقد تدبرنا سيرة الملك الناصر صلاح الدين منذ ولد في قلعة تكريت (٥٣٢ هـ) وكان والده أيوب بن شاذي والياً بها الى أن جاء الموصل مع والده وقد ترعرع الى أن انتقل معه الى الشام وأعطى والده بعلمك الى أن اتصل بالملك العادل نور لدين محمود بن زنكي الى أن ذهب صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه الى مصر الى أن ملك مصر وأزال دولة العاضد الفاطمية وخطب للدولة العباسية الى أن فتح الشام واستخلص أكثر بلاد الساحل الشامي والقدس من الافرنج الى أن توفاه الله في دمشق بعد جهاد أربع سنين في الصليبيين — تدبرنا كل هذا فلم نحص له زلة ولا شهدنا له الا ما ينطبق على مكارم الاخلاق والعدل المتناهي والحلم الذي دونه حلم أحف ومعاوية ولولا ما دسه الفقهاء عليه من تزوين قتل الشهاب السهروردي الفيلسوف لخرجت صحيفة حياته كلها بيضاء نقيه قال ابن شداد ان هذا السلطان كان « مبعضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيل عنه انه كان معانداً للشرائع معطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمر بقتله فطلبه اياماً فقتله » هذه رواية ابن شداد وهو من الفقهاء أورد هذه القصة في معرض ان السلطان يعظم شعائر الدين واثبات انه يقول بالبعث والنشور ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار

الا ان ابن أبي أصيبعة قال في حقيقة قتل الشهاب السهروردي انه لما أتى الى حلب وناظر بها الفقهاء ولم يجاره أحد كثر تشنيعهم عليه فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب واستحضر الاكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام فتكلم معهم بكلام كثير وبان له فصل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه وصار مكيناً عنده مختصاً به فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلق فانه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك فبعث صلاح الدين الى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي العاضل وهو يقول فيه ان هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ولا سبيل الى اطلاقه ولا يبقى بوجه من الوجوه ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك وأبقن انه يقتل وليس جهة الى الافراج عنه اختار أن يترك في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى أن يلقي الله تعالى ففعل به ذلك وكان في أوخر سنة ست وثمانين وخمسة بقلعة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة . قال صاحب طبقات الاطباء ان السهروردي صار له شأن عظيم عند الملك الظاهر وبحث مع الفقهاء في المذاهب وعجزهم واستنطال على أهل حلب وصار يكلمهم كلام من هو أعلى قدرأ منهم فتعصبوا عليه وأفتوا في دمه حتى قتل وقيل ان الملك الظاهر سير اليه من خنقه ثم ان الملك الظاهر بعد مدة تقم على الدين أفتوا في دمه وقبض على جماعة منهم واعتقلهم وأهانهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة .

هذه الغلظة الوحيدة هي التي أخصيت لصلاح الدين وهي في الحقيقة انتقام المتفكحة من المتفلسفة أو النقل من العقل - وهذا الانتقام ما برح على أشده في كل زمان ولا سيما منذ القرن السادس الى آخر العاشر فانه قتل في بلاد الاسلام كثير من الاعاظم أو اصطهدوا وأوذوا من قبل أعداء الفلسفة وما عدا ذلك فان صلاح الدين لا يلام على قتل أحد من الصليبيين لانهم الخشواهم في أسراه وعاهدوا نخانوا ومثل من قتلهم من المصريين للقضاء على الدولة العبيدية أو من

قاموا يدعون اليهم بعد أن زالت دولتهم وفي جملتهم عمارة اليميني الشاعر كل ذلك يغتفر له لانه في سبيل تأييد سلطانه والملك عقيم كما قيل .
ومما ذكره ابن شداد في عدله انه كان رؤوفاً رحباً ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتجسرين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سافراً وحضراً على انه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات . وكان يجلس مع الكتاب ساعة اما في الليل أو في النهار وينوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا متنقلاً ولا طالب حاجه وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع قضينه وكشف طلاّمته واعتنى بقصته ولقد رأيتّه واستغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن رهير على تقى الدين ابن أخيه فاتخذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقى الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يجابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قصية جرت له مع انسان تاجر يدعى عمر الخلاطى وذلك انى كنت يوماً في مجالس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل على شيخ مسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطى معه كتاب حكى يسأل فتجّه فسألته من خصمك فقال : خصمى السلطان وهذا اساط العدل وقد سمعت انك لا تحبى قلت : وفي أى قصية هو خصمك فقال : ان سنقر الخلاطى كان مملوكى ولم يزل على ملكى الى أن مات وكان في يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له : يا شيخ وما أقعدك الى هذه الغاية فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى الى أن مات فأخذت الكتاب منه وبعصمحت مسمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وانه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم الملاّنى من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل فى ملكه الى أن شد عن يده فى سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط الى آخره فتمجبت من هذه القصية وقلت للرجل : لا ينبغي سماع هذا بلا وجود

الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده فرضى الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثل بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفته القصية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال : كنت نظرت فى الكتاب فقات نظرت فيه ورأيتة متصل الورد والقبول الى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكى من دمشق وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون فقال : مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل فى القضية ما يقتضيه الشرع

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معى خلوة فقلت له : هذا الخصم يتردد ولا بد أن نسمع دعواه فقال : أقم عنى وكيلاً يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم وأخرفت الكتاب الى حين حضور الرجل ها هنا ففعلت ذلك ثم احضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه وكنت الى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : ان كان لك دعوى فاذا كرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً فاجابه السلطان ان سنقر هذا كان مملوكى ولم يزل على ملكى حتى اعتقته وتوفى وخاف ما خلفه لورثته فقال الرجل : لى بينة تشهد بما ادعيتة ثم سأل فتح كتابه فمتحه فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندى من يشهد ان سنقر هذا فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدي بمصر وانى اشتريته مع ثمانية أنفوس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل فى يدي وملكى الى أن اعتقته ثم استحضر جماعة من أعيان الامراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها التاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فقلت له : يا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلباً لمرامح السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائباً للقصد فقال : هذا باب آخر وتقدم له بخلمة ونفقة بالغة قد شد عنى مقدارها قال ابن شداد فانظر الى ما فى طى هذه القصية من المعانى الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة اه .

مثل هذا الفاتح العظيم مات ولم يحفظ ما يجب عليه به الزكاة فان صدقة النفل استرقت جميع ما ملكه من الاموال فلك ما ملك ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الاملاك

وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد (ديار بكر) وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياها وهو يعطى في وقت الصيق كما يعطى في حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم منهم لعلمهم بانه متى علم به أخرجه قال ابن شداد : وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب لما سمعته قط يقول : اعطينا لفلان . وكان يعطى الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً وما سمعته قط يقول : قد زدت مراراً فكم أريد واكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني وبدي وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما اطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك وما خدمه أحد الا وأغناه عن سؤال غيره وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى : قد تجاريننا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرح عكا فكان عشرة آلاف فرس ولم يكدر ك فرساً الا وقد وعد بأن يعطيها لاحد طلاب عطاياه . وبالجملة فان ما ذكره العماد وابن الشداد عن خلال صلاح الدين ومواظمته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية وعدله وكرمه وشجاعته واهتمامه بأمر الجهاد وصبره واحتسابه وحلمه وعفوه ومحافظته على أسباب المروءة هو العجب العجاب وقررة عين المسلمين والعرب على مر السنين والاحقاب .

رى الناظر في كتاب العماد الكاتب الاصفهاني انه لم يكدر يغفل تفاصيل الوقائع الصلاحية أو يشذ عنه نادرة من النوادر اليوسفية الايوبية على ضيق عطن الشرح والسجع عن قبول هذه المعاني بجملتها ويعاب على الاصفهاني كثرة تبجح به بكتابته فقد ذكر غير ما مرة من كتابه انه كان هو الفرد المقدم في الديوان الصلاحى مع ان ابن شداد ذكر عن نفسه شيئاً من ذلك بالعرض أو رده كآيته في معرض الكلام عن منافع صلاح الدين ولكن صاحبنا العماد جرى على عادة الفرس في المبالغة سماحه الله

فقال في فتح بيروت : « وكنت يوماً في مرض قد أزعجني وأعجزني ومضض أحفاني واعميون العواد أبرزني وانقطعت عن الحضور عند السلطان وصعفت عن تحرير كتاب الامان فطلب السلطان كل كاتب في ديوانه وكل من يمسك قلماً من أفاضل الملك وأعيانه فلم يرضه ما كتبوه ولم يكفه ما رتبوه فجاءني في تلك الحالة

من استعلاه منى ومرضت أذهان الاصحاء ولم يمرض ذهني فتسلم بيروت بخطي وأصيحوا وأنا الآخذ والمعطى وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزبره وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره والفوا الصحة فيه فالقوه ولقوا السقم في غيره فانقوه فلم يكن في ذلك التوقيح تعويق بل كله بتوفيق من الله توثيق فما فتح فتح الا بمفتاحه ولا رتق رتق الا باصلاحه ولا جلى ظلام الا باصباحه ولا وري زند الا باقنذاحه . اهـ »

وقال من فصل : وكان قد عرض له مرض فانقلب الى دمشق بداوى مزاحه فلما عاد الى الحضرة سأله السلطان : « أين كنت ولم أبطأت وحيث أصبت في المجيء فما أخطأت وقد كنا في انتظارك والسؤال عن أخبارك وهذا أوان احسانك فأين احسان أوانك فأجر بنانك بجرأة بيانك واجز في ميدانك وما للدشائر (بفتح القدس) الا واصفها وللفرائد الا راصفها وللنصاحه الا قسها وللحصافة الا قيسها وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها واقتضاب معان ما اقتضاها وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز فقال : لهذا من هو أقوم به وعناني فلما ساءني ناداني واستدناني فصرفت الى امثال أمره عناني وسلم الى الالكتب التي كتبوها بالالفاظ التي رتبوها وقال غيرها ولا تسيرها وغرضه انى اعدل معوجها وابدل مثنجها واقترع المعنى البكر للفتح البكر وأوشح ذكر آياته بأبات الذكر فاستجديتها مما استجدتها واستملحتها مما استملحتها وشممنها وبها سهك وكشفتها وسترها هتك وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك فشرعت في افتضاض الالبكار واقتضاء الافكار واقتراح القريحة واقتراء رحاب الحكم الفصيحة الفسيحة وافتتحت في بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز وأوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز ووشحت ووشعت وشعبت وأشعبت وأطأت وأطبت وصبت وأصبت وأعجزت وأعجبت وأطرت وأطرت وأبعدت وأبدعت وصرعت وطابقت وجانست ووافقت وأنست . . . اهـ »

وقال في الوقعة العادلية : « ولما عرفت بالواقعة والنصرة الجامعة صدرت ثلثين أربعين كتاباً بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الالكتب حاضرة والبشارات شائرة وركبت أنا والقاضي بهاء الدين بن شداد

لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد فما أعجّل ما سلبوا وعروا وفروا وقرّوا
وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها قاتلة وسمعتها
وهي خامدة بالعبرة قاتلة وما زلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى
ارتدى العشاء بالظلام فعدنا الى الخيام وأخذت الكتب التي نعتقها بالبشائر التي
حققتها وجئت واذا السلطان قد استبطاني وعدم اجابتي لما دعاني فما صبر ولا
انتظر ولا ترقبني أن احضر ولا امهل ان اعطى البشارة حقها واجلو بأنوار
المعاني افقها وابلغ بالبلاغة مداها واصبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها واصف
بحدود الاقلام ما صنعتها حدود السيوف وأروج نقودي عند السلطان واغنيه
عن الزيوف فالصرت عنده مشرفي المطابخ والايات ومدوني الجرائد بالاثبات
وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة بعبارات سخيفة وقد
عطلت الحسنة من حليتها وعروها من بزتها وشوهوا جمالها وأحالوا حالها
فذهب بها المبشرون وسار القاصدون فما كان لتلك الوقعة عند من وقعت
عليها وقع ولائم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها تقع وأرادوا بدمشق قراءتها
على المنبر فما استحسنوها ولو وردتهم بزينة عبارتي وراعتي زينوها وفي تلك
الحال التفت السلطان الى وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد وعجل بها الانقاذ
فقلت في سبيل العتب أنتم تريدون ما اكتبه ولا ترغبون فيما ارتبه وأهذبه
فقال كأنك كتبت البشائر وهاتها حتى تهدي الى طرقاتها فقلت ما فات وهيات
هيات وأخرجت له ما بقى من بشارات البلاد التي أنشأها بالالفاظ والمعاني التي
ابتدعتها وابتدأتها فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جدها بالخصب
الجديد وصدحت باسجاعها المنابر وصمت بسماعها المقاهر وظهرت بعباراتها العبر
وبهرت بزبرها الزبر وعمرت عمانيها المغاني وعمت مباهجها مناهج الاقاصى
والأدنى . اهـ »

وقال من هذا البحر والقافية « في ذكر لطف من الله في حقى خفى كان
السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنة قد عمل ترجمة نفرد بها القاضي بن قريش
لمكاتبة الاصحاب ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب فلم يبق المكاتبة ابتداء
وجواباً بخطى وخرج حكم عكا في الكتابة عن شرطى فقلت لأصحابي ما صرف

الله قلمي عن عكاء إلا وفي علمه أن الكفر اليها يعود وأن النجوس تحلها وترحل عنها السعود واستعاذني الله من استعاذتها وردها الى شقاوتها بمد سعادتها ولقد عصم الله قلمي وكلمى وعرف شيم مخايل الطاقة من شيمى وهذا قلم جمعت به أشتات العلوم مدة عمرى وما أجراه الله إلا بأجرى فالحمد لله الذى صانه وعظم شأنه وما ضيع احسانه وهو للفقير والفتيا وسالحو الدين فى الدنيا وما عرف الا لعرف فما صرف إلا عن صرف وما صفارته الا فى نجح وما أسفاره الا عن صبح وما تجارته الا لربح فهو يعين لدولة وأمينها ومعين الملة بل معينها بمداده يسند امدادها ويسداده للثغور سداده ودواته دواء المعضلات ويعقده حل المشكلات ويخطه حط عوادى الخطوب وبقطه قط هوادى القطوب وبريه برىء الامراض وبدره در الاعراض وبدره انتظام عقود العقول وبداريه انقسام الاقبال والقبول وبجريه جرى الجياد للجهاد وسميه سعى الامجاد للأنجاد وبمركته سكون الدهماء وبمركته ركون الرجاء فما كان الله ليصيمه فى صون ما لا يصونه وعون ما لا يعينه نجت على عكاء من وقوف قلمي عنها وكان قد أطمئنى الله فانه صانه ولم يصنها وشكرت الله على هذه اللطيفة والعارفة الطريفة اه .

وقال من فصل فى وفاة السلطان وكيف كانت حاله بعده : « وبقيت تلك الايام لا أفرق بين الدجى والصبحى ولا أحد قلمي من سقم الهم وسكره صبح ولا صحا وحالت حالى وزال إدلالى وزاد بلدالى وطل حقى واتسع خرقى وتمازل جاهى وتنازق أشباهى وأعصمت أدواء الدواهي وبقيت المعارف متكررة والمطالع مكفرة والعيون شاخصة والظلال قالصة والأيدى يابسة والوجوه عابسة وطادت أبكار خواطرى عانسة ونجوم قرأئى وشواردها الآسة خانسة كانسة وبقى باب كل مرتجى مرتجياً ومنهج كل معروف منهجاً وظمن الغنى عنى واختلف فى حسن الأخلاف بى ظنى حتى تولى الملك الافصل بدمشق مقام أبيه وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأنيه وعز تأنيه فعرف افتقاره الى معرفتى وفقرى والى عطل الملك ومحل من غزارة حلب درى ووضارة حلى درى فكتبت له وحاييت من الملك عظه ووشيت الكتب ووشعتها وجلت الرتب ووسعتها وهرزت اليراعة وأغرزت البراعة وهجرت الجماعة ولزمت القناعة . اه »

هذا هو الاعجاب بالنفس ، با اعجاب النفس ، اه ماثلا من أول كتابه الى

آخره فقد قال في مقدمته : « وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوام
در السحاب ودر السحاب وسميته الفتح القدسي تديهاً على جلاله قدره وتنويراً
بدلالة نغره وعرضته على القاضي الأجل الفاضل وهو الذي في سوق فضله تعرض
بضائع الفضائل فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك
فيه بفصاحة قس وبلاغته وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في
البيان عن صياغته اه . »

وأظن أن القاضي الفاضل على جلاله شأنه ما كان يستحق هذا الاعظام من
العماد لو لم يكن نوه له بكتابه على أن للعماد من المزايا التي يفاخر بها ما قد يغفر له
هذا التبجح ولكن كثيرين يفاخرون وليس عندهم شيء من المزايا . نشأ العماد
بأصبهان وقدم بغداد في حدائته وتفقه بالمدرسة النظامية وأقام بها مدة (ابن
خلكان) ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين بجي بن هبيرة ببغداد فولاه
النظر بالبصرة ثم بواسط فلما توفى أقام العماد مدة في عيش منكدر وجفن مسهد ثم
انتقل الى دمشق (٥٦٢ هـ) وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين وعرفه والد
صلاح الدين فأحسن اليه وأكرمه وميزه من الاعيان والامائل وعرفه صلاح
الدين ومدحه بقصيدة ثم أن القاضي كمال الدين الشهرزوري نوه بذكره عند
السلطان نور الدين وعدد عليه فضائله وأهله لكتابة الاشارة قال العماد فبقيت
متحيراً في الدخول فيما ليس من شأنى ولا وظيفتى ولا تقدمت لي به دراية ولقد
كانت مواد هذه الصناعة عتيقة عنده لكنه لم يكن قد مارسها فجن عنها في
الابتداء فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى فيها بالفرائب وكان ينشئ الرسائل
باللغة المعجمية أيضاً وحصل بينه وبين صلاح الدين في تلك المدة مودة أكيدة
وامتزاج تام ولما أخذ صلاح الدين دمشق حضر بين يديه وأنشده قصيدة أطال
نفسه فيها ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان ويرحل لرحيله فاستمر على عظلمته
مديدة وهو ينشئ مجالس السلطان وينشده في كل وقت مدائح ويعرض بصحبته
القديمة ولم يزل على ذلك حتى نظمه في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب
منه فصار من جملة الصدور المعدودين والامائل المشهورين يضاهي الوزراء
ويجري في مضارهم وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته يقطع عن خدمة السلطان

ويتوفر من مصالح الديار المصرية والعماد ملازم للباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم وصنف التصانيف الفائقة من ذلك كتاب خريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيبلا على زينة دمية الدهر تأليف أبي المعالي سعد بن علي الوراق الخطيرى والخطيرى جعل كتابه ذيبلا على دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزى والباخرزى جعل كتابه ذيبلا على يتيمة الدهر للثعالبي والثعالبي جعل كتابه ذيبلا على كتاب البارع لهرود بن علي المنجم

وقد ذكر العماد في خريدته الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة الى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وجمع شعراء العراق والمعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ولم يترك أحداً الا البادر الخامل وأحسن في هذا الكتاب وهو في عشر مجلدات وصنف كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات وهو مجموع تاريخ وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق الى الشام وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين محمود وكيفية تنقله بخدمة السلطان صلاح الدين وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام وهو من الكتب الممتعة وأغما سماه البرق الشامي لانه شبه أوقاته في تلك الايام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها وصنف كتاب الفتح القسى في الفتح القدسى في مجلدين تتضمن كيفية فتح البيت المقدس وصنف كتاب السيل على الزيل جعله ذيبلا على الذيل لابن السمعماني وهو ذبل على كتاب خريدة القصر وصنف كتاب نصره الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية (مطبوع) وله ديوان رسائل وديوان شعر في أربع مجلدات ونفسه في قصائده طويل وله ديوان صغير جميعه دو بيت وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف .

ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته الى أن توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى فاختلفت أحواله وتمطلت أوصاله ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً فإزم بيته واقبل على الاشتغال بالتصانيف وكانت ولادته يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة باصبهان وتوفي يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق ودفن بمقابر الصوفية خارج باب البصر .

أما ابن شداد مؤلف السيرة الصلاحية فقد ولد بالموصل سنة ٥٣٩ وحنفه
بها القرآن الكريم في صغره وتخرج بضياء الدين القرطبي وبابن الشيرجى والطوس
الخطيب وغيرهم قرأ عليهم القراءات والتفسير والحديث والفقهاء والخلاف والادب
واللغة وأعاد بالمدرسة النظامية وحج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار بين
المقدس والخليل ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب فذكا
انه سمع بوصوله فاستدعاه اليه فظن انه يسأله عن كيفية قتل الامير شمس الدين
وكان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين وقتل على جبل عرفات فلما
دخل عليه ذكر انه قابله بالاكرام التام وما راد على السؤال عن الطريق ومن كان فيا
من مشايخ العلم والعمل وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فاخرج له جزءاً
جمع فيه اذكار البخارى وانه قرأه عليه بنفسه فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين
الكتاب الاصبهاني وقال له : السلطان يقول لك اذا عدت من الزيارة وعزمت
على العود فعرّفنا بذلك فلنا اليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه بوصوله
فاستدعاه وجمع له في تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله
سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوى على مقدار ثلاثين كراسة فخرج اليه واجتمع
به ببقعة حصن الاكراد وقدم له الكتاب الذي جمعه وقال انه كان عزم على الانقطاع
في مشهد بظاهر الموصل اذا وصل اليها ثم انه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل
جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس
الشريف ولما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه الى حلب لجمع كلمة الاخوة
أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض وكتب الملك الظاهر غياث الدين بن
صلاح الدين صاحب حلب الى أخيه الملك الافضل نور الدين على بن صلاح الدين
صاحب دمشق يطلبه منه فاجابه الى ذلك فأرسله الملك الظاهر الى مصر لاستخلاف
أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين وعرض عليه الظاهر الحكم
بحلب فلم يوافق على ذلك ثم ولي قضاءها ووقوفها وكانت حلب في ذلك الزمان
قليلة المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير فاعتنى ابن شداد بترتيب أمورها
وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة وكان الملك الظاهر قد قرر

له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة ولم يكن له خرج كثير فانه لم يولد له ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة للشافعية وداراً للحديث في حلب ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدتها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها .

وكان بيد القاضي أبي المحاسن بن شداد حل الامور وعقدتها ولم يكن لاحد معه في الدولة كلام وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشى شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه وتولي أمور الدولة بإشارة القاضي أبي المحاسن لا يخرج عنهما شيء من الامور وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصاً جماعة مدرسته فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه .

قال صاحب وفيات الاعيان بعد ايراد ما تقدم تحصيله وكان القاضي أبو المحاسن المذكور سلك طريق البغاددة في ترتيبهم واوضاعهم حتى انه كان يلبس ملبوسهم والرؤساء يترددون اليه وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه ثم انه تجهز الى الديار المصرية لأحضار ابنة الملك الكامل بن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب وكان قد عقد له عليها فصار في أول سنة تسع وعشرين وستمائة وعاد وقد جاء بها ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر ونزل الاتابك طغرل من القلعة الى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشره ويجالسونه فاشتغل بهم ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهاً يرتضيه فلزم داره الى حين وفاته وهو باق على الحكم واقطاعه جار عليه غاية ما في الباب انه لم يبق له حديث في الدولة وكانوا يراجعونه في الامر فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين واستمر على ذلك حتى توفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بحلب وصنف كتابه ملجأً للحكام عند التباس الاحكام يتعلق بالاقضية في مجلدين وكتاب دلائل الاحكام تكلم فيه على الاحاديث المستنبط منها الاحكام في مجلدين وكتاب

الموجز الباهر في الفقه وكتاب سيرة صلاح الدين وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية .

هذان هما الرجلان اللذان تعلقا بخدمة صلاح الدين وحرص عليهما مع إدلالهما عليه فنفقت بضاعتها في سوقه والدولة سوق يحمل اليها ما يروج فيها . ومع ما كانا فيه من السعة لم تلهما الدنيا عن التأليف والتدريس وإحياء معالم العلم والادب فأثرا بفضلها في حياتهما . وبعد موتها كتب العماد السيرة الصلاحية ممزوجة بالادب ومع هذا لم يفته الغرض من التاريخ حتى انه قال فيما تم على الاسطول من فصل « فانشقت مرائر الفرنج وأزاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية وتقلصت جباه الجنوية وكرثت أدواء الداوية وكثرت أسواء الاسبتارية وزادت آلام الالمانية وعادت أسقام الافرنسية »

مما دل على انه كان يعلم أجناس المحاربين ومما ذكره أيضاً في ذكر ما تجدد لملك الانكثير (انكترا) من المراسلة والرغبة في المواصلة قال : وصلت رسل ملك الانكثير الى العادل بالمصاحفة على المصافاة والمواتاة في الموافاة وموالاتة الاستمرار على الموالاتة والاخذ بالمهادات والترك للمعادات والمظاهرة بالمصاهرة وترددت الرسل أياماً وقصدت التئاماً وكادت تحدث انتظاماً واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الانكثير وأن يعول عليهما من الجانبين في التدبير على أن يحكم العادل في البلاد ويجرى فيها الامر على السداد وتكون المرأة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في أوجها ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاستبار ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون التي في الذرا ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان ولهم منا أمان واحسان واستدطاني العادل والقاضى بهاء الدين بن شداد وجماعة من الامراء من أهل الرأي والسداد وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا تمضون الى السلطان وتخبرونه عن هذا الشأن وتسالونه أن يحكمنى في هذه البلاد فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب وما أخرج الجواب وشهدنا عليه بالرضا وعاد الرسول الى ملك الانكثير بفصل أمر الوصلة وأراحة الجملة وأزاحة العلة واعتقدنا أن هذا أمر قد تم الى أن قال وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤسهم

فقصوه على قسوسهم وعسروا على عروسهم فخبهوها بالعدل والذع ثم رضيت على شرط الموافقة في الدين فأنف العادل الى آخر ما ذكر .

بيد ان الصراحة في كلام ابن شداد أكثر لانه لم يتقيد بالسجع والترصيع وأنواع البديع المربع فقال في ذكر ملك الانكتار : وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة لكنه أكثر مالا منه وأشهر في الحرب والشجاعة وكان من خبره انه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها الا وان تكون له وفي حكمه فنازلها وقاتلها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقاً كثيراً وقاتلهم قتالاً شديداً ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدمه روعة عظيمة ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد وظهر الافرنج مروراً عظيماً حتى انهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم انهم موقنون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد (عكا) حتى قدومه فانه ذو رأى في الحرب مجرب وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة

وقال من فصل : كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمسون من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاوداً في المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر انه رأى أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان فلما أذن في ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه واستفاض ان ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسول يقول لا تظن تأخرى بسبب ما قيل فان زمام قيادى مفوض الى وأنا أحكم ولا يحكم على غير انى في هذه الايام اعترى مزاجى التياث منعى عن الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا وعندى ما يصلح للسلطان وأنا استخرج الاذن في

ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد أذن في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضى الرسول بذلك وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاجة حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيهاً فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج الى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحججة ثم انفصل حديث الرسالة في الآخر على أن قال الرسول ما الذى أردتم منا ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقبل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتمونا فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الى سادس جمادى الاخرى فخرج رسول الانكثار الى السلطان ومعه انسان مصرى قد أسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد أهدها الى السلطان فقبله وأحسن اليه وأعطاه مشرفاً مكرماً الى صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عنده من ذلك أيضاً .

وقال في مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكثار والمركيس .
واصل التعاقد ان الملك (الانكثار) قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وان تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لها فاما الافرنجية فلها من جانب أخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك فى المعنى ان قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا على وضع أختى تحت مسلم بدون مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير اليه رسولا بعود فى ستة أشهر فان أذن فيها ونعمت والا زوجتك ابنة أختى وما احتاج الى اذنه فى ذلك هذا كله وسوق الحرب قائم والقتال عليهم ضربة لازم .

وقال فى عود الرسول من قبل ملك الانكثار : وادى الرسالة وهى ان الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الاماكن الثلاثة طامرة وأى قدر لها فى ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا فى القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح تاماً فيكون لهم كل ما فى أيديهم من الدارون الى انطاكية ولهم ما فى أيديكم وينتظم الحال ويروج وان لم

ينتظم الصلح فالافرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكن مخالفتهم فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض بالالين تارة والخشونة أخرى وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله الولي في أن يقي المسلمين شره فما بلونا أعظم حيلة وأشد اقداماً منه .

سيرة صلاح الدين

أشار الينا أحد الاصدقاء أن نزيد القراء من سيرة أبي المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد أفراد الملة الاسلامية وأكبر أبطال القرون الغابرة من كان يعلم أعداءه كيف تكون الرجولية كما كان قال امراطور الالمان الحالى وان نتوسع في وقائمه ما أمكن لان سيرته الشريفة جديدة بأن يتدارسها الملوك والسوقة ويهتدى بهديها ابن القرن الحاضر والقرون الآتية فهي مثال الحكمة كلما كررت حلت ومهما أطل الناظر بصره فيها زاد بصيرة وماذا عسانا نقول فيمن جمع الفضائل النفسية ورزق من الصبر والثبات وحب الموت حباً في إحياء الامة وخادنه من أسباب التوفيق ما لم يكتب لاحد نخدم الاسلام والمسلمين بعقله وجهاده خدمة الخليفة الثاني ونفعهم بسيرته كما نفع المأمون العباسى وكان في زهده وشدته على قدم على بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز

اجتمعت لصلاح الدين أرقى صفات تازم الملوك والسلطين واسمى أخلاق الزاهدين العالمين والكرماء المحسنين وتربى تربية رشيدة لا يكاد ينشأ عليها ابن أرقى البيوت المالكه لمهدنا في بلاد الغرب مع ما لهم من المدارس الجامعة والمجامع والجمعيات وأسباب تهذيب النفس وتربية الملكات وانارة العقول

فلاحت على وجهه مخايل السعادة وأخذت النجابة منذ نشأته تقدمه من حالة الى حالة كما قالوا فنشأ في كنف أبيه في قلعة تكريت وكان أبوه وعمه بها عمالاً لحاكم تلك الديار وكان أهله من دوين بلدة في آخر عمل اذربيجان من جهة ايران

وبلاد الكرج وهم أكراد روادية وهي قبيلة كبيرة من قبائل الاكراد وانتقلوا من هناك الى تكريت وفيها ولد صلاح الدين قال ابن خلدان اخبرني بعض أهل بيتهم وقد سألته هل تعرف متى خرجوا من تكريت فقال : سمعت جماعة من أهلنا يقولون انهم خرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتشاءوا به وتطيروا منه فقال بعضهم : لعل فيه الخيرة وما تعلمون فكان كما قال

قلنا تشاءوا بولادة صلاح الدين وذلك لانه صادف انه اخرج والده من قلعة تكريت بامر صاحبها بهروز ليلة ولادته . وذكر في الروضتين ان قد اجتمع مرة السلطان صلاح الدين ووالده الامير نجم الدين في دار الوزارة بمصر وقد قعدا على طراحة واحدة والمجلس غاص بارباب الدولتين يوم اراد نور الدين محمود ابن زنكي أن تقطع خطبة المصريين وتقام دعوة بني العباس وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول فبينما الناس كذلك اذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدي السلطان الملك الناصر صلاح الدين ووالده نجم الدين والتفت الى نجم الدين وقال له : يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالامس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت الى الجماعة الذين حوله والقضاة والامراء وقال : لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة وذلك اني ليلة رزقت هذا الولد يعني السلطان الملك الناصر أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي شيركوه رحمه الله وقتله النصراني وكنت قدالفت القلعة وصارت لي كالوطن فثقل على الخروج منها والتحول عنها الى غيرها واغتممت لذلك وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشاءمت به وتطيبت لما جرى على ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا اكاد اذكره ولا اسميه وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام فأذنت له فقال لي : يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأي شيء له من الذنب وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً وهذا الذي جرى عليك قضاء من

الله سبحانه وقدر ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدر فمطفي كلامه عليه وها قد اوقفني على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه .

ولما ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين . ونور الدين هذا تركى الاصل وهو صاحب الفضل الاول فى تأسيس ملك الشام ومصر بحيث قوى على رد غارات الصليبيين ودفعهم عن الارض المقدسة . فصلاح الدين يوسف ليس اذاً من أصل وضيع بل من أصل رفيع جداً تعلم القدر الذى كان يتعلمه أبناء الكبراء ونشأ نشأة دينية راقية وأخذ حسن الخلق والعدل والشجاعة والكرم عن أبيه نجم الدين أيوب ابن شاذى وكان عدلاً مرضياً كثير الصلاة والصلات غزير الصدقات والخيرات يحب العلماء ربي فى الموصل ونشأ شجاعاً باسلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها اكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها ثم أضيفت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيماً فى أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليلة وكان لا يسمع عن أحد من أهل الدين فى مدينة الا انفذ اليه ما يستعين به على صلاح حاله

وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين أيوب فى قلعة تكريت مع أخيه وكان شجاعاً باسلاً مثل أخيه فاتفق ان أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلاً نصرانياً فاتفق فى ذلك اليوم ان النصرانى صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكامة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد الى القلعة وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى فبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى وحضر عنده من خوفه من جرأة أسد الدين وانه ذو عشيرة كبيرة وان أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرطايا وانه ربما كان منها أمر تخشى طاقته ويصعب استدراكه فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره

بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة
وقعد هو وأخوه عند عماد الدين زنكى بالموصل فآكرمها واقطعها الاقطاعات
الحسنة ثم اتصلا بنور الدين محمود بن زنكى الى أن أرسل أسد الدين شيركوه
الى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين . وبنور الدين تخرج صلاح الدين فقد
كان نور الدين يرى له ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخبير وفعل المعروف
والاجتهاد في أمور الجهاد وسافر صلاح الدين الى مصر وهو كاره للسفر فجعله
عمه أسد الدين شيركوه مقدم عسكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وكان صلاح الدين
في السابعة والعشرين من عمره فعرف أسد الدين حال مصر وكشف أحوالها
والدولة الفاطمية فيها مشرفة على الزوال وقد ضعفت جنديتها ودب الفشل والهرم
في البيت العبيدى وصارت خلافتهم العوبة في يد كل ذي قوة

والسبب في دخول أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين الى مصر ان
الوزير شاور هرب من مصر واستغاث في الشام بنور الدين من ضرغام بن عامر
لانه قهره وأخذ مكانه في الوزارة « ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور الى
الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد الى
منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد
بالفرنج عليه وحصروه في بلبيس وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها
وانها مملكة بغير رجال تمشى الامور فيها بمجرد الايهام والمحال « طمع في الاستيلاء
عليها فبلغ شاوراً أن نور الدين قد زين له الاستيلاء على مصر وان أسد الدين
لا بد له من قصدها ثانية فكاتب الافرنج وقرر معهم انهم يجيئون الى البلاد
ويمكنهم منها تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه فبلغ نور الدين وأسد الدين
مكاتبة شاور للفرنج وما تقرر بينهم تخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويعلموا
بطريقها جميع البلاد فتجهز أسد الدين وأتقد نور الدين معه العساكر وصلاح الدين
في خدمه عمه أسد الدين شيركوه وكان بوجههم من الشام في سنة ٥٦٢ »

استولى أسد الدين على أزمة الوزارة وقتل شاورا الوزير قبله بأمر الخليفة
الفاطمي جرياً على عادة أجداده في الوزراء وذلك في ربيع الاول سنة ٥٦٤ كان
صلاح الدين « يباشر الامور مقررأ لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه

وسياسته « ومات أسد الدين بعد شهرين وخمسة أيام من تولية الوزارة للعاضد الفاطمي فتولاها صلاح الدين بعده » وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الاوضاع وبذل الاموال وملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الحمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بقميص الجذ والاجتهاد « و من حين استتب له الامر مازال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك وغيرهما من البلاد وغشى الناس من سحائب الافضال والانعام ما لم يؤرخ من تلك الايام وهذا كله وهو وزير متابع القوم لكنه يقول بمذهب أهل السنة مارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين « وهو يكرم كل وافد ولا يخيب أحداً قصده .

بهذا الكرم والعقل دانت مصر لصلاح الدين وأصبح فيها الحاكم المتحکم واصطناع الفضلاء وتقريب العقلاء والافضال على العلماء والشعراء من آكد الطرق في بلوغ المقصود وتهيئة أسباب الملك

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسان ولما ثبتت قدم صلاح الدين في مصر وأزال المخالفين كما قال ابن الاثير وضعف أمر العاضد ولم يبق من المساكر المصرية أحد كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود بأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى دولة المصريين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لا فسحة له فيه واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة فاستشار أمراءه في كيفية الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك إلا انه لم يمكنه الا امتثال أمر نور الدين فلما كان أول جمعة من المحرم (٥٦٧) خطب للمستضيء بأمر الله تعالى العباسي فلم ينكر أحد ذلك فلما كانت الجمعة الثالثة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بانقطاع الخطبة باسمه

وقالوا إن سلم فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي أن ننقص عليه هذه الايام التي بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما كان فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه يحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكّل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في أيوان بالقصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان فيه من العبيد والأماء فاعتق البعض ورهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه . وكان ابتداء الدولة العبيدية أو الفاطمية بافريقية والمغرب في ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ومقامهم بمصر مائتي سنة وثمانى سنين وملك منهم أربعة عشر ملكاً آخرهم العاضد وأولهم المهدي

أزال صلاح الدين دولة العبيدين على أهون سبب لأنها لم تعد صالحة للبقاء وكفى أن أمراءها أخذوا يرسلون الافرنج لتسلم لهم مناصبهم كما فعل جماعة عمارة اليمنى وأخذوا يرسلون الفرنج في صقلية وساحل الشام ليقلبوا الحكومة الصلاحية ويعيدوا الدولة العبيدية فشرع بهم صلاح الدين وصلبهم وكما فعل غير واحد من ملوك الطوائف في الاندلس فأنشأوا يحتمون بجيرانهم وأعدائهم ويستعينون بهم على قتال ذويهم وأبناء ملتهم فكان ذلك من أهم الامور في طمع الاسبانيين ببلاد الاندلس واسترجاعها بعد أن حكمها العرب قروناً . عن علي ابن عيسى بن الجراح قال : سألت أولاد بني أمية ما سبب زوال دولتكم قال أربع خصال أولها أن وزراءنا كتموا عنا ما يجب اظهاره لنا والثانية أن جباة خراجنا ظلموا الناس فارتحلوا عن أوطانهم فخربت بيوت أموالنا والثالثة انقطعت الارزاق عن الجند فتركوا طاعتنا والرابعة أيس الناس من انصافنا فاستراحوا الى غيرنا فهذا كان سبب زوال دولتنا . قلنا وهو سبب ذهاب أكثر الدول وهذه الخصال كانت ولاشك موجودة في الفاطمية .

قال صاحب الكامل : ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب أهله ما أراد وباع منه كثيراً وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفسية ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين وممر

الدهور فنه القضيبي الزمرد طوله نحو قصبه ونصف والحبل الياقوت وغيرها
ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد
وهكذا عادت الى مصر الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسي بعد أن انقطعت
دهراً طويلاً فأرسل المستضيء بأمر الله خلعة الى نور الدين في الشام وأخرى أقل
من خلعته الى صلاح الدين في مصر

ثم حصلت وحشة بين نور الدين وصلاح الدين وذلك أن الاول طلب الى
الثاني أن يجمع العساكر المصرية ويأتي الى الكرك ليجمع هو العساكر الشامية
ويأتيها ليخلصوها من الافرنج فبعد أن صدع بالامر أرسل اليه كتاباً يعتذر
فيه عن الوصول باختلال الديار المصرية لأمر بلغته عن بعض شيعة العلويين
وانهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها أن يقوم أهلها على
من تخلف بها فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وتغير عليه وكان سبب تقاعد
صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فاذا لم يمثل
أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول الى مصر واخراج
صلاح الدين منها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين
وخاله شهاب الدين الحازمي ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور
الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء فقام تقى
الدين عمر ابن أخى صلاح الدين وقال : اذا جاء قاتلنا ومنعنا عن البلاد ووافقنا
غيره من أهله فشتهم نجم الدين أيوب وانكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأى
وفكر وعقل وقال لتقى الدين : أقعد وسبه وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا
شهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا فقال
لا فقال : والله لو رأيتك أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا الا أن
نترجل له ونقبل الارض بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا
كننا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا وكل من تراه من الامراء والعساكر لو رأى
نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل
الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها وان أراد عزلك سمعنا وأطعنا
والرأى أن تكتب اليه كتاباً وتقول : بلغني انك تريد الحركة لاجل البلاد فأرى

حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتى منديلاً ويأخذني اليك فما ههنا من يمتنع عليك وقال لجماعته كلهم : قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا وكتب أ كثرهم الى نور الدين بالخبر . ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له : أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على شرك وما في نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الامور وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك اليه وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون اليه ويعرفونه قولي وتكتب أنت اليه وترسل اليه في المعنى وتقول أى حاجة الى قصدى يجي نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي فهو اذا سمع عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده والايام تتدرج والله كل وقت في شأن . والله لو أراد نور الدين قصبه من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجم الدين أيوب وتوفي نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد قال ابن الاثير وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

هذا هو التوفيق الذي حالف صلاح الدين دخل مصر كارهاً مع عمه فصار قائد جندها ثم تولى وزارتها فملكها وقلب دولة العبيديين وكل ذلك بأخذه بالحزم في أموره واستشارته العقلاء من أهله ورجاله وكان من طبعه أن لا يبت أمراً بدون مشورة هكذا كان منذ ابتداء شاباً الى أن استولى بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ على الشام الى أن استخلص بيت المقدس من أيدي الافرنج وطردهم من أكثر مدن ساحل الشام يعمل بقول بشار :

إذا بلغ الرأي النصيحة فاستمن برأى لبيب أو نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فان الخوافي رافدات القوادم

وكان نور الدين قد خلف ولده الملك الصالح اسمعيل وكان بدمشق عند وفاة أبيه فسار الى حلب من دمشق فلما علم صلاح الدين ان الملك صالح صبي لا يستقل بالامر ولا ينهض بأعباء الملك واختلت الاحوال بالشام تجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مطهراً انه يتولى مصالح الملك الصالح

فدخلها بالتسليم سلخ سنة سبعين وخمسمائة وتسلم قلعتها ففرح الناس به وانفق مالا جزيلا وسار الى حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها ثم استولى على تلك البلاد الى الفرات وما بعد الفرات وتوفي الملك الصالح بعد مدة قليلة فاخذ حاب ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم عاد صلاح الدين سنة ٥٧٧ واستولى على حلب ودانت له البلاد وفتح بيت المقدس بعد أن ملكه الافرنج نحو مائتي سنة ولم يفشل في واقعة من وقائعه مع الصليبيين على كثرة عددهم وعديدهم اللهم الا في عكا فاستعادوها منه بعد أن فتحها بواسطة ملك الانجليز اذ ذاك ريشاردس قلب الاسد .

ان عدل الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد ادهش الاوربيين في ذلك العهد فكانوا هم يعاهدون فينكثون أما هو هو فما عاهد ونكث قط وكثيراً ما كان بعض خاصته من متمصبة المشايخ الذين لا يعرفون سياسة الملك ولا حسن ادارة الفتوحات يريدونه على أن يعامل الصليبيين بعملمهم في الانتقام من أسراهم عنده كما فعل أولئك وقتلوا مرة مئات من أسرى المسلمين فما كان جوابه الا الاعراض عن مقترحاتهم والعمل بسنة الدين والالطف حتى استهوى القلوب الشاردة وأحبه أعداؤه قبل أوليائه وهذا من أندر النوادر في الملوك وناهيك بعصره الذي كان عصر التمعصب الديني في الغرب والشرق أيضاً فالصليبيون جاؤا هذه الديار مدفوعين بعوامل الدين واستنقاذ بيت المقدس من المسلمين وهؤلاء قاموا باسترجاع البلاد بهذا العامل القوي أيضاً

قال عبد المنعم الجلياني أحد شعراء الملك الناصر صلاح الدين من قصيدة يعلل فيها السبب الذي من أجله أحب الفرنج صلاح الدين :

وفيت لهم حتى أحبوك ساطياً	بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
نحانوا فخابوا فانتدوا فتلاوموا	فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذ أتى	بقلب سليم راحماً للمسلم
فخطوا بارجاء الهياكل صورة	لك اعتقدوها كاعتقاد الاقائم
يديها لها قس ويرقى بوضعها	ويكتبه يشنى به في التمام

ملك مصر والشام والجزيرة والعراق واليمن والملك لما يستتب له على ما يجب

فاستطاع بعقله واخلاصه لامته ووطنه أن يدفع غارات الاوربيين عن أرض الشام. ومصر بعد أن رسخت أقدامهم قرنين كاملين واستجاشوا لهم الانصار وحشروا من جميع أمم أوروبا العدد الكثير وبذلوا في ذلك من المال والرجال ما يقدر بالملايين والربوات ان هذا من عجائب التاريخ . تقف كتائب من العرب والترك والاكراذ في موقف القتال مع الفرنسيوى والالمانى والانكليزى والمجرى والايطالى والاسبانى والنمساوى والسويسرى وغيرهم من أمم الافرنج فيبز الاولون الآخريين على قلة عددهم . ولكن الجيوش قد لا تؤتى من قلة أكثر مما تؤتى من سوء السياسة وعتو القواد والاستهانة بالشورى . وما كان المدافع كالمهاجم فى وقت من الاوقات .

ومع هذا الملك الضخم الذى كان لصلاح الدين كان يعيش عيش المتوسطين وينفق بحيث تكاد تعدّه الى الاسراف فقد كانت قطيعة الصلح بينه وبين الافرنج فى القدس مثلاً أن يؤدوا عن كل رحل عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير سورية وعن كل ذكر صغيراً أو أنثى ديناراً واحداً فن احضر قطيعته نجاً بنفسه والا أخذ أسيراً فأقام صلاح الدين يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والرجال ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه ولم يرحل عن القدس ومعه من المال الذى جبي له شىء وكان يقارب مائتى الف دينار وعشرين ألف دينار . قال فى البرق سممت الملك العادل (أخو صلاح الدين) يوماً فى أثناء حديثه فى ناديه وهو يجرى ذكر افراط السلطان فى أياديه يقول : انى توليت قطيعة القدس فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار فجاءنى خارنه بكرة وقال : نريد اليوم ما نخرجه فى الاتفاق فما عندنا مما كان بالامس شىء فننفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى فى الحال . قالوا . وكان يرضى من الاعمال بما تحمل صفواً عفواً وكاه يخرج فى الجود والجهاد .

وكان يكتفى من اللباس بالكتان والقطن والصوف ومجلسه منزه عن الهزء ومحاوله حافلة باهل الفضل قال العماد وما سممت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة تسخط يؤثر مماع الاحاديث ويكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى وكان لمداوومته الكلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة فى القضاء أعلم منهم بالاحكام الشرعية

وكان من مجالسه لا يعلم أنه يجالس السلطان بل يعتقد أنه يجالس أخ من الاخوان وكان حليماً مقيلاً للعثرات متجاوزاً عن الهفوات تقياً نقياً وفيماً صفيماً يفضى ولا يفض ما رد سائلاً ولا صد نائلاً ولا أخجل قائلاً ولا خيب آملاً .

أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء بحيث كان اذا جري الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء وكان شديداً على الفلاسفة والمعطلة والدهرية وكان مواظباً على صلواته وصيامه عادلاً رحياً ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتجسسين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفيراً وحضراً على انه كان في جميع أوقاته قابلاً لما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينهى اليه من المظالم

كان من عظماء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر وصل في ليلة واحدة من الافرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد إلا قوة نفس وكان يعطى دستوراً (أى يسرح عسكره) في أوائل الشتاء ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة إذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة الى ستمائة ألف ومع هذا تراه صاراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه قائماً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضربها الرياح يمنة ويسرة . وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين اذا كان قريباً منهم واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفيين ويخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة يرتب الاطلاق وأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره

انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القاب ورجاله ووقع الكؤوس والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير فأنحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من

جانبيهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجد والمسلمون لا يتوقعونها وكانت المصلحة في الصلح .

ولقد كان ركب للحرب وهو على غاية المرض كما فعل يوم عكا وقد اعترته دمامل ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربات الدمامل وكان يجب من ذلك فيقول اذا ركبت بزول عي ألمها حتى انزل .

. ومع كل هذه الصفات التي نعددها منها ولا نعددها لكثرةها واجماع المؤرخين من العرب والافرنج عليها كان السلطان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظاً لانساب العرب ووهئهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لانساب خيلهم عالماً بمعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان أصحابه يستفيدون في محاضرة منه ما لا يسمعون من غيره وكان يستحسن الاشعار الجيدة ويردها في مجالسه وكثيراً ما بنشد قولهم

وزارني طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعى الصبح قد هتما
فكدت أوقظ من حولي به فرحاً وكاد يهتك ستر الحب بي شغفاً
ثم انتهت وآمالى تخيل لي نيل المنى فاستجالت غمطى أسفاً

وكان يعجبه قول ابن المنجم في خضاب الشيب

. وما خضب الناس البياض لقبحه وأقبح منه حين يظهر ناصله

ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عليه مبارله

وكان يسأل الواحد منهم عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بالخير وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد الا بالخير وطاهر اللسان فما شوهد مولعاً بشتم قط حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلمه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه وسلمه الى من يكفله ويعنى بتربيته وكان لا يرى شيخاً الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه .

قال ابن شداد : ولقد رأيتته وقد مثل بين يديه أسير اورنجي قد أصابه كرب بحيث انه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع فقال للترجمان : من أى شىء يخاف فاجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت انى ما أرى الا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه . قال ولقد كنت راكباً فى خدمته فى بعض الايام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فقال اليزكى . ان هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة الى خيمتى وسرقوا ابنتى وبت البارحة استغيث الى بكرة النهار فقال لى المملوك : السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فاخرجونى اليك وما أعرف ابنتى الا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فاكان الآن وقع نظرها عليها فخرت الى الارض تعفر وجهها فى التراب والناس يبكون على ما نالها وهى ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول دلالة على حرية وسعة صدر وقد كان يوماً بعض خدمه يلعبون بسرموزة (بانتوفل) فى ناحية فوقعت على رأسه فأدار وجهه كأنه لم يحدث شىء وتظاهر بانه لم ير شيئاً وكان الحافظ ابن عساكر يدخل قصره يقرأ الحديث فكانت جلبة الخدم ترتفع فتكرر ذلك حتى قال الحافظ يوماً : ما هذا ؟ كنا فى عهد نور الدين ندخل هذا المكان والناس كأن على رءوسهم الطير اشارة الى ان صلاح الدين يتساهل مع خدمه ملقيا حبلهم على غاربهم .

لما فتح صلاح الدين القدس وغيرها من السواحل ولم يبق فى أيدي الصليبيين الا عكا وصور وغيرها من البلاد التى لا شأن لها ورأى ان المشيب انذره بقرب الاجل عقد العزم على الحج الى بيت الله الحرام فلما بلغ القاضى الفاضل كتب اليه

مشيراً بتبطليله : ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ولا سلوا عن القدس ولا يوثق بعدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفراً مقدرًا معلومًا مدة الغيبة فيه أن يسيروا ليلة فيصبحوا في القدس على غفلة فيدخلوا اليه بالعياذ بالله ويفرط مد يد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ومن العثرات التي لا تقال الى أن يقول : يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به الى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط من المقطعين على المنقطعين ما لا ينادى وليده وفي وادي برى والزبداني من الفتنة القاعمة والسيف الذي يقطر دمًا ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور تريد التحصين والدخيرة ومن المهات اقامة وحوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها .

ملأت أوقاف صلاح الدين مصر والشام وهي غير منسوبة اليه قال ابن خلكان ولقد فكرت في نفسي من أمور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر اه مات صلاح الدين ولم يخلف مالا عن ٥٧ عاماً وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة ولم يخلف سوى دينار واحد بعد أن دخلت في يديه ثروة العاطميين وجبى اليه خراج البلاد المفتوحة وحاز مغنم الصليبيين مرات

تغيب السلطان صلاح الدين أربع سنين في فتح القدس وغيرها من بلاد الساحل وفلسطين لم يدخل خلالها دمشق مع انه « كان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد » فرأى أولاده الافضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار وأقام في دمشق أياماً يتصيد هو وأخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وأولاده « ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبا وكأنه وحده به راحة مما كان فيه من ملارمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لأولاده ومرايع نزهه » وبيننا هو على ذلك ونفسه تحدثه بزيارة مصر بعد طول الغيبة عنها ناداه مولاه فلباه فابكى المقل وأدمى الحناجر مات رحمه الله والالسن تذكره بالمحمدة حتى قيام الساعة فكان رجلاً يعد

بعشرات الملايين وكم من ألوف لا يساوون واحداً وواحد يساوي ألوفاً . مات
وقد زلزل المسلمون لفقده كما كتب القاضى الفاضل فى ساعة موته الى ولده الملك
الظاهر صاحب حلب من بطاقه : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ان
زلزلة الساعة شىء عظيم كتبت لمولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه
وجبر مصابه وجعل فيه الخلف فى الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالا
شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر وبانغت القلوب الحناجر وقد ودعت اباك
ومخدومى وداعاً لا تلاقى بعده وقد قبلت وجهه عنى وعنك واسلمته الى الله تعالى
مغلوب الحيلة ضعيف القوة راصياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوة الا بالله
العلى العظيم وبالذات من الجبود المجردة والاسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء ولا
ملك يرد القضاء وتدمع العين ويخشم القلب ولا تقول الا ما يرضى الرب وانا
عليك يا يوسف لمحزونون وأما الوصايا مما محتاج اليها والآراء فقد شغلنى المصاب
عنها وأما لأنح الامر فانه ان وقع اتفاق فاعدمتم الاشخصه الكريم وان كان
غير ذلك فالمصائب المستقلة أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام

مصطفى كامل^(١)

فى وفاة فقيد الوطن والصحافة التى اهتم لها أهل القطر عامة وأبانوا فى
احتفالهم بتشيعه ومآتمه عن عواطف شريفة وشعور حى نام ، أعظم درس
يتدارسه المصريون ولا سيما الدابطة الحديدية منهم .

وصف الفقيد العزيز بما وصف به من الاوصاف التى هو حدير بها ، وذرفت
الدموع لهول المصاب به فى ابان شبابه ، وأكبرت الامة أعماله وأقواله ، وقامت
بالواجب من اكرامه واجلاله . كل هذا حق وكل هذا بزعماء النهضة وقادة
الافكار جدير

ولكن اذا صارت تلك الروح التى كانت بالامس تهيج العواطف وتلعب

(١) نشرت فى جريدة المؤيد

بالقلوب ، الى جوار ربها فالواجب علينا أن نبحث في السر الذي اهتدى اليه صاحبها الراحل ، فأثر هذا الاثر المحمود في هذه الحقبة القصيرة من الزمن .

كثيرون مثله كانوا يدخلون المدارس ويتعلمون ويتهدون فتراهم وهم صغار في المدرسة نفوساً تلهب غيرة ، وقلوباً تتأوه على قرب أوقات العمل ، لتأتي بما يجب عايتها نحو أمتها ومجتمعها ونفسها فما هو الا بضع سنين حتى تتبدل أفكارهم وينطبعوا بطابع غير الذي كنت تعهده فيهم

التاريخ كما يقولون يحكم لمصطفى كامل فيما أتاه من الخير لهذه البلاد وان كانت أعماله عند المصنفين أعظم شاهد حتى ، على أن الرجل لم يكن مبرأ من العيوب ، ولكن محاسنه تروبو كثيراً على نقائصها ، وهذا ما ننشده في رجالنا ونتمنى لو يكثر الافراد الذين على شاكلته من أكثر الوجوه في كل فرع من فروع العمل في هذا الجهاد العالمي

مصطفى كامل قال وكتب وحطب وجاهد وناضل ونافس وقاوم وتعب وقد كادته أمته على حسن صنيعه بأن بذلت نحوه عواطفها حياً وميتاً ، فذهب مأسوفاً عليه مذكوراً بالرحمة ، وطوى اساطه بما عليه ، ولكن أمته حية كبيرة كل يوم تلد ولاداتها ، وكل يوم يدفن رجالاتها

أن غاب مصطفى كامل فلا ينبغي أن تعيب عنا سيرته الذكية ، وكيف وصل الى المجد المؤئل والعز الاقمس ، هو لم يؤت من المواهب مالم يؤته أحد من العالمين ، بل امتاز بامتياز واحد وياله من امتياز امتار « بارادة » تعمل ، والارادة هي رأس ماله وهي في أفراد الشرق قليلة ، وبالأأسف إرادة مصطفى كامل هي التي بلغت به ما بلغت وهو فتى قبل الثلاثين فما بالك لو كان بلغ السبعين والثمانين صحة الارادة هي التي تنقص أبناء الشرق ولذلك تراهم وأن تعلموا وتهذبوا يظنون وراء الغربيين في جهاد الحياة ، وأن فاقوهم بعض الاحيان في الذكاء والنشاط ، وكلما كانت الارادة في صاحبها أقوى كان تأثيره أشد وعمله أسد .

يجزني والله أن أرى كل يوم في مصر من الافاضل المهذيين مالم أحلم بوجود أمثالهم من قبل ، ثم تراهم وبعضهم ممن تهيأت لهم أسباب النعمة خاملين خائفين

ضعافاً في الارادة الى حدانهم اذا قاموا ببعض الواجبات يخشون أن تزول عنهم نعمتهم ، ويحل بهم الويل والثبور

لو كان المتعلمون منا يعلمون كل بما فيه من ارادة ما يجب عليهم عمله ، لما أتى علينا ربع قرن إلا وقد نشأ لمصر عشرات من أمثال مصطفى كامل ، منهم في السياسة ، ومنهم في العلم ، ومنهم في الادب ، ومنهم في المال ، ومنهم في إصلاح الاخلاق ، ومنهم في اصلاح البيوت ومنهم في غير ذلك . وليس معنى هذا أن يكون في الامة ألوف مثل مصطفى كامل في السياسة فان أفراداً فيها يكفون . ولكن يجب أن يكون عشرات في كل فرع من فروع المجتمع ، فالعالم الذي يعلم الناس فيخرجهم من الظلمات الى النور ، والاديب الذي يرقق شعورهم ، والكاتب الذي يؤثر فيهم ، والكياوي الذي يعلمهم صنع الاسمدة ومعالجة التربة ، والزارع الذي يتوفر على البذر والغرس ، والمهندس الذي يحفر الاقنية والترع ويتعهد السدود والجسور ، والصانع الذي يحيك النسيج ويصنع الصفيح والمصفح - كل هؤلاء ومئات من غيرهم ممن يتعاطون الحرف الضرورية في العمران ليسوا اذا كانت لهم ارادة كارادة مصطفى كامل في الفرع الذي توفر على خدمة حياته الا نافعين ، يرتفع بهم الرأس كما يرتفع الآن رأس المصري الوطني بذكر مصطفى كامل حب الشهرة من العوامل القوية في قيام المجتمعات ، فمن كان ولعه بالشهرة على أصوله تلحقة عن استحقاق ولا يلحقها ، كانت شهرته نافعة له ولا مته ، ولا يلام في حب الشهرة الا من يغالى فيها ويجعلها ديدنه ودينه ، كما لا يلام في حب الاثرة الا المغالى فيها أيضاً ، والاثرة أو حب الذات موجودة في فطر البشر وان اختلفت درجاتها ، فصحة الارادة هي التي نطلب أن تنتشر بين هذه الامة انتشار العاطفة الوطنية ، فاذا كثرت فينا ففيها ولا شك عن مصطفى كامل أكبر عزاء ، واذا لم تنم في أفرادنا فنقول ما يقوله بعضهم ان مصطفى كامل كان فلتة من فلتات مصر ، ولمصر في كل مدة رجل كبير تمتاز به يرتجل بين الرجال ، وتنصره على أي حال ، ويكون موضوع عجب الاجيال بعد الاجيال

النبوغ المصري^(١)

يا سادتي ويا اخواني

منذ نحو مئة سنة والقطر المصري ينهض نحو الترقى ويحتذى مثال الغرب في نهوضه . وكان من قبل لولا جامعة الازهر الدينية أشبه بكثير من بلاد العرب في قلة العلم والنور . وبالأزهر المعمور لم ينفك المصريون على اختلاف أعصارهم وأدوارهم أن يكون فيهم من اذا سئل سدد في علوم الشريعة وما يلزمها من علوم اللسان .

ولقد خلد التاريخ اسم (محمد على الكبير) جد الاسرة المالكة الحالية بما أسداه الى مصر من الايادي البيضاء فانعشها من سقطتها ، وأيقظها من طويل رقدتها . ولو كتب له تحقيق جميع أمانيه الشريفة لكان العرب اليوم من أرقى الدول الكبرى في العالم . فانه رحمه الله لم يترك باباً من أبواب النهوض المادى والعلمى الا وطرقه على أجل صورة وعمل بجميع الاسباب لحياة مصر .

وكان لعلماء الفرنسيين الذين استصحبهم نابوليون في حملته على مصر والشام يد طولى في وضع أساس هذه النهضة المباركة على النظام الاوربى . واعد علماء فرنسا من بعد العامل الاقوى في معاونة محمد على على اسعاد القطر ثم جاء علماء الانكليز والالمان والاطليان وغيرهم من أمم أوروبا وخدموا مصر بتنظيم سككها واصلاح ربيها ، واحياء زراعتها ، واستخراج آثارها وانماء القوى المفكرة العاملة في بنيتها

نعم كان العلم في مصر حتى الثلث الاخير من القرن الماضى لا يتمدى الا قليلا دائرة الدينيات والادبيات . ولمحمد على الكبير يرجع الفضل الاكبر في بث مبادئ العلوم التى يسمونها خطأ الحديثة ، اذ كان لاجدادنا فيها القسح المعلى ، وهم الذين نقلوها الى أمم الحضارة الحديثة مشفوعة بابحاثهم وزياداتهم (١) خطاب تلى في حفلة التأبين التى أقيمت للمرحوم احمد كمال باشا الاتري المصرى في ردمة المجمع العلمى في دمشق (١٩٢٣ - ١٣٤٣)

واختراعاتهم وبعد عهد محمد علي ضعفت العناية بالعلوم كان انقطع سندها دهرآ طويلا ، وكادت البلاد تدخل في سبات مؤلم وتبنت محيت . كان ضعف العلم بعد عهد شارلمان في فرنسا وبين محمد علي وشارلمان شبه كبير في التناغي بحب المعارف والفضائل . وكذلك حدث في الاستانة بمد دور المآخ فانقطعت الرغبة في العلم بموت السلطان محمد الثاني وكاد يزال كل ما أسسه لآحياء معالمه . والارتقاء والانحطاط ولا سيما في هذا الشرق القريب تبع للفرد أكثر من الجماعة ، فان أسعد الحظ الامة اسلطان عاقل عادل سعدت ونجح والعكس بالعكس .

ولما انتهى في مصر دور الماقلين والمترجمين والجامعين والمقتبسين في بعض ضروب العلم ، جاء دور الباحثين والمؤلفين والمدعين ، واستطاع المصريون باصلاح شؤونهم الاقتصادية أن يتلقوا العلم الصحيح في جامعات الغرب ، فكان لهم على الدوام بضع مئات من الطلبة . وكثر ارتحال الاوربيين الى مصر وطواف المصريين الى أوروبا ، واشتد التمازج بين المصري والغربي فاقتمس المصري بعض ما ينقصه من أساليب النهوض ، وكان لادخال الاصلاح على الازهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي والحقوق والزراعة والهندسة وغيرها من المدارس العالبة والثانوية والابتدائية ولا سيما الكتاتيب في القرى والمزارع ما نراه من آثار نهوضها فندهش له ونهش وكما أكثر سواد المتعلمين هناك جاءت منهم طبقة أمثل من التي سبقتها . وتراجع كل نفسة في العلم والصنائع وأصبحت الكلمة للاخصائيين والمفنيين . وكما استحكمت حاقتات هذا الرقي استغنت مصر عن العريب واكتفت بعقول العاميين من رجالها . سمة الخالق في الشوء والارتقاء

تطورت مصر في نهضتها الاحبرة أطواراً كثيرة فكان الضعف يعرفها تارة والقوة تصاحبها أخرى . وكان يعد نوابغ رجالها باديء بدء بالآحاد وأمساوا يعدون اليوم بالمئات . وكما امترج المصري بعنصر آخر من العناصر الشرقية حسنت ملكاته ، وصحت على التزقي ارادته وبياته . وقد نبغ امهدنا رجال ليسوا مفخراً من مفاخرها فقط ، بل هم مفخر العرب والشرق عامة ، ومنهم والحق يقال أفراد لا يقلون عن أرقى علماء الغرب في ذكائهم ومضائهم وبحشهم ودرسهم ، وذلك في مجموع العلوم البشرية ولا سيما في الهندسة والكيمياء والتصوير

والطبيعية والحقوق والطب والجراحة والسياسة والادارة ومن أعظم نوابغها زميلنا أحد أعضاء المجمع العلمي العربي المرحوم احمد كمال باشا الذي نحتفل الآن بتكريم اسمه واستمطار الرحمت عليه وقد كان أجزل الله ثوابه مثال النبوغ المصري وآخر طراز كامل من أفراد الدهر . رزق صفات العالم العامل ، وصرف نقد عمره في خدمة الآثار ، ولا سيما علم الآثار المصرية حتى أصبح على صعوبة هذا الفن وحدائته الحجة الثبت فيه ، فكان اذا كان ذكر في الغرب والشرق علم الآثار المصرية يتمثل في شخصه ويتجسد في جهاده . عمل هذا بعيداً عن الجمعية في زاوية صغيرة من بلده ، فعمت شهرته الخافقين ، ولم تخف جلائل أعماله على الغريب دع القريب .

أيها السادة . اذا قام مجعنا بتعداد بعض ما أثر نابغة الشرق في الآثار فانه يقضى واجبين واجب للعلم بتكريم أحد حملته وأساطينه وواجب آخر أعم وهو التنويه بذكر النابغين من المصريين وتمجيد النهضة العلمية المصرية التي لها الفضل الاعظم على نهوض العرب المازلين في ارجاء القارتين العظيمتين آسيا وأفريقية لمصر ولرجال مصر ، ولا نكران للجميل ، أثر ظاهر في الامة العربية والاسلام ، فاذا ذكرنا مصر فاننا نذكر آخر دولة انحطت من ممالك العرب وأول دولة نهضت فيه . انا بترداد اسم مصر نذكر أمة حفظت لنا تراث الاجداد . ننوه بشعب كريم احتفظ لمساننا ومشخصاتنا ، ولولا مصر بعد عهد الجراكسة والترك لاضمحت العربية ومقوماتها ، ولتأخر نهوض العرب قروناً ، وكنا أقرب الى الاندماج في غيرنا من العناصر المتغلبة ، ولندت حالنا العلمية أكثر مما ساءت ، وشاهدنا ونشاهد تخريباتها في جسم جامعتنا ومجتمعنا

انتفع الشام وهو القطر الشقيق الاصفر لمصر المحبوبة بالنهضة المصرية اكثر من غامة الاقطار العربية للجوار وأواصر القربى وكثرة التشابه بينهما ، ولان اقدارهما في عهد الدول الاسلامية كانت واحدة وحياتهما الاجتماعية متجانسة . هكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الاموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالاليوية فدولة الاتراك المماليك فدولة الجراكسة فدولة الترك العثمانية وكانت مصر منبعث حضارة في معظم أزمانها كما كانت في العقود الاخيرة من

حياتها ملجأً ومعتصماً للاحرار . ومبارة ممتازة للعلم الاسلامي تأخذ عنها الاقطار والامصار .

نعزى مصر بفقيدها النابغة ونحيبها بهذه المناسبة ونرجو لها حياة طيبة بابنائها النجباء . نحى بها أهم جزء من بلادنا العربية طالما حتى على العرب وحمل النور اليهم مغتبطاً . مصر اليوم باريز العرب وعاصمتهم الأدبية تشبه ايطاليا في عهد النهضة أواخر القرون الوسطى ، وكان سرى منها ضياء المعارف والفنون إلى سائر ممالك أوروبا فقامت بتأثيرها المدنية الغربية الحديثة . ومن مصر سار أمس ويسير اليوم وسيسير غداً شعاع من هذا النور النافع فيعم خيره الاصقاع العربية كافة ، ويومئذ يغتبط العرب ويهنئون لابرازهم بفضل قرأئح بنبيهم آثاراً حسنة في العلم والصناعة ، كما فعلت اليابان في القرن الماضي ، وعندئذ يعيد الشرق إلى الغرب ما كان استبضعه من بضائع العلوم والصناعات ، ويقضى الدين مع الشكر ويرد القرش عشرة ، فنعد شيئاً من مجموعة المدنية الحاضرة كما كنا في العصور السالفة كل شيء ، وكان لنا الأثر المحمود في تكوين المدنية الغابرة والآن أترك الكلام لرصيفي الاستاذ معلوف يتلو على مسامعكم صورة مصغرة بل مجسمة من عمل عضونا الذي فجعنا بفقده يتمثل لكم فيها النبوغ المصري أحسن تمثّل . ونرفع تعازينا وأسفنا من ضفاف بردى إلى بنى قومنا على شطوط النيل المبارك لفقد رجلهم ورجلنا العزيز ونطلب له من المولى تعالى العفو والرضى والرحمة وإنا لله وإنا إليه راجعون .



فهرس كتاب القديم والحديث

صفحة	صفحة
٢٤٢	١
الهجرة	فاتحة - القديم والحديث
٢٥١	٦
الهجرة إلى مصر	الشعبوية
٢٥٧	٢٠
التفاضل بالبلاد	العلم الصحيح
٢٦٠	٢٥
النزلاء المسامون	علاقة العرب بالغرب
٢٦٤	٤٢
غوطة دمشق	ارتقاء العرب وانشطاهم
٢٦٦	٥٤
شبه جزيرة كليبولى	اعداء الاصلاح
٢٦٨	٦٠
جبال طوروس	تعلم اللغات
٢٧٠	٦٥
على قبر أبى الفدا فى حماة	اللغات الافرنجية
٢٧٣	٧٠
نخن والمسكرات	الحافظة والحفاظ
٢٨٠	٨٦
المآدب والاسراف	الانشاء والمنشئون
٢٨٢	١٠٨
التمدن الانثوى	الخطابة عند العرب
٢٨٦	١٣٧
تكريم النزاهة	الخطابة عند الافرنج
٢٨٨	١٤٨
الحاج مصطفى حولاً	أصل المعتزلة
٢٩٠	١٥٧
المستشرقون ومؤتمرهم	أصل الوهابية
٢٩٦	١٧٤
الالقاب العلمية	دولة الادب فى حلب
٣٠١	١٨٦
التميز بالألسنة	بين دمشق والقاهرة
٣٠٥	١٩٩
السلطتان	مدن العرب
٣٠٧	٢٠٨
حرية الامم	سماع الالحان
٣١٠	٢١٩
صلاح الدين ومدونو سيرته	شرف الموسيقى
٣٢٦	٢٢٤
سيرة صلاح الدين	الاستشفاء بالموسيقى
٣٤٠	٢٢٨
مصطفى كامل	الموسيقى الغربية
٣٤٣	٢٣١
النبوغ المصرى	الاستقلال والاتكال